



۲۴۳

المفردات في القاموس

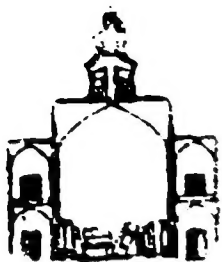
تأليف

المجيد السيد الكندي قاسم شير

الجزء الثاني

موسسة النشر الإسلامي

الثاني بمطبعة المجمع العلمي بدمشق



٢٤٣

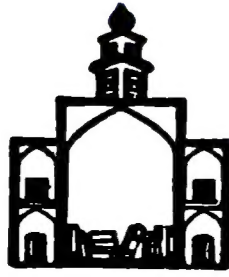
المؤمنون في القرآن

تأليف

المحجة الشهيد السيد قاسم شبر

الجزء الثاني

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة



المؤمنون في القرآن (٢٣)

سماحة الحجة الشهيد السيد قاسم شبّر

تفسير

جزءان

مؤسسة النشر الاسلامي

الثانية

٢٠٠٠ نسخة

١٤١٢ هـ.ق

المؤلف :

الموضوع :

عدد الاجزاء :

تحقيق ونشر :

الطبعة :

المطبوع :

التاريخ :

مؤسسة النشر الاسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً (٥٥) .

الظاهر أن المقصود: من الامم السالفة ومن امة محمد، فبعضهم يؤمن بالله سبحانه ويصدق بالنبى ﷺ وبعضهم يكفر وهو المقصود من الصد .

وحاصل الكلام أن الذي يؤمن بالله ويصدق بالنبى المبعوث من قبله يلزمه أن يتبع النبى في جميع أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه وإطاعة ولاته وخلفائه الذين يعينهم النبى، أما إذا عيّن النبى ﷺ شخصاً وأمر الامة بإطاعته فخالف أحد ذلك المعيّن فهو مخالف للنبى نفسه. وقد تكرر من النبى ﷺ في خطابه لعلي عليه السلام: من أطاعك أطاعني ومن عصاك عصاني^(١) ومن أحبك أحبني ومن أبغضك أبغضني^(٢).

وكذا الأمر إذا أظهر الانسان التصديق بالنبى وخالف الحكم المذكور في كتاب النبى فإنها مخالفة لنفس النبى لأن النبى يدعو الى ما في الكتاب من الأحكام فإذا خالفها إنسان فقد خالف النبى .

(١) تاريخ ابن عساكر : ج ٢ ص ٢٦٧ مع اختلاف يسير .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ص ٢١٤ مع اختلاف يسير .

فتحصل من هذا أن أهل الكتاب الذين خالفوا كتابهم في إثبات وصف النبي ولم يعملوا بما فيه بل كتموه وأخفوه وحرفوه وبدلوه فقد خالفوا نبيهم ولم يصدقوه وخالفوا كتابهم، وإنما يطلق عليهم أهل كتاب لأن الكتاب انزل على النبي المبعوث إليهم، وكذا من خالف من أمة محمد أحكام الكتاب أو السنة المسلمة التي أمر بها النبي فهو غير مصدق بمحمد ﷺ وإن سمي مسلماً، هذا مضمون الآيات التي ذكرت في هذا الفصل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر^(١).

وقد ختم الله الآية بقوله « وكفى بجهنم سعيراً » هذا تهديد ووعد لكل من خالف علمه من أهل الكتاب سواء كان من السابقين كاليهود والنصارى الذين أخفوا صفات النبي ﷺ وكتموا الحديث الذي في التوراة والانجيل، أم كانوا من أمة محمد فخالفوا الكتاب الذي انزل عليه أو اتبعوا ما تشابه منه كما تقدم في قوله: « فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه »^(٢) أو أنهم خالفوا ما عهد به نبيهم فلما ارتحل عنهم نكثوا عهده ولم يفوا له، فقد أعد الله لكل مخالف من أي أمة ومن أي قوم وبأي نوع من المخالفة أعد الله لهم السعير، فاذا كان الله قد أمهلهم في الدنيا وصرف عنهم العذاب فيها فقد أعد لهم العذاب في العقبى.

إيقاظ لكل مسلم

إن الله عز وجل قد ذم جماعة من أهل الكتاب وهم من أصناف الكافرين وأعد لهم اللعنة والعذاب الأليم، حيث إنهم قالوا للذين كفروا إنهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا، فقد رجح طائفة من الكافرين طائفة أخرى منهم على المسلمين.

وقد سمعت الآيات الشديدة الغليظة التي تهددهم بعذاب الآخرة فكيف

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) آل عمران : ٧ .

بمن يدعي الاسلام والتصديق بمحمد ويسمع القرآن ويقرأه وتلى عليه أحاديث النبي وهو مع كل هذا ينحرف عن الدين القويم ويهزأ بمقدساته ويزعم باطلاً أن القرآن كان يصلح لذلك الزمان ولا يصلح لهذا الزمان ، هذا ما كان من قوله .
وأما فعله فإنه يخدم الكافرين بكل جهده وينفذ أوامرهم ويدلهم على عيوب المسلمين ويتجسس لهم ، فما يظن أن الله فاعل به يوم القيامة أو في الدنيا ، فإني أقول له إن عذابه أشد من عذاب أولئك الذين يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً^(١) أسمعت يا من تدعي الاسلام سواء كنت جليلاً أم حقيراً غنياً أم فقيراً ؟

إذا أردت أن تخدم دولة الكافرين أو تعينهم على المسلمين أو تخبرهم عن عيب أو وهن في البلاد الاسلامية فاجعل هذه الآية نصب عينيك وتذكر مضمونها ومعناها وتذكر ما أعد الله لقائلها من العذاب الشديد إن كنت تعرف القرآن وتعترف به وتعترف من أنزله وعلى من أنزله ، ولا أظن أن هذا الكلام ينفعك ويؤثر فيك شيئاً ، فانظر أنت لنفسك وعظما ووبخها وأعرض عليها جهنم واسألها هل تتحمل بعضه ثم اعص الله بقدر تحملك للعذاب .

ثم بعدما ذكر الله الامور التي توجب الكفر للانسان سواء كانت أفعالاً أم أقوالاً ذكر بعدها آيتين :

الاولى ذكر فيها ما أعد للكَافِرِينَ من العذاب وهي قوله :

ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً (٥٦) .

أي: بأي نوع من أنواع الكفر، إما بإنكار الخالق، أو بجعل الشريك له، أو

بعدم التصديق بأنبيائه ورسله ، أو بعدم تطبيق أوامر الرسل ، أو يقولون للذين كفر واهؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً ، أو يكون جاسوساً للكافرين على المؤمنين أو غير ذلك .

ولا يخفى أن الأنبياء المبعوثين من الله إنما هم من آيات الله ، والأوصياء المنصوص عليهم من قبل الأنبياء إنما هم من آيات الله أيضاً ، فمن أنكر واحداً منهم فقد كفر بآيات الله ، وقد أخبر الله أن من كفر بآياته سوف يصلية ناراً ، والصلية هو الالتقاء في النار .

وقد ذكر المفسرون إشكالا في قوله : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » وهو أن الجلد الجديد الذي يكون بدلاً عن النضيج ليس له ذنب فكيف يعذبه الله وهو خلاف العدل .

وقد أجابوا بعدة أجوبة ، وأحسن ما أجيب به هو جواب الامام الصادق عليه السلام ، فقد روي في الاحتجاج عن حفص بن غياث قال : شهدت المسجد الحرام وابن أبي العوجاء يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » ما ذنب الغير ؟ قال : ويحك هي هي وهي غيرها ، قال : فمثل لي ذلك شيئاً من أمر الدنيا ، قال : نعم أرأيت لو أن رجلاً أخذ لبنة فكسرها ثم ردها في ملبنها فهي هي وهي غيرها^(١) .

قال في مجمع البيان : وروي الكلبي عن الحسن قال : بلغنا أن جلودهم تنضج كل يوم سبعين ألف مرة ، والغاية من هذا التبديل هو ما ذكره الله من قوله « ليذوقوا العذاب » فإن الجلد اذا استمر عليه الاحتراق كان العذاب عليه أخف أما اذا لبس جلوداً جديداً ومسته النار أحس بألم أشد مما كان على الناضج^(٢) .

وأما الآية الثانية فقد ذكر فيها ما أعد للمؤمنين المطيعين وهي قوله تعالى :

(١) الاحتجاج : ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ٦٢ .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً (٥٧).

أما الإيمان فقد ذكر تفسيره مكرراً، ولكن نذكره للذين يؤمنون بالسنتهم ويوالون الكفار ويفضلون الكافر على المؤمن والجاهل على العالم، والعاصي والمخطيء على المعصوم، فلعلهم يريدون الإيمان الحقيقي.

فنقول لهم: الإيمان هو إقرار باللسان، وتصديق بالقلب والجنان، وعمل بالأركان، وأن يكون القلب واللسان متفقان، والظاهر والباطن سواء، وأن لا ينقص الباطن عن الظاهر شيئاً وإلا فهو النفاق، بل ينبغي أن يزيد عليه ليكون الباطن أصلح من الظاهر.

وأما العمل الصالح الذي هو شرط لدخول الجنة فهو أن يكون عمله مطابقاً لأوامر الله والرسول بأن يكون مأخوذاً من الطريق الصحيح الذي يوصله إلى النبي. أما إذا كان يعمل برأيه أو بالقياس أو بالأخذ من رجال ضعفاء غير مأمونين على الدين فلا يحصل القطع للإنسان بأن ما يعمل هو من العمل الصالح فيكون من الأخسرين أعمالاً كما في قوله تعالى: «قل هل تنبئكم بالآخسرين أعمالاً» * الذين ظلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»^(١).

ثم إنه ينبغي للمعاقل أن يتأمل في هذه الآيات وفي ترتيب نزولها حتى يعرف نفسه هل أنه مطيع لله في امتثال ما فيها من الأوامر فيكون من المؤمنين المنتظرين لوعده بالجنان، فإن الله بعد ما يبتن أن أمر النبوة والكتاب والفضل والحكمة والملك العظيم بيده لا بيد غيره ولا باقتراح أحد سواء ولا بإرادة أحد من عباده ولا

يغير إرادته حسد حاسد ولا مكر أحد من شياطين الانس والجن .

ثم ذكر بعد ذلك أنه أعطى آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتاهم ملكاً عظيماً ، وذكر بعد هذا العطاء وهذا التفضيل لآل إبراهيم أن الناس صاروا على قسمين :

منهم : مؤمن مسلم لأمر الله وراضٍ بقضائه ، واعترف بفضل من فضله الله واقتدى به ورجع اليه في طلب أحكام الدين وام بتكبر عليه ولم يفضل عليه غيره ممن لادين له ولا علم ولا فضل .

ومن الناس القسم الثاني : وهو الصاد عنه ، أي : الذي صد عن أهل الفضل الذين أودع الله عندهم الكتاب والحكمة والنبوة والامامة والعلم والدين ، وهذا القسم من الناس - أي الصاد عن فضله الله - قد نوعده الله بجهنم .

ثم ذكر بعد ذلك ما يجازي كلا الفريقين ، وأن الكافر الصاد عن أمر الله وعن رسله وكتبه إنما يكون مصيره النار وهم الذين تبدل جلودهم اذا نضجت ، وأما من آمن وصدق فيكون مصيره الى الجنة .

ثم بعد ذلك وجهه الى الناس حكماً يتميز به المطيع من العاصي والمؤمن من الكافر فقال تعالى :

ان الله ياهر كم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعماً يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيراً (٥٨) .

إن هذا الأمر وإن كان عاماً يشمل جميع الامانات التي تكون لله أو للعباد فأمانات الله وأوامره ونواهيه تعم الواجبات والمحرمات ، وأما الامانات التي تكون للعباد فهي ما ياتمن بعضهم بعضاً من مال أو سر ، ولكن أكثر المفسرين

يجعلون الأمر مختصاً بـ ولاية الأمر ، وكذا الأخبار الواردة عن أئمة أهل بيت النبوة ﷺ ، ومعنى ذلك هو أن الله يخاطب ولاية الأمر .

وأرجو من أخي القاري أن يتأمل في المقام حتى يصل الى الحقيقة ولا يتشبث بالقشور الظاهرة فنقول :

إن الله يأمر ولاية الأمر - وهم الذين تكون لهم السلطة والولاية على الناس - ليعلموهم الأحكام الالهية، وهل يخطر ببالك أن الله يخاطب فرعون أو قارون أو من هذا حذوهم وسار في طريقهم ممن استولى على الناس بالقوة والغلبة وهم لا يعرفون من أحكام الله شيئاً! وإنما أحكامهم ونظامهم كلها مخالفة لأحكام الله وأنا أقطع أنك لا تقول بذلك وإنما يخاطب الله ولاية الأمر الذين أودع عندهم أحكامه التي يريد من العباد العمل على طبقها ، فهو يأمر هؤلاء الأنبياء والأئمة وهم أوصياء الأنبياء بأن يؤدوا هذه الأحكام التي أودعها عندهم، فهي أمانة يلزمهم أن يحافظوا عليها حتى يؤدوها الى العباد، وكلكم يعرف حكم الأمانة بأنه يلزم المحافظة عليها من التأف ومن التغير ومن عروض كل عيب عليها .

وحيث إن الأمور ليست من الأعيان التي لها وجود خارجي وإنما هي معانٍ محفوظة في القلوب والصدور ، وليست هي جزئيات متميزة كل واحدة منفردة بشخصها وإنما هي أمور كلية ويكون المودع عنده عارفاً في تطبيقها على جزئياتها فلا يمكن أن يكون هذا الشخص إلا ممن اختاره الله للمودعة والأمانة بحيث يعطيه الله ملكة يتمكن بها على حفظ ما استودع الله وعلى إرجاع الجزئيات الى أصولها فلا يمكن لأحد أن يكون مؤتمناً مستودعاً لله من ذات نفسه ، ولا يمكن للناس اختياره وإن اتفقوا كلهم على ذلك .

وقد تقدم في آخر الجزء الأول أن النبوة والامامة والحكمة إنما هي بيد الله وهو بفضله يعطيها من يشاء وقد شاء أن يعطيها لآل ابراهيم ولو كره الكافرون ، فتكون الأحكام الالهية الحقيقية عند هؤلاء الذين عيّنهم الله وليس عند غيرهم

من هذه الأحكام إلا ما تعلموه منهم ، فالأمر من الله متوجه الى جماعة معينة بأن يؤدوا ما أودعهم الله من أحكام الحلال والحرام الى الناس من دون تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقص حتى بمقدار حرف واحد أو حركة ، وقد جعل الله لكل واقعة حكماً ، وهؤلاء الولاة لا يفوتهم شيء من هذه الأحكام ولا يشبهه عليهم شيء بشيء بل يجمعون كل صغير الى أصلها وهم معصومون من الخطأ والسهو والنسيان ومن المعاصي كلها ، وقد مر ذكر من يكون مؤتمناً على الأحكام في مناسبات عديدة بأسماء وصفات مختلفة وهم المعبر عنهم بقوله : « والراسخون في العلم » .

وإني كلما أكتب آية فيها صفات هؤلاء القوم أطلب من القاري أن يفحص عن هؤلاء الرجال ليعرفهم ، فإن الله إنما ذكرهم لنفحص عنهم ونقتدي بهم ونتعلم منهم كما سيأتي في الآية التي بعد هذه الآية .

وكما أمرهم الله بأداء الأمانات الى أهلها كذلك أمرهم اذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل حيث إنهم يعرفون شروط الحكم فلا يخفى عليهم شيء من كيفية الحكم والقضاء ، ولا تظن أن الحكم بين الناس من الأمور السهلة يقدر عليه كل أحد ، فإنه من أغمض الأمور وهو يحتاج الى معرفة بالأحكام كلها بحيث لا يعسر عليه حكم واحد .

هذا بالنسبة الى ولي الأمر العام على جميع الناس وهو الذي أطلعه الله على جميع الأحكام بواسطة النبي ﷺ وبما ألهمه من الفهم والذكاء ، وقد أمرهم أن يعلموا الناس من أحكام الحلال والحرام كما هي عند الله فقال لهم : « يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » .

فليعلم طالب الرشد ومريد الخير ومبتغي التقرب الى الله أن أحكام الحلال والحرام الحقيقية لا يمكن معرفتها ولا يقتدر على تحصيلها إلا من هؤلاء القوم الذين خاطبهم الله وأمرهم بتأدية الأمانة ، حيث إنه خصهم بها وخصها بهم ولم يشرك معهم أحداً من سائر الناس ، ولا يتمكن أحد أن يكون مثلهم مطلعاً على جميع

الأحكام مستحضراً لها في آن واحد ، فإنها ملكة لا يمكن الحصول عليها إلا بإشاعة الله وإرادته ، وقد تحققت هذه الإرادة وخصها الله بأفراد معينة من يوم خلق الدنيا وخلق البشر أو قبل ذلك فلا تبديل في ذلك .

وقد وردت روايات عديدة في أن الأمر والخطاب في هذه الآية إنما هو لأولياء الأمر خاصة .

ففي الدر المنثور : أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قال : انزلت هذه الآية في ولاية الأمر وفيمن ولي من أمور الناس شيئاً^(١) .

وفيه أيضاً قال : وأخرج سعيد بن منصور والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا^(٢) انتهى ما في الدر المنثور .

وقال في مجمع البيان بعد ذكر الآية : قيل في المعنى بهذه الآية أقوال : (أحدها) إنها في كل من أوثمن أمانة من الأمانات ، وأمانات الله وأمره ونواهيته ، وأمانات عباده فيما يأتين بعضهم بعضاً من المال وغيره ، عن ابن عباس وأبي بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام . (وثانيها) إن المراد به ولاية الأمر ، أمرهم الله أن يقوموا برعاية الرعية وحملهم على موجب الدين والشريعة ، عن زيد بن أسلم ومكحول وشهر بن حوشب وهو اختيار الجبائي ، ورواه أصحابنا عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام قالوا : أمر الله تعالى كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده^(٣) .

(١) و(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ١٧٥ .

(٣) مجمع البيان : ج ٢ ص ٦٣ .

هذا اذا جعلنا الأمر مختصاً بولاية الأمر .

وأما اذا جعلنا عاماً لكل من اؤتمن على شيء من الأشياء فيعمّ الولاية والرعية ، فالرعاة مكلفون بحفظ الأحكام وأدائها الى الأنعام ، والرعايا مكلفون بحفظ أمانات الله عندهم وهي الواجبات كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، عليهم أن يحافظوا عليها ويؤدوها كما أمرهم ولاية الأمر لا كما أمرهم مدعى الولاية بلا حجة ولا برهان وبلا معرفة لآيات القرآن ، وإنما المدعى لهذا المنصب الالهي عليه أن يسند كل حكم من أحكام الدين الى آية من القرآن أو الى السنة النبوية الثابتة عن النبي ﷺ ، وقد ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال : اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ وإلا فالذي جاءكم به أولى به ^(١) .

وقال عليه السلام أيضاً : من خالف كتاب الله وسنة محمد ﷺ فقد كفر ^(٢) .

وكذا بالنسبة الى سائر الواجبات ، فيلزم على المسلم أن يؤدي واجباته على الوجه الصحيح ومن الطريق الذي يوصله الى النبي ﷺ ولا يعتمد على من يشك فيه ولا يعمل على القياس فإنه ليس بحجة .

وعلى المسلم أن يترك جميع المحرمات التي نهى الله عنها في القرآن الكريم ونهى النبي ﷺ عنها ، فإذا فعل ذلك فقد أدى الأمانة - أي أمانة الله - . وأما أمانة العباد فهي التي يساتمنه عليها الناس فيلزم عليه المحافظة عليها حتى يردّها الى صاحبها . هذا بالنسبة الى الجملة الاولى من الآية .

وأما قوله تعالى : «واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فإن الأمر فيها موجه الى من يجوز له الحكم وهم الأنبياء وأوصياء الأنبياء ومن يجعلونه وكيلاً عنهم ، وأما غير هؤلاء فليس له أن يتولى الحكم على الناس ، وأن الله قد

(١) الكافي : ج ١ ص ٦٩ ح ٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ص ٧٠ ح ٦ .

أمر هؤلاء أن يكون حكمهم بالعدل والحق .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لعلي : سو بين الخصمين في لحظك ولفظك^(١) .
وروي أن صبيين جاءا إلى الحسن بن علي في خط كتبه وحكماء في ذلك
ليحكم أي الخطئين أجود ، فبصر به علي عليه السلام فقال : يا بني انظر كيف تحكم
فإن هذا حكم ، والله سائلك عنه يوم القيامة^(٢) .

وعن سعيد بن أبي الخصيب قال : دخلت أنا وابن أبي ليلى المدينة فبينما
نحن في مسجد الرسول ﷺ إذ دخل جعفر بن محمد عليه السلام فقمنا إليه فسألني عن
نفسى وأهلي ثم قال : من هذا معك ؟ قلت : ابن أبي ليلى قاضي المسلمين ، فقال :
نعم ، ثم قال له : تأخذ مال هذا فتعطيه هذا وتفرق بين المرء وزوجه ولا تخاف في
هذا أحداً؟ قال : نعم ، قال : فبأي شيء تقضي ؟ قال : بما بلغني عن رسول الله وعن
أبي بكر وعمر ، قال : فبلغك أن رسول الله قال : أقضاكم علي بعدي؟ قال : نعم . قال :
فكيف تقضي بغير قضاء علي وقد بلغك هذا؟ قال : فاصفر وجه ابن أبي ليلى ثم قال
لي : التمس مثلاً لنفسك ، فوالله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً^(٣) .

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال : القضاة أربعة ، ثلاثة في النار وواحد في
الجنة : رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار ، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم
فهو في النار ، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار ، ورجل قضى بالحق
وهو يعلم فهو في الجنة^(٤) .

فقد تبين أن مقام القضاء عظيم خطره ، لا يقدم عليه أحد إلا بأمر من الله
ومن رسوله ، وبتعليم من الرسول أو من ولاة الأمر الذين أودع الله عندهم الأحكام
فهم يأذنون لمن يعرفون أنه يقضي بالحق ولا يرتكب الجور في حكمه .

(١) كنز العمال : ج ٦ ص ١٠٢ ح ١٥٠٣٤ نقلا بالمعنى .

(٢) لم نثر عليه .

(٣) الاحتجاج ج ٢ ص ١٠٢ .

(٤) وسائل الشيعة : ج ١٨ ص ١١ ب ٤ ح ٦ .

أما من حكم بالجور ولو في حكم واحد فليس بأهل للقضاء، فإن من حكم بالجور مرة يحكم به مرات .

فلا يصلح للقضاء إلا من كان من نوع الرجل الرابع، فيكون الأمر من الله تعالى في الآية الشريفة بأداء الأمانة والحكم بالعدل لهؤلاء الرجال فقط، فاعرفهم واعرف ما يأمروك به و اعمل به ولا تخالفهم ، فإن العمل بما يأمرون هو العمل الصالح الموجب لك دخول الجنة الذي نبهك الله عليه في الآية التي قبلها ودعاك إليه .

فإذا عرفنا ولاية الأمر وشخصناهم بأسمائهم وصفاتهم يتضح لنا الأمر ويتجلى المعنى في الآية التي بعد هذه الآية وهي قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) .

أما إطاعة الله فهي امتثال أوامره ونواهيه وعدم المخالفة في شيء منها ، ومن لم يطع الله فيما يأمره لم يشمل النداء في افتتاح الآية .

وأما إطاعة الرسول فإن الله قد أمر بها أمراً مطلقاً غير مقيد بزمان أو مكان أو حال ، ولا فرق فيما يجب إطاعتنا له بين ما هو موجود في القرآن من أمر الرسول أو غير موجود، فإنه لا يأمر إلا عن أمر الله، وذلك لأن الله عرفنا عصمته وأنه لا ينطق عن الهوى فتجب إطاعته في كل ما يأمر وينهى .

وأما إطاعة أولي الأمر فإن الله أمرنا بها أمراً مطلقاً غير مقيد بشيء من الأشياء، فأول ما يدل هذا الأمر هو عصمتهم وأن كل ما يأمر به هو من عند الله ، فإنه لو جاز عليهم الخطأ ما كان الله ليأمر بإطاعتهم المطلقة .

و من هذا يتضح أن اولي الأمر لا يشمل من يجوز عليه الخطأ ، فيخرج بهذا كل ظالم وجائر من الملوك الذين استولوا على الأمر بالقوة والغلبة ، وإنما يختص الأمر بمن ولاهم الله وسلم إليهم الأمر والنهي وعلمهم الأحكام وأودعها عندهم .

وهذه الآية مرتبطة بالتي قبلها ، فإن الله أمرهم في الآية السابقة ببيان الأحكام للامة ، وأمر الامة في هذه الآية بإطاعتهم المطلقة حتى يستقيم الأمر للجميع ، وأن الذي حدث من المخالفة لم يكن من الولاة لأن الله هو اختارهم وعصمهم من المخالفة ، ولكن بعض الامة قد خالف الأمر فحصل هذا الانشقاق ثم توسع حتى حصلت هذه الفرق التي أخبر عنها النبي ﷺ و هي ٧٣ فرقة ، واحدة باقية والباقي في النار .

ثم إن الله عطف إطاعة اولي الأمر على إطاعة الرسول و لم يفعل بينهما بفعل الأمر كما فعل في عطف إطاعة الرسول على إطاعة الله إشعاراً وإعلاماً بأن إطاعة الرسول وإطاعة أوصياؤه سواء في الوجوب ومخالفتهما سواء في الحرمة ، وإنما فصل في عطف إطاعة الرسول على إطاعة الله بالفعل لبيان الفرق والمباينة بين الخالق والمخلوق ، ولما لم يفصل بين الرسول وبين اولي الأمر وأمر بإطاعتهم بلا قيد أو شرط علمنا عصمتهم من الخطأ والسهو وجميع المعاصي كعصمة الرسول وأن هذا الأمر المطلق إنما هو بسبب عصمتهم ، يعني أن العصمة هي السبب الوحيد في إيكال الأمر إليهم ، ولا يمكن أن يوكل الأمر إلا الى معصوم ، وقد بقي على المؤمنين الذين ناداهم الله أن يفحصوا عن هؤلاء الرجال الذين ولاهم الله الأمر وأودعهم العلوم فيعرفوهم بأعيانهم حتى يطيعوا وأوامرهم .

وأما بعض فرق الاسلام فقد ادعوا أنهم عرفوهم حق المعرفة وتمسكوا بولائهم وأطاعوا أوامرهم في امور الدين ، وأما غيرهم من الفرق فلم يوافقوهم على ذلك وخالفوهم وعادوهم في بدء الأمر ، حيث إن الفرق المدعية للمعرفة قالوا

إنّ اولى الأمر هم في آل بيت النبي وهم علي وبنوه ، وبقية الفرق خالفوهم ونازعوهم .

فنقول: إنّ الله تعالى قال: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر» فأوجب علينا طاعة الرسول وأولى الأمر بعد إطاعة الله .

ثم قال بعد ذلك : « فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول » ولم يجعل اولى الأمر مع الرسول في ردّ المتنازع فيه إليهم وذلك لعلمه جلّ وعلا أنّ أول شئ يقع النزاع فيه هو تشخيص اولى الأمر ، فلا يمكن أن يكون الحاكم في النزاع هو نفس المتنازع فيه وذلك للزوم الدور منه .

وقد وقع النزاع بين المهاجرين والأنصار في الخلافة حين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة والنبي بعد لم يدفن فاحتجّ المهاجرون بقول النبي ﷺ بأنّ الخلافة في قريش ، فكفّ الأنصار عن النزاع ، وأسرع المهاجرون الى عقد البيعة لأبي بكر حيث تقدم عمر وبايعه ، ولم يرجعوا الى القرآن ولا الى سنة النبي وإنما تمسكوا بكلمة واحدة لم تعيّن ولم تشخص أيّ الرجال من قريش يكون الخليفة، وقد قال أمير المؤمنين لما بلغه الخبر : « أنا أولى قريش بالخلافة » لأنه أقرب قريش الى النبي .

أمّا اذا رجعنا الى ما أمرنا الله به من الردّ الى الله والى الرسول فإنّ الله إنما أمر بطاعة اولى الأمر اذا كانوا مطيعين لله والرسول لا مطلق من تولى الأمر ولو بغير إذن من الله والرسول .

وعلى هذا فينبغي أن نختار للولاية من كان مطيعاً لله ورسوله بشهادة من الله والرسول .

أمّا شهادة الله فقوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّر كم تطهيراً »^(١) حيث إنّ جميع المؤرخين خصّوا نزول الآية في النبي

وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ^(١).

ولاريب أن كل معصية من الرجس ، فإذا كان الله قد طهرهم من المعاصي صاروا من المعصومين ونحن نفحص ونفتش عن المعصومين .

وأما الرجوع الى النبي الذي معناه الرجوع الى سنته فإن جميع أصحاب النبي قد اعترف وشهد أنه سمع من النبي أنه قال: إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ^(٢).

فإن علمنا أن الله أمر عباده بإطاعة اولي الأمر المطيعين له ولرسوله وإلا فلا يمكن أن يقال إن الله أمر العباد بطاعة ولي الأمر العاصي لله ، وكيف يمكن أن يريد الله من عموم الناس الطاعة له ولرسوله ويرضى أن يكون ولي الأمر عاصياً ويأمر الناس بطاعته ، فإنه بحمل الناس على ما يريد من الأعمال وهي المعصية ، وهذا أمر لا يقول به ذو مسكة . فإذا كان المقصود من اولي الأمر المعصومين المنزهين عن المعاصي حينئذٍ نختر من العباد من شهد الله بطهارتهم وتزاهتهم وأمر النبي بالرجوع إليهم والتمسك بهم ، وهذا هو الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله إن حجة المهاجرين على الأنصار أن الخلافة في قريش هو أولى بها من سائر قريش لأن في هذا رد المتنازع فيه الى الله والى الرسول .

فقد تحصل مما ذكرناه الامور التالية :

- ١ - قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر » .
- ٢ - قوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » .
- ٣ - أن أول نزاع وقع بين المسلمين هو النزاع في الخلافة حين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة .

٤ - يلزم على المؤمنين أن يردوا هذا النزاع الى الله والرسول ليكونا هما

(١) فضائل الخمسة : ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) راجع بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

الحا كمان فيه .

٥ - أن أولي الأمر الذين ألزمتنا الله بطاعتهم يلزم أن يكونوا مطيعين لله ورسوله وإلا فإطاعة لهم علينا .

٦ - أن عصمة الشخص وطهارته من الرجس ونزاهته عن المعاصي إنما تعلم وتعرف من أخبار الله ورسوله ، وقد أخبرنا الله بطهارة أهل البيت بقوله : وإنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ، وأمرنا النبي ﷺ بالتمسك بهم بقوله : إني مخلف فيكم .

٧ - قد تبين أن أولي الأمر الذين أمرنا الله بطاعتهم هم الذين أخبرنا بطهارتهم من الرجس ولا يمكن أن يكون غيرهم ممن لم يعصم من الذنوب .

٨ - أن الذي تصرح به الآية هو أن من حكم في حسم النزاع برأيه ولم يردده إلى الله والرسول فهو غير مؤمن فإنه تعالى يقول : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، فالذي لا يرد النزاع إلى الله والرسول فهو غير مؤمن بالمبدأ والمعاد ، وهذا أمر عظيم ينبغي للمؤمن التحرز عنه بالمحافظة على الطاعة ، إذ أن الله وجه الخطاب والنداء في أول الآية إلى المؤمنين وأمرهم بالطاعة لثلاثة : إطاعة الله ، إطاعة الرسول ، إطاعة أولي الأمر .

ثم أمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول ، وأول شيء تنازعوا فيه بعد ارتحال الرسول عنهم هو أمر الخلافة ، أي تنازعوا في من يكون ولى الأمر الذي يجب إطاعته؟ فيلزمهم أن يردوه إلى الله والرسول إن كان إيمانهم بهما حقيقياً كما تصرح الآية ، فإن امتنعوا عن الرد إلى الله والرسول يكشف امتناعهم عن عدم حقيقة إيمانهم .

هذا هو المحصل من الآيات فإن كان لها تفسير أو معنى غير هذا فليذكره

من كان يعرفه بحيث يردّ المتنازع فيه الى الله والرسول حتى يحصل الاتفاق، فإنه إذا حصل الاتفاق يكون كما أخبر بقوله : « ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

إنّ جميع العقلاء يقرون ويعترفون أنّ عدم النزاع خير من النزاع، وأنّ الاتفاق والائتلاف أحسن من الافتراق والاختلاف، فإنّ الأمة لو اتفقت من أول الأمر على ردّ المتنازع فيه الى الله والرسول لما وقع هذا الاختلاف ، وهذا خير لهم بلا ريب وأحسن تأويلاً ، لأنّ الأمة إذا كانت متفقة وكانت كلمتها واحدة لما تسلّط عليها العدو وما قدر أن يغتصب منها أرضها ووطنها، فلو أنّ المسلمين كانوا على رأي واحد وكلمة واحدة لما تمكن هذا الموالى للكافر أن يؤثّر عليهم ويعمل هذه الأفعال المحرمة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، ولو كانوا متفقين لألزموه بأحكام الاسلام والتأدب بآدابه .

وفي نور الثقلين عن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس وعلي بن محمد عن سهل بن زياد أبي سعيد عن محمد بن عيسى عن يونس عن ابن مسكان عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » فقال : نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهما السلام ، فقلت له : إنّ الناس يقولون : فما له لم يسمّ علياً وأهل بيته عليهما السلام في كتابه عزّ وجلّ ؟ قال : قولوا لهم : إنّ رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزل عليه الزكاة ولم يسمّ لهم من أربعين درهماً درهم حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزل الحج فلم يقل لهم طوفوا اسبوعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ونزلت في علي والحسن والحسين . فقال رسول الله ﷺ في علي : من كنت مولاه فعلي مولاه . وقال ﷺ : أوصيكم بكتاب الله عزّ وجلّ وأهل بيتي فإنّي سألت

الله عز وجل أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما علي الحوض فأعطاني ذلك. وقال: لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم . وقال : إنهم لن يخرجوكم من باب هدى ، ولن يدخلوكم في باب ضلالة . فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين من أهل بيته لادعاه آله فلان وفلان، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه تصديقاً لنبيه ﷺ: « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام ، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أم سلمة ثم قال: اللهم إن لكل نبي أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي، فقالت أم سلمة : أأنت من أهلك ؟ فقال : إنك إلى خير ولكن هؤلاء أهلي وثقلي ^(١) .

فقد تحقق من هذه الآية الشريفة أن الإيمان إنما يتحقق ويصح أن يوصف المرء به ويقال له مؤمن بشروط ثلاثة :

الأول : إطاعة الله فيما يأمر به وينهي عنه، وهو أصل التوحيد والاعتقاد بالمبدأ ، ومن لم يعترف به ولم يتحقق منه الطاعة لله فهو كافر باتفاق جميع فرق المسلمين .

الشرط الثاني: إطاعة الرسول، بأن يعترف بنبوته ويصدق في رسالته ويطيع أوامره ونواهيه ، فإن لم يصدق نبوته ولم يعترف برسالته أو قال ذلك وخالفه فيما يأمر وينهي لا يعد مؤمناً ، أي إذا زعم أن أمر الرسول لا يجب أن يطاع فهو كافر باتفاق فرق المسلمين .

الشرط الثالث : إطاعة أولي الأمر كما هو صريح الآية ، ويعتبر في أولي الأمر أن يكونوا مطيعين لله في جميع ما يأمرون به بأن تكون أوامره ونواهيم كلها طاعة لله ، فلو صدر منهم أمر واحد أو نهى واحد خلاف إرادة الله لا يمكن أن يكون - صاحب هذا الأمر أو النهي الواحد المخالف لإرادة الله - من أولي الأمر ، سواء أصدر هذا الأمر أو النهي عمداً أو خطأً أو سهواً أو نسياناً ، وذلك

لأن الله أمر بإطاعتهم أمراً مطلقاً غير مقيد بشيء ، فلو رضي بإطاعتهم في الأمر أو النهي المخالف لما يريد فمعناه أنه أمر بالمعصية ، ولا يقدر أحد أن يقول : إن الله يأمر بالمعصية .

فينتج من هذا أن أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم لا بد وأن تكون جميع أوامره ونواهيهم موافقة لأحكام الله الحقيقية ، وهذا الأمر يتوقف على معرفتهم الكاملة واطلاعهم على الأحكام ، وأنهم لا يشكّون ولا يترددون في مسألة واحدة من مسائل الحلال والحرام .

ولأدل على ذلك من كلمة قالها النبي ﷺ في حق علي عليه السلام : أنا مدينة العلم وعلي بابها^(١) فإن علوم الأنبياء كلها عند خاتمهم محمد بن عبدالله ، وعنده زيادة عليهم بإرادة الله له ذلك ، حيث يأمره ويقول له « قل رب زدني علماً »^(٢) فإذا قالها كل يوم لا بد وأن يجيبه الله بعد ما أمره بالطلب . وكل هذه العلوم بابها علي بن أبي طالب .

وبمقتضى الأمر الموجه إليه من الله في قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » أنه يلزمه أن يسلمها إلى الإمام الذي بعده ، وهو أحد سيدي شباب أهل الجنة الحسن المجتبي ، ومنه إلى أخيه الحسين .

فهؤلاء الأوصياء هم أعلم خلق الله تعالى وهم الذين أمرنا الله بطاعتهم في كل ما يأمرون .

وحيث إن الله جعل شرط الإيمان إطاعة أولى الأمر وجب على كل مؤمن الفحص عن رجال معصومين ، منصوبين من قبل الله والرسول ، عالمين بجميع الأحكام ولا يمكن أن يكون مؤمناً مع عدم اعترافه بهؤلاء الرجال ، أما طاعته لمعاوية

(١) الوسائل : ج ١٨ ص ٢٠ ب ٥ ح ١١ ، كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٠ ،

مستدرک الصحيحين : ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) طه : ١١٤ .

ويزيد وأشباههم ممن عبد وثناً وسجد للصنم فلا يكفى لما قد عرفت، فافهم وارحم نفسك وكن من المؤمنين لتحظى بما وعدهم الله .

قال في تفسير الصافي : وفي المعاني عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل : ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً؟ فقال : أن لا يعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته وجعل حجته في أرضه وشاهده على خلقه ، قال : فمن هم يا أمير المؤمنين؟ قال الذين قرنهم الله بنفسه ونبيته فقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ، قال : فقبلت رأسه وقلت : أوضحت لي وفرجت عني وأذهبت كل شك كان في قلبي^(١).

وفي نور الثقلين عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن صفوان بن يحيى عن عيسى بن السري أبي اليسع قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أخبرني بدعائم الاسلام التي لا يسع أحداً التقصير عن معرفة شيء منها، الذي من قصر عن معرفة شيء منها فسد عليه دينه ولم يقبل منه عمله ، ومن عرفها وعمل بها صالح له دينه وقبل منه عمله ولم يضق به مما هو فيه لجهل شيء من الامور جهله ، فقال : شهادة أن لا إله إلا الله ، والايمان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله ، والاقرار بما جاء به من عند الله ، وحق في الأموال الزكاة ، والولاية التي أمر الله عز وجل بها ولاية آل محمد عليهم السلام ، قال : فقلت له : هل في الولاية شيء دون شيء فضل يعرف لمن أخذ به؟ قال : نعم ، قال الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وكان علياً عليه السلام ، وقال الآخرون : كان معاوية ثم كان الحسن ثم كان الحسين وقال الآخرون : يزيد بن معاوية وحسين بن علي ولا سواء ولا سواء^(٢) انتهى ، يعني لا سواء على ومعاوية ، ولا الحسين ويزيد .

(١) تفسير الصافي : ج ١ ص ٤٢٩ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٥٠٣ ح ٣٤٤ .

ثم إن معرفة اولي الأمر مهمة جداً ، حيث إن الله قرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ، فلامجال للمؤمن في التسامح في معرفتهم ، لهذا أحببت أن أذكر للقاري أقوال المفسرين في هذا المقام حتى يعرف أن ما ذكر هنا ليس من رأي فرقة خاصة ، وأن جل المفسرين بل كلهم يعتبر فيهم العصمة والعلم والعدالة .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره الكبير : اعلم أن قوله « واولي الأمر منكم » يدل عندنا على أن إجماع الامة حجة ، والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة اولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته ، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه ، فهذا يفضي الى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وأنه محال ، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة اولي الأمر على سبيل الجزم ، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ ، فثبت قطعاً أن اولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً^(١) . انتهى محل الحاجة من كلامه ، فإنه قد أقام الدليل على وجوب عصمة اولي الأمر وأنه لا يمكن أن يكون غير معصوم كسائر الناس .

ثم ذكر بعد كلامه هذا ما يمكن أن يرد عليه من الاعتراض ثم أجاب عنه مفصلاً وأبطل كل اعتراض يرد عليه ، ثم قال : فكان حمل اولي الأمر الذي هو مقرون بالرسول على المعصوم أولى من حمله على الفاجر الفاسق^(٢) انتهى .

ماقاله الزمخشري :

قال في الكشف : والمراد بـ « واولي الأمر منكم » امرء الحق لا امرء الجور ...

(١) تفسير الرازي : ج ١٠ ص ١٤٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٥ .

الله ورسوله بريئان منهم فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم وإنما يجمع بين الله ورسوله والامراء الموافقين لهما في إثبات العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما^(١) انتهى .

فقد سمعت أنه اعتبر في اولي الأمر أن يكونوا امراء حق بأمر الله ورسوله واللازم على المسلم معرفتهم .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره : قال تعالى : « أطيعوا الله ، أي اتبعوا كتابه ، « وأطيعوا الرسول ، أي خذوا بسنته ، « واولي الأمر منكم ، أي فيما أمروكم به من طاعة الله لاني معصية الله فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله كما تقدم في الحديث الصحيح : إنما الطاعة في المعروف . وقال الامام أحمد : حدثنا عبدالرحمان حدثنا همام حدثنا قتادة عن ابن حريث عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : لا طاعة في معصية الله^(٢) انتهى .

ماقاله المراغي :

قال الشيخ مصطفى المراغي في تفسيره : أطيعوا الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول لأنه يبين للناس ما نزل إليهم ، فقد جرت سنة الله بأن يبلغ عنه شرعه رسل منهم تكفل بعصمتهم وأوجب علينا طاعتهم، وأطيعوا اولي الأمر وهم الامراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزملاء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة ، فهؤلاء اذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا امناء ، وأن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله التي عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه .

(١) تفسير الكشاف: ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٣٢٦ .

وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد ، بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب ، وليس لأحد رأي فيه^(١) انتهى . يقول هذا العالم : إن الأمور على قسمين : منها دينية ، ومنها أمور دنيوية سياسية . أما الدينية - سواء كانت تتعلق بالاصول الاعتقادية أم بالفروع العملية - فهي إنما تؤخذ من الكتاب والسنة ، فكل أمر ديني يلزم من يفتي به أن يسنده الى آية أو الى رواية قطعية يقطع أنها صادرة من النبي ﷺ . وأما الأمور الدنيوية فإذا اتفق الرؤساء المسلمون وأهل العقل والمعرفة على أمر من الأمور التي تنفع عموم المسلمين يلزم على بقية المسلمين تنفيذها وموافقتهم فيها إذا كان هؤلاء القوم أهل دين ، وكانوا أمناء يراعون مصالح المسلمين ولا يخالفون شيئاً من أوامر الله وسنة رسوله ، ولا يلاحظون مصالحهم الخاصة وإن تضرر عموم المسلمين ولا يسلطون الكافرين على منافع بلادهم .

ولا يخفى على أحد أن مثل هؤلاء الرجال لا يوجدون ، وإن وجد واحد بالمائة فلا يقدر أن يعمل وحده لأن بقية القوم كلهم ضده ، فعلى هذه القاعدة لا يمكن أن نقول إن أولى الأمر يشمل كل أمير ورئيس أو يشمل من سمى نفسه أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين إلا أن يكون متصفاً بالصفات المذكورة أو أن النبي ﷺ جعله في هذه الرتبة وسمّاه بهذا الاسم بأمر من الله لا من ذات نفسه.

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيره بعد ذكره الآية الشريفة: وفي هذا النص " يضع الأساس الكامل لنظام الحكم في الاسلام أن الحاكمية لله وحده ، فشريعته هي الدستور الأساسي والله واجب الطاعة ، فشريعته واجبة التنفيذ ، وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداءً وأن يطيعوا الرسول بما له من صفة الرسالة ، فطاعته إذاً هي من طاعة الله

الذي أرسله بهذه الشريعة، وسنته وقضاؤه على هذا جزء من الشريعة واجب النفاذ فأما أولو الأمر فالنص "يجعل طاعتهم تبعية لأصلية". فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ليدل "على أن" طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ومن القيام على شريعة الله ورسوله وليس لهم طاعة فيما وراءها، لأن "الطاعة لهم تبعية لأصلية، ومستمدة من أصل وليست هي بذاتها أصلاً" (١) انتهى محل الحاجة .

وهذا الذي ذكره سيد قطب قد صرح به أئمة أهل البيت في مقامات عديدة حيث كانوا يقولون للناس اذا جاءكم أحد بحكم من عندنا فاعرضوه على القرآن فإن كان موافقاً له فخذوا به وإلا فردوه الى من جاء به .

ثم إنه قد تبين من أقوال هؤلاء المفسرين أن المراد من أولي الأمر الذين تجب طاعتهم هم الذين يحكمون بالقرآن والسنة في جميع أحكامهم ولا يخطأون فيها كما هو صريح عبارة الفخر الرازي ، ومثل هؤلاء الرجال لا يقدر أن يشخصهم أحد إلا الله ورسوله لأننا قد عرفنا من كلمات الأعلام أن أولي الأمر يلزم أن تتوفر فيهم الشروط الآتية :

١ - أن يكونوا عالمين بتفسير القرآن بأكمله، وأن يكونوا عارفين بجميع أنواعه من الناسخ والمنسوخ والعام والخاص وغير ذلك حتى يتمكنوا من أخذ الأحكام الشرعية منه .

٢ - أن يكونوا عالمين بالسنة بجميع أقسامها وأنواعها .

٣ - أن يكون عندهم فهم وذكاء ومعرفة في إرجاع الجزئيات الى كلياتها حتى لا يتحقق عنده خطأ في التطبيق، فإن الله لا يريد الأمر والحكم الذي يصدر خطأً كما سمعت ذلك من كلام الرازي .

٤ - أن يكون عندهم إيمان راسخ بحيث لا يتعمدون كذبة أبداً ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا تصدر منهم معصية أبداً. وبعبارة أخصر: أن ولي الأمر الذي

أمرنا الله بطاعته يشترط فيه أن يكون عالماً عاملاً بعلمه، وهذا لا يمكن أن يحصل إلا بمدد من الله فهو الذي يهبه العلم وهو الذي يجعله من أولى الأمر، وأن البشر يعجز عن معرفته .

هذا الذي تحصيل من كلمات المفسرين التي مرت عليك وإن لم يصرخوا بذلك فتأمل بها جيداً لتعرف الحقيقة حتى تعمل بها .

ثم إنه لما أنزل الله قوله : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » عرفنا من هذه الآية أن الشخص أو الجماعة أو جميع الأمة إذا كان إيمانهم إيماناً صادقاً يلزمهم إذا وقع بينهم تنازع في شيء من الأمور أن يردوا الأمر المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله، فإن لم يردوا ذلك إلى الله ورسوله فإن إيمانهم غير صادق، هذا صريح الآية.

فالنزاع الذي وقع في الخلافة قبل أن يدفن النبي ﷺ ينبغي أن ينظر فيه هل أنهم ردوه إلى الكتاب والسنة؟ أو أن حل النزاع صار على ما يشتهون، وأن كل شخص مكلف بالنظر في كيفية حكمه والعمل على ما يقتضيه تكليفه؟ فإن تبين له رد النزاع إلى الله والرسول وهما حكما بتسويته وحكمه كان واجبه الأخذ بما حكما فيه، فإن الله قد علق إيمان المتنازعين على رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول .

ثم أكد هذا الأمر بقوله تعالى :

ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً (٦٠) .

إن الله عز وجل قد نظم أمور عباده في هذه الآيات الثلاث تنظيماً لا يبقى

معه عذر لمن يريد التلاعب في نظام المسلمين .

ففي آية (٥٨) وجه الأمر الحتمي لمن أودع عنده الأحكام الشرعية، فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» حيث ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا الأمر موجه إلى أولياء الأمور وإن اختلفوا في تشخيصهم ، وانفقوا أيضاً على اعتبار صفة العدل فيهم .

ثم أنزل الله بعده هذه الآية آية (٥٩) فوجه الخطاب إلى عموم المسلمين وهي قوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». يخاطب الله تعالى في هذه الآية جميع المسلمين ويقول لهم : إنا قد أمرنا وحتمنا على من أودعنا عنده الأحكام وقانون الشريعة الإسلامية أن يؤدوا إليكم الأحكام على حقيقتها بلا تغيير ولا تبديل، وأن يحكموا بينكم بالعدل والقسط، فهم لا يجورون في حكمهم ولا يهينون ولا يظلمون أحداً ، وأنتم يلزمكم إطاعتهم وعدم عصيانهم ، فإنهم مطيعون لله ولرسوله وهم عارفون بجميع الأحكام لا يجهلون شيئاً منها، ولأجل علمهم العام وعدالتهم الثابتة نأمركم بإطاعتهم المطلقة في كل وقت وفي كل شيء بلا قيد أو شرط ، فإن تنازعتم في شيء من أمور الدين أو الدنيا فردوه إلى الله والرسول ، وأن من عنده علم جميع الأحكام هو يداكم على كيفية الرد إلى الله ورسوله واستنباط الحكم من الكتاب والسنة، وإن لم تردوا الأمر إلى الله والرسول فإن إيمانكم غير صادق .

وأما التي بعدها فقد بين فيها للنبي أمراً موجباً للعجب ، يقول تبارك وتعالى : أما رأيت أيها النبي هذا الأمر العجيب ؟ أو أما رأيت أيها المؤمن، وأيها الرجل العاقل هذا الأمر الغريب المحال ؟ أو ما شعرت أيها المنافق وأيها الكافر بأن هذا الذي تريد أن تحققه وتوجده هو شيء متناقض الأطراف لا يمكن أن يتحقق ؟ فإنك تريد أن تدعي الإيمان وتريد أن تتحاكم إلى الطاغوت إذا تنازعت

مع المؤمنين أو مع غيرهم، وهذان أمران لا يجتمعان، أي الإيمان والمحاكمة الى الطاغوت، فإن الله قد أمر المؤمنين أن يرجعوا في النزاع والخصومة الى الله كما ذكر في قوله: « وإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ».

فأنت أيها المنافق لما زعمت أنك مؤمن بالكتاب الذي انزل على النبي ﷺ والكتاب الذي انزل قبل النبي كيف تريد التحاكم الى الطاغوت وقد عين الله رجالاً يعرفون أحكام الكتاب المنزل على النبي وأحكام الكتب المنزلة قبله .
ويؤيد ذلك ما رواه جميع المفسرين والمؤرخين قول أمير المؤمنين عليه السلام :
علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب^(١).
ويؤيد هذا الحديث المروي عن النبي ﷺ باتفاق جميع الصحابة قوله عليه السلام :
أنا مدينة العلم وعلي بابها^(٢).

وبعد هذا الذي ذكر أليس مما يتعجب منه محاكمة الذي يدعي الاسلام الى الطاغوت ! فإن الله جعل إسلامه وإيمانه مزعوماً ، أي كذباً ليس بإيمان صادق .

وبعد هذا النظام الذي بيّنه الله لنا في هذه الآيات الثلاث - ٥٨ و ٥٩ و ٦٠ - ينبغي أن لا يكون نزاع بين المسلمين أبداً ، وأن الاختلاف في الرأي أو في غيره بمجرد حدوثه يردوه الى الكتاب والسنة فيرتفع النزاع ويقع الرضا بينهم إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر كما ذكر الله ذلك .

ولكن النزاع الأول الذي وقع بعد موت النبي ﷺ وقبل أن يدفن حيث لم يرجع فيه الى الكتاب والسنة سبب ذلك حدوث النزاع في كل شئ وحدوث الفرق الـ ٧٣ .

(١) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣ .

(٢) الوسائل : ج ١٨ ص ٢٠ ب ٥ ح ١١ ، كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٠ .

وأما الطاغوت الذي نفى الله إسلام وإيمان كل من أراد التحاكم إليه فقد
فسر بتفسير عديدة يجمعها - أي يجمع الأقوال المفسرة للطاغوت - التعبير عنه
بقولنا: هو كل شيء يرجع إليه في فصل الخصومة ولم يخوله الله النظر والحكم في
هذا الأمر سواء كان إنساناً أم غير إنسان ، لأن الله أمر بالرجوع في مقام التنازع
والتخاصم والتداعي الى الله والرسول ، وأمر أيضاً بإطاعة اولى الأمر في كيفية
الرجوع التي بها يفصل النزاع ويرتفع التخاصم ، فكل من يجعل نفسه في منزلة
الله والرسول ويريد الرجوع إليه فهو طاغوت ، كما أن من يجعل الصامت بمنزلة
الله ورسوله ويدعو الى الرجوع إليه فهو طاغوت .

بقي أمران

الأمر الأول: قوله تعالى «وقد امروا أن يكفروا به» أي كل شيء يجعل
نفسه أو يجعله المنافقون بمنزلة النبي ليحكم بين الناس في أمور الدين وفي مقام
التخاصم والتنازع فقد أمر الله عباده أن يكفروا به بمقتضى هذه الجملة من الآية ،
فكل من جلس مجلس النبي ليكون حاكماً بين الناس وهو يصدر حكمه عليهم
ولم يجعله الله ولا رسوله حاكماً فأمر الله موجه لجميع العباد أن يكفروا به ،
أي يقولون له نحن كافرون بك وبدعوتك ، فإنما أنت طاغوت وأن الشيطان يريد
أن يضل بك الناس ليدخلهم جهنم ، وكل من اعترف بك ورضي بحكمك
واختارك حاكماً فإنه منافق يكون معك في النار .

الأمر الثاني : أن كل من يدعى الى القرآن والسنة للحكم بينه وبين
خصمائه فيمتنع عن الرضا بحكم الله ورسوله ويطلب المحاكمة عند من سواه
الله طاغوتاً وهو الذي يتصدى للحكم بين الناس بلا تخويل من الله ولا من الرسول ،
فهذا الممتنع عن المجيء الى الله والى الرسول هو منافق ، وما يظهره من الإيمان
فهو كذب ليس بصحيح . هذا ما تنص عليه الآية الشريفة وهي قوله تعالى :

واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً (٦١) .

فهذه الآية صريحة في أن من دعى الى الله والرسول يلزمه الطاعة والانقياد، ولا يصد ولا يمتنع عن ذلك إلا المنافق ، وقد تقدم حكم الطاغوت ومن يرضى به ويرجع إليه ويتخذ ولياً في آية الكرسي من سورة البقرة .
وأما آية ٦٢ و٦٣ فقد ذكر فيهما ذم المنافقين الذين يريدون المحاكمة الى الطاغوت ، وذكر بعض صفاتهم الذميمة وبعض أقوالهم الكاذبة .
ثم بعد ذلك قال تعالى :

وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً (٦٤) .

بعد أن أمر الله أولياء الأمر من الرسل وأوصيائهم بأداء الأمانة وهي الأحكام الشرعية التي أودعها عندهم أمر المؤمنين بإطاعتهم، ثم ذكر أن جماعة ممن ادعى الايمان قد خالفوا الأنبياء ولم يرجعوا إليهم في مقام التخاصم والتداعي ، وقد بين أن هؤلاء القوم غير مؤمنين إيماناً صادقاً .

وذكر في هذه الآية قانوناً كلياً بالنسبة الى الرسول والى المرسل إليهم وهو أن الله اذا أرسل رسولا الى قوم يلزم على القوم اذا صدقوه واعترفوا بنبوته أن يطيعوه في جميع أوامره ونواهيه ولا يسمى مؤمناً من يعترف بأصل النبوة ويخالف في الأحكام، وإذا اتفقت له دعوى أو مخاصمة مع أحد يطلب من خصمه

أن يتحاكما عند من لم يأمر النبي ﷺ بالمحاكمة عنده .
هذه بالنسبة الى من يخالف النبي في كل القضايا ويبقى مصراً على الرجوع
الى الطاغوت فإنه يكون من المنافقين . أما الذي تصدر منه قضية جهلاً أو سهواً
أو عمداً ثم يندم فيستغفر الله ويطلب من النبي أن يستغفر الله له فإن الله قد وعده
أن يتوب عليه ويعفو عنه .

فيلزم على كل من خالف النبي ﷺ وراجع من لم يأمر النبي ﷺ
بالرجوع إليه - وهو المعتبر عنه بالطاغوت - أن يتوب الى الله ويستغفر من ذنبه
وأن يطلب من النبي ﷺ أن يستغفر الله له ، ولا فرق بين وقوع هذا الأمر في
حياة النبي ﷺ أو بعد موته .

ما قاله ابن كثير :

قال في تفسيره : وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه
الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء
أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : «ولو أنهم اذ ظلموا
أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً»
وقد جئتكم مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والا كم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
ثم انصرف الأعرابي ، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : يا عتبي
إلحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له ^(١) .

ما قاله المراغي :

قال الشيخ مصطفى المراغي في المعنى الجملي للآية : بعد أن أوجب سبحانه
فيما سلف طاعة الله وطاعة الرسول وشنع على من رغب عن التحاكم الى الرسول
وآثر عليه التحاكم الى الطاغوت ذكر هنا ما هو كالدليل على استحقاق الرسول

لِلطَّاعَةِ وَعَلَى اسْتِحْقَاقِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا التَّحَاكُمَ الْمَقْتِ وَالْخِذْلَانِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْضُوا بِحُكْمِ الرَّسُولِ ﷺ .

الايضاح : «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله» أي : أن سنتنا في هذا الرسول كسنتنا في الرسل قبله ، فما نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله . فمن خرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم خرج عن حكمنا وسنتنا وارتكب أكبر الآثام . وجيء بقوله «إذن الله» لبيان أن الطاعة الذاتية لا تكون إلا لله رب العالمين ، لكنه قد أمر أن تطاع رسوله ، فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه ^(١) انتهى . فهذا الكلام صريح في أن كل من تصدى للحكم ونصب نفسه أميراً أو خليفة للناس بغير إذن من الله ورسوله فهو بمنزلة الطاغوت يجب على الناس رفضه والتبري منه ، ولذا نرى أئمة أهل البيت عليهم السلام قد أعلنوا للناس بأن كلما جاءكم حديث منا فاعرضوه على القرآن ، فما وافق القرآن فخذوا به وما لم يوافق القرآن فردوه على من جاء به .

ما قاله الطبري :

قال في تفسير قوله : «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» : يعني بذلك جل ثناؤه لم نرسل يا محمد رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه ، يقول تعالى ذكره : فأنت يا محمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلته إليه ، وإنما هذا من الله توبيخ للمحتكمين من المنافقين الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ فيما اختصموا فيه إلى الطاغوت صدوداً عن رسول الله ﷺ يقول لهم تعالى ذكره : ما أرسلت رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه ، فمحمد ﷺ من أولئك الرسل ، فمن ترك طاعته

(١) تفسير المراغي : ج ٥ ص ٧٩ .

والرضا بحكمه واحتكم الى الطاعات فقد خالف أمري وضيع فرضي . ثم أخبر
جل ثناؤه أن من أطاع رسوله فإنما يطيعهم بإذنه ، يعني بتقديره ذلك وقضائه
السابق في علمه ومشيتته^(١) .

ثم ذكر ثلاث أحاديث شاهداً على ما ذكره ، ثم قال : وإنما هذا تعريض
من الله تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين بأن تركهم طاعة الله وطاعة رسوله والرضا
بحكمه إنما هو للمسبق لهم من خذلانه وغلبة الشقاء عليهم ، ولولا ذلك لكانوا
ممن اذن له في الرضا بحكمه والمساورة الى طاعته^(٢) انتهى .

فقد دلت أقوال المفسرين للآية على أن كل من ادعى الإيمان بالله وبالرسول
يلزمه أن تكون محاماته عند من يحكم بالقرآن والسنة . أما في زمن النبي
فتكون عنده ، وأما بعده فيلزم أن تكون عند من يقدر على إرجاع كل حكم
الى القرآن والسنة ، فإذا ترك مدعى الإيمان الرجوع الى ذلك يكون ممن
اختار التحاكم الى الطاعات فيشمله الوعيد المذكور في الآيات .

ماقاله الرازي :

قال الرازي في تفسيره الكبير : قال أبو بكر الأصم : إن قوماً من المنافقين
اصطلحوا على كيد في حق الرسول ﷺ ثم دخلوا عليه لأجل ذلك الفرض فأتاه
جبرئيل عليه السلام فأخبره به ، فقال ﷺ : إن قوماً دخلوا يريدون أمراً لا ينالونه
فایقوموا وليستغفروا الله حتى أستغفر لهم . فلم يقوموا ، فقال : ألا تقومون؟ فلم
يفعلوا ؟ فقال ﷺ : قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى عدتني عشر رجلاً منهم ،
فقاموا وقالوا : كنا عزمنا على ما قلت ونحن نتوب الى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر
لنا ، فقال : الآن اخرجوا أنا كنت في بدء الأمر أقرب الى الاستغفار وكان الله

أقرب الى الاجابة اخرجوا عني^(١) انتهى .

فلاية تدل على أن مرتكب الكبيرة يجب عليه الاستغفار، وتدل على أن مجرد الاستغفار في اللفظ لا يكفي وحده ، بل ينبغي أن يتوب ويندم على فعله ويعزم في القلب على أن لا يعود أبداً الى مثله ، ثم يستغفر الله باللسان ليتوب الله عليه .

ماقاله سيد قطب :

قال في ظلال القرآن في قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » : إن الرسول ليس واعظاً يلقي كلمته ويمضي ، إن الاحترام الضروري لكلمة الله التي يحملها الرسول يقتضي أن يضمن الله لهذه الكلمة النفاذ ، وما يطاع الرسول لذاته وبذاته ولكنه يطاع بإذن الله وشرعه ، فقد جاء الرسول ليطاع لالتهمل أوامره ولالتكون موكولة لمجرد التأثير الوجداني ، جاء ليبيّن شريعة الله ويقوم على تنفيذها ويأخذ الناس بطاعتها احتراماً لأمر الله أن تبتذله الأهواء . ومن هنا كان الاسلام عقيدة وشريعة ، وكان إيماناً في القلب ونظاماً في المجتمع ، وكانت وظيفة خليفة الرسول أن يؤدي مهمة الرسول في شطرها الثاني وهو القيام على تنفيذ الشريعة لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول كما أراد الله أن تكون .

« ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم » بالانحراف عن المنهج السوي والتحاكم الى الطاغوت « جاؤوك » مستغفرين تائبين « واستغفر لهم الرسول » ليقبل الله توبتهم وهو يظهر هنا لفظ الرسول بدل ضميره ليرز صفته هذه ، وليقر بأنها مناط الرجعة اليه منهم ومناط استغفاره كذلك لهم . او أنهم عادوا الى الله « لوجدوا الله توأباً رحيماً » يقبل التوبة عن عباده ويرحم ضعفهم ويعفو عن خطئهم ويفتح أبوابه

دائماً للعائدين. ومرة أخرى يؤكد أن الإيمان لا يتحقق إلا بسلوك منهجه، وأن التحاكم إلى شريعة الله هي الطريق، ولكن في هذه المرة يوضح صفة هذا التحاكم، فهي ليست مجرد الخضوع الفهري إنما هي كذلك الاطمئنان والرضا والقبول^(١). ثم إن الله تعالى أكد هذا الأمر وشدد فيه بل جعل الإيمان الصحيح الصادق منحصراً في قبول الحكم وإطاعة أمر الرسول، فأنزل قوله تعالى :

فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (٦٥).

ماقاله الشيخ الطبرسي :

وقال العلامة الطبرسي في مجمعه في معنى الآية : ثم بين الله أن الإيمان إنما هو بالتمزام حكم رسول الله ﷺ والرضا به فقال «فلا» أي ليس كما يزعمون أنهم يؤمنون مع محاميتهم إلى الطاغوت « وربك لا يؤمنون » أقسم الله أن هؤلاء المنافقين لا يكونون مؤمنين ولا يدخلون في الإيمان «حتى يحكموك» أي حتى يجعلوك حكماً أو حاكماً « فيما شجر بينهم » أي فيما وقع بينهم من الخصومة والتبس عليهم من أحكام الشريعة «ثم لا يجدوا في أنفسهم» أي في قلوبهم «حرجاً» أي شكاً في أن ما قلته حق ، عن مجاهد . وقيل : إنما ، أي لا يأنمون بإنكار ذلك ، عن الضحاك . وقيل : ضيقاً بشك أو إنهم ، عن أبي الجبائي ، وهو الوجه «مما قضيت» أي حكمت «ويسلموا تسليماً» أي ينقادوا لحكمك إذعائاً لك وخضوعاً لأمرك .

وروي عن الصادق أنه قال : لو أن قوماً عبدوا الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا شهر رمضان وحججوا البيت ثم قالوا لشيء صنعته رسول الله ألا

صنع خلاف ما صنع أو وجدوا من ذلك حرجاً في أنفسهم لكانوا مشركين . ثم تلا هذه الآية ^(١) انتهى ما في المجمع .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسير قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » : يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الامور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » أي اذا حكموك بطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة ، كما ورد في الحديث : والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ^(٢) انتهى كلام ابن كثير .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره : أقسم سبحانه برؤيته ارسوله بأن اولئك الذين رغبوا عن التحاكم إليك هم ومن ماثلهم من المنافقين لا يؤمنون إيماناً حقاً وهو إيمان الاذعان والانقياد إلا اذا كملت لهم ثلاث خصال :

١ - أن يحكموا الرسول في القضايا التي يختصمون فيها ويشتجرون ولا يتبين لهم وجه الحق فيها .

٢ - أن لا يجدوا حرجاً وضيقاً فيما يحكم به ، أي أن تدعن نفوسهم اقضائه وحكمه فيما شجر بينهم بلا امتعاض من قبوله والعمل به ، إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره احكم الرسول لأول وهلة لأنه الحق ، وأن الخير والسعادة في الاذعان له .

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٦٩ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٣٢٩ .

٣ - الانقياد والتسليم لذلك الحكم ، فكثيراً ما يعرف الشخص أن "الحكم حق لكنه يتمرد عن قبوله عناداً أو يتردد في ذلك .

وفي هذه الآية إشارة الى شيئين :

١ - عصمة النبي ﷺ ، بمعنى أنه لا يحكم إلا بالحق المطابق لصورة الدعوى وظاهرها لا بحسب الواقع في نفسه ، إذ الحكم في شريعته على الظاهر والله يتولى السرائر ، وقد قال ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها . رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن .

٢ - أنهم لا يكونون مؤمنين إيماناً صحيحاً مستحقاً للفوز بالثواب والنجاة من العقاب إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم مذعنين في بواطنهم بصدق الرسول في كل ما جاء به الدين . ومن أماراة ذلك أن يحكموه فيما شجر بينهم من خلاف وأن لا يجدوا ضيقاً وحرماً في حكمه ، إذ الضيق إنما يلازم قلب من لم يخضع ، وأن ينقادوا انقياداً كاملاً بالاتمرد ولا عناد في قبوله ^(١) .

ماقاله الطبري :

قال في تفسيره حول تأويل قوله تعالى : «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» يعني جل ثناؤه بقوله «فلا» فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما انزل إليك وهم يتحاكمون الى الطاغوت ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد .

وأستأنف القسم جل ذكره فقال : « وربك » يا محمد « لا يؤمنون » ، أي لا يصدقون بي وبك وبما انزل إليك « حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، يقول : حتى يجعلوك حكماً بينهم فيما اختلط بينهم من امورهم فالتبس عليهم حكمه .

يقال : شجر يشجر شجوراً وشجراً ، وتشاجر القوم اذا اختلفوا في الكلام والأمر مشجرة وشجاراً .

« ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت » ، يقول : لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً مما قضيت . وإنما معناه : ثم لا تخرج أنفسهم مما قضيت ، أي لا تأثم بإنكارها ما قضيته وشكها في طاعتك ، وإن الذي قضيت به بينهم حق لا يجوز لهم خلافه^(١) .

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في التبيان في قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » : قيل في معنى دخول « لا » في أول الكلام قولان :

أحدهما : أنه ردّ لكلام . كأنه قيل لا الأمر كما يزعمون من الإيمان وهم على تلك الحال من الخلاف ، ثم استأنف قوله : « وربك لا يؤمنون حتى ... » .
الثاني : أنها توطئة للنفي الذي يأتي فيما بعد ، لأنه إذا ذكر في أول الكلام وآخره كان أوكد وأحسن ، لأن النفي له صدر الكلام ، وقد اقتضى القسم أن يذكّر في الجواب .

ثم قال : وقوله « فيما شجر بينهم » معناه فيما وقع بينهم من الاختلاف . تقول شجر يشجر شجراً وشجوراً ، وشجره في الأمر إذا نازعه فيه مشجرة وشجاراً وتشاجروا فيه تشاحوا ، وكل ذلك لتداخل كلام بعضهم في بعض كتداخل الشجر بالتفافه^(٢) .

ثم ذكر كلاماً أبطل فيه مذهب المجبرة^(٣) ، ثم قال : ومعنى الآية أن هؤلاء المنافقين لا يؤمنون حتى يحكم النبي ﷺ فيما وقع بينهم من الاختلاف ، ثم لا

(١) تفسير الطبري : ج ٥ ص ١٠٠ .

(٢) التبيان : ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٣) التبيان : ج ٣ ص ٢٤٥ .

يجدوا حرجاً مما قضى به ، أي لاتضيّق صدورهم به ، ويسلموا لما يحكم به لا يعارضونه بشيء ، فحينئذ يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ^(١).

ماقاله سيد قطب :

قال في قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » : إنه اقتنى الوجدان واطمئنان الضمير ، وتسليم الرضا بذلك التحكيم ، كان ذلك حين كان الرسول ﷺ يحكم بشخصه ، فأما بعد جواره للرفيق الأعلى فشرعته وسنته بعده ، ولا وربك ما يؤمن أحد لا يتحاكم الى شرعته وسنته ولا يجد في نفسه الاطمئنان والرضا والقبول والتسليم^(٢).

فإذا اطلع القارئ على ما كتبه هؤلاء المفسرون يتحقق عندنا أن الذي يستفاد من آية ٦٤ و ٦٥ هو :

١ - أن الله تعالى يريد من أمة كل رسول مصدقة برسولها أن يطيعوه فيما يأمرهم به من جميع الامور ولا يخالفوه في شيء منها .

٢ - اذا خالف أحد الامة شيئاً من أوامر الرسول يجب عليه أن يتوب الى الله ، وأن يأتي الى الرسول ﷺ فيعترف بذنبه ويطلب منه أن يستغفر له حتى يغفر الله له .

٣ - يلزم على المؤمنين جميعهم اذا وقع شجار بين اثنين منهم أو بين جماعتين منهم أن يكون مرجعهم في حل النزاع والخصومة الى الله ورسوله أي الى القرآن فيكون حل النزاع على مقتضى الآيات القرآنية وسنة النبي ﷺ ويكون المفسر للآيات القرآنية هو النبي ﷺ اذا كان موجوداً لأن تأويل الآيات لا يعرفها كل أحد .

(١) التبيان : ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٢) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٦٩٥ .

٤ - إذا كان النزاع والشجار وقع بين المسلمين بعد رحلة النبي ﷺ فلا يتغير الحكم المذكور ويجب الرجوع الى القرآن والسنة في حل الخصومات ، ويكون المفسر لأي القرآن وصي النبي وخليفته الذي يعرف تأويل جميع القرآن وإلا فلا يكون رجوعاً الى الله ورسوله كما مر عليك كلام سيد قطب وهو قوله: وكانت وظيفة خليفة الرسول أن يؤدي مهمة الرسول في شطرها الثاني وهو القيام على تنفيذ الشريعة لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول كما أراد الله أن تكون .

وقال بعد أسطر حيث انتهى من تفسير قوله « فلا وربك » : كان ذلك حين كان الرسول يحكم بشخصه، فأما بعد جواره للرفيق الأعلى فشرعته وسنته بعده^(١).
٥ - أن الإيمان الحقيقي الصادق لا يتحقق بالنسبة الى العبد ما لم يكن باطنه موافقاً لظاهره وقلبه متحداً مع لسانه، وهذا الأمر لا يمكن التخلف فيه لأن الله أقسم عليه بذاته جل وعز ، فالؤمن الحقيقي هو الذي اذا اتفق له نزاع مع أحد من الناس يلزمه أن يرجع في حل النزاع الى الله ورسوله أو وصي رسول الله ، وأن يرضى بالحكم الصادر من الرسول أو الوصي سواء كان الحكم له أم عليه . أما من لم يرض بالرجوع الى الله ورسوله في مقام التشاجر فإنه ليس بمؤمن كما هو صريح الآية وصريح أقوال المفسرين .

سؤال ما هو أول تشاجر ونزاع وقع بين المسلمين بعد ارتحال النبي ﷺ

من الدنيا الى دار القرار ؟

الجواب: أول شجار ونزاع هو النزاع في الخلافة الواقع بين المهاجرين والأنصار حين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، وكل من الفريقين طلب أن تكون الخلافة فيهم ، ولم يكن علي عليه السلام حاضراً بل كان مشغولاً في تجهيز النبي ومعه بنو هاشم وسلمان والمقداد وأبو ذر وبريدة وغيرهم .

سؤال آخر : هل أن كلاً من الفريقين رجع الى الكتاب والسنة في حل

النزاع أو أن حل النزاع كان بآرائهم ؟

الجواب - تقدم في ص ١٦.

ثم أوضح الله تعالى عن خبت ضمائر هؤلاء القوم وفساد سرائرهم بقوله تعالى :

ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً (٦٦).

إن الله سبحانه كلف أمة محمد ﷺ تكليفاً يسيراً سهلاً ليس فيه مشقة، كلفهم أولاً : أن يطيعوا الرسول فيما يأمرهم به وينهاهم عنه بأن يفعلوا ما أمرهم به ويتركوا ما نهاهم . و كلفهم ثانياً : أن يرجعوا إليه وإلى رسوله في مقام التنازع والتشاجر والتخاصم وأن لا يتحاكموا عند الطاغوت . و كلفهم ثالثاً : اذا بدرت منهم بادرة وعصوا الله ورسوله في شيء من الأشياء سواء كان فعلاً أم تركاً أن يتوبوا إلى الله، وأن يطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم الله .

وهذه الامور الثلاثة يسيرة ليس فيها مشقة، ومع ذلك قد عصوا الله فيها ولم يمتثلوها ، فكيف لو كلفهم في مقام التوبة كما كلف أصحاب موسى بأن يقتلوا أنفسهم ويخرجوا من ديارهم، فإن الله تعالى العالم بالسرائر والمطلع على الضمائر لو كلفهم بقتل أنفسهم والخروج من ديارهم ما فعله إلا القليل منهم .

ثم إن الله عز وجل أخبرهم ونبه غيرهم من المنافقين والمخالفين لأوامر الله وأرشدهم لأمر يصلح لدنياهم وآخرهم ، أمر ينفعهم وينفع غيرهم وهو قوله تعالى : «ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً» فإن العبد اذا كان مؤمناً معترفاً بحكمة الله وعلمه بالمصالح يحصل له اليقين بما

ينخير به الله .

وهذا الخير الذي تضمنته الآية - وهو أن " الطاعة وفعل الأوامر خير لنا من العصيان والمخالفة - هو عقيدة المؤمن وهذا غير مختص " بزمان وجود الرسول وإنما هو مستمر " الى يوم القيامة ، فكل مخالف لشيء من أوامر النبي يلزمه التوبة والاستغفار والرجوع الى الطاعة حتى يلتئم أمر المسلمين ويثبت دينهم وتكون لهم الهيبة والشوكة والعظمة في قلوب أعدائهم الكافرين .

ثم قال عز وجل : " واذاً لاتيناهم من لدنا أجراً عظيماً (٦٧) .

أي : هؤلاء الذين أظهروا الايمان لو أنهم عملوا بأوامر النبي ولم يخالفوه في شيء منها وأطاعوا الله في الامور الثلاثة التي تقدم ذكرها لأعطاهم الله أجراً عظيماً على عملهم .

وهل يتصور الانسان هذا الشيء الذي يسميه الله عظيماً؟ وكل شيء هو حقير عند الله لا يتمكن البشر أن يتصوره أبداً حتى يراه بعينه .

فإذا خالف الانسان أحد هذه الامور الثلاثة - وهي : (١) إطاعة الرسول فيما يأمره ، (٢) الرجوع إليه عند التشاجر ، (٣) الاستغفار اذا صدرت منه معصية - فقد فوت على نفسه هذا الأجر العظيم ، وهل يعتبر نفسه عاقلاً من يفوت هذا الأجر ويحرم نفسه منه ؟ وليته كان تفويتاً للأجر فحسب بل هو إدخال لنفسه في العذاب الأليم الذي لا انقطاع له ، وإن الذي يعمل شيئاً يوجب تفريق الأمة واختلاف كلمتها ونشأت جمعها واستيلاء العدو عليها مستحق لهذا العذاب الأبدي .

ثم قال تعالى : ولهديناهم صراطاً مستقيماً (٦٨) .

أيها الانسان المؤمن إن الله يمدك وهو صادق الوعد بأنك اذا فعلت هذه

الامور الثلاثة أن يهديك الصراط المستقيم، هذا صريح الآية ليس فيه إجمال ولكن الكلام في معرفة أوامر النبي ﷺ .

فينبغي للعاقل الذي يريد سلوك الصراط المستقيم أن يعرف أوامر النبي ﷺ من خليفته ووصيه، العالم بالأحكام والعارف بتفسير القرآن، يأخذ أحكامه من باب مدينة العلم لا من طريق آخر حتى يصل الى الصراط المستقيم .

ثم ذكر الله عز وجل ما يبين فيه جنس ذلك الأجر العظيم الذي وعدناه ولم يبينه تفصيلاً لأن الانسان لا يعرفه إلا عند الوصول إليه ومشاهدته عياناً ، ولكن تعرف عظمتها من الآية الكريمة وهي قوله تعالى :

ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٦٩) .

مما لا ريب فيه أن الانبياء هم أعظم الناس أجراً وأرفعهم درجة يوم القيامة .
وأما الصديقون فهم الذين يصدقون في النية وفي العمل وفي الكلام من أول عمرهم الى آخره بحيث لا تصدر منهم كذبة واحدة في هذه المراحل الثلاث وحينئذ يسمى صدقاً .

ويلزمه أن يكون مصداقاً بدين الحق، وإلا فيختل معنى الصدق في إحدى المراحل، فيكون الشرط في صدق الوصف عليه علمه بالأحكام الواقعية الحقيقية .
أما لو قال أو فعل أو اعتقد شيئاً أو أشياء متيقناً أنها صادقة حقيقية وهي ليست كذلك وأن واقعها خلاف ذلك فلا يقال صدقاً إلا لمن يعلم بالأحكام الحقيقية بحيث تعلمها من النبي الذي جاء بها الملك عن الله تعالى .

فإذا كنت تعرف شخصاً علمه النبي ﷺ جميع الأحكام وأيده الله بحفظها وعدم

إضاعتهما ونسيانها وكان عاملاً بها لا يتخلف عن حكم واحد منها قولاً وعملاً فسمه صدّيقاً بلا توقف ، فافهم واغتنم .

وأما الشهداء ، فإما أن يكون جمع شاهد وهو الذي يطلع على الشيء ثم يشهد عليه في مقام ترتيب الثواب والعقاب عليه ، وهؤلاء الذين يجعلهم الله شهداء في الدنيا على العباد لأجل أن يقيموا الشهادة يوم إعطاء الثواب والعقاب لا بدّ وأن يكونوا من الصديقين الذين اختصهم الله بهذا التكليف في الدنيا ، و في الآخرة تكون شهادتهم مقبولة عند الله ، وهذه منزلة رفيعة يعرفها لهم أهل الجمع ، ويتذكرون في ذلك المقام أنهم جهلوا حقهم في الدنيا بعد أن ذكرهم الله و نوه عنهم وقرنهم بالنبيين و الصديقين . فينبغي للمؤمن بعد اطلاعه على هذه الآية أن يعرفهم في الدنيا ليشهدوا له في الآخرة بالمعرفة .

وإما أن يكون الشهداء جمع شهيد وهو المقتول في حرب الكفار لأجل نصرته الدين فإنّ الله قد جعل له مقاماً رفيعاً مع النبيين والصديقين ويسمى هذا بالجهاد الأصغر .

وهناك جهاد يسمى الجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس والهوى ، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال لسرية رجعت من جهاد الأعداء: مرحباً بقوم قضاوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر ، فقل: يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس^(١) . فإنّ النفس إذا أعطيت ما تريد أوقعت صاحبها في المهالك ، فمن غلب نفسه وقتلها وتجرد لاطاعة الله و امتثال أوامره فهو من أعظم الشهداء الذين يرافقون الأنبياء والصديقين .

وأما الصالحون فهم الذين صلت أعمالهم وأقوالهم بحيث لا يصدر منهم قول أو فعل يضرّ بهم أو بغيرهم وإنما قولهم وفعلهم نافع دائماً ، وإنما كانت الأقوال والأفعال صالحة لأنها منبعثة عن نية صالحة .

(١) الوسائل : ج ١١ ص ١٢٢ ب ١ من أبواب جهاد النفس ح ١ .

تذكرة للمصلين

إن المصلي إذا كبر ودخل في الصلاة أول شيء يشرع به هو الثناء على الله عز وجل ، فإنه إذا كبر يعترف بأن كل شيء من العرش الى أطباق الثرى هو حقير وصغير بالنسبة الى الله .

وبعد التكبير يحمده الله تعالى على إعامه و تفضله و منته على عباده بالنعم العظيمة .

ثم يصفه بقوله «الرحمن الرحيم» .

ثم يعترف له بأنه هو المالك ليوم الدين ، و هو يوم جمع المخلوقات جميعاً وجزاء كل نفس بما تستحقه من خير أو شر .

وبعد ذلك يعترف لله بالعبودية الخاصة والاستعانة به لا بأحد غيره وهو قوله «إياك نعبد وإياك نستعين» .

وبعد ذلك يطلب من الله أن يرشده ويدله ويسلك به الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا ظلمة ولا شيء يخالف إرادة الله ، فيقول العبد المصلي «اهدنا الصراط المستقيم» .

ثم يبين الله أن هذا الصراط هو الذي يسلكه من أنعم الله عليه من عباده بقوله «صراط الذين» فيكون سلوك هؤلاء العباد من أقوى الدلالات على استقامة هذا الطريق .

فالعبد المؤمن إذا كان من المصلين وكان ملتفتاً الى ما يقوله ويطلبه من الله فإنه يطلب من الله في كل يوم عشر مرات أن يهديه الطريق المستقيم .

وقد بين الله لعباده في هذه الآيات بأن الذي يستحق من الله الاجابة على طلبه هو الذي يعمل بما أمره الله في هذه الآيات بحيث لا يتخلف عن مضمونها أبداً وهي ما يلي:

(١) قوله تعالى : « و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » أي يطيع الرسول في كل شيء .

(٢) قوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » أي من عصى الله في شيء يستغفر و يتوب بأسرع وقت .

(٣) قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهو الايمان الظاهري .

(٤) قوله تعالى : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » وهو الايمان القلبي .

(٥) قوله تعالى : « و لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم و أشدّ تثبيتاً » .

فإذا تكاملت هذه الامور في المؤمن يقول الله حينئذٍ للمصلي الذي تجمعت فيه هذه الصفات : إن لك عند الله ثلاثة امور :

الأول : ما ذكره بقوله : « وإذا لا تيناهم من لدنا أجر أعظيماً » .

الثاني : ما طلبه من الله في صلاته يجيبه الله عنه ويقول : « ولهديناهم صراطاً مستقيماً » .

الثالث : قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

و هذه الامور الخمسة التي يستحق المتصف بها أن يحبى بالامور الثلاثة عمدتها وأصلها الأساسي هو الأمر الأول و هو إطاعة الرسول كاملة ، فإذا تحققت عند أحد وطبقها تطبيقاً دقيقاً حقيقياً تبعته بقية الامور . فالؤمن اذا كان إيمانه صادقاً خالصاً ينبغي له أن يطيع الرسول في كل أمر كلي أو جزئي في حياة الرسول وبعد رحلته في الاصول وفي الفروع ، فإذا تحققت إطاعة الرسول في جميع الامور هداه

الله الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم وهم النبيون ومن تبعهم من الأصناف الثلاثة .

ماقاله الحويزي :

قال في تفسيره: عن خضر بن عمرو عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: المؤمن مؤمنان مؤمن وفي الله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيين و الصديقين والشهداء والصالحين و حسن اولئك رفيقاً، وذلك ممن يشفع ولا يشفع له، وذلك ممن لا تصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة. ومؤمن زلت به قدم، فذلك كخامة الزرع ^(١) كيفما كفاتته الريح انكفى، وذلك ممن تصيبه أهوال الدنيا و أهوال الآخرة ويشفع له وهو على خير ^(٢).

وفيه أيضاً في قول الله: «صراط الذين أنعمت عليهم» أي قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال الله عز وجل: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» ^(٣).

ماقاله سيد قطب:

قال في ظلال القرآن: وفي النهاية تجيء تلك اللمسة الشاملة لقلوب المؤمنين يشوقهم الى ذلك الافق الرفيع الحبيب الذي يرقى إليه الطائعون لله والرسول .
«ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً» .

(١) الخامة من الزرع ما ينبت على ساق ، واللطافة الغضة منه أو الشجرة الغضة منه .

(٢) تفسير نور الثقلين ج ١ ص ٤٢٦ ح ٣٨٦ .

(٣) نور الثقلين : ج ١ ص ٤٢٧ ح ٣٩٣ .

إنه ذلك الافق الوضيء الذي تشوق إليه الأرواح وتهفو إليه القلوب ،
افق الرفقة والصحبة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وهاهو ذا علاسموه
وارتفاعه ووضاءته في متناول من يريد ، فما هي إلا طاعة الله والرسول ، فإذا الافق
الشاهق السامي قريب .

إنّ الطاعة ليست أمراً وليست تكليفاً في هذه المرة ، إنما هي وسيلة المتسامي
الى ذلك المرتقى وأداة الوصول الى ذلك الحمى والتقدمة بين يدي ذلك الأمل
الحبيب .

« ذلك الفضل من الله » فهو جزاء لا يستحقه الانسان عن جهد ، فما يبلغ
الجهد وحده أن يكون هذا جزاءه إنما هو الفضل من الله يضاعف الجهد ويضاعف
الجزاء^(١) انتهى .

ماقاله المراغي :

قال في تفسير قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم
الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » :
أي كل من يطيع الله ورسوله على الوجه المبين في الآيات السالفة ويفعل الأوامر
ويترك النواهي يكون يوم القيامة مرافقاً لأقرب عباد الله وأرفعهم درجات ، وهم
الأصناف الأربعة الذين ذكروا في الآية ، وهم صفوة الله من عباده ، وقد وجدوا
في كل أمة . ومن أطاع الله ورسوله من هذه الأمة كان منهم وحشر يوم القيامة
معهم « وحسن أولئك رفيقاً » أي أن الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين يكونون
كالرفقاء له من شدة محبتهم إياه وسرورهم برؤيته .

ثم ذكر بعد ذلك ما رواه الطبراني مرفوعاً : « من أحبّ قوماً حشره الله
معهم » . وما أخرجه الشيخان عن أنس : « المرء مع من أحب » ، وآية المحبة

الطاعة كما قال تعالى : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحبّكم الله »^(١).

ماقاله الطبري :

قال في تأويل قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .
يعني بذلك جلّ ثناؤه « ومن يطع الله والرسول » بالتسليم لأمرهما وإخلاص الرضا بحكّهما والانتهاى الى أمرهما والالتزجار عما نهيا عنه من معصية الله فهو « مع الذين أنعم الله عليهم » بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه وفي الآخرة إذا دخل الجنة « والصّدّيقين » وهم جمع صدّيق .
واختلف في معنى الصّدّيقين فقال بعضهم : الصّدّيقون أتباع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم^(٢) انتهى .

قوله تعالى : ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً (٧٠) .

أي أن ذلك الجزاء العظيم - وهو مرافقة المطيع لله وللرسول - لهؤلاء الأصناف من الأنبياء ومن بعدهم إنما هو فضل من الله، فإن العبد وإن كان مطيعاً ولكن الطاعة إنما هي بإرشاد الله حيث ذكرها في الآيات المتقدمة فهي من فضله ورحمته .

وأما الجملة الأخيرة وهي قوله : « وكفى بالله عليماً » فإنها وعد للمحسنين ووعد للمسيئين، لأن الله عالم بما يعمله العبد وعالم بما ينويه في عمله، فلا تخفى عليه خافية .

ماقاله المراغى :

قال في تفسير قوله تعالى : « ذلك الفضل من الله » : أي أن هذا الذي ذكر

(١) تفسير المراغى : ج ٥ ص ٨٤ ، والاية ٣١ من سورة آل عمران .

(٢) تفسير الطبري : ج ٥ ص ١٠٣ .

من الجزاء لمن يطيع الله والرسول هو الفضل الذي لا يعلموه فضل ، فإن السمو الى إحدى تلك المنازل في الدنيا ومرافقة أهلها في الآخرة هو منتهى ما يأمله المرء من السعادة وبه يتفاضل الناس فيفضل بعضهم بعضاً^(١) انتهى .

ثم قال في تفسير قوله تعالى: «وكفى بالله عليمًا» : أي كفى به سبحانه عليمًا بالعصاة والمطيعين والمنافقين والمخلصين ومن يصلح لمرافقة هؤلاء ومن لا يصلح ، فهو لا يعزب عن عمله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . ويحذر المنافقون المراءون لعلهم يتذكرون فيتوبوا ، ويطمئن المؤمنون الصادقون لعلهم ينشطون ويزدادون في الطاعة ويتعدون عن التقصير^(٢) انتهى .

سبب النزول

قيل : إنها نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه ، فأثناء ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه ، فقال له رسول الله ﷺ : يا ثوبان ما غير لونك ؟ فقال : يا رسول الله ما بي من مرض ولا وجع غير أنني إذا لم أراك اشتقت إليك حتى أفاك ، ثم ذكرت الآخرة ، فأخاف أنني لا أراك هناك لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين وإني إن ادخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم ادخل الجنة فذاك حين لا أراك أبداً ، فنزلت الآية . ثم قال ﷺ : والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين^(٣) .

مضمون ما استفدناه من الآيات ٥٩ - ٧٠ هو : أن الإيمان الصحيح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة هو إطاعة الرسول ، فإن الآيات وأقوال المفسرين

(١) تفسير المراغي : ج ٥ ص ٨٤ .

(٢) تفسير المراغي : ج ٥ ص ٨٦ .

(٣) مجمع البيان : ج ٣ ص ٧٢ .

أناطت الايمان بإطاعة الرسول وحكمت على المخالف لأوامر الرسول بالكفر أو النفاق، سواء كان الخلاف في الاصول أم الفروع ، في العقائد أو الأحكام العملية ، ومن شك في هذا الحكم فليتأمل في الآيات وفي تفاسيرها فقد ذكرت لك أقوال المفسرين تفصيلاً فراجعها .

ثم إن أوضح كلمة بينها الرسول لأمته بحيث لا يشك أحد في صدورها منه لاتفاق الأصحاب على روايتها ، ولا يشتبه في معناها لوضوح مضمونها ، وهي قوله ﷺ : إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً^(١) .

هذا حديث متسالم عليه وهو واضح المعنى ، فانظر كيف أكد النبي ﷺ معناه بقوله «أبداً» ، فإن قوله « لن تضلوا بعدي » كافٍ للحكم ولكنه أكد بقوله «أبداً» ، فهو قانون كلي جعله النبي لجميع الأمة . فيلزم على كل فرد منها - إذا أراد إطاعة النبي ليكون مؤمناً مرضياً عند الله - أن يتمسك بهذين الأمرين لئلا يكون ضالاً ، وليتذكر ما يقوله في صلاته كل يوم وليلة « إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

فهذه الآيات تبين لك سبب هدايتك الى الصراط المستقيم وحشرك مع الذين أنعم الله عليهم ، وهذا الحديث يبين لك أن ابتعادك عن المغضوب عليهم وعن الضالين إنما يكون بتمسكك بهذين الأمرين ، نسأله تعالى حسن العاقبة .

قوله تعالى : الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفاً (٧٦) .

بعدما ثبت وتحقق من الآيات السابقة أن المؤمن هو الذي يطيع النبي ﷺ في جميع أوامره ونواهيه ، ولا يعتمد مخالفته في شيء من ذلك ، وأن الذي يعتمد المخالفة هو كافر أو منافق ، فقد بين الله لنا في هذه الآية صفة من صفات المؤمنين وهي أن المؤمن لا يقاتل أحداً ولا يملن حرباً على أحد إلا لأجل الله وفي سبيل الله ولنصرة الدين وإعلاء كلمة الحق ، ولا يقاتل لأجل حيازة المال واكتساب الغنائم ، ولا لأجل الرئاسة والامارة حتى يتأمر على الناس ، ولا لأجل أوتار^(١) وعداوات سابقة بينه وبين قوم وقد سنحت له الفرصة بقتالهم ، وإنما نيته في قتاله تكون خالصة لله وامتنالاً لأمر الرسول .

وأما الكفار فهم خلاف ذلك فإنهم يقاتلون لأجل الدنيا من اكتساب مال أو حصول على رئاسة أو هتك أعراض الناس ، فلا يكون قتالهم إلا في سبيل الطاغوت وكل أمر إذا لم يكن لله وعن أمر الله فهو إنما يكون في سبيل الطاغوت ومن أمر الشيطان .

ثم إن الله يلتفت إلى المؤمنين ويخاطبهم ويأمرهم بقوله : « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » أي بعدما علمتم أن من يقاتل لأجل الدنيا إنما هو كافر وأن قتاله في سبيل الطاغوت وأنه هو من أولياء الشيطان فلا تبطئوا عن قتالهم فإنكم سوف تغلبونهم لأنهم أولياء الشيطان وأنتم أولياء الله والله يكون معكم حتماً .

مقاله الطبرى

قال في تأويله لهذه الآية : يعنى تعالى ذكره الذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بموعد الله لأهل الإيمان به « يقاتلون في سبيل الله » يقول : في طاعة الله ومنهاج دينه وشريعته التي شرعها لعباده .

(١) أوتار - جمع وتر - : الانتقام .

«والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت» يقول : و الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم يقاتلون في سبيل الطاغوت يعني في طاعة الشيطان و طريقه و منهاجه الذي شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله .

يقول الله مقوياً عزم المؤمنين به من أصحاب رسوله ﷺ و محرضهم على أعدائه واعداء دينه من أهل الشرك به : «فقاتلوا» أيها المؤمنون «أولياء الشيطان» يعني بذلك الذين يتوكلونه و يطيعون أمره في خلاف طاعة الله و التكذيب به و ينصرونه .

«ان كيد الشيطان كان ضعيفاً» يعني بكيده ما كاد به المؤمنون من تحزيبه أولياء من الكفار بالله على رسوله و أوليائه أهل الإيمان به ، يقول فلا تهابوا أولياء الشيطان فإنما هم حزبه و أنصاره ، و حزب الشيطان أهل و هن و ضعف . وإنما وصفهم جل ثناؤه بالضعف لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب ولا يتركون القتال خوف عقاب ، وإنما يقاتلون حمية أو حسداً للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله . والمؤمنون يقاتلون من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله و يترك القتال إن تركه على خوف من وعيد الله في تركه ، فهو يقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل ، و بما له من الغنيمة والظفر إن سلم ، والكافر يقاتل على حذر من القتل وأياس من معاد فهو ذو ضعف وخوف ^(١) انتهى .

وبعد أن اتضح لنا معنى الآية فقد استقدنا منها الأمور التالية:

أولاً : أن المؤمن لابد أن يكون قتاله لأي أحد كان إنما هو في سبيل الله ولنصرة دين الله وعن أمر الله ورسوله ، وإن لم يكن قتاله في سبيل الله فهو ممن يقاتل في سبيل الطاغوت وهو من أولياء الشيطان.

ويلزمنا على هذا الأصل الأصيل أن ننظر وندقق ونحقق فيمن قاتل وقوتل من هذه الأمة بعد ارتحال النبي ﷺ فنعرف المقاتلين أيهم قاتل في سبيل الله وأيهم قاتل لأجل الامارة واكتساب المال أولاًجل دحض الحق أو لغير ذلك من الشهوات النفسانية ، فإذا عرفنا الحقيقة يلزمنا أن نتولى المدقق و نبرأ من الباطل ، وكل إنسان مكلف لذاته ومسؤول عن نفسه

فلو أن "إنساناً عرف أن" فلاناً قاتل في سبيل الله فلم يواله و لم يبرأ ممن قاتله فهو معدود من أولياء الشيطان وإن تأخر زمانه آلاف السنين، لأنه خالف الحق بعد ما عرفه و حققه .

ولو أن "امرء عرف أن" فلاناً قاتل المؤمنين لأجل أن يتأمر عليهم وينهب أموالهم ويقتل المؤمنين فلم يتبرأ منه ولم يظهر للناس كفره فهو من أولياء الطاغوت ومن حزب الشيطان .

فليعرف الانسان نفسه ولا يخالف القرآن فإنه جعلهم قسمين لاثالث لهما ، مؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت، ولكل منهما أتباع وأعداء ومحبتين .

تنبيه

لما وصلت إلى هذا المقام أحببت أن ابنه القارىء الى أن معرفة المقاتلين في سبيل الله والمقاتلين في سبيل الطاغوت يلزم أن يكون مستنداً الى النبي ﷺ . فقد روي عن عقاب بن ثعلبة أنه قال: حدثني أبو أيوب الأنصاري في خلافة عمر بن الخطاب قال: أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والفاستين والمارقين^(١).

وروي أيضاً عن الأصمغ بن نباتة عن أبي أيوب الأنصاري قال : سمعت النبي

(١) فضائل الخمسة : ج ٢ ص ٣٩٨ نقلاً عن مستدرک الصحيحين ج ٣ ص ١٣٩ .

ﷺ يقول: لعلي بن أبي طالب: تقاتل الناكثين والقاسطين بالطرق والنهر وانات وبالسمعات. قال أبو أيوب: قات: يا رسول الله مع من تقاتل هؤلاء الأقوام؟ قال: مع علي بن أبي طالب^(١).

وروي عن علقمة والأسود قالوا: أتينا أبا أيوب الأنصاري عند منصرفه من صفين فقلنا له: يا أبا أيوب إن الله أكرمك بنزول محمد ﷺ و بمجيء ناقته تفضلاً من الله وإكراماً لك حتى أناخت ببابك دون الناس، ثم جئت بسيفك علي عاتقك تضرب أهل لا إله إلا الله! فقال: يا هذا إن الرائد لا يكذب أهله وإن رسول الله ﷺ أمرنا بقتال ثلاثة مع علي بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فأما الناكثون فقد قاتلناهم أهل الجمل طلحة والزبير، وأما القاسطون فهذا منصرفنا من عندهم يعني معاوية وعمرأ. وأما المارقون فهم أهل الطرق وأهل السعيفات وأهل النخيلات وأهل النهر وانات، والله ما أدري أين هم ولكن لابد من قتالهم إن شاء الله.

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: يا عمار تقتلك الفئة الباغية وأنت إذ ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر إن رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي فإنه إن بدليك في ردى ولن يخرجك من هدى، يا عمار من تقلد سيفاً أعان به علياً على عدوه قلده الله يوم القيامة وشاحين من در، ومن تقلد سيفاً أعان به عدو علي عليه قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار، قلنا يا هذا حسبك رحمك الله حسبك رحمك الله^(٢).

وروي عن خليد العمري قال: سمعت أمير المؤمنين علياً عليه السلام يقول يوم النهر وان: أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين^(٣).

وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن

(١) فضائل الخمسة: ج ٢ ص ٣٩٨ نقلا عن مستدرک الصحيحين ج ٣ ص ١٣٩.

(٢) فضائل الخمسة: ج ٢ ص ٣٩٨ نقلا عن تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ١٨٦.

(٣) فضائل الخمسة: ج ٢ ص ٣٩٨ نقلا عن تاريخ بغداد: ج ٩ ص ٣٤٠.

جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: «فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون»^(١) نزلت في علي بن أبي طالب أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي^(٢).

وقد نبين للقارىء وعلم علماً قطعياً أن قتال علي عليه السلام لهذه الفرق الثلاثة - الناكثين والقاسطين والمارقين - إنما هو بأمر من الله ومن رسوله، والقتال الذي يكون بأمر الله والرسول لا بد أن يكون في سبيل الله، والمأمور لا بد أن يكون هو وأصحابه من المؤمنين كما هو صريح الآية: «الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ولا بد من أن يكون الطرف الآخر المقابل للمؤمنين من الكافرين، وهم الذين أمر الله المؤمنين بقتالهم، ولا يخفى على القارىء الكريم أن الناكثين هم طلحة والزبير وأتباعهم، وأن القاسطين هم معاوية وعمر بن العاص وأتباعهم، وأن المارقين هم الخوارج.

وبعد هذه الآية والأحاديث هل يمكنك أن تقول إن الناكثين والقاسطين قاتلوا في سبيل الله؟ وهل يمكن أن يكون الطرفان قاتلوا في سبيل الله؟ لا يمكن ذلك أبداً. وإذا أردت أن تسمع اعتراف معاوية بأن قتاله لم يكن في سبيل الله فاستمع لما يرويه عباس محمود العقاد في كتابه «معاوية بن أبي سفيان في الميزان». عن الطبري مسنداً إلى سعيد بن سويد أنه قال - يعني معاوية -: ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم^(٣).

وقد اتضح لك أن قتال معاوية ليس لله ولا في سبيله وإنما هو للدنيا، وفي سبيل الدنيا قاتل المؤمنين وسبب قتل النفوس الكثيرة البريئة التي من قتل واحدة منها فكأنما قتل الناس جميعاً، فاحكم أنت على معاوية بما تفهمه من الآية «الذين

(١) الزخرف : ٤١ .

(٢) الدر المنثور : ج ٦ ص ١٨ .

(٣) معاوية بن أبي سفيان في الميزان : ص ١١٦ .

آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، بعدما عرفت أن علي بن أبي طالب عليه السلام قاتل في سبيل الله بأمر من الله ومن رسوله . لاشك ولا شبهة في ذلك كما دلت على ذلك الآية التي نحن في صدددها ، وتفسير الآية التي ذكرناها لك عن الدر المنثور وهي قوله : «فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون» ومع هذا كله نرى بعض الناس إذا كتب اسم معاوية يعقبه بقوله : رضي الله عنه . ثم إن العقاد بعدما ذكر كلمة معاوية السابقة علق عليها بقوله : وهي قوله لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة لأنهم لا يحتاجون إليها ، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ما صبر على مجابهة هذا ومصانعة ذاك وتذكير المذكرين إياه إنه لم يملكهم عنوة ولا فتحاً بل ملكهم المشاركة والاتفاق فتنفس عن صدره بتلك الكلمة ، ولم يحدث من غيره أنه شعر بالحاجة الى تنفيس كذلك التنفيس . لقد كان في الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور^(١) انتهى كلام العقاد .

وأنا مخاطب المسلم وأقول له : هل عرفت معاوية بحقيقته بعدما عرفت معنى الآية ، وعرفت الذي يقاتل في سبيل الله والذي يقاتل في سبيل الطاغوت ، وأن المؤمن هو المقاتل في سبيل الله والكافر هو المقاتل في سبيل الطاغوت ، واعلم أن الذي يسمى معاوية أمير المؤمنين ويترحم عليه إذا ذكره ويطلب له من الله الرضا سوف يحشر تحت إمارته يوم القيامة ويكون معه هناك أينما كان ، فإن كان راغباً في ذلك فإن الله لا يمنعه عنه .

ثانياً : أن الله قد أمر عموم الناس بأن يقاتلوا الشخص الذي يقاتل في سبيل الطاغوت ، فإنه بعدما بين أن المؤمن يقاتل في سبيل الله والكافر يقاتل في سبيل الطاغوت وجه الأمر الى العموم فقال تعالى : « فقاتلوا أولياء الشيطان » فإن الذي

يقاتل في سبيل الطاغوت هو من أولياء الشيطان بلا شك ولا ريب ، وقد أمر الله عباده أن يقاتلوه .

وحيث إن العباد منهم المطيع ومنهم العاصي ، فإن المطيع هو الذي يمثل الأمر ويقاتل الكافر ، وهذا الأمر لا يختص بزمان نزول الآية وإنما يعم جميع الأزمنة فالواجب على المؤمن المطيع لله في كل زمان أن يقاتل الكافر الذي قاتل في سبيل الطاغوت ، وكيفية قتاله أن يظهر كفره للناس ويعرفهم أنه قاتل في سبيل الطاغوت . وقد انكشف لك أيها المسلم من الآية ومن الأحاديث ومن كلمات المؤرخين أن علي بن أبي طالب عليه السلام قاتل في سبيل الله ، وأن معاوية قاتل في سبيل الطاغوت كما اعترف هو بنفسه ، فيلزم على المسلم أن يوضح الأمر للناس ولا يكتمه ، وهذا هو الأمر الموجه إليك من الله بقوله « فقاتلوا أولياء الشيطان » .

ثم إن الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت في هذا العصر أكثر مما كانوا في العصور السابقة ، وأهل هذا العصر أكثر موالاة للشيطان ممن كان قبلهم ، فيكون وجوب قتالهم على المؤمنين المطيعين لأمر الله أشد وأقوى ، فلا ينبغي السكوت عنهم والكف عن قتالهم ، وإن لم يمكن القتال بالسلاح فليكن باللسان والقلم ، فإنه لم يبق من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا تلاوته في دور الاذاعة .

وبدل على هذا ما نقله صاحب فضائل الخمسة عن كنز العمال ، قال : عن أبي رافع : دخلت على رسول الله ﷺ وهو نائم أو يوحى إليه وإذا حية في جانب البيت فكرهت أن أقتلها وأوقظه ، فاضطجعت بينه وبين الحية فإذا كان شيء كان بي دونه ، فاستيقظ وهو يتلو هذه الآية : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » فقال : الحمد لله . فرآني إلى جنبه فقال : ما أضجعت هنا ؟ قلت : لمكان هذه الحية . قال : قم إليها فاقتلها . ثم أخذ بيدي فقال : يا أبا رافع سيكون بعدى قوم يقاتلون علياً ، حقاً على الله جهادهم ، فمن لم

يستطع جهادهم بيده فبلسانه، فمن لم يستطع بلسانه فبقليه ليس وراء ذلك شيء. قال: أخرجه الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم^(١) انتهى ما نقله عن الكنز، وهذا هو الدليل على ما قلناه.

مقاله المراغي :

يقول صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير المراغي في تفسيره لهذه الآية : إن المؤمنين إنما يقاتلون لأجل إعلاء كلمة الحق ، والكافرين إنما يقاتلون اتباعاً لوسوسة الشيطان وتزييناً للمكفر ، فلو ترك المؤمنون القتال لغلب الطغيان وعم الفساد ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ،^(٢).

ثم حث مرة أخرى على القتال وبيّن لهم ضعف عدوهم فقال : « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » أي فقاتلوا أيها المؤمنون - أولياء الرحمن - أولياء الشيطان الذين زين لهم الشيطان بوسوسته وخداعه أن في الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفاً لهم أيما شرف .

وقد جرت سنة الله أن الحق يعلمو والباطل يسفل، وأن الذي يبقى هو الأصلح والأفضل ، فالذين يقاتلون في سبيل الله يطلبون ما تقتضيه سنة العمران، والذين يقاتلون في سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم^(٣) وسنن العمران تأبى ذلك فلا يكون لذلك قوة ولا بقاء، إلا لنومة أهل الحق عن حقهم، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم تغلب الحق على الباطل ورده خاسئاً محسوراً ، إلا أن الذين يقاتلون في تأييد الحق تتوجه

(١) فضائل الخمسة : ج ٢ ص ٤٤٠ نقلا عن الكنز ولم نجده فيه بل وجدناه في الدر المنثور:

ج ٢ ص ٢٩٤ مع اختلاف يسير.

(٢) البقرة : ٢٥١ .

(٣) كما قال معاوية : ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وقد عرفت أنكم

تفعلون ذلك ، ولكن إنما قاتلتكم لاتأمر عليكم.

همهم الى إتمام الاستعداد ويكونون أجدر بالثبات والصبر ، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العدد والعُدَد.

وهذا في الحروب الدينية التي قد تر كها المسلمون منذ أزمان طويلة، ولو وجدت في الأرض حكومة إسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد العدة للحرب لاتخذها أهل المدنية قدوة لهم وإماماً في أعمالهم^(١) انتهى كلام المراغي .

فقد نبّه هذا العلامة الكبير هموم المسلمين الى أن معاوية وأمثاله إنما يقاتلون في سبيل الشيطان لأنهم يطلبون الانتقام والاستعلاء في الأرض بغير الحق وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم ، كما نقل لك العقاد كلامه المتقدم .

ماقاله الفخر الرازي :

وقال الفخر الرازي في تفسيره للآية المباركة : واعلم أنه تعالى لما بيّن وجوب الجهاد بيّن أنه لا عبرة بصورة الجهاد بل العبرة بالقصد والداعي، فالؤمنون يقاتلون لغرض نصره دين الله وإعلاء كلمته، والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت وهذه الآية كالدلالة على أن كل من كان غرضه في فعله رضا غير الله فهو في سبيل الطاغوت لأنه تعالى لما ذكر هذه القسمة - وهي أن القتال إما أن يكون في سبيل الله أو في سبيل الطاغوت - وجب أن يكون ماسوى الله طاغوتاً .

ثم إنه تعالى أمر المقاتلين في سبيل الله بأن يقاتلوا أولياء الشيطان، ويبين أن كيد الشيطان كان ضعيفاً لأن الله ينصر أولياءه والشيطان ينصر أولياءه، ولا شك أن نصره الشيطان لأوليائه أضعف من نصره الله لأوليائه، ألا ترى أن أهل الخير والدين يبقى ذكرهم الجميل على وجه الدهر وإن كانوا حال حياتهم في غاية الفقر والذلّة ، وأما الملوك والجبابرة فإذا ماتوا انقرض أثرهم ولا يبقى في الدنيا

رسمهم ولا ظلمهم^(١) انتهى محل الحاجة من كلام الرازي .

هلمتوا أيها الاخوان لننظر أن قتال معاوية وطالحة والزبير لعلي بن أبي طالب عليه السلام هل كان في سبيل الله ؟ وهل يمكن أن نقول إن الرسول ﷺ أمرهم بحربه بعدما ذكرنا من الروايات أن الرسول هو الذي أمر علياً بحربهم وقتالهم ؟ فلا يمكن أن يأمرهم بقتاله، فلا يكون قتالهم في سبيل الله وقد سمعت ما قاله الفخر الرازي من أن كل قتال لم يكن في سبيل الله وجب أن يكون طاغوتاً فلا نصر على ما أنت عليه ، فإن الأمر دائر بين الإيمان والكفر ، فافهم واغتنم .

ما قاله سيد قطب :

قال في تفسيره بعد ما شرح قوله تعالى : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » الخ : ثم لمسة نفسية أخرى لا تقل عن هذه الأولى ، أن اقتناع المقاتل بأنه يقاتل للحق ولغاية نبيلة وبأن عدوه معتد أو يبتغي غاية خسيصة عامل قوي في رفع قواه المعنوية وفي إقدامه على التضحية باطمئنان ، فإذا اضيف الى هذا الاقتناع أنه ليس على الحق فقط إنما هو كذلك أقوى وسنده أكبر وذخيرته أوفر ، وأن عدوه موهون القوى منخوب القلب مستند الى هواء ، فإن هذه الروح المعنوية ترتفع الى ذروتها بهذا الإيحاء ، فإذا كان هذا الإيحاء قائماً على حقيقته في الواقع القريب وفي حساب الكون البعيد فإن النصر مقطوع به للمجاهدين المحققين الأقوياء .

و كذلك تعرض القرآن موقف الذين آمنوا وأعداءهم في هذا السياق ، « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

وفي لحظة ترسم الأهداف وتتضح الخطوط في الميدان ويقف الذين آمنوا تحت راية الحق المطلق « يقاتلون في سبيل الله » لا قرار شريعته وتحقيق عدله

الذي مرّ وصفه وأداء الأمانة التي بدأ بها السياق كله^(١) ويقف الذين كفروا تحت راية الباطل المطلق « يقاتلون في سبيل الطاغوت ، لتغليب الباطل على الحق والطغيان على العدل معرضين عن الأمانة التي ناطها الله بالإنسان في الأرض . . . يقف المسلمون مستندين الى قوة الله وحمايته ورعايته ، ويقف الكافرون ووليهم الشيطان ، فأين قوة الشيطان من قوة الله ، وأين كيد الشيطان من تدبير الله « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

إنّ مصير المعركة معروف ونهايتها مكشوفة ، فما على المؤمن إلا أن يؤدي واجبه ، والنصر مضمون تشهد به جميع الملابسات والظروف^(٢) انتهى. فعلى المؤمن أن يعرف واجبه لكي يؤديه .

قوله تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلنا عليهم حفيظاً (٨٠)

(١) يقصد بذلك آية ٥٨ التي تقدم شرحها في ص ٨ وهي قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » اذ أن أغلب المفسرين قالوا بأن الامر موجه الى اولى الامر الذين أودع الله الاحكام عندهم وأمر الناس باطاعتهم ، فان هؤلاء هم الذين يقاتلون في سبيل الله وهم المؤمنون ، والذين يقابلونهم ويقاتلونهم هم أولياء الشيطان الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت وهم الكافرون ، وأن الله قد أمر عباده بقتال أولياء الشيطان. فكل من يرى في نفسه القدرة والكفاءة على قتالهم بالسلاح أو باليد أو باللسان أو بالقلم يجب عليه امثال أمر الله.

وقد اتضح من الآية : أن منهم معاوية وطلحة والزبير لان علياً كان قتاله لهم في سبيل الله ، اذ كان بأمر رسول الله ، فلا يمكن أن يكون قتالهم له في سبيل الله أيضاً ، ولا ثالث للقسمين ، فيلزم أن يكون قتالهم في سبيل الطاغوت وان يكرنوا هم من أولياء الشيطان .

هذا ما أراه واجباً على أن أقوله في تفسير الآية ، وأما غيري ممن يكتب في تفسيرها فعليه أن يؤدي ما يراه واجباً عليه ، والله سائلنا يوم القيامة عن علمنا وعن عملنا وعن نيائنا .

(٢) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٧٠٩ .

هذه الآية الشريفة كبقية الآيات الكثيرة الموجودة في القرآن تبين لنا أن إطاعة الله إنما تتحقق وتحصل بإطاعة الرسول ، وأن من لم يطع الرسول فهو غير مطيع لله وذلك لأن أوامر النبي ﷺ إنما هي من الله وبأمره ، وهو الذي يأمر الرسول بأن يبين لأمة الواجبات والمحرمات ، فهو ينطق عن إرادة الله ويعرفنا بأوامره ونواهيه وليس له أمر أو نهى من نفسه ، فيكون كل ما يأمر به أو ينهى عنه إنما هو أمر الله ونهيه ، والرسول واسطة بين الله وبين عباده . فبعد ما تعتقد الأمة بصدقه وتعترف برسالته يجب عليها أن تطيعه في جميع الأوامر ، فمن خالفه في ذلك فهو غير مصدق بنبوته ، فالموحد لله الذي يعتقد بأن إطاعة الله هي التي توجب له النجاة والفوز بالجنان ، وأن عصيانه يوجب له البعد عن الله والعذاب ، فهذا العبد ينبغي له أن يطيع الرسول الذي قد ثبتت رسالته لأنه هو المبلغ عن الله أما إذا اعتقد بالوحدانية وبوجوب إطاعة الله وامتنال أوامره واعتقد أيضاً بصدق الرسول وثبوت رسالته فأطاعه في بعض الأوامر وخالفه في بعضها فإن هذا الشخص عند التحليل والتحقيق هو غير مصدق بالنبي أو غير مؤمن بالله ، وهذا في وجود النبي ﷺ .

وأما إذا أخبر النبي ﷺ أمته بأنه سير تحمل عنهم إلى دار القرار وأمرهم بشيء إذا هم تمسكوا به سوف يبقون على ما هم عليه من الإيمان ، وإذا انفكوا عنه وتركوه ضيعوه فسوف يضلوا عما كانوا عليه من الإيمان ، فالؤمن الحقيقي سوف يطيع النبي ﷺ فيما أمره به ، وأما ضعيف الإيمان أو المشكك أو الذي يردد بعد الإيمان فإنه سيمترك وصية النبي ﷺ ولا يعمل بها ، وهذا التقرير واضح مستفاد من الآية .

و من الأمور المحققة التي أوصى بها النبي ﷺ أمته باتفاق جميع أصحابه قوله ﷺ : إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، لن تضلوا إن تمسكتم بهما فإنهما لا يفترقان حتى يردا على الحوض .

أيها المسلم إنك في صلاتك تسأل الله أن يهديك إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم وقد أرشدك الله إلى ذلك في آية ٦٩ من سورة النساء التي تقدم شرحها في ص ٤٤ ، وكذلك تسأل الله أن يجنبك ويباعدك عن طريق المغضوب عليهم وعن طريق الضالين ، وهذا النبي ﷺ الشفيق عليك الرؤوف بك يرشدك ويقول لك : إذا أنت تمسكت بهذين الأمرين - الكتاب والعترة - لن تكون من الضالين ، فإذا كنت صادقاً في طلبك من الله أن يبعدك عنهم فتمسك بالأمرين ، وإن لم تتمسك بهما تبين عدم صدقك في طلبك وانكشف عدم إطاعتك للرسول ، وبذلك يثبت عدم إطاعتك لله ، فإن "من يطع الرسول فقد أطاع الله" .

هذه هي الحقيقة ، فإن كنت تريد أن تمشك بها ، وإلا فإن "أمور الدين ليست كأمور الدنيا ، فإن المرء المنطوي على الغش والخبث إذا أراد أن يتعامل مع شخص آخر في بيع أو شراء نراه يخادع ويتقلب في الكلام ويعترف ثم ينكر ، وإن أغلب الناس يظن أن "أمور الدين كأمور الدنيا فيقول بلسانه أنا مؤمن وهو يعمل عمل الكافر ، ويظهر التقى للناس وهو يعمل عمل الفاسقين ، ويعترف ظاهراً بالشهادتين وهو يخالف أوامر النبي في الأصول والفروع ، وإلا فإن النبي ﷺ أمرنا بشيء لو تمسكنا به لا يفوتنا حكم واحد من أحكام الدين ، أمرنا بالتمسك بالكتاب والعترة ، أما الكتاب فإن فيه علم ما كان وما يكون حتى أرش الخدش ، وأما العترة فهم الراسخون في العلم الذين أخبر الله عنهم أن "عندهم علم الكتاب" .

و بعد هذا لا يحتاج المسلم إلى شيء أبداً ، فلو أن "أمة النبي امتثلت أمره وتمسكت بهذين الأمرين تمسكاً صحيحاً لما كانت تحتاج إلى شيء ، ولما وقع الخلاف بينها ، ولكن كما ذكرت لك قبل أسطر أن أغلب الناس يظنون أن "أمور الدين كأمور الدنيا يكون فيها الخداع والمكر والحيلة والغش وأمثال ذلك . أيها المسلم إن الذي يطيع الرسول في بعض الأمور ويخالفه ويعصيه في

بعضها لا يسمى مطيعاً، وإن المطيع هو الذي يطيعه في جميع الأمور كلية وجزئية في حياته وبعد وفاته، فيكون قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» معناه أن من أطاع الرسول في جميع ما أمر به من الواجبات وجميع ما نهى عنه من المحرمات فهو مطيع لله، ومن عصى الرسول وخالف أمره في شيء من الأشياء وفي حكم من الأحكام فهو مخالف لله.

أما إذا كان هذا الشيء الذي خالف به الرسول و عصاه يشمل جميع الأحكام يكون المخالف فيه مخالفاً في جميع الأحكام، فإن خالف المسلم رسوله في قوله ﷺ «أيها الناس إني نارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» - والتي تشمل جميع الأحكام - فقد خالف في الكل .

ما قاله الفخر الرازي:

وقال في تفسيره الكبير:

(المسألة الأولى) قوله تعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله» من أقوى الدلائل على أنه معصوم في جميع الأوامر والنواهي وفي كل ما يبلغه عن الله لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله، وأيضاً وجب أن يكون معصوماً في جميع أفعاله لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله «اتبعوه»^(١) والمتابعة عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لأجل أنه فعل ذلك الغير فكان الآتي بمثل ذلك الفعل مطيعاً لله في قوله «اتبعوه» فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وفي جميع أفعاله - إلا ما خصه الدليل - طاعة لله وانقياداً لحكم الله .

(المسألة الثانية) قال الشافعي رضي الله عنه في كتاب الرسالة في باب فرض الطاعة للرسول: إن قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» يدل على أن كل تكليف كلف الله به عباده في باب الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر

(١) إشارة الى قوله تعالى في آية ١٥٨ من سورة الاعراف «فآمنوا بالله ورسوله النبي

الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه » .

الأبواب في القرآن ولم يكن ذلك التكليف مبيّناً في القرآن فحينئذ لا سبيل لنا إلى القيام بتلك التكليف إلا ببيان الرسول ، و إذا كان الأمر كذلك -لزم القول بأن طاعة الرسول عين طاعة الله ، هذا معنى كلام الشافعي ^(١) انتهى كلام الرازي .

وقد اتضح من كلام الرازي و مما نقله من كلام الشافعي أن المقصود من الآية الشريفة كما هو صريح الآية بأن الإنسان لا يتحقق إيمانه إلا أن يكون مطيعاً للرسول الذي بإطاعته يتحقق إطاعة الله ، و من لم يطع الرسول فهو ضال . ومن يرد أن يتجنب الضلال ويتباعد عنه بأن يكون من المؤمنين يلزمه إطاعة الرسول في هذه الجملة الجامعة لمجمع الأحكام وهي قوله ﷺ : إني تارك فيكم الثقلين فإنكم لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما : كتاب الله و عترتي أهل بيتي ^(٢) .

فإن الإنسان المسلم في كل حكم من الأحكام -سواء كانت من الأصول أم من الفروع من أحكام الدين أو من أحكام الدنيا- يلزمه أن يأخذ الحكم الحقيقي الذي يرضى به الله والرسول من الكتاب ومن العترة وإن لم يأخذه من هذين المصدرين فهو ضال . بصريح عبارة الرسول كما عرفك الرازي والشافعي ، فتأمل في كلامهما . وقبل النظر إلى كلامهما تأمل في كلمة الرسول ، وقبل ذلك تأمل في الآية الشريفة ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، فإن كنت صادقاً في قولك عند صلاتك « إهدنا الصراط المستقيم » صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فامتثل أمر الله وامتثل أمر الرسول واهمل بما تكلمت به ولا تكذب الله ورسوله ولا تكذب نفسك ، والسلام على من اتبع الهدى .

فهذه الآية الشريفة مركبة من جملتين : الجملة الأولى تبين حقيقة المؤمن

(١) تفسير الرازي : ج ١٠ ص ١٩٣ .

(٢) بحار الأنوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

تفصيلاً بيّناً على اختصارها وقلة كلماتها بحيث لم يبق شيء من أحوال المؤمن ومن أفعاله وأقواله إلا بيّنته بأوضح بيان ، ففي كل حركة وسكون وتكلم وسكوت وقيام وقعود وأخذ وعطاء ومدح أحد أو ذمه إن كان مطيعاً للرسول فهو مطيع لله وهو من المؤمنين ، وإن لم يكن مطيعاً للرسول فهو غير مطيع لله .
وأما الجملة الثانية وهي قوله تعالى : « ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » . فإن فيها تهديد ووعد شديد يعرفه الذي يحسن اللغة العربية .

ومعنى الجملة : إن الذي أبى وامتنع عن إطاعة الرسول ولم يمثل أوامره ولم ينته عن نواهيه فيشمل : من كان كافراً ، أو مشركاً ، ومن أظهر الإيمان وأبطن الكفر وهو المنافق ، أو آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه ، أو آمن واتبع هواه ولم يطبق أحكام الدين وهو الفاسق ، أو آمن بالنبي وعمل بأوامره أيام حياته ولكن بعد موته كان كما أخبر الله بقوله : « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »^(١) .
ومجمل القول إنه لم يطع الرسول بأي نوع وفي أي وقت وبأي أمر كان فإن جميع هذه الأنواع والأقسام يسمى متولياً ، فالله يخاطب نبيه ويقول له : « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » أي أن الله لا يسألك عن عصيانهم وعن عدم إطاعة أمره وهو عالم بهم وهو قادر على جزائهم ، فإن مرجعهم إليه وجزاءهم عليه .

فليحذر المسلم مخالفة الرسول ولا يكن مطيعاً له في جميع الأمور ، فإن المخالفة تتحقق في كل واحد من هذه الأمور التي تقدم ذكرها ، ويكفي في تحققها في مخالفة واحد منها ، والطاعة لا تتحقق إلا بطاعته في جميع الأمور .

ولا يمكن أن تؤلف كلمة لقاعدة تعم جميع الأمور الدينية أخصر من كلمة النبي ﷺ : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله وعترتي أهل بيتي^(٢) فإنها على اختصارها تكفي المسلم والمؤمن للعمل بهافي كل

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

اموره الديوية والاخرية وتكفيه عذراً وحجة بين يدي الله يوم يوقف للحساب فلا ينبغي لمن يحتاط لدينه أن يغفل عنها ويهملها ويتركها كأن لم يقلها النبي مع ما فيها من الشدة والرغبة والوعيد حيث جعل النبي الضلال في تركها وعدم التمسك بها ، فهي أبلغ كلمة حفظت للنبي ﷺ ، وهي أخصر كلمة تبين لك حكمك في كل شيء ، كما أنها أوسع كلمة معنى " وأعم " كلمة دلالة لكل شيء .
لقد عرفت أن الذي يتولى عن طاعة الرسول على أنواع وأقسام ، وقد أشار الله الى نوع منهم وهم المنافقون لأنهم أكثر ضرراً على المؤمنين من غيرهم فقال تعالى :

ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً (٨١) .

لقد عرفت من الآية السابقة أن المؤمن بالله المصدق برسوله يلزمه أن بطيع الرسول في كل شيء ولا يخالفه في شيء أبداً ، فمن خالف في حكم واحد فقد أخل في صدق اسم المؤمن عليه إلا أن يتوب ويرجع أن تكون مخالفته عن غير عمد فيتدارك أمره .

وأما هذه الطائفة التي ذكرها الله في هذه الآية فإنهم غير مؤمنين ونياتهم سيئة خبيثة من أول الأمر ، وإنما يحضرون عند النبي إما لأجل المحافظة على نفوسهم وأموالهم وإما لأجل أن يطاعوا على ما يقوله النبي وما يأمر حتى يعملوا على خلافه .

إن أمر هؤلاء القوم لعجيب غريب ، فإننا على ما نرى بهم من المكر والحيلة والشيطنة والاتفات الى دقائق الامور نراهم من جهة اخرى لا يفقهون ولا يعقلون

فإن الوحي ينزل على النبي ويخبره عما انطوت عليه ضمائرهم وعما يبيتونه من السوء والخلاف، ومع ذلك لا يصدقون ولا يعتقدون بالحق، فهم على أحوال مختلفة ولعل النبي كان يوعز إليهم بعض الأوقات ويخبرهم عما يضررونه فيظهرون التوبة وهم باقون على ما هم عليه .

إن هؤلاء القوم الذين يخالف باطنهم ظاهرهم كانوا في زمن وجود النبي أقل ضرراً على المسلمين لأن الوحي كان ينزل على النبي ﷺ ويخبره بهم وكان يعرفهم بأسمائهم وأعيانهم، فلا يفسح لهم المجال في التصرف بالأقوال والأفعال ولكن ضررهم على المسلمين وعلى الدين في هذا الزمان كثير ولا يمكن الاحتراز منه والتوقي عنه، فإنهم مختلطون مع المؤمنين ويجتمعون في مجالسهم وقديروا خذ بآرائهم وأفكارهم، كل هذا حيث إن المسلمين لم يعملوا على طبق قانون القرآن والسنة، ولذا نراهم ينخدعون بالأعداء، ولو أنهم تمسكوا بما أمرهم به النبي ﷺ من الكتاب والعترة وساروا في الطريق المستقيم لما وقعوا في هذه المهالك. إن هذه الأحزاب المملحة التي حدثت في هذا العصر كلها تبیت للمسلمين ما يقضي عليهم ويشتت أمرهم ويفرق جمعهم، وقد بلغوا الكثير مما يبيتوه والمسلمون في غفلة عن ذلك لاهون عنه إذ لا يهمهم أمر الدين .

طريق الاحتراز عن كيد الأعداء بما أرشدنا الله إليه :

إن الله يبين للنبي ﷺ بأن هناك طائفة بين المسلمين يظهر رونا والرضا والطاعة لأمر الدين والطاعة لما يقوله الله والرسول ولكن قلوبهم منطوية على خلاف ذلك، وليس المقصود من الخلاف هو عدم العمل وعدم الرضا بما يقوله الله والرسول فحسب بل أنهم يدبرون أموراً فيما بينهم سراً وتحت الخفاء وتحت ستار الظلمة في الأمكنة التي لا يحضرها المسلمون . وبهذه الأمور التي يبيتونها يقلبون نظام الاسلام ويرجعون ضعفاء المسلمين الى الالحاد والكفر والنفاق بل الى

التجرد من الدين والرجوع الى التحلل الجاهلي، وأن النبي ﷺ يعرف اولئك الأشخاص بأعيانهم ويعرف ما يبيتون من امور هدامة فيتحرز منها ويأمر المسلمين بالتحرز منها .

ولما أراد أن يحفظ أمته من كيد الأعداء بيّن لهم قاعدة قليلة الألفاظ كثيرة المعاني واسعة الأحكام شاملة لكل أمر يمكن أن يتدخل به العدو وأمرهم بالتمسك بها لتحفظهم مما يبيت لهم عدوهم من إيقاعهم في الضلال وردهم الى الجهل ، وهذه القاعدة هي قوله ﷺ : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً ... الخ ، كما تقدم ذكرها مراراً عديدة .

وإن الله .. لما يعلمه من الآفة من أنهم لا يطبقون أمر النبي ﷺ في التمسك بهذه القاعدة - أرشدهم الى شيء آخر يتحرزون به عن كيد العدو فيما يبيتهم بقوله تعالى : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » . مضمون ما تفيده الآية هو : أنك أيها المسلم إذا أردت أن تكون مؤمناً حقيقياً مقبولاً عند الله وعند الرسول فينبغي لك أن تطيع الرسول فيما يأمرك به من التمسك بالكتاب وبمن يعرف تأويله وتفسيره وهم العترة ، فإنك إذا تمسكت بهما لاتقع في كيد الأعداء ولا تضل أبداً ، لأن الطريق الذي يرشدك إليه الكتاب مع تأويل الراسخين وهم العترة هو طريق مستقيم ليس فيه ميل ولا عوج ، أما إذا كنت غير عامل بأمر النبي وأردت أن لاتقع في كيد الأعداء لأن عندك شيئاً من الايمان ولا تريد أن تكون من الضالين فعليك بأمرين آخرين إن أنت تمسكت بهما نجوت من كيد عدوك : الأول : قوله تعالى : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » ، إن الاعراض عنهم يعني عدم عقابهم وعدم توبيخهم وعدم مؤاخذتهم وعدم الالتفات الى الأمر الذي دبروه وبيتوه ، وهذا الاعراض ينسب عن عدم الالتفات إليهم وعدم عدوهم من المؤمنين بل عدم عدوهم من البشر الذين يعتد بهم ، وأنهم لأهمية لهم في المجتمع ، وهذا مما يحقرهم في أنفسهم ويصغر قدرهم ، فإنهم قد اهتموا وفكروا ودبروا واستتروا عن الناس

وتكتموا في الأمر وتشاوروا وقلبوا الأمور ثم استقر رأيهم على هذا الأمر وتيقنوا أنهم سيقلبون به نظام الدين ويفرقون به جمع المسلمين، فإذا بالمسلمين غير ملتفتين إليه ولا يعبرونه أي اهتمام، وهذا مما يحقرهم في نفوسهم ويجعلهم أذلاء خاسئين.

الثاني : قوله تعالى : « وتوكل على الله » والمراد من التوكل هو أن يفوض أمره إليه وأن يثق به في جميع الأمور ، فإن الله يكفيه شر عدوه وينتقم له من عدوه ، وقد عرف التوكل بتعاريف عديدة .

فمن المحقق الطوسي قال: المراد بالتوكل أن يكفل العبد جميع ما يصدر عنه ويرد عليه الى الله تعالى لعلمه بأنه أقوى وأقدر ، ويضع ما قدر عليه على وجه أحسن وأكمل ، ثم يرضى بما فعل ، وهو مع ذلك يسمى ويجتهد فيما وكّله إليه ويعد نفسه وقدرته وعمله وإرادته من الأسباب والشروط المخصصة لتعلق قدرته تعالى وإرادته بما صنعه بالنسبة إليه^(١) انتهى .

وقال المحقق المجلسي: ثم إن التوكل ليس معناه السعي في الأمور الضرورية وعدم الحذر عن الأمور المحذورة بالكلية بل لابد من التوسل بالوسائل والأسباب على ما ورد في الشريعة من غير حرص ومبالغة فيه ، ومع ذلك لا يعتمد على سعيه وما يحصله من الأسباب بل يعتمد على مسبب الأسباب^(٢) .

وروي في حديث عن النبي ﷺ أنه قال لجبرائيل: وما التوكل على الله عز وجل؟ فقال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق ، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله ، فهذا هو التوكل^(٣) .

وروي عن الحسن بن الجهم قال : سألت الرضا عليه السلام فقلت له : جعلت فداك ما أحد التوكل؟ فقال لي : أن لا تخف مع الله أحداً ، قال : قلت : فما أحد التواضع

(١) نقله صاحب البحار : ج ٧١ ص ١٢٧ ب ٦٣ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧١ ص ١٢٧ ب ٦٣ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧١ ص ١٣٨ ب ٦٣ ح ٢٣ .

قال : أن تعطي الناس من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله ، قال : قلت : جعلت فداك أشتهي أن أعلم كيف أنا عندك؟ فقال : انظر كيف أنا عندك^(١) .

ثم لا يخفى عليك أن هذين الأمرين الذين بيتهما الله لنا لكي نتحرز بهما عن كيد الأعداء لا يكفي أحدهما عن الآخر بل لابد من الجمع بينهما مضافاً إلى الرجوع إلى إطاعة الله بإطاعة الرسول وذلك بأن يكون الإنسان مؤمناً حقيقياً جامعاً لشروط الإيمان التي يجمعها شيء واحد وهو إطاعة الرسول .

فالإنسان إذا بقي مدة من الزمن غير مطيع للرسول على ما يريد الله منه من كيفية الإطاعة ثم التفت إلى نفسه ورأى أعداءه قد تغلبوا عليه أو أوشكوا على التغلب عليه وأراد أن ينجيه الله منهم عليه أن يعرض عنهم ويتوكل على الله ويعمل بأوامره بأن يطيع الرسول إطاعة تكون عين إطاعة الله ، فحينئذ ينجيه الله من كيد الأعداء ويخلصه منهم ، فإنه يقول بعد ذكر الأمرين : « وكفى بالله كميلاً ، أي أن الله يكفي من توكل عليه ولا يسلط عليه عدوه .

فقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : أوحى الله تعالى إلى داود : ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن^(٢) .

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله عز وجل أقبل الله قبل ما يحب ، ومن اعتصم بالله عصمه الله ، ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية ، أليس الله تعالى يقول : « إن المتقين في مقام أمين^(٣) .

(١) بحار الأنوار : ج ٧١ ص ١٣٤ ب ٦٣ ح ١١ .

(٢) بحار الأنوار : ج ٧١ ص ١٤٤ ب ٦٣ ذيل ح ٤٢ .

(٣) تفسير البرهان : ج ٤ ص ١٦٤ ، والآية ٥١ من سورة الدخان .

وعن بيان التنزيل لابن شهر آشوب قال : أمر نمرود بجمع الحطب في سواد الكوفة عند نهر كوثا من قرية قطنانا ، وأوقد النار ، فعجزوا عن رمي إبراهيم عليه السلام فعمل لهم إبليس لعنه الله المنجنيق فرمى به فتلماه جبرئيل في الهواء فقال : هل لك من حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، حسبي الله ونعم الوكيل ، فاستقبله ميكائيل فقال : إن أردت أن أخدم النار فإن خزائن الأمطار والمياه بيدي ، فقال : لا أريد ، وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيبت النار ، فقال : لا أريد ، فقال جبرئيل : فاسأل الله ، فقال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ^(١) .

وعن كنز الكراجكي قال لقمان لابنه : يا بني ثق بالله عز وجل ثم سل في الناس هل من أحد وثق بالله فلم ينجه ، يا بني توكل على الله ثم سل في الناس من ذا الذي توكل على الله فلم يكفه ، يا بني أحسن الظن بالله ثم سل في الناس من ذا الذي أحسن الظن بالله فلم يكن عند حسن ظنه ^(٢) .

وعن إرشاد القلوب روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إن النبي صلى الله عليه وآله سأل ربه سبحانه ليلة المعراج فقال : يا رب أي الأعمال أفضل ؟ فقال الله عز وجل : ليس شيء عندي أفضل من التوكل علي والرضا بما قسمت ^(٣) .

إن هذا التوكل الذي عرف بهذه التعاريف لا يتحقق إلا من مؤمن عارف قوي الإيمان مطيع لله ولرسوله ، فلا بد وأن يكون هذا ملتفتاً إلى ما حل به أو إلى ما يبيتونه له أعداء الدين من المكر به وسلب دينه وجره إلى الالحاد والتحلل ، وهو لا يريد أن يخرج من الدين ، وحينئذ لا يجد ملجأً إلا إلى الرجوع إلى الدين فيتوكل على الله ويطيع الرسول ويعمل بما يأمره به من أوامر الله ونواهيه ، وليس لمن يريد ذلك إلا التمسك بما أمره النبي به وهو الكتاب والعترة

(١) بحار الانوار : ج ٧١ ص ١٥٥ ب ٦٣ ح ٧٠ نقلاً عن بيان التنزيل .

(٢) بحار الانوار : ج ٧١ ص ١٥٦ ب ٦٣ ح ٧٣ نقلاً عن كنز الكراجكي .

(٣) إرشاد القلوب : ص ١٩٩ .

فإن الكتاب فيه الدين الخالص ، وفيه حكم كل شيء ، والعترة هي التي تعرف معناه وتأويله ، وهم الراسخون في العلم الذين تقدم ذكرهم في تفسير الآية ، فإذا حسنت النية وصحت السريرة وتوكل على الله يكفيه الله كل شيء كما قال تعالى : « إن المتقين في مقام أمين » .

إن هذا الحكم الذي ذكر في آية (٨٠ و ٨١) يخص كل إنسان بذاته ولا يرتبط بغيره من أب أو أم أو أخ أو رئيس أو قرابة وإنما تهمته نفسه الخاصة ، فعليه أن ينظر لما يجب عليه أولاً وبالذات وهي طاعة الرسول حتى يكون بطاعته قد أطاع الله ، وإياه أن يتولى عن ذلك ، ولعل إتيان صيغة المفرد في الآيتين يدل ذلك ويشير إليه قوله تعالى :

أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٨٢) .

هذا إنكار على كل من لم يطع الرسول ولم يمثل أوامره ونواهيه مهما كان السبب في ذلك ، إما لعدم التصديق به ، أو لضعف إيمانه ، أو لكونه منافقاً ، أو لاشتباه الأمر عليه من جهة عدم التفكير والتروي في الأوامر حتى وقع في الجهل والخلط ، أو لاتباعه لغيره كتقليد الأعمى ، وعلى كل حال فهو غير معذور ، وذلك لعدم التدبر ، فالله تعالى ينبئه عباده رحمة لهم ورأفة بهم ويقول لهم إن كل فرد منكم له عقل يميز به الحسن من القبيح ، وقد جاءكم الرسول بقرآن من عند الله ، وأن العقل يحكم عليكم بالتدبر في هذا القرآن والنظر في أحكامه ، فإنه إن كان من عند الله لا يوجد فيه اختلاف في الأحكام والخبار ، وإذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف كثير ، فعليكم بالتدبر قبل أن تقعوا في مخالفة الرسول ، لأنكم إذا خالفتموه وكان القرآن من الله يصيبكم العذاب بسبب مخالفتكم إياه ، فإن

تدبرتم آياته عرفتم أنه الحق من ربكم وأن ما وعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة .

ولا يخفى على العاقل أن هذه الآية حجة بالغة على جميع البشر مهما كان دينهم وعقيدتهم وبأي زمان أو مكان كانوا ومهما كانت لغتهم ، فإن العقلاء من أهل هذا العصر قد توصلوا الى اختراعات عظيمة ، كل ذلك بأفكارهم وعقولهم ، وقد اقتبسوا من الآيات القرآنية علوماً جمة واعترفوا أن البشر عاجز عن إدراك مثلها ، ومع ذلك لا يعيرون أهمية لما يدعو إليه هذا القرآن من التوحيد ونبوة من انزل عليه ، فهم يقتبسون منه ما ينفعهم لدنياهم ويتركون ما يدعو الى اخراهم . أما العرب من البشر ومن يعرف لغة القرآن فالحجة عليهم أكبر والعقاب على ترك القرآن أعظم . فإن جميع البلغاء والفصحاء والخطباء والمفوهين من يوم نزوله الى هذا اليوم ماقدروا أن يأتوا بآية واحدة مثله وماقدروا أن يأخذوا عليه خطأ واحداً من اختلاف في قول أو فعل أو غير ذلك مما يؤخذ على كل أحد فيما يلقيه من الكلام ، فاللائمة على العرب أعظم وأكثر .

وأما من أظهر الإيمان به والتصديق بمن انزل عليه ثم خالفه في العمل فاستحل ما حرمه القرآن وحرم ما أباحه فإن العذاب عليه عظيم والوزر في مخالفته كبير ، فإن هذه الامم المسلمة لو كان عملها على طبق القرآن لسادت الامم وملكت العالم ولأسلمت امم كثيرة بسبب أعمالها الصحيحة المطابقة للقرآن .

يقول الاستاذ الكبير الشيخ مصطفى المراغي في تفسيره : ولو وجدت في الأرض حكومة اسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد العدة للحرب لاتخذها أهل المدنية قدوة لهم وإماماً في أعمالهم^(١) انتهى .

ماقاله الفخر الرازي :

وقال في تفسيره الكبير :

(المسألة الثانية) اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد ﷺ إذ لو لم تحمل الآية على ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها البتة ، والعلماء قالوا: دلالة القرآن على صدق محمد ﷺ من ثلاثة أوجه، أحدها: فصاحته، وثانيها: اشتماله على الاخبار عن الغيوب، والثالث : سلامته عن الاختلاف وهذا هو المذكور في هذه الآية . ثم القائلون بهذا القول ذكروا في تفسير سلامته عن الاختلاف ثلاثة أوجه :

الأول : قال أبو بكر الأصم : معناه أن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطأون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد والله تعالى كان يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على تلك الأحوال حالاً فحالاً ويخبره عنها على سبيل التفصيل، وما كانوا يجدون في كل ذلك إلا الصدق ، ف قيل لهم: إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما اطرده الصدق فيه ، و اظهر في قول محمد أنواع الاختلاف والتفاوت، فلما لم يظهر ذلك علمنا أن ذلك ليس إلا بإعلام الله تعالى .

والثاني: وهو الذي ذهب إليه أكثر المتكلمين أن المراد منه أن القرآن كتاب كبير وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم، فلو كان ذلك من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ، ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله .

(ثم قال :) الوجه الثالث في تفسير قولنا : القرآن سليم عن الاختلاف ما ذكره أبو مسلم الاصفهاني وهو : أن المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة حتى لا يكون في جملته ما يبعد في الكلام الركيك بل بقيت الفصاحة فيه من أوله الى آخره على نهج واحد ، ومن المعلوم أن الانسان وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة فإذا كتب كتاباً طويلاً مشتملاً على المعاني الكثيرة فلا بد وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قوياً متيناً وبعضه سخيلاً نازلاً ، ولما لم يكن القرآن كذلك علمنا أنه المعجز من عند الله تعالى ، وضرب القاضي لهذا مثلاً فقال: إن

الواحد منا لا يمكنه أن يكتب الطوامير الطويلة بحيث لا يقع في شيء من تلك الحروف خلل ونقصان، حتى لو رأينا الطوامير الطويلة مصنوعة عن مثل هذا الخلل والنقصان لكان ذلك معدوداً في الإعجاز، فكذا ها هنا ^(١) انتهى .

وبعد ما اتضح لك أيها المسلم المقصود من الآية فإنك قد قرأها وقد سمعها ولا تلتفت الى معناها، فإذا عرفت معناه الآن فإن كنت معترفاً بالقرآن وأنه من عند الله ومصدقاً بنبوة محمد ﷺ فينبغي لك أن تطيعه في جميع ما أمرك من الأمور ولا تخالفه في شيء منها، وتدبر القانون الذي وضعه لك ليكون عملاً على طبقه من بعد موته ﷺ وهو التمسك بالكتاب والعترة، وإن لم تطعه في جميع أوامره فأنت غير متدبر للقرآن .

ثم انظر الى هذه الأحزاب الاحادية التي وجدت في هذا العصر، فإنهم يخرجون من الدين زرافات ووحداناً فهم مصداق قوله تعالى : «الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات» ^(٢) فاحذر مكرها ودسها وحيلها فإنهم شياطين الانس وهم ينافقون ويريدون الخديعة بالمسلمين، فأعرض عنهم وتوكل على الله .

فهذه الآية الشريفة وإن كانت موجهة الى من يظهرون الطاعة ويبيتون خلافها وهم المنافقون إلا أن الحكم عام لكل من لم يطع الرسول وبخالفه في أوامره ونواهيه، فإن الآية جعلت السبب في مخالفة الرسول بالنسبة الى المنافقين هو عدم التدبر في القرآن، وهذا السبب موجود في كل مخالف للرسول من أي نوع كان، وإلا فالمؤمن هو الذي يطيع الرسول في كل شيء .

ثم الآية التي بعدها جاءت في بعض صفات المنافقين وذمهم على هذه الصفة وذلك في قوله تعالى :

(١) تفسير الرازي : ج ١٠ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) البقرة . ٢٦٠ .

وإذا جاءهم أهر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه
إلى الرسول وإلى أولى الأهر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم
ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان الا قليلا (٨٣).

هذه الآية تبين الحكم في نقل الخبر بسمعه الرجل المؤمن فهل يجوز
له نشره وإذاعته قبل التأكد منه وإثباته أو لا يجوز له ذلك؟

وقبل بيان معنى الآية ينبغي العلم بأن هذا الأمر وهو نشر الخبر يختلف
بحسب الأحوال والأزمان وذلك لأن المسلمين إما أن يكونوا في حالة حرب مع
الكافرين أو في حالة سلم ، ثم إما أن يكون أعداؤهم بمحض منهم بحيث تبلغهم
جميع أخبارهم أو لم يكونوا كذلك ، وعلى جميع الحالات فالخبر إما أن يكون
خبراً ساراً أو خبراً محزناً ، فإن كان ساراً للمؤمنين يكون محزناً للكافرين طبعاً
وإن كان العكس فبالعكس .

وعلى كل حال لا ينبغي للمؤمنين نشر الخبر وإذاعته قبل التثبت والتأكد
وحصول مضمونه لأنه إن كان محزناً للمؤمنين يكون سبباً لفرح الكافرين ولسرورهم
وللشامة بالمؤمنين والاستظهار عليهم ، وإن كان الخبر ساراً للمؤمنين دالاً على
ضعف الكافرين أخذ الكافرون حينئذ في التأهب والاستعداد والزيادة في العدة
والعدد وتقويت الفرص على المسلمين وإبطال ذلك النصر الموجب للفرح والسرور .
ولا يخفى أن الأعداء في ذلك العصر كانوا اليهود من كل طائفة فرقة واحدة
والذين ينقلون الأخبار للفرقتين هم المنافقون ذمهم الله بهذه الآية . أما أعداؤنا
في هذا العصر فأشدهم وألدهم اليهود الذين ليس لهم دين ولا مبدأ ولا ضمير ولا
وجدان إلا المادة ، فإنهم لا يعرفون غيرها ، وأما النصارى فهم فرق كثيرة كل دولة
تريد أن تربحنا وحدها ، وأما الأحزاب الالحادية فإنها مع بقية الدول تريد الفتك

بالمبادئ الإسلامية ومحو آثارها .

فنهجن في هذا الزمان أشد خطراً من ذلك الزمان لكثرة الأعداء، وأن الله عز وجل قد أرشدنا حتى بالنسبة الى نقل الخبر وإذاعته باللسان فضلاً عن الإذاعة وقد أمرنا أن نرجع في إذاعة الخبر الى الرسول والى اولى الأمر .
انظر أيها المسلم إن الله لم يرخص لنا إذاعة الخبر إلا بالرجوع الى الرسول والى اولى الأمر ، فكيف الحال بالنسبة الى غيره مما يتعلق بالنفوس والأموال والفروج !! وقد كثرت الكذبة على النبي ﷺ في زمانه وبعد رحلته فأسندوا إليه أحاديث كثيرة كاذبة، وهذا كله لا يكون من فعل المؤمن وإنما يرتكبه المنافق .
فينبغي للمؤمن أن يفحص عن الخبر ويعرف راويه حتى يتحقق عن صدقه وكذبه ، ولا يروي كل خبر يسمعه أو يصدق كل خبر يقرأه في كتاب فإن الكتاب قد يكون فيه الغث والسمين ، فكان اللازم على المسلمين في زمان الرسول ﷺ أن يرجعوا إليه ويتعرفوا صحة الخبر أو عدم صحته .

أما في زماننا فإذا أردنا نشر خبر وإذاعته فعلينا أن نلاحظ مصلحة عامة للمسلمين وأن لا يكون في نشره ضرر على جماعة من المسلمين في أي قطر وفي أي بلد كانوا، هذا واجب المسلم بالنسبة الى بقية المسلمين ، ولكن أعداء الاسلام قد ألحقوا الفتنة بين المسلمين وأفعوا العداوة بينهم فصار بعضهم يسعى بإضرار بعض وبعضهم يتهم بعضاً هذا بالنسبة الى الأخبار التي تتعلق بالدنيا .

وأما الأخبار التي تتعلق بالدين فينبغي لنا أن نرجع فيها الى سنة النبي ﷺ ولا نعتمد على الرواة المتهمين بالكذب والوضع ، بل سنة النبي المقطوع بها إما لموافقتها لكتاب الله أو لكونها متواترة بين أصحابه ، فإذا كانت موافقة للكتاب فلا ريب في صحتها كما روي عنه ﷺ أنه خطب بمنى فقال: أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف القرآن فلم أقله^(١) .

وأما السنة المتواترة فمثل حديث الثقلين فإن كل من كتب عن النبي ﷺ روى حديث الثقلين ، فمن عمل به كان معذوراً لأن أحد قسميه وهو التمسك بالقرآن والقسم الآخر هو المفسر والمؤول للقرآن وهم العترة، فإنهم قد تكررت منهم الأحاديث بقولهم: من جاءكم بحديث منا فاعرضوه على القرآن، فإن وافقه القرآن فخذوا به وإن خالفه القرآن فردوه إلى الذي جاء به^(١) فيكون المرجع الأعلى هو القرآن، وإنما قرن العترة به لأنهم هم العارفون بتفسيره وتأويله ولا يعرفه أحد غيرهم .

فالقرآن وحده لا ينتفع به الأمة من غير تفسير العترة وبيان معانيه وغوامضه ومتشابهاته ، والعترة بنفسها لا تفارق القرآن ولا تعمل إلا به ، ولهذا نرى النبي ﷺ جعل الهدى وعدم الضلال مقروناً بالتمسك بهما، وعلى هذا يكون الانغماس في الضلال بمفارقتهما حتى في إذاعة الخبر، فليثق المسلم ربه وليعمل بأمر نبيه. أما المقصود من «أولى الأمر» الذين قرن الله الرجوع إليهم بالرجوع إلى الرسول لاستنباط الخبر الصحيح من الباطل فالظاهر أنهم هم الذين أمر الله بطاعتهم في قوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»^(٢) وهم الذين يعرفون تأويل القرآن الذين وصفهم الله بقوله: «الراسخون في العلم»^(٣) فإن استخراج الخبر الصادق وتمييزه عن الكاذب لا يمكن لكل أحد إلا أن يكون عنده القرآن الذي فيه علم ما كان وما يكون، فكل أحد إذا سمع خبراً من الأخبار لا يمكنه معرفة صدقه أو كذبه ، فلامجال للقول بأن «أولى الأمر» هم امرأ السرايا، وما المناسبة بين امرأ السرايا وتمييز الخبر صادقه عن كاذبه! فإن أمير السرية لا يراد منه إلا إرادة أمر السرية في كيفية الحرب .

(١) اصول الكافي : ج ١ ص ٦٩ ح ٢ مع اختلاف في الالفاظ .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) آل عمران : ٧ .

وقد يستفاد هذا المعنى من التعبير عن معرفة الصدق والكذب بقوله تعالى: «لعلهم الذين يستنبطونه» فإن الاستنباط هو كيفية تحصيل الحكم بصورة علمية بحيث يكون المحصل للحكم مستحضراً لجميع القواعد العلمية التي تطبق عليها القضايا الجزئية، فإذا عرضت له قضية في شيء يلحقها بقانونها الكلي بلا توقف لأن القضايا كلها نصب عينيه لا يفوته شيء منها ولا يغفل عنها، ومثل هذا الرجل يصح أن يعبر عنه ولي الأمر بقول مطلق بلا وصف له بصفة خاصة، أما أمير السرية وأمر الحامية فليس له معرفة بصدق الخبر وكذبه.

وقد يدل على هذا الأمر الجملة التالية من الآية وهي قوله: «ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا» أي لو لم يتفضل الله عليكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتعيين ولي الأمر الذين عرفهم الحلال والحرام وألهمهم علوم القرآن وجعل لهم ملكة وقدرة على استنباط الخبر الصادق والكاذب وإعلامكم عن جميع ذلك فإن الله قد رحمكم بهؤلاء الرجال العلماء وإلا لاتبعتم الشيطان وذلك بإذاعة الأخبار الكاذبة فيكم المرغبة من جهة والمخوفة من جهة، الموجبة لخروجكم عن الدين والاتحاق بهم في نبذ العقيدة وإنكار الضروريات. هذا كله بالنسبة الى ذلك الزمان الذي كان نقل الخبر وإذاعته من واحد لآخر أو لجماعة. أما في هذا العصر الذي صار نقل الخبر بواسطة اللاسلكي، فلولا فضل الله ورحمته ووجود القرآن والسنة والعلماء لخرج الناس عن دينهم.

وقد ورد في الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: أن المقصود من الفضل في الآية هو الرسول، والمقصود من الرحمة هم الأئمة وهم المعبر عنهم بأولي الأمر^(١).

فالله سبحانه وتعالى من فضله ورحمته بالعباد قد أوكل الأمور العامة الى

الرسول والأئمة الذين هم منصوبون من قبل الرسول ، وقد ألهمهم معرفة هذه الامور بحيث لا يخطأون فيها وإنما يعرفون حقائقها الدقيقة، وأن الشخص الذي ليس من هؤلاء الرجال الذين يعينهم الله والرسول ليس له حق التصرف في الامور العامة وإن كان عاقلاً كاملاً غنياً تقياً عابداً جامعاً للصفات الحسنة لأن هذا المنصب إنما هو بتعيين الله والرسول .

ومن جملة الامور العامة التي لا يسوغ لكل أحد التدخل بها هو إذاعة الخبر الذي يعم الناس كلهم صدقه و كذبه ونفعه وضره، فلا ينبغي أن يجعل مدير الاذاعة إلا من يعتمد على معرفته و كمال عقله وتمييزه النافع من الضار ونصحه لأبناء شعبه حتى لا يرخص في إذاعة شيء خلاف الواقع يعم الناس كلهم . ولا فرق بين كونه نافعاً أو ضاراً إلا أن يتأكد من صحته بأخذه من منبعه الخاص . وكذلك نشر الخبر في الصحف العامة لا ينبغي لأربابها إلا بعد التثبت والتأكد ومعرفة صحته وإلا فإن الذم يشملهم في قوله : «واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به» .

وبعد ما تبين لنا وتحقق عندنا من الآيات المتقدمة أن المؤمن الحقيقي هو المطيع للرسول في كل أوامره أقوالاً كانت أو أفعالاً، وبإطاعة الرسول يكون مطيعاً لله .

وأما الأعداء الغير المتظاهرين فهم المنافقون الذين يظهرون الطاعة ويبيتون خلافها ، والذين يذيعون الأخبار الموجهة لتشويش المسلمين قبل أوان نشرها من غير رجوع الى الرسول والى اولى الامر .

وعلى هذا يكون أعداء الاسلام والمسلمين كثرة هائلة أضعاف المسلمين ، وكل هؤلاء الأعداء يريدون الفتك بالمسلمين ومحو الدين الاسلامي وإعادة المسلمين الى الكفر لأن الدين الاسلامي يصددهم عن اللهو واللعب ويحرمهم من اللذات الدنيوية ، ولا يمكن قهر هؤلاء الأعداء والانتصار عليهم إلا بقتالهم لأجل نصره

الدين بحيث يكون القتال في سبيل الله وامتنالاً لأمر الله خالصاً من كل شائبة دنيوية .

والقتال في زمن وجود الرسول يكون هو المكلف به، وقد خاطبه الله بقوله:

فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين
عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد
تنكيلاً (٨٤) .

فإن هؤلاء الأعداء لا يكفون عن نياتهم الباطلة وإرادتهم السيئة وقصدهم
الخبث إلا إذا رأوا المؤمنين قد تهيأوا أو استعدوا لقتالهم ، فالله قد أمر النبي
ﷺ بقتالهم وإن كان وحده ليس معه من أمته أحد ولم يكن له جنود يقاتلون
معه ، وأمره أن يحرض المؤمنين ويحثهم على القتال ، فإذا اتفقوا واتحدوا على
على قتال أعدائهم وكانت نياتهم صادقة بهذا القتال بحيث يكون في سبيل الله ،
وكانوا راجين من الله أن يكفيهم بأس عدوهم فالله يكفيهم بأس العدو لأنه يحقق
رجاءهم إذا كان عن نية صادقة .

ثم ذكر جملة فيها تهديد شديد للمكافرين وللمنافقين وهي قوله تعالى :
« والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » أي أنكم أيها المؤمنون إذا قاتلتم الكافرين
وجاربتموهم فمهما كان لهم من بأس وقوة فإن الله أشد بأساً منهم ومن غيرهم
وكذا أشد تنكيلاً، فلا يظن المنافقون الذين يخالفون أحكام المسلمين ويخبرون
الكافرين بما يكون عندهم من الامور أنهم تمكنوا من الفتك بالاسلام ، فإن الله
إذا سلط قوته وبأسه على الكافرين وبقي المنافقون على ما هم عليه من النفاق سوف
ينكل بهم الله ويفعل بهم كما فعل بالكافرين .

ثم لما أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقاتل الكافرين - وإن كان وحده -

وأن يحض المؤمن على القتال قد يظن ضعيف الإيمان بأنه يكون من المؤمنين وإن صار في صف العدو ودقف إلى جنبه أو قعد عن قتاله وخذل المؤمنين ولم ينصرهم ، ولكن الله قد بيّن في الآية التي بعدها أن الناس على قسمين :

قسم يكون مع النبي ﷺ ويقف موقفه ويسير في طريقه ويعمل عمله ، وقسم آخر يكون مع عدوه واقفاً معه مقابل النبي سائراً في طريق العدو الملتوي أو قاعداً مع المنافقين مخذلاً للمؤمنين ، إن النبي ﷺ وإن لم يحتم على الناس الجهاد ولكن الله هو الذي يحتم على المؤمن أن يكون مع النبي واقفاً إلى جنبه في الحرب والسلم فقال تعالى :

من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء عاقباً (٨٥).

أصل الشفاعة من الشفع الذي هو مقابل الوتر ، فإن الرجل إذا صار مع رجل آخر ووافقه فيما هو فيه فقد شفعه أي صار ثانيه . وقد ذكرنا في معنى الآية أقوالاً ، ونحن نذكر هنا قولين فإنهما يوضحان حقيقة الرجل لنفسه أهو مؤمن أو ليس بمؤمن .

الأول: هو أن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ ويقول له: إن من يجعل نفسه شافعاً لك ويناصر في القتال الذي أمرت به وحدك فإن له من شفاعته نصيب بما يناله من الفوز والشرف ، لأن الله قد عرفنا أن إطاعته إنما تحصل بإطاعة الرسول فإذا كان الإنسان منضماً إلى الرسول في جميع أوقاته وجميع حالاته وكان شافعاً له في الدنيا في كل وقت سوف يكون شافعاً له بما يناله من الثواب في الآخرة ، وهذا هو المؤمن ، فالرجل المؤمن ظاهراً إذا أراد أن يعرف نفسه هل أنه مؤمن مقبول عند الله وعند الرسول فلينظر إلى قلبه وسريته هل أنه متبع للرسول في كل

شيء أمر به من أول عمره الى آخره في حياة الرسول وبعد موته ، أد أنه ليس كذلك .

وأما الذي يكون شفيعاً لعدو الرسول الظاهر العداء وهم اليهود والنصارى أو عدو الرسول الخفي علينا وهم المنافقون الذين يقولون طاعة وبييتون خلافها والذين يذيعون أمر الأمن والخوف المضر بعامة المسلمين فهذا الرجل ليس له من الايمان شيء وإن سمي نفسه وسماه الغير مسلماً ، فإن الاسلام والايمان ليس بالتسمية وإنما هو بالنية والعمل وإطاعة الرسول واتباعه في كل الامور بحيث يسمى شفيعاً للرسول ، فاذا تخلفت هذه التسمية في قضية واحدة فقد بعد عن الرسول بمراحل طويلة ، فيما أن يرجع فيعيد التسمية وإلا فقد فارق المؤمنين . فيكون قوله تعالى : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » معناه أن الذي يكون شفيعاً لعدو الرسول - أي يكون ثانياً له - يكون عليه من الوزر والاثم مثل ما على العدو ، لأنه يكون في صفه ويقف الى جنبه أو يقعد عن عون المسلمين فلا ينصرهم بل يخذلهم .

القول الثاني : ما ذكره في المجمع بأن الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة شفاعة الناس بعضهم لبعض ، عن مجاهد والحسن قال : ما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة ، وما لا يجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيئة ، قال : ومن يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر وثواب وإن لم يشفع لأن الله قال : ومن يشفع ولم يقل ومن يشفع ، ويؤيد هذا قوله : اشفعوا تؤجروا . وقوله : من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في ملكه ، ومن أعان على خصومة بغير علم كان في سخط الله حتى ينزع^(١) انتهى ما في المجمع .

وهنا توجه الخطاب لوجهاء كل بلد الذين يتصلون بحاكم البلد وتكون كلمتهم مسموعة عنده فينبغي لهم أن يلاحظوا هذه الآية وأن لا يغفلوا عنها ، فإنهم

إذا شفعوا لرجل مجرم قد ارتكب معصية موبقة كقتل النفس أو اعتداء على عرض أحد أو زنا أو غير ذلك من المنكرات فأسقطوا عنه العقاب أو خففوا عنه فإن لهم نصيباً من وزر هذا المجرم وعليهم من العقاب إما بمقدار عقابه أو أكثر منه وهو نصيب مكفول لا بد منه ، فلا يجلب لنفسه الوزر والعقاب لكون هذا المجرم من أصحابه ومن المنتمين إلى حزبه وليرحم نفسه ، فإن الدنيا تزول وتفتنى والآخرة تدوم وتبقى .

ثم إن الله عز وجل بشر المسلمين المطيعين للرسول العاملين بأمره ، وأنذر الكافرين والمنافقين والمخالفين للرسول والمحرفين لأوامره ونواهيه بقوله تعالى في الجملة الأخيرة من الآية : « وكان الله على كل شيء مقيماً » .

ما قاله الطبرسي :

قال في مجمع البيان : والمقيت أصله من القوت فإنه يقوته قوتاً إذا أعطاه ما يمسك به رمقه ، والمقيت المقتدر لاقتداره على ذلك ، وأقات يقيت أقاته ، وينشد للزبير بن عبد المطلب :

وذي ضغن كفت النفس عنه و كنت على مساءته مقيماً

ثم قال في بيان المعنى : قيل في معنى المقيت أقوال : (أحدها) إنه المقتدر ، عن السدي وابن زيد . (وثانيها) الحفيظ الذي يعطي الشيء قدر الحاجة من الحفظ ، عن ابن عباس . (وثالثها) الشهيد ، عن مجاهد . (ورابعها) الحسيب ، عنه أيضاً . (وخامسها) المجازي ، عن أبي علي الجبائي ، أي يجازي على كل شيء من الحسنات والسيئات^(١) انتهى .

فليعلم الذي يخالف أمر النبي ﷺ وينحرف عنه عمداً أو إهمالاً فإنه وإن لم يحاسبه أحد في الدنيا ولكن الله هو المقتدر على كل شيء ، الحفيظ لكل

كبيرة وصغيرة، الشهيد على الأعمال والقلوب والنيات، الحسيب لكل شيء، المجازي على الحسنات والسيئات ، فلا يضر المخالف للنبي إلا نفسه .

ماقاله الفخر الرازي :

وفي تفسيره الكبير قال : (المسألة الاولى) في المقيت قولان :

الأول : المقيت القادر على الشيء، وأنشدوا للزبير بن عبدالمطلب:

وذى ضغنٍ كففت النفس عنه و كنت على إساءته مقيتا
وقال آخر :

ليت شعري وأشعرن إذا ما قربوها منشورة ودعيت
إلى الفضل أم على إذا حو سبت إني على الحساب مقيت
وأنشد النضر بن شميل :

تجلدولا تجزع وكن ذا حفيظة فإنني على ما ساءهم لمقيت

الثاني: المقيت مشتق من القوت ، يقال: قت الرجل اذا حفظت عليه نفسه

بما يقوته ، واسم ذلك الشيء هو القوت ، وهو الذي لا فضل له على قدر الحفظ ،

فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة . ثم قال القفال رحمه الله^(١):

وأي المعنيين كان فالتأويل صحيح وهو أنه تعالى قادر على إيصال النصيب والكفل

من الجزاء الى الشافع مثل ما يوصله الى المشفوع فيه ، إن خيراً فخير وإن شراً

فشر ، ولا يمتنع بسبب ما يوصل الى الشافع شيء من جزاء المشفوع. وعلى الوجه

الثاني : أنه تعالى حافظ الأشياء شاهد عليها لا يخفى عليه شيء من أحوالنا ، فهو

عالم بأن الشافع يشفع في حق أو في باطل حفيظ عليه فيجازي كلاً بما علم

منه^(٢) انتهى .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره: وقوله: «من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها» أي

(١) هو القفال المروزي استاذ القاضى حسين المروزي (راجع التفسير الكبير: ج ١ ص ٢٠٨).

(٢) تفسير الرازي : ج ١٠ ص ٢٠٨ .

من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك «ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها» أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيتته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إشفعوا تؤجروا) ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء. وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض، وقال الحسن البصري: قال الله تعالى: «من يشفع» ولم يقل من يشفع، وقوله: «وكان الله على كل شيء مقبلاً» قال ابن عباس وعطاء وعطية وقتادة ومطر الوراق: مقبلاً أي حفيظاً، وقال مجاهد: شهيداً، وفي رواية عنه حسيباً، وقال ابن جبير والسدي وابن زيد: قديراً، وقال عبدالله بن كثير: المقبى المواقب، وقال الضحاك: المقبى الرزاق، وقال ابن حاتم: حدثنا أبي حدثنا عبدالرحيم بن مطرف حدثنا عيسى بن يونس عن إسماعيل عن رجل عن عبدالله بن رواحة، وسأله رجل عن قول الله تعالى: «وكان الله على كل شيء مقبلاً» قال: مقبى لكل إنسان بقدر عمله^(١) انتهى.

ما قاله سيد قطب :

وقال في تفسيره بعد ذكر الآية : فليشفع الانسان الشفاعة الحسنة... ليصل خيراً الى من يستحق الخير غير مضار لبريء أو مضيع حقاً على صاحب حق ، أو معطل لحد من حدود الله، فهذه هي الشفاعة الحسنة التي تنفع ولا تضر ، وليتق الشفاعة السيئة التي تؤدي الى أكل مال بالباطل أو تعويق صاحب مكان عن مكانه أو إهدار الحرمة من حرمات الله والناس ، فإن لصاحب الاولى نصيباً طيباً من شفاعته ، ولصاحب الاخرى وزراً يحتمله من سيئته «وكان الله على كل شيء مقبلاً» يطعم المحسن من حسنته والمسيء من سيئته ليدوق كل منهما ما كسبه وما جناه ، لذلك اختار التعبير كلمة «مقبى» من القوت ليكون التذوق المباشر هو الجزاء للثمار الحلوة والمرارة على السواء^(٢) انتهى .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٧٢٥ .

ماقاله الطبري :

وقال في تفسيره: يعني بقوله جل ثناؤه : « من يشفع شفاعته حسنة » يكن له نصيب منها ، من يصر يا محمد شفعا لوتر أصحابك فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله وهو الشفاعة الحسنة يكن له نصيب منها ، يقول يكن له من شفاعته تلك نصيب وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته . « ومن يشفع شفاعته سيئة » يقول ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به فيقاتلهم معهم وذلك هو الشفاعة السيئة يكن له كفل منها ، يعني بالكفل النصيب والخط من الوزر والاثم وهو مأخوذ من كفل البعير والمركب وهو الكساء أو الشيء بهياً عليه شبيه بالسرج على الدابة، يقال منه : جاء فلان مكتفلاً ، اذا جاء على مركب قد وطئ له على مايسئنا لركوبه ، وقد قيل : إنه عنى بقوله : « من يشفع شفاعته حسنة » يكن له نصيب منها ، الآية ، شفاعاة الناس بعضهم لبعض ، وغير مستنكر أن تكون الآية نزلت فيما ذكرنا ثم عم بذلك كل شافع بخير أو شر .

وإنما اخترنا ماقلنا من القول في ذلك لأنه في سياق الآية التي أمر الله نبيه ﷺ فيها بعض المؤمنين على القتال ، فكان ذلك بالوعد لمن أجاب رسول الله ﷺ والوعيد لمن أبى إجابته أشبه منه من الحث على شفاعاة الناس بعضهم لبعض التي لم يجر لها ذكر قبل ولا لها ذكر بعد .

ذكر من قال ذلك في شفاعاة الناس بعضهم لبعض :

حدثني محمد بن عمرو قال : حدثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : « من يشفع شفاعته حسنة » يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعته سيئة ... قال: شفاعاة بعض الناس لبعض .

حدثني المثنى قال : حدثنا أبو حذيفة قال: حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

حدثت عن ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن قال : من

يشفع شفاعته حسنة كان له أجرها وإن لم يشفع لأن الله يقول : « من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها » ولم يقل : يشفع .

حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا أبي عن سفيان عن رجل عن الحسن قال : من يشفع شفاعته حسنة كتب له أجرها ما جرت منفعتها .

حدثنا يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : سئل ابن زيد عن قول الله : « من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها » قال : الشفاعه الصالحة التي يشفع فيها وعمل بها هي بينك وبينه هما فيهما شريكان « ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها » قال : هما شريكان فيها كما كان أهلها شريكين .

ذكر من قال : الكفل النصيب :

حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة قوله : تعالى : « من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها » أي حفظ منها « ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفل منها » والكفل هو الاثم .

حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن مفضل قال : حدثنا أسباط عن السدي قوله : « يكن له كفل منها » أما الكفل فالحظ .

حدثني المثنى قال : حدثنا اسحاق قال : حدثنا عبدالله بن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع « يكن له كفل منها » قال : حفظ منها فبئس الحفظ .

حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : الكفل والنصيب واحد وقرأ : « يؤتكم كفلين من رحمته »^(١) .

القول في تأويل قوله : « وكان الله على كل شيء مقيتاً » . اختلف أهل التأويل في قوله تعالى : « وكان الله على كل شيء مقيتاً » فقال بعضهم : تأويله وكان الله على كل شيء حفيظاً وشهيداً .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى قال : حدثنا عبدالله بن صالح قال : حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس : « وكان الله على كل شيء مقيتاً » يقول : حفيظاً .

حدثني المثنى قال : حدثنا أبو حذيفة قال : حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : « مقيتاً » شهيداً .

حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا أبي عن سفيان عن رجل اسمه مجاهد عن مجاهد مثله .

حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثنا حجاج عن ابن جريح عن مجاهد « مقيتاً » قال : شهيداً حسيباً حفيظاً .

حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم قال : حدثنا عبدالرحمان بن شريك قال : حدثنا أبي عن خفيف عن مجاهد أبي الحجاج « وكان الله على كل شيء مقيتاً » قال : المقيت الحسيب .

وقال آخرون : معنى ذلك القائم على كل شيء بالتدبير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثني حجاج عن ابن جريح قال : قال عبدالله بن كثير : « وكان الله على كل شيء مقيتاً » قال : المقيت الواصب .

وقال آخرون : هو القدير .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن مفضل قال : حدثنا أسباط عن السدي « وكان الله على كل شيء مقيتاً » أما المقيت : فالقدير .

حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله تعالى : « وكان الله على كل شيء مقيتاً » قال : على كل شيء قديراً . والمقيت : القدير .

قال أبو جعفر : والصواب من هذه الأقوال قول من قال معنى المقيت القدير ، وذلك أن ذلك فيما يذكر كذلك بلغة قريش ، وينشد للزبير بن عبدالمطلب عم

رسول الله ﷺ :

وذي ضغنٍ كففت النفس عنه و كنت على مساوئه مقبلاً
أي قادراً ، وقد قيل : إن منه قول النبي ﷺ : كفى بالمرء إثماً أن يضيع
من يقيت (في رواية من رواها) ، يقيت يعني من هو تحت يديه وفي سلطانه من
أهله وعياله فيقدر له قوته ^(١) انتهى موضع الحاجة من كلام الطبري .

وبعد ما اطلع القاريء الكريم على كلمات المفسرين ينبغي له أن يحتاط
لنفسه ولدينه إن أراد أن يحصل على شيء من الثواب والجزاء الحسن ، يلزمه أن
يشفع أحد أصحاب النبي المخلصين الذين كانوا يطيعون أمره ولا يخالفونه في شيء
أبداً ، وحيث إن الإنسان لا يعلم تفصيلاً بالواجبات والمحرمات عليه أن يأخذ القانون
الكلي الذي ينطبق على كل قضية من أمور الدين ولا يفوته شيء منها ، وإذا أخذ
به لا يخشى على نفسه أن يكون من الضالين .

وقد ذكرنا ذلك مكرراً وهو قوله ﷺ كما يرويه الحافظ القندوزي
الحنفي في ينابيع المودة نقلاً عن الترمذي في باب مناقب أهل البيت : حدثنا نصر
ابن عبد الرحمن الكوفي قال : حدثنا زيد بن الحسن عن جعفر بن محمد عن أبيه عن
جابر بن عبد الله الأنصاري قال : رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو
على ناقته القصوى يخطب فسمعتة يقول : أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم
به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ^(٢) .

فمن أراد أن يكون عاملاً بما نص عليه النبي ﷺ ليكون عذراً له بين
يدي الله فإن هذا الحديث يكفيه لجميع أمور دينه ، ويكون الأخذ به أماناً
من الضلال ، أما مع تركه فهو معرض للضلال كما هو صريح الحديث وهو حديث
صريح واضح لا يحتاج إلى تفسير وهو متفق عليه ذكره جميع المؤرخين والمفسرين .

(١) تفسير الطبري : ج ٥ ص ١١٧ - ١١٩ .

(٢) ينابيع المودة : ج ١ ص ٢٩ .

قوله تعالى : واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها
ان الله كان على كل شيء حسيباً (٨٦) .

في هذه الآية الشريفة يعلم الله عباده كيف يتبادلون التحيات فيما بينهم حتى
يزيد حب بعضهم لبعض ، وتؤكد الالفة ويقرب بعضهم لبعض ، فإن التحية التي
جعلها الله للمسلمين هي مشتملة على الدعاء والطلب له من الله بأن يجعله في سلام
من كل شيء . يغيّر عليه الراحة والهناء ، فإذا قال المسلم لأخيه المسلم : سلام
عليكم ، أو : السلام عليكم فمعنى ذلك أني اطلب من الله أن يجعل عليك أوقاتك
من الأيام والساعات كلها سلاماً ليس فيها ما يؤذيكَ وينقص عيشك .

وقد علمنا الله كيفية رد هذه التحية المشتملة على الدعاء ، بأن نجيب المسلم
علينا بأحسن منها فنقول له في الجواب : عليكم السلام ، وهذا وحده أحسن من
ذلك لأن المسلم قال : سلام عليكم فقدم المبتدأ كما هو الأصل وجاء بالخبر بعده
أما المجيب لما قال : عليكم السلام فإنه قدم الخبر وهو موجب للحصر فكأنه قال :
إن السلام منحصر عليك وأنت أهل له ، فهو أحسن من كلام المسلم ، فإذا أضاف
إليه كلمة «ورحمة الله» تزايد الحسن وتضاعف لأنه طلب له من الله بعد حصر السلام
عليه أن تشمل رحمة الله ، وهو دعاء عام لجميع أنواع الخيرات ، فإن رحمة الله تشمل
خيرات الدنيا والآخرة ، فلو أن المسلم المبتدئ هو قال لأخيه المسلم : السلام
عليكم ورحمة الله وأراد الآخر أن يرد بالأحسن يقول له في الجواب : عليكم
السلام ورحمة الله وبركاته ، فيضيف إلى معنى الحصر الذي ذكر طلب الرحمة والبركة
من الله ، وإذا أعطاه الله البركة فقد ربح ونجح إذ كانت عامة مطلقة فتكون في
العمر وفي الرزق وفي الأولاد وغيرها من الأمور المحبوبة .

فإذا تبادل المسلمان هذه الدعوات بينهما كلما قابل أحدهما الآخر حينئذ .

تنزل على الجميع الرحمة والبركة، فيكون المسلمون كلهم كاملو الايمان ويكونون إخوة كما وصفهم الله « إنما المؤمنون إخوة »^(١) فاذا رآهم الكافر أو المنافق وكان عنده شيء من العقل غبطهم على هذه الصفة الحسنة وأحب أن يكون شفيعاً لهم في هذه الصفات ، فهو أقرب ما يكون أن يشفع شفاعة حسنة ، أي يجدد إسلامه ويحسن نيته ويصحح سريره ويقف في صف المسلمين، ويحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : ألا أدلكم على شيء إن أنتم فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم^(٢) فقد جعل إفشاء السلام سبباً للتحابب ، وإذا حصل التحابب صلحت جميع الأمور ، فإن الله قد أكرم النبي ﷺ وأمته بهذه التحية وهي تحية أهل الجنة .

فقد روي أن أصحاب رسول الله كانوا إذا أتوه يقولون له : أنعم صباحاً ، وأنعم مساءً ، وهي تحية أهل الجاهلية فأنزل الله تعالى : « وإذا جاؤوك حيّواكم بما لم يحييكم به الله »^(٣) فقال لهم رسول الله ﷺ : قد أبدلنا الله تعالى بخير من ذلك تحية أهل الجنة السلام عليكم^(٤) وقد أمرنا الله أولاً أن نحيا من حيّانا بأحسن مما حيّانا به ، وأما الرد بالمثل فهو مرتبة ثانية، فإذا أخذ المسلمون بالمرتبة الاولى ساد التحابب بين جميع المسلمين، وارتفع وزال عنهم كل ما يوجب التباعد من بقضاء وشحناء وحزازات، وحينئذ يئأس العدو والمنافق من إيقاع الفتنة بينهم، ولا يبقى له أمل فيها ، إذ يراهم متحدين متفقين متحابين ، كلمتهم واحدة ورأيهم واحد . وقد وردت الأخبار الكثيرة في الحث على إفشاء السلام وبيان الجزاء العظيم

(١) الحجرات : ١٠ .

(٢) كنز العمال : ج ٩ ص ١١٣ ح ٢٥٢٤٧ .

(٣) المجادلة : ٨ .

(٤) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٦٦ ب ٩٧ ح ٢٠ .

على ذلك .

فقد روي عن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة غرماً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنهما من ظاهرها ، يسكنها من امتي من أطاب الكلام وأطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام ، ثم قال : إفشاء السلام أن لا يبخذ بالسلام على أحد من المسلمين ^(١) .

وعن أنس قال : قال النبي ﷺ : يا أنس سلم على من لقيت يزيد الله في حسناتك ، وسلم في بيتك يزيد الله في بركتك ^(٢) .

وعن أنس أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ يوماً يا أنس أسبغ الوضوء تمر على الصراط مر السحاب . أفش السلام يكثر خير بيتك ، أكثر من صدقة السر فإنها تطفىء غضب الرب عز وجل ^(٣) .

ماقاله الفخر الرازي :

وقال في تفسيره الكبير : (المسألة الثانية) أعلم أن عادة العرب قبل الاسلام أنه اذا لقي بعضهم بعضاً قالوا : حياك الله ، واشتقاقه من الحياة كأنه يدعو له بالحياة فكانت التحية عندهم عبارة عن قول بعضهم لبعض حياك الله ، فلما جاء الاسلام أبدل ذلك بالسلام ، فجعلوا التحية اسماً للسلام ، قال تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » ^(٤) . الى أن يقول . واعلم أن قول القائل لغيره « السلام عليك » أتم وأكمل من قوله « حياك الله » وبيانه من وجوه :

الأول : أن الحي اذا كان سليماً كان حياً لا محالة وليس اذا كان حياً كان سليماً ، فقد تكون حياته مقرونة بالآفات والبلبات ، فثبت أن قوله « السلام عليكم »

(١) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٢ ب ٩٧ ح ٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٣ ب ٩٧ ح ٣ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٣ ب ٩٧ ح ٨ .

(٤) الاحزاب : ٤٤ .

أنتم وأكمل من قوله « حياك الله » .

الثاني : أن « السلام » اسم من أسماء الله تعالى ، فالابتداء بذكر الله أو بصفة من صفاته الدالة على أنه يريد ابقاء السلامة على عباده أكمل من قوله « حياك الله » .

الثالث : أن قول الانسان لغيره « السلام عليك » فيه بشارة بالسلامة وقوله « حياك الله » لا يفيد ذلك ، فكان هذا أكمل .

ومما يدل على فضيلة « السلام » القرآن والأحاديث والمعقول .
أما القرآن فمن وجوه :

(الأول) إعلم أن الله تعالى سلم على المؤمن في اثني عشر موضعاً .
أولها : إنه تعالى كأنه سلم عليك في الأزل ، ألا ترى أنه قال في وصف ذاته :
« الملك القدوس السلام »^(١) .

وثانيها : إنه سلم على نوح ، وجعل لك من ذلك السلام نصيباً فقال : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك »^(٢) والمراد منه أمة محمد وآله .

وثالثها : سلم عليك على اسان جبرئيل فقال : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل » أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر »^(٣) .

قال المفسرون : إنه عليه الصلاة والسلام خاف على أمته أن يصيروا مثل أمة موسى وعيسى عليهما السلام فقال الله : لانهم لذلك فإني وإن أخرجتك من الدنيا إلا أني جعلت جبرئيل خليفة لك ينزل الى أمتك كل ليلة قدر ويبلغهم السلام مني .
أقول : إن نزول الملائكة بكل هذه الامور تبلغها للنبي في حياته أما بعد

(١) الحشر : ٢٣ .

(٢) نوح : ٤٨ .

(٣) القدر : ٤ و ٥ .

ارتجاله فإلى من تبلغ هذه الأمور ؟ فلا بد وأن يكون له وصياً تكون الأمور كلها عنده ، وإلا فلا يمكن أن تضعها الملائكة على الأرض وتضعها إلى السماء ، فتأمل وفكر جيداً . وسيأتي الكلام عليها مفصلاً في سورة القدر إن شاء الله .

ثم قال الفخر : ورابعها : سلم عليك على لسان موسى عليه السلام حيث قال : «السلام على من اتبع الهدى» ^(١) فإذا كنت متبع الهدى وصل سلام موسى إليك .

أقول : إن اتباع الهدى إنما يكون في العمل على طبق القرآن بالمعنى الذي أنزله الله على نبيه ، وهو بتمامه وكمالهِ لا يوجد إلا عند من قرنه النبي بالكتاب وهم العترة ، فلا يفوتك الأمر .

ثم قال الفخر : وخامسها : سلم عليك على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال : والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ^(٢) وكل من هداه الله إلى الإيمان فقد اصطفاه كما قال : «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا» ^(٣) .

أقول : إن هذه الآية تدل على ما قلناه في الأمر الرابع من أن علم الكتاب إنما هو عند أوصياء النبي الذين اصطفاهم الله وجعلهم أئمة ، فإن الآيتين تدلان على أنهم اناس اصطفاهم الله من بين الأمة وليسوا كل الأمة ، لأن فيها من لا يعرف تفسير آية واحدة وإن كان تقياً مطيعاً لله يأخذ معالم دينه من أهل العلم .

ثم قال الفخر : وسادسها : أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل المشافهة فقال : «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم» ^(٤) .

وسابعها : أمر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتسليم عليك قال : «وإذا حييتم بتحيةة فحيوا بأحسن منها أو ردوها» ^(٥) .

(١) طه : ٤٧ .

(٢) النمل : ٥٩ .

(٣) فاطر : ٣٢ .

(٤) الانعام : ٥٤ .

(٥) النساء : ٨٦ .

وثامنها: سلم عليك على لسان ملك الموت فقال: «الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم»^(١) قيل: إن ملك الموت يقول في اذن المسلم: السلام يقرأك السلام ويقول: أجبني فإني مشتاق إليك، واشتاق الجنات والحدور العين إليك، فإذا سمع المؤمن البشارة يقول لملك الموت: للبشير مني هدية، ولا هدية أعز من روعي، فاقبض روعي هدية لك.

وناسعها: السلام من الأرواح الطاهرة المطهرة قال تعالى: «وأما إن كان من أصحاب اليمين»*فسلام لك من أصحاب اليمين»^(٢).
وعاشرها: سلام الله عليك على لسان رضوان خازن الجنة فقال تعالى: «وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً» إلى قوله: «وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم»^(٣).

والحادي عشر: إذا دخلوا الجنة فالملائكة يزورونهم ويسلمون عليهم قال تعالى: «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب»* سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»^(٤).

والثاني عشر: السلام من الله من غير واسطة وهو قوله: «تحييتهم يوم يلقونه سلام»^(٥) وقوله: «سلام قولاً من رب رحيم»^(٦) وعند ذلك يتلاشى سلام الكل لأن المخلوق لا يبقى على تجلي نور الخالق.

(الوجه الثاني) من الدلائل القرآنية الدالة على فضيلة السلام: أن أشد الأوقات حاجة إلى السلامة والكرامة ثلاثة أوقات: وقت الابتداء، ووقت الموت

(١) النحل: ٣٢.

(٢) الواقعة: ٩٠ و ٩١.

(٣) الزمر: ٧٣.

(٤) الرعد: ٢٣ و ٢٤.

(٥) الأحزاب: ٤٤.

(٦) يس: ٥٨.

ووقت البعث ، والله تعالى لما أكرم يحيى عليه السلام فأنما أكرمه بأن وعده السلام في هذه الأوقات الثلاثة فقال : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً »^(١) وعيسى عليه السلام ذكر أيضاً ذلك فقال : « السلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً »^(٢).

(الوجه الثالث) أنه تعالى لما ذكر تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً »^(٣).

يروى في التفسير أن اليهود كانوا إذا دخلوا قالوا : السام عليك ، فحزن الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا المعنى ، فبعث الله جبرئيل عليه السلام وقال : إن كان اليهود يقولون : السام عليك فأننا أقول من سرادقات الجلال : السلام عليك ، وأنزل قوله : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » ، الى قوله « وسلموا تسليماً » .

وأما ما يدل من الأخبار على فضيلة السلام فما روي أن عبدالله بن سلام قال : لما سمعت بقدوم الرسول عليه الصلاة والسلام دخلت في غمار الناس ، فأول ما سمعت منه : يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام .

وأما ما يدل على فضل السلام من جهة المعقول فوجوه :

الأول : قالوا تحية النصارى وضع اليد على الفم ، وتحية اليهود بعضهم لبعض الإشارة بالأصابع ، وتحية المجوس الانحناء ، وتحية العرب بعضهم لبعض أن يقولوا : حياك الله ، وللملوك أن يقولوا : أنعم صباحاً ، وتحية المسلمين بعضهم لبعض أن يقولوا .. السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ولا شك أن هذه التحية أشرف التحيات وأكرمها .

(١) مريم : ١٥ .

(٢) مريم : ٣٢ .

(٣) الاحزاب : ٥٦ .

الثاني : أن السلام مشعر بالسلامة من الآفات والبليات ، ولا شك أن السعي في تحصيل الصون عن الضرر أولى من السعي في تحصيل النفع .

الثالث : أن الوعد بالنفع يقدر الانسان على الوفاء به وقد لا يقدر ، أما الوعد بترك الضرر فإنه يكون قادراً عليه لامحالة ، والسلام يدل عليه ، فثبت أن السلام أفضل أنواع التحية^(١) انتهى كلام الرازي .

وكما وردت الأخبار الكثيرة في الحث على إفشاء السلام ومدح فاعله كذلك وردت أخبار في ذم تاركه .

فمنها : ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه^(٢) .

وقال ﷺ : لاتدع الى طعامك أحداً حتى يسلم^(٣) .

وعنه ﷺ أنه قال : إن أعجز الناس من عجز عن الدعاء ، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام^(٤) .

فالأخبار الواردة في التحية على أصناف . فصنف منها بحث على إفشاء السلام ومدح أهله وبيان ثوابه ، وصنف ثان يذم تاركه ، وصنف ثالث بحث على ضم المصافحة الى السلام ، وبعضها يذكر المعاينة عوض المصافحة . وفي أغلب هذه الأخبار يذكر لهذا الفعل شيئاً من الثواب في الآخرة ، وفي بعضها يذكر أنها آثاراً في الدنيا ، وأن هذه الآثار الدنيوية يشعر بها كل أحد ويراها . وهي توجب المحبة والالفة .

فهذه التحية التي قد أكرم الله بها أمة محمد وخصهم بها من دون سائر الامم

(١) تفسير الرازي : ج ١٠ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

(٢) كنز العمال : ج ٩ ص ١٢٦ ح ٢٥٣٢٠ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٣ ب ٩٧ ح ٦٦ .

(٤) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٤ ب ٩٧ ح ١١٠ .

وأراد لهم بسبب هذه التحية أن يكونوا دائمة في الفة ومحبة وأن لا يقع بينهم تباغض وتباعد ، وقد بقيت هذه الأمة مدة من الزمن محافظة على هذه التحية ، ولكن مع كل الأسف لما دخل الأجانب الى بلاد الاسلام واختلطوا بهم غيروا من أوصافهم الحميدة كثيراً منها ، وهذه التحية قد تركها كثير من المسلمين الذين عاشروا الأجانب ورجعوا الى عهد الجاهلية ، فاذا دخل أحدهم على الآخر يقول له : (صباح الخير ، ومساء الخير) ولا يعرف أن تحية الاسلام هي السلام .

إن الفرقة التي تركت تحية المسلمين وتمسكت بتحية الجاهلية هل أنهم اعتبروا أنفسهم من غير المسلمين ؟ أو أنهم يرون أنفسهم من المسلمين ولكنهم يرجحون هذه التحية الجاهلية على تحية المسلمين ويرونها أحسن منها ؟ فهم داخلون في ضمن قوله تعالى : « ألم تر الى الذين ادعوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً »^(١) . فالتارك لتحية المسلمين يختار لنفسه أحد القسمين ، إما الخروج عن جماعة المسلمين ، وإما القسم الآخر ، واذا رفضهما جميعاً واختار البقاء مع الاسلام فليرجع الى تحية المسلمين وايكن محباً لهم محبوباً عندهم .

مقاله الطبرى :

قال في تأويل قوله تعالى :

« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » إن الله كان على كل شيء حسيباً ، يعنى جل ثناؤه بقوله : « واذا حييتم بتحية » اذا دعى لكم بطول الحياة والبقاء والسلامة « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » . يقول فادعوا لمن دعا لكم بذلك بأحسن مما دعا لكم ، أو ردوها ، يقول أو ردوها التحية^(٢) انتهى . أقول : إن المسلم اذا كان قوي الايمان صحيح العقيدة بالدين الاسلامي

(١) النساء : ٥١ .

(٢) تفسير الطبرى : ج ٥ ص ١٩ .

لا ينبغي له أن يزهد بهذا الدعاء لأخيه المسلم ولنفسه بالرد بأحسن منه، ويتركه لغيره لمجرد سماع الأجانب استعمال غيره .

وأما الجملة الأخيرة من الآية وهي قوله : «ان الله كان على كل شيء حسيباً» فمعناها : أن الله يحسب أعمالكم كبيرها وصغيرها وجليلها وحقيقها لا يفوته شيء منها ولا يترك شيئاً منها ، فإن التحية هي أول كلمة ينطق بها المتلاقيان ويتبعها من الكلام ما يناسبها .

فإن كانت تحية المسلمين كان أثرها الوضعي الحب والالفة واختيار ما فيه الصلاح لعموم المسلمين وتبعها من الكلام كل شيء ينفع المسلمين ، فكانت نتائجها الدنيوية والاخرية سالحة نافعة، فإن الله هو الذي يساعدكم ويمدكم بما يقويهم ويصلح أعمالهم لأنهم قد قبلوا منه هذه الهدية وعملوا بها وجعلوها فاتحة كلامهم ودالة على حسن سريرتهم .

وأما إذا كانت تحيتهم عند التلاقي تحية غير المسلمين فيكون بقية كلامهم تابعاً لها حيث رفضوا هدية الله ولم يقبلوها ولم يفتتحوا بها كلامهم فلا يرجى لهم المساعدة من الله ، فليعرف المسلم تحيته وليعرف غير المسلم تحيته ، وهذه التحية التي جعلها الله للمسلمين في الدنيا هي بعينها جعلها لهم في الآخرة حيث قال : « تحيتهم يوم يلقونه سلام »^(١) فمن قبلها في الدنيا تلقاها في الآخرة، ومن رفضها في الدنيا لن يسمعها في الآخرة، هذا هو المطابق للحساب الدقيق « إن الله كان على كل شيء حسيباً » .

ما قاله الفخر الرازي :

وقال في تفسيره الكبير في المسألة الثالثة : من الناس من قال : من دخل داراً وجب عليه أن يسلم على الحاضرين واحتج عليه بوجوه :

الأول : قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا »^(١) وقال عليه الصلاة والسلام : أفشوا السلام ، والأمر للموجب .

الثاني : أن من دخل على إنسان كان كالطالب له ، ثم المدخول عليه لا يعلم أنه يطلبه أخيراً أو لئلاً ، فإذا قال : السلام عليك فقد بشره بالسلامة وآمنه من الخوف . وإزالة الضرر عن المسلم واجبة ، قال عليه الصلاة والسلام : المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه . فوجب أن يكون السلام واجباً .

الثالث : أن السلام من شعائر أهل الاسلام ، وإظهار شعائر الاسلام واجب^(٢) انتهى .

وقد تبين مما ذكر من الأخبار وكلمات المفسرين أن السلام هي تحية مختصة بالاسلام وأن غيرهم لا يستعملونها ولا يعرفونها ، فإن الله خص بها المسلمين حتى أن المسلمين في الصدر الأول كانوا إذا غزوا جماعة من الكفر فإذا صادفوا رجلاً قريباً من بلاد الكفر لم يعرفوه وكان الرجل مسلماً يبادرهم بالسلام قبل أن يسطوا به ليعرفوه أنه من المسلمين ، فهي علامة مخصوصة وسمة خاصة بالمسلمين . فإذا عرفنا ذلك فقد ورد في الأخبار الحديث الكثير على إفشاء السلام ، وأن المسلم إذا لاقى مسلماً ينبغي له أن يبدأه بالسلام ، وإذا دخل داراً أو محلاً آخر يسلم على أهله .

وقد جاءت بعض الأخبار تمنع السلام على أصناف من الناس ، فمنهم اعدم دخولهم في الاسلام وهم اليهود والنصارى والمجوس وعبد الأوثان ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : لا تبدأوا أهل الكتاب بالسلام ، فإن سلموا عليكم فقولوا : عليكم^(٣) .

(١) النور : ٢٧ .

(٢) تفسير الرازي : ج ١٠ ص ٢١١ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٦ ص ٩٧ ب ٩٧ ح ٣٧ نقلاً بالمعنى .

وعن الامام الصادق عليه السلام قال : اذا سأل عليك اليهودي والنصراني والمشرِك فقل عليك^(١).

الصنف الثاني ممن لا يسلم عليهم: الذين هم في شغل يخصهم، فإما أن يكون مشغولاً في الصلاة، وإما أن يكون على قضاء حاجة، وكذا الذي هو في الحمام فإن هؤلاء لا يسلم عليهم .

الصنف الثالث: هم المتصفون بأوصاف والمشغولون بأعمال تبعدهم عن المسلمين فإن المسلم هو المطيع لله ولرسوله الممثل لأوامر الرسول والمنتهى عما نهاه عنه الرسول ، وهذا هو الفاعل لما نهى عنه الرسول، فكأنه في الحالة يكون من غير المسلمين وهم :

أ - الجالس على مائدة الخمر .

ب - اللاعب بالشطرنج والنرد وغيرهما من ألعاب القمار .

ج - المخنث .

د - الشاعر الذي يقذف المحصنات .

هـ - آكل الربا .

و - الفاسق المعلن بفسقه .

فإن هؤلاء الأشخاص وإن لم يكونوا مشغولين بهذه الأعمال ولكنهم لا ينكرون فعلهم لها اذا سئلوا عنها فيكونون من نوع الرجل السادس وهو المعلن بفسقه . وقد نهانا الشارع المقدس عن السلام عليهم تنزيهاً للإسلام أن يكون هؤلاء من أهله وتقديساً للمسلمين أن يقترب بهم هؤلاء فيعدون منهم ، فاذا تركوا هذه الأعمال وتابوا منها صاروا من المسلمين ويكون لهم ما للمسلمين من التحية وغيرها.

فائدة

قال العلامة المجلسي في البحار بعد ذكر السند :

عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، يسكنها من أمتي من أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى بالليل والناس نيام ، فقال علي عليه السلام : يا رسول الله ومن يطيق هذا من أمتك ؟ فقال : يا علي أوما تدري ما إطابة الكلام ؟ من قال اذا أصبح وأمسى : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر عشر مرات ، وإطعام الطعام نفقة الرجل على عياله ، وأما الصلاة بالليل والناس نيام فمن صلى المغرب والعشاء الآخرة وصلاة الغداة في المسجد في جماعة فكأنما أحيا الليل كله . وإفشاء السلام أن لا يبخل بالسلام على أحد من المسلمين ^(١).

قوله تعالى : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً (٩٢) .

إن الله عز وجل قد بيّن لامة محمد في هذه الآية حكم المؤمن الذي يقتل مؤمناً ، والقتل لا يخلو إما أن يكون عن عمد أو عن خطأ .
أما قتل العمد فلا يمكن أن يصدر عن مؤمن لأن الله قد نهى عنه المؤمنين فمن كان مؤمناً لا يفعل ما نهاه الله عنه ، ولذا نفاه الله عنه بقوله : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً أي من صدر منه قتل المؤمن فليس بمؤمن .

وأما قتل الخطأ فيمكن أن يصدر من المؤمن ، فإذا اتفق ذلك منه فلا بد له من تدارك الخطأ والتخلص من تبعه هذا القتل لأن دم المؤمن محترم وإن وقع خطأ ، وقد بين الله تعالى في هذه الآية كيفية التخلص من تبعه قتل المؤمن ، وقد جعل المؤمن المقتول على ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون المقتول مؤمناً ويكون قومه مؤمنين ، فهذا عليه أن يعتق رقبة مؤمنة وأن يسلم الدية إلى أهله ، والدية مائة من الإبل أو ألف دينار ذهب أو عشرة آلاف أو اثني عشر ألف درهم فضة .

الثاني : أن يكون المقتول مؤمناً ولكن قومه غير مؤمنين ، يعني يكون قومه من الكافرين ، وهؤلاء على قسمين لأن الكافرين إما محاربين وإما من أهل الذمة ، فإذا كان قوم المقتول من المحاربين ، فكيفية التخلص من تبعه أن يعتق رقبة مؤمنة فقط ، وليس عليه دية حيث إن قوم المقتول من الكافرين فلا يدفع لهم الدية .

الثالث : هو القسم الثاني من الكافرين وهم غير المحاربين ، أي من كان لهم مع المسلمين ميثاق وذمة وهم يؤدون الجزية إلى المسلمين ولكن المقتول من المؤمنين وهذا يكون التخلص من تبعه قتله بأن يدفع الدية إلى أهله ويعتق رقبة مؤمنة وإن لم يجد رقبة مؤمنة صام شهرين متتابعين ، وقال بعضهم : في هذه الصورة أن المقتول وإن لم يكن مؤمناً فعلى القاتل أن يمثل الحكم المذكور . هذا كله بالنسبة إلى قتل الخطأ .

وأما قتل العمد فقد أخبر الله عنه بقوله :

ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً (٩٣) .

لقد تقدم في سورة البقرة حكم القتل عمداً وما يترتب على القاتل من الفصاح وهو العقوبة في الدنيا، وفي هذه الآية ذكر الله العقوبة الآخروية وهي الخلود في نار جهنم وحلول غضب الله عليه واللعنة من الله والعذاب العظيم . فهذه أربعة أنواع من العقاب كتبها الله على قاتل المؤمن عمداً ، كل نوع منها بافراده لا تتحمله الجبال ولا تطيقه السماوات والأرض ، فكيف بهذا الجسم الضعيف ! وهل يطيق أن يتحمل هذه الأنواع الأربعة ؟ أو هل يطيق تحمل واحد منها ؟ أو هل يطيق تحمل جزء الواحد منها ، هذا الانسان الضعيف الذي لا يطيق الحر ولا البرد ، ولا يطيق الصبر على لذع البقرة أو البرغوث ؟ كيف يتحمل هذا كله ؟ وهل يفكر من يقدم على قتل المؤمن في هذه الامور الأربعة ؟ وهل يعرفها بحقيقتها ؟

فالأولى والأنسب ذكر شيء من أوصاف هذه الامور الأربعة التي أعدها الله لقاتل المؤمن حتى يتنبه من يريد أن يفعل ذلك والذي يعينه أو يسبب له ذلك ، فلمعه يرتدع عن نيته .

أما جهنم وصفاتها فكل أحد قد سمع به ، وكلامنا يكون مع المصدق بذلك ، أما المكذب به فلننا معه ولا هو معنا . وقد نزلت آيات عديدة في وصفها نذكر بعضها هنا ، منها قوله تعالى : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً » ^(١) وقوله تعالى : « فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » ^(٢) . وقوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » ^(٣) .

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) الحج : ١٩ - ٢٢ .

(٣) النساء : ٥٦ .

وقوله تعالى: «ثم إنكم أيتها الضالون المكذبون * لا تكونون من شجر من زقوم * فمالتون منه البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين»^(١). وقوله تعالى: «إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآباً * لا بين فيها أحقاباً * لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً * إلا حميماً وغساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً»^(٢). وقوله تعالى: «خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه»^(٣).

معنى الأحقاب :

قال الفخر الرازي : واعلم أن الأحقاب واحدها حقب وهو ثمانون سنة عند أهل اللغة ، والحقب السنون واحدها حقبه ، وهي زمان من الدهر لا وقت له.

ثم نقل عن بعض المفسرين فيه وجوه :

(أحدها) قال عطاء والكلبي ومقاتل عن ابن عباس في قوله : «أحقاباً» الحقب الواحد بضع وثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوماً واليوم ألف سنة من أيام الدنيا . ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعاً .

(وثانيها) سأل هلال الهجري علياً عليه السلام فقال : الحقب مائة سنة والسنة اثنا عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً واليوم ألف سنة .

(وثالثها) قال الحسن : الأحقاب لا يدري أحد ما هي ، ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة مما تعدون^(٤) . وقد اشتمل القرآن على كثير من الآيات في وصف جهنم وأنواع عذابها .

(١) الواقعة : ٥١ - ٥٦ .

(٢) النبأ : ٢١ - ٣٠ .

(٣) الحاقة : ٣٠ - ٣٢ .

(٤) تفسير الرازي : ج ٣١ ص ١٣ .

أبواب جهنم :

قال القمي في تفسير قوله تعالى : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم »^(١) إن الله جعلها سبع دركات أعلاها الجحيم ، يقوم أهلها على الصفامنها تغلي أدمغتهم فيها كغلي القدور بما فيها^(٢).

الصفاء : الحجر الصلب الضخم الذي لا ينبت^(٣).

ثم قال القمي في تفسيره : (والثانية) اظي ، « نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتوكى * وجمع فأوعى »^(٤).

(والثالثة) سقر ، « لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر »^(٥).

(والرابعة) الحطمة ، « ترمي بشر كالقصر * كأنه جمالة صفر »^(٦) تدق كل من

صار إليها مثل الكحل ، فلا تموت الروح ، كلما صاروا مثل الكحل عادوا .

(والخامسة) الهاوية ، فيها ملأ يدعون بامالك أغثنا ، فاذا أغاثهم جعل لهم

آنية من صفر من نار فيها صديد ماء يسيل من جلودهم كأنه مهل ، فاذا رفعوه

ليشربوا منه تساقط لحم وجوههم فيها من شدة حرها ، وهو قول الله عز وجل :

« وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً »^(٧).

ومن هوى فيها هوى سبعين عاماً في النار كلما احترق جلده بدل جلدأ غيره.

(والسادسة) السعير ، فيها ثلاثمائة سرادق من نار ، في كل سرادق ثلاثمائة

قصر من نار ، وفي كل قصر ثلاثمائة بيت من نار ، وفي كل بيت ثلاثمائة لون من

عذاب النار ، فيها حيئات من نار وعقارب من نار وجوامع من نار وسلاسل من نار

(١) الحجر : ٤٤ .

(٢) تفسير القمي : ج ١ ص ٣٧٦ .

(٣) لسان العرب : ج ١ ص ٤٦٤ مادة « صفا » .

(٤) المعارج : ١٦ - ١٨ .

(٥) المدثر : ٢٨ - ٣٠ .

(٦) المرسلات : ٣٢ و ٣٣ .

(٧) الكهف : ٢٩ .

وأغلال من نار ، وهو الذي يقول الله عز وجل : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا »^(١).

(والسابعة) جهنم ، وفيها الفلق ، وهو جب في جهنم اذا فتح أسعر النار سمرأ ، وهو أشد النار عذاباً .

وأما صعوداً [أي في قوله تعالى : « سَارَهُقَهُ صَعُودًا »^(٢)] فجبل من صفر من نار وسط جهنم .

وأما أناماً [أي في قوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا »^(٣)] فهو واد من صفر مذاب يجري حول الجبل ، فهو أشد النار عذاباً^(٤) والآيات في هذا الباب كثيرة .
وأما الأخبار فأكثر من الكثير .

فمنها : ما عن إسحاق بن عمار عن الكاظم عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : يا إسحاق إن في النار لوادياً يقال له سقر ، لم يتنفس منذ خلقه الله تعالى ، لو أذن الله عز وجل له في التنفس بقدر مخيط لأحرق ما على وجه الأرض ، وإن أهل النار ليتعوذون من حر ذلك الوادي وتننه وقذره وما أعد الله فيه لأهله ، وإن في ذلك الوادي لجبالاً يتعوذ جميع أهل ذلك الوادي من حر ذلك الجبل وتننه وقذره وما أعد الله فيه لأهله ، وإن في ذلك الجبل لشعباً يتعوذ جميع أهل ذلك الجبل من حر ذلك الشعب وتننه وقذره وما أعد الله فيه لأهله ، وإن في ذلك الشعب لقلبياً^(٥) يتعوذ أهل ذلك الشعب من حر ذلك القلب وتننه وقذره وما أعد الله فيه لأهله ، وإن في ذلك القلب لحيّة يتعوذ جميع أهل ذلك القلب من خبث تلك الحية وتننها وقذرها وما أعد الله في أنيابها من السم لأهلها ، وإن في جوف

(١) الانسان : ٤ .

(٢) المدثر : ١٧ .

(٣) الفرقان : ٦٨ .

(٤) تفسير القمي : ج ١ ص ٣٧٦ و ٣٧٧ .

(٥) القلب : البئر .

تلك الحية لصناديق فيها خمسة من الأمم السالفة واثنان من هذه الأمة ، قال : جعلت فداك ومن الخمسة ومن الاثنان ؟ قال : أما الخمسة فقبايل الذي قتل هابيل ونمرود الذي حاج إبراهيم في ربه فقال : أنا احبي واميت ، وفرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى ، ويهود الذي هو د اليهود ، وبولس الذي نصر النصراني ، ومن هذه الأمة أعرابيان^(١) .

عن النبي ﷺ قال : تكلم النار يوم القيامة ثلاثة : أميراً ، وقارئاً ، وذا نروة من المال ، فتقول للأمير : يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل ، فتزدرده كما يزدر الطير حب السمس. وتقول للمقاريء : يا من تزيثن للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده . وتقول للغني : يا من وهب الله له دنياً كثيرة واسعة في غنى وسأله الفقير الحقير اليسير قرضاً فأبى إلا بخلاً فتزدرده^(٢) .

وفي كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لأهل مصر يصف فيها النار قال عليه السلام : احذروا ناراً قعرها بعيد ، وحرها شديد ، وعذابها جديد ، دارليس فيها رحمة ، ولا تسمع فيها دعوة ، ولا تفرج فيها كرب^(٣) .

وعن علي عليه السلام أن النبي ﷺ قال : والذي نفس محمد بيده لو أن قطرة من الزقوم قطرت على جبال الأرض لساخت إلى أسفل سبع أرضين ولما أطاقت فكيف بمن هو طعامه ! والذي نفسي بيده فلو أن قطرة من غسلين قطرت على جبال الأرض لساختها إلى أسفل سبع أرضين ولما أطاقت فكيف بمن هو شرابه ! والذي نفسي بيده لو أن مقمماً واحداً مما ذكره الله في كتابه وضع على جبال الأرض لساخت

(١) بحار الانوار : ج ٨ ص ٣١٠ ح ٧٧ نقلا عن الخصال : ج ٧ ص ٣٩٨ ح ١٠٦ باب السبعة وفيه « يونس » بدل « بولس » .

(٢) الخصال : ج ١ ص ١١١ ح ٨٤ باب الثلاثة .

(٣) نهج البلاغة (صحيح الصالح) : ص ٣٨٤ كتاب ٢٧ من رسالة له عليه السلام إلى محمد ابن أبي بكر حين قلده مصر .

الى أسفل سبع أرضين ولما أطاقته فكيف بمن يقع عليه يوم القيامة في النار! (١).
ومن دعاء الامام سيد الساجدين عليه السلام بعد صلاة الليل: اللهم إني أعوذ بك
من نار تغلظت بها على من عصاك وتوعدت بها من صدف عن رضاك ، ومن نار
نورها ظلمة وهيئتها أليم وبعيدها قريب ، ومن نار يأكل بعضها بعضاً ويصل بعضها
على بعض ، ومن نار تذر العظام رميماً وتسقي أهلها حميماً ، ومن نار لا تبقى
على من تضرع إليها ولا ترحم من استعطفها ولا تقدر على التخفيف ممن خشع لها
واستسلم إليها ، تلقى سكانها بأحرّ مالدبها من أليم النكال وشديد الوبال ، وأعوذ
بك من عقاربها الفاغرة أفواهها وحيثاتها الصالقة بأنيابها وشرابها الذي يقطع
أمعاء وأفئدة سكانها وينزع قلوبهم ، وأستهديك لما باعد منها وآخر عنها (٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : واعلموا عباد الله أنه ليس لهذا الجلد الرقيق
صبر على النار ، فارجحوا نفوسكم فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا فرأيتم
جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه ، فكيف اذا كان
بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان ! أعلمتم أن مالكا اذا غضب على
النار حطم بعضها بعضاً لغضبه واذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته ،
أيها اليفن الكبير الذي قد لهزه الفتير ، كيف بك اذا التحمت أطواق النار بعظام
الأعناق ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد ! فالله الله معشر العباد وأنتم
سالمون في الصحة قبل السقم وفي الفسحة قبل الضيق ، فاسمعوا في فكك رقابكم من
قبل أن تغلق رهائنها (٣).

هذا هو النوع الأول من عقاب قاتل المؤمن عمداً المذكور في قوله تعالى :

(١) بحار الانوار : ج ٨ ص ٣٠٢ ب ٢٤ ح ٦١ نفلا عن الدروع الواقية لابن طاووس مع
اختلاف يسير .

(٢) الصحيفة السجادية : الدعاء ٣٢ .

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٣ .

«ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها» فقد سمعت بعض أوصاف جهنم. وأما الخلود فمعناه ظاهر معروف ليس له آخر ولا انتهاء ولا ينقضي، أي أن العذاب أبداً ودائماً، ومعنى الأبدي في الدنيا هو مدة العمر وكذلك معنى الأبدي في الآخرة، وأن الآخرة ليس فيها موت أبداً فالعذاب يبقى مادام الإنسان. أما النوع الثاني من عقاب قاتل المؤمن هو المنوء عنه بقوله تعالى: «وغضب الله عليه» ينبغي لمن قتل مؤمناً أو سبب ذلك أو أعان عليه أن يعرف معنى غضب الله وهل أنه يطبق ذلك؟ فإن معنى غضب الله على عبده هو إرادة عقابه، فإذا أراد الله عقابه هل يتمكن العبد أن يدفع ذلك العقاب عن نفسه؟ أو يعتصم بأحد فينجيه من ذلك العقاب؟ أو يخفف عنه شيئاً منه؟ كلا إن ذلك لا يمكن أبداً.

وقد ورد أن الحواريين قالوا لعيسى بن مريم عليه السلام: يا معلم الخير أعلامنا أي الأشياء أشد؟ فقال: أشد الأشياء غضب الله عز وجل، قالوا: فبم يتقى غضب الله قال: بأن لا تغضبوا، قالوا: وما بدء الغضب؟ قال: الكبر والتجبر ومحقرة الناس^(١). وينبغي لكل مسلم أن يتذكر أن الله أوجب عليه في كل يوم وليلة خمس فرائض، وأوجب عليه أن يتعوذ بالله في كل فريضة من غضب الله حيث يقرأ الفاتحة ويقول فيها: «إهدنا الصراط المستقيم» * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وكل من يقدم على قتل مؤمن فقد اختار بنفسه غضب الله وجره على نفسه فهو كاذب حيث يتعوذ منه في صلاته، وينبغي للمؤمن أن يلتفت إلى نفسه ولا يلقبها في هذا الأمر العظيم.

أما النوع الثالث من عقاب قاتل المؤمن هو الذي نوه الله عنه بقوله: «ولعنه» فإنه يستحق اللعن من الله.

واللعن: الطرد والابعاد من الله تعالى^(٢) فيكون القاتل مطروداً ومبعداً عن

(١) بحار الانوار : ج ٧٢ ص ٢٦٣ ب ١٣٢ ح ٥.

(٢) النهاية لابن الأثير : ج ٤ ص ٢٥٥.

الله ، ومن طرده الله هل يرجى له أن يعود الى قربه ورحمته ؟ فهو بعيد عن رحمة الله وبعيد عن عفوه وبعيد عن جنته وبعيد عن شفاعة الشافعين ، إن الذي يبعده أيضاً أنبياء الله وملائكته وعباده الصالحون ولا يقربه أحد ، ومن كان بعيداً عن الله كان من الهالكين .

فعن الكافي قال : روي عن النبي ﷺ قال : لعن الله المحلل والمحلل له ، ومن يوالي غير مواليه ، ومن ادعى نسباً لا يعرف ، والمتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال ، ومن أحدث حدثاً في الاسلام ، أو آوى محدثاً ومن قتل غير قاتله أو ضرب غير صاربه ، ومن لعن أبويه ، فقال رجل : يا رسول الله أ يوجد رجل يلعن أبويه ؟ فقال : نعم يلعن آباء الرجال وامهاتهم فيلعنون أبويه^(١) .

أما النوع الرابع من عقاب قاتل المؤمن هو ما ذكره الله بقوله : «وأعد له عذاباً عظيماً» .

إن الذي يظهر من الآيات ومن الأخبار أن العذاب في جهنم يختلف شدة وضعفاً ، وأن طبقاتها ودرجاتها يختلف عذابها وليست متساوية ، وأن بعض العباد الكفرة أو العصاة يكون عذابهم شديداً ، وكذلك قاتل المؤمن فعذابه عظيم كما ذكر في الآية ، وإن الشيء الذي يعبر الله عنه بكلمة «عظيم» هو من أعظم الأشياء ولا يمكن أن يتصوره العقل البشري .

وقد روي عن جرير بن عبد الله قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام في معنى قول الله عز وجل : «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»^(٢) قال : قلت : كيف كأنما قتل الناس جميعاً فربما قتل واحداً ، فقال عليه السلام : يوضع في موضع من جهنم إليه ينتهي شدة عذاب أهلها

(١) الكافي : ج ٨ ص ٧١ ح ٢٧ .

(٢) المائدة : ٣٢ .

لو قتل الناس جميعاً لكان إنما يدخل ذلك المكان ، قلت : فإنه قتل آخر ؟ قال :
يضاعف عليه^(١) .

وروي عن أبي جعفر عليه السلام قال : من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله عز وجل
على قاتله جميع الذنوب وبريء المقتول منها ، وذلك قول الله عز وجل : وإني
أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ،^(٢) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب
دماً حراماً^(٣) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : لزوال الدنيا أسرع على الله من قتل المؤمن^(٤) .
وقال صلى الله عليه وآله : لو أن أهل السموات السبع وأهل الأرض السبع اشترى
في دم مؤمن لأكبتهم الله جميعاً في النار^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام قال : أوحى الله إلى موسى بن عمران : يا موسى قل للملأ
من بني إسرائيل إياكم وقتل النفس الحرام بغير حق ، فمن قتل منكم نفساً في
الدنيا قتله الله في النار مائة ألف قتلة مثل قتلة صاحبه^(٦) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : وجد قتيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج
مغضباً حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يقتل رجل من المسلمين لا
يدري من قتله ! والذي نفسي بيده لو أن أهل السموات والأرض اجتمعوا على
قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله في النار ، والذي نفسي بيده لا يجلد أحد أحداً
ظلماً إلا جلد غداً في نار جهنم مثله ، والذي نفسي بيده لا يبغيضنا أهل البيت أحد

(١) الوسائل : ج ١٩ ص ٣ ب ١ ح ٢ .

(٢) الوسائل : ج ١٩ ص ٧ ب ١ ح ١٦ ، والاية ٢٩ من سورة المائدة .

(٣) الوسائل : ج ١٩ ص ٥ ب ١ ح ٨ .

(٤) بحار الانوار : ج ١٠٤ ص ٣٨٢ ب ١ ح ٦٩ .

(٥) بحار الانوار : ج ١٠٤ ص ٣٨٢ ب ١ ح ٧٠ .

(٦) الوسائل : ج ١٩ ص ٦ ب ١ ح ١٥ .

إلا أكبه الله على وجهه في نار جهنم^(١).

فيكون قاتل المؤمن مستحقاً لهذه الأنواع الأربعة أو الخمسة إذا جعلنا دخول النار نوعاً والخلود فيها نوعاً آخر ، نسأل الله أن يجيرنا من قتل المؤمن أما الاعانة عليه فقد سمعت قول النبي ﷺ : لو أن أهل السموات السبع وأهل الأرضين السبع اشترى كوا في دم مؤمن لأكبهم الله جميعاً في النار^(٢).

وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: يجيء يوم القيامة رجل إلى رجل حتى يبلطخه بدم والناس في الحساب فيقول: يا عبد الله مالي ولك؟ فيقول: أعنت عني يوم كذا وكذا بكلمة فقتلت^(٣).

هذا كله لمن يقتل مؤمناً في دار الدنيا فيشفي غيظه ويرضى نفسه وهواه وشيطانه.

ولنختم الموضوع بآية نخبر عن ختم أفواههم قال تعالى: « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التي كنتم توعدون * إصلوها اليوم بما كنتم تكفرون * اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ونشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون »^(٤).

هذه هي المرحلة النهائية ، فليحذرنا من يعقل ومن زعم أنه يعقل ومع ذلك يلقي بنفسه في النار يقال له : « أفلم تكونوا تعقلون » .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا

(١) بحار الانوار : ج ١٠٤ ص ٣٨٤ ب ٢ ح ٥ .

(٢) بحار الانوار : ج ١٠٤ ص ٣٨٢ ب ١ ح ٦٩ .

(٣) الوسائل : ج ١٩ ص ٩ ب ٢ ح ٣ .

(٤) يس : ٦٠ - ٦٥ .

ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيراً (٩٤) .

إن هذه الآية من توابع الآية التي قبلها التي ذكرت فيها الشدة والغلظة في قتل المؤمن ، وإن تلك الأنواع من العقاب قد جعلها الله على قاتل المؤمن المحقق الإيمان عند القاتل ، وفي هذه يذكر حكم قتل الانسان المشكوك بالإيمان وهو الذي يظهر علامة من علائم الإيمان ولكن المسلم لا يعتقد بإيمانه فيقتله . وإن الله لا يرضى لهذا القاتل أن يرتكب هذا الفعل لمجرد الشك في قوله وعدم الاطمئنان بإيمانه .

ويعلمنا الله ويرشدنا الى ما يريد منا في هذا الباب، فقد أمرنا بعد أن نادانا بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ثم وصف فعلنا الذي أتينا به بأنه خالص لله ليس فيه شائبة دنيوية فقال : « اذا ضربتم في سبيل الله » ليكون تحررنا من مكاننا وطي المسافة التي بين وطننا وبين المحل المقصود هو كونه في سبيل الله ولنصرة دينه وتأيد الاسلام ولمحق كلمة الكفر ، وهذا الشرط يلزم أن يكون ملازماً لأول حركة نتحركها فادبرنا بها السفر وقطع المسافة لأجل غزو العدو، وبحيث لم تكن نيتنا لأجل غنم الأموال .

فإذا خلصت النية وصحت السريرة وضربنا في الأرض فاصدين وجه الله يلزمنا على هذا أن نعامل الناس على ما يظهر على لسانهم من الأقوال ، ولا يجوز لنا أن نعاملهم على خطرات قلوبنا، فإن سمعنا منهم اعترافاً بكلمة الشهادة التي أمرنا النبي ﷺ بالتلفظ بها أول بعثته وهي : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » فهذا يكفي في حقن دمه وماله ، وإذا حيأنا بتحية الاسلام وقال : السلام

عليكم فهذا يكفي في الدلالة على كونه مسلماً .

وقد أمرنا الله تعالى - اذا كانت نياتنا على ما وصفه في سبيل الله - فقال : « فتبينوا » أي اذا ظهرت منه إحدى العلامات الدالة على الاسلام يلزمكم التثبت والتأني والاستفسار عن حاله حتى تظهر لكم جلية أمره ولا تسارعوا الى تكذيبه فتقولوا له : « لست مؤمناً » ثم تقتلوه وتأخذوا أمواله ، وغرضكم من هذا التكذيب أخذ الأموال واكتسابها ، وهذا يكشف عن عدم كون غرضكم الأول أنه في سبيل الله ولوجهه .

فينبغي لكم بعد ما عرفتكم الحكم أن تكفوا عن قتل كل من ظهرت منه اماره تدل على الاسلام ، ولا تردوا عليه بأنك مؤمناً أو لست مؤمناً .

واذا أردتم عرض الدنيا أي الأموال التي تكون لكم في الدنيا وهي عرض زائل سريع الزوال « فعند الله مغنم كثيرة » أي أن الله هو مسبب الأسباب وهو رازق العباد وهو الذي يداكم على ما تغنمون منه الأموال ، فلا تأخذوا مما لا يرزى به الله ونهاكم عنه ، ولا تطمعوا بالمال بسبب قتل من أظهر لكم الاسلام بذكر الشهادة أو بالتحية الاسلامية ، فإن الله عنده مغنم الآخرة بالاضافة الى مغنم الدنيا وهي كثيرة دائمة ، ومغنم الدنيا عرض زائل فلا ترغبوا بالزائل وتزهدوا بالدائم بل ينبغي للماعقل أن يرغب بالدائم الكثير ويزهد بالزائل القليل .

ثم إن الله عز وجل خاطب القوم الذين لم يثقوا بقول من أدى الشهادة أو التحية الاسلامية ولم يجعلوها دالة على اسلامه فقال لهم : إنكم كنتم مثلهم في أول أمركم وقد قبلت منكم هذه العلامة الاسلامية ، وقد حقنتم بها دمكم وحفظتم بها أموالكم ، فلماذا لم تعاملوا هذا الرجل كما عاملكم من كان قبلكم مسلماً ؟ فقال تعالى : « كذلك كنتم من قبل » أي أن هذا الذي قتلتموه كما كان مستخفياً من قومه خوفاً على نفسه كذلك كنتم أنتم مستخفين بدينكم من قومكم خوفاً على أنفسكم ، أو كما أنكم كنتم كفاراً فهذا كم الله كذلك كان هذا الذي قتلتموه

كافراً فهداه الله ، أو كما أنكم كنتم في ابتداء إسلامكم أذلاء وآحاداً إذا صار رجل منكم خاف أن يختطف كذلك صار هذا الرجل ، فلا ينبغي للمسلم أن يقتله ويأخذ أمواله ، وإنما كان خوفكم وخوفه من الكافرين لا من المسلمين ، فانعكس الأمر وصار المرء المسلم يحذر من المسلمين وإن حيّاهم بتحية الاسلام واعترف بالشهادة لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة ، فلا يليق بكم بأبيها الذين آمنوا أن تقولوا لمن أظهر الاسلام لست مؤمناً بل تبينوا حتى ينكشف لكم الأمر ، فقد كرر الأمر بالتبيين مرتين ، مرة في أول الآية ليكون عملنا على ذلك ، ومرة في آخر الآية بعدما بين لنا إنا كنا كذلك في بدء إسلامنا خائفين مستخفين أذلاء .

ثم قال : « فمن الله عليكم فتبينوا » أي من " عليكم بإظهار دينه بعدما كنتم مستخفين فيه متكتمين في إيمانكم وإعزاز أهله بعدما كانوا أذلاء خائفين من أهل الشرك . وقيل : معنى « من " عليكم ، أي تاب عليكم بعدما فعلتم هذه الفعلة وهي قتل من أظهر لكم الاسلام فتبينوا بعد هذا ولا تعودوا لمثلها .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمع البيان : فإنه قد قيل في سبب النزول : إنها نزلت في اسامة ابن زيد وأصحابه ، بعثهم النبي ﷺ في سرية فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم له الى جبل وكان قد أسلم فقال لهم : السلام عليكم لإلهه إلا الله محمد رسول الله ، فبدر إليه اسامة فقتله واستاقوا غنمه ، عن السدي .

وروي عن ابن عباس وقتادة . أنها لما نزلت الآية حلف اسامة أن لا يقتل رجلاً قال لإلهه إلا الله ، وبهذا اعتذر الى علي لما تخلف عنه ، وإن كان عذره غير مقبول لأنه قد دلّ الدليل على وجوب طاعة الامام في محاربة من حاربه من البغاة ولا سيما وقد سمع النبي ﷺ يقول : حاربك يا علي حرمني وسلمك سلمني .

وقيل : نزلت في محلم بن جثامة الليثي ، وقد بعثه النبي ﷺ في سرية

فلقيه عامر بن الأضبط الأشجعي فحيّاه بتحية الاسلام وكان بينهما إحنة، فرماه
بسهم فقتله، فلما جاء الى النبي ﷺ جلس بين يديه وسأله أن يستغفر له، فقال
ﷺ: لا غفر الله لك فانصرف باكياً، فما مضت عليه سبعة أيام حتى هلك فدفن
فلفظته الأرض، فقال لما اخبر به: إن الأرض تقبل من هو شر من محلم صاحبكم
ولكن الله أراد أن يعظم من حرمتكم. ثم طرحوه بين صدي جبل وألقوا عليه
الحجارة فنزلت الآية، عن الواقدي ومحمد بن اسحاق بن يسار رواية عن ابن عمر
وابن مسعود وأبي حدود.

وقيل: كان صاحب السرية المقداد، عن سعيد بن جبير.

وقيل: أبو الدرداء، عن ابن زيد^(١) انتهى ما في المجمع.

هذا كله بالنسبة الى قتل النفس وأخذ مال المقتول سواء كان في ذلك الزمان
أم في زماننا هذا، فإن النبي ﷺ قال: من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله حقن
ماله ودمه وعرضه^(٢).

أما بالنسبة الى بقية الأحكام التي تترتب على الاسلام فلا يمكن الحكم بها
إلا بعد ثبوت كونه مؤمناً حقيقياً، فإن الله قد ذكر في آيات كثيرة أن من اتخذ
الكافرين أولياء من دون المؤمنين فإنه لا يعد من المؤمنين، وقد كان في ذلك الزمان
جماعة كثيرة - ممن أظهروا الاسلام - يتخذون اليهود والنصارى أولياء من دون
المؤمنين، فسماهم الله منافقين، وما كان يظهر عليهم شيء في الخارج ولا يعرفهم
أحد غير النبي ومن أخبره النبي بهم

أما في زماننا هذا فإن جماعات المسلمين قد تفرقوا فرقاً كثيرة وصاروا
أحزاباً، وكل حزب يدعو الى مبدأ إلهادي بصريح القول بلا خوف ولا حياء، وإذا
اجتمع مع المؤمنين يدعي أنه منهم، فهذا وإن كان هو بذاته لا يعمل بمضمون

(١) مجمع البيان: ج ٢ ص ٩٥.

(٢) كنز العمال: ج ١ ص ٨٦ ح ٣٦٥ نقل بالمعنى.

الآية لأننا رأيناهم لما تمكّنوا من بعض الأمر صاروا يقتلون أهل كلمة لا إله إلا الله بالجملة بل جعلوا يقتلون كل من لم يدخل في حزبهم ولم ينتم إليهم ويستحلّون أمواله وعرضه ، ولكن المؤمن المطيع لله والرسول - وإن لم يعتبر هؤلاء القوم من المسلمين - لا يقدم على قتلهم ولا يستحلّ أموالهم لأنهم يقولون لا إله إلا الله ، وهذا دليل على كذبهم وبطلان ادعائهم .

ثم قال تعالى في آخر الآية : «ان الله كان بما تعملون خبيراً» يعلم ما انطوت عليه قلوبكم من خير أو شر ، فإن في هذه الجملة وعد للمطيعين ووعد للمعاصين فإن الله خبير بما ينوي العبد قبل أن يتكلم به أو يفعله ، نسأله تعالى حسن العاقبة .

قوله تعالى : انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً (١٠٥) واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً (١٠٦) .

الكتاب المنزل على النبي ﷺ هو القرآن الكريم ، والقرآن فيه علم ما كان وما يكون وحكم ما كان وما يكون الى يوم القيامة ، وأن الله يقول لرسوله : انا أنزلنا إليك هذا القرآن الذي فيه حكم كل شيء ، وكل خبر من أخباره حق ، وكل حكم من أحكامه حق ، وبعد أن علمك الله تأويل هذا الكتاب وتفسيره فصرت ترى الأحكام الحقيقية كلها رأي العين كأنها مصورة مجسمة لك ، كل ذلك لأجل أن تحكم بين الناس فيما يقع بينهم من التخاصم والتنازع على الأمور الدنيوية ، ولكي تعلمهم من أحكام دينهم التي يحتاجونها لآخرتهم ، فإن البشر لا بد لهم من حاكم يحكم بينهم بالعدل ، وأن العدل الحقيقي لا يعرف إلا من قبل الله تعالى ، وقد بيّنه الله لك بأيتها الرسول في مضامين هذا الكتاب ، فاللازم عليك أن

يكون حكمك بين الناس مطابقة لأحكام القرآن حرفياً ، فإن الانحراف عنه قد يوقع الحاكم في الزلل فيكون ماعداً للمخائن من المتخاصمين فيحيف على صاحب الحق فيفقد حقه .

إن النبي ﷺ وإن كان منزهاً عن الانحراف ولكن الله ذكر له هذا الأمر ليكون قانوناً كلياً لكل من يجلس على كرسي القضاء ، فإن الله يخبره وينذره بلزوم مطابقة حكمه للقرآن وأخذ أحكامه من القرآن ، فالقاضي الذي يقضي بين الناس يلزمه معرفة ما في القرآن من الأحكام ومعرفة الحلال والحرام منها ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص ، وإلا فليس له حق القضاء ويلزمه بعد معرفة الأحكام أن يكون عادلاً مخالفاً لهواه حتى لا يميل إلى أحد المتخاصمين ولو كان من أحب الناس إليه وأعزهم عليه .

سبب النزول

ولقد ذكروا في سبب نزول الآية - كما في التبيان - أنها نزلت في بني إيرق كانوا ثلاثة إخوة بشر وبشير ومبشر ، وكان بشر يكنى أبا طعمة فنقبوا على عم قتادة بن النعمان وأخذوا له طعاماً وسيفاً ودرعاً ، فشكا ذلك إلى ابن أخيه قتادة وكان قتادة بدرياً ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له القصة ، وكان في الدار رجل يقال له لبید بن سهل ، وكان فقيراً شجاعاً مؤمناً ، فقال بنو إيرق لقتادة : هذا عمل لبید بن سهل ، فبلغ لبیداً ذلك ، فأخذ سيفه وخرج إليهم وقال : يا بني إيرق أنتم مني بالسرقة وأنتم أولى به مني وأنتم المنافقون تهجون رسول الله ﷺ وتنسبون إلى فريش ! لتبينن ذلك أو لأضمن سيفي فيكم . فداروه وقالوا : ارجع رحمك الله فأت بريء من ذلك .

وبلفهم أن قتادة مضى إلى رسول الله ﷺ فمشوا إلى رجل من رهطهم يقال له أسير بن عروة ، وكان منطقياً لسنأ ، فأخبروه فمشى أسير إلى رسول الله

ﷺ في جماعة فقال: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان رمى جماعة من أهل الحسب منا بالسرق وانهمهم بماليس فيهم .

وجاء قتادة الى النبي ﷺ فأقبل عليه النبي وقال : عمدت الى أهل بيت حسب ونسب رميتهم بالسرق ! وعانبه ، فاغتم قتادة ورجع الى عمه فقال : ليتني مت ولم أكن كلمت رسول الله ﷺ فقد قال لي ما كرهت ، فقال عمه : الله المستعان ، فنزلات هذه الآية : « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً ، يعني لبيد بن سهل حين رماه بني إبيرق بالسرق » فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ، الى قوله : « وكان فضل الله عليك عظيماً » (١) .

فبلغ بنو إبيرق فخرجوا من المدينة ولحقوا بمكة وارتدوا ، فلم يزالوا بمكة مع قريش ، فلما فتح النبي مكة هربوا الى الشام فأنزل الله فيهم : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » (٢) الى آخر الآيات ، ولما مضى الى مكة نزل على سلامة بنت سعد بن شهيد امرأة من الأنصار كانت ناكحاً في بني عبدالدار بمكة ، فهجاها حسان فقال :

وقد أنزلته بنت سعد وأصبحت

ينازعها جلد استها وتنازعه

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم

وفينا نبي عنده الوحي واضعه

فحملت رحله على رأسها وألفته بالأبطح وقالت : ما كنت تأتينني بخيراً هديت

إلي شعر حسان ، ونزل فيه قوله : « ومن يشاقق الرسول » . هذا قول مجاهد

وقتادة بن النعمان وابن زيد وعكرمة .

إلا أن قتادة وابن زيد وعكرمة قالوا : إن بني إبيرق طرخوا ذلك على

يهودي يقال له زيد بن السمين ، فجاء اليهودي الى رسول الله ﷺ .

وبمثلله قال ابن عباس .

(١) النساء : ١١٢ و ١١٣

(٢) النساء : ١١٥ .

وقال ابن جريح : هذه الآيات كلها نزلت في أبي طعمة ابن أبي إبيرق الى قوله « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »^(١) وقال : رمى بالدرع في دار أبي مليك ابن عبد الله الخزرجي ، فلما نزل القرآن لحق بقريش^(٢) انتهى ما في التبيان .

وبعد ما عرفنا سبب نزول الآيات تبين من أقوال المفسرين أن القضية التي كانت سبباً لنزول الآيات هي قضية خيانة ممن سمى نفسه مسلماً ثم اتهم شخصاً بريئاً بالخيانة التي ارتكبتها ، فإن أقوالهم وإن اختلفت إلا أنهم اتفقوا على أصل القضية .

ثم إن الله تعالى من رحمته لعباده ورأفته بهم يريد أن يصل كل ذي حق الى حقه وأن لا يظلم أحداً من العباد وإن كان كافراً ، وقد أمر أن يكون الحكم بين الناس من ذوي العلم والعدالة ، فذكر لنا في آية ٥٨ من هذه السورة اشتراط العدالة وهي قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وحيث إن الحكم بالعدل يشتهى على البشر ولا يمكن معرفته أوضحه لنا في هذه الآية بقوله : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » فيكون الشرط في كل من يقضى بين الناس أن يكون عالماً بأحكام القرآن تفصيلاً .

وبشترط أيضاً في القاضي أن لا يجزم ولا يعزم على شيء ولا يهيم بشيء إلا بعد أن يعرف المحق والمبطل من المتخاصمين ، فإنه قد ذكر أن النبي ﷺ عاتب قتادة على نسبة السرق الى ابن إبيرق حيث إن قومه برأوه ، وبعضهم ذكر أنه هم أن يحكم على اليهودي المتهم ، وحيث إن قتادة أو اليهودي كانا بريئين مما نسب إليهما ، فإن الله أمر النبي ﷺ بالاستغفار ووصفه بكونه مخلصاً عن الخائن ،

(١) النساء : ١١٦ .

(٢) التبيان : ج ٣ ص ٣١٦ - ٣١٧ .

وهو لم يصدر منه إلا عتاباً لقتادة أو أنه همّ بالحكم ، فكيف بمن يعرف المحق والمبطل حق المعرفة ويميز بينهما وهو بصفته قاضياً ، ومع ذلك يريد أن يسلب حق المحق ويجعله للمبطل .

فكل من يريد أن يسلب شيئاً ليس له من صاحبه الحقيقي أو شيئاً قد سلبه من أهله وادعوا به ليستردوه وامتنع هذا الغاصب السالب من تمكين أهله منه فهو خائن ، وكل أمر أو مأمور أو موظف أو قاض أو محام يساعد هذا الغاصب السالب على ظلمه فهو ممن تنطبق عليه الآية ، وكل محام يعلم بأن هذا غاصب ويتوكل عنه ويدافع في المحاكم عنه فهو والغاصب سواء في الائم ، بل قد يكون الائم كله عليه .

وأرجو من كل من يساعد غاصب حقوق الناس أن يتأمل في قوله تعالى : «ولا تكن للخائنين خصيماً» . مع أن النبي ﷺ قد جاءه جماعة من عشيرة الخائن فزكوه ومدحوه وقالوا : إنه شريف حسيب ، ولم يفعل النبي ، إلا أنه همّ أن يحكم على اليهودي للمسلم المزكّي من جماعة المسلمين وقد أمره الله بالاستغفار . فكيف بك أيها المؤمن اذا جعلت حكماً بين اثنين وعرفت المحق وعرفت الغاصب السالب ولكن الأول كان بعيداً عنك والثاني كان صديقاً لك ، أو أن الأول لم يقل لك شيئاً والثاني أسرّ في اذنك شيئاً ، وهذا السرّ عند الله ظاهر جلي له صوت جهوري وأنت تظن أنه خفي وهو أجلى من الشمس ، وسيكون مكشوفاً جلياً يوم القيامة يعلن به على رؤوس الأشهاد «ولا تكن للخائنين خصيماً» فتترك المحق وتحكم للخائن المبطل .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في ذم القاضي الذي يقدم على القضاء بغير علم : فهو خائن عشوات زكّاب شبهات خبّاط جهالات ، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ، ولا بعض في العلم بضرر قاطع فيغنم ، يذري الروايات ذرو الريح الهشيم ، تبكي

منه الموارد و تصرخ منه الدماء ، و يستحل بقضائه الفرج الحرام و يحرم به
الحلال^(١) .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره للآيتين : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس
بما أراك الله » أي إنا أنزلنا إليك هذا القرآن بتحقيق الحق وبيان له لأجل أن
تحكم بين الناس بما أعلمك الله به من الأحكام .

« ولا تكن للخائنين خصيماً ، أي لا تكن لمن خان خصيماً ، أي مخاصماً
ومدافعاً تدافع عنه من طالبه بحقه الذي خان فيه .

وخلاصة ذلك : إن عليك أن لا تتهاون في تحري الحق اغتراراً بملحن
الخائنين وقوة جدلهم في الخصومة ، لئلا تكون خصيماً لهم وتقع في ورطة الدفاع
عنهم . ويؤيد هذا حديث أم سلمة : إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي ، ولعل
بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له من
حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار .

« واستغفر الله ، مما يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم بالميل الى من تراه
ألحن بحجته أو الركون الى مسلم لأجل إسلامه تحسیناً للظن به ، فهذا ونحوه صورته
صورة من أتى ذنباً يوجب الاستغفار وإن لم يكن متعمداً للزيف عن العدل والتحيز
للخصم . وفي هذا من زيادة الحرص على الحق والتشديد فيه ما لا يخفى ، حتى
كان مجرد الالتفات الى قول المخادع يجب الاحتراس منه .

كما أن فيه إيماء الى أن الاعتقاد الشخصي والميل الفطري والديني لا ينبغي
أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء ، والى أن القاضي لا يساعد من ظن أنه صاحب
الحق ، بل عليه أن يساوي بين المتخاصمين في كل شيء .

والنبي ﷺ لم يحكم في هذه القضية قبل نزول الآيات ولم يعمل بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق ، لكنه أحسن الظن في أمر يتن له علام الغيوب حقيقة الواقع فيه ، وما ينبغي له أن يعامل به ذويه .

ثم رغبهم في المغفرة فقال : «ان الله كان غفوراً رحيماً» أي إنه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة لمن استغفره ^(١).

ما قاله سيد قطب :

قال في تفسيره للآيتين الآفتين : كان الدرس الماضي درس الهجرة في سبيل الله ودرس الجهاد بكل ما فيه من تكاليف ومشقات وبكل ما يستتبعه من عداة أقوام واتقاء أقوام ، ولقد سبق أن قلنا في أوائل هذه السورة أن التكافل الانساني هو الذي يلون جوها كله حتى حين يتحدث السياق عن القتال والجهاد ، فهو قتال لاقامة العدل ورفع الظلم عن الضعاف الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . ولقد سبق الحديث عن الطاعة والنظام والحرب والقتال توجيه قوي الى الأمانة والعدل «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل».

فالآن بعد انتهاء الحديث عن الهجرة في سبيل الله والقتال وما يستتبعه من عداوات ومن خصومات يعود السياق ليتحدث عن الحكم بين الناس وليذكر بالعدل الذي لا يؤثر فيه عداة ولا اختلاف عقيدة ، لينهي عن الوقوف الى جانب الخائنين الذين يختانون أنفسهم ، مشيراً بذلك الى حادثة وقعت في عهد الرسول ﷺ واتهم فيها يهودي اتهاماً ظالماً ، فجاءت الآيات في صدر هذا الدرس لتبرئته - على ما سنفصل فيما بعد - محافظة على ذلك المبدأ الأساسي في الاسلام ، مبدأ العدل المطلق لجميع الناس .

ومن ثم دعوة الى طاعة الرسول في أحكامه وتحذير من مشاقته التي تؤدي الى اتباع سبيل غير سبيل المؤمنين والى الاشرار بالله والركون الى الشيطان الذي توعد بإضلال فريق من عباد الله بالأمانى والوعود التي تخدعهم عن الجزاء الذي ينال المحسن وينال المسيء .

وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الاسلامية في العمل والجزاء، أن صاحب السوء مجزى به ، وصاحب الاحسان ، ولا محاباة في جزاء ، ولا تبديل لسنة الله التي لا تتبع أمانى أحد ولا ادعاء وامر .

ثم تمجيد للاسلام الخالص اسلام الوجه كله لله مع الاحسان في العمل ، وهي ملة ابراهيم وملة سائر المسلمين وهي الاسلام المطلق لله الذي له ما في السموات والأرض بلا شريك .

«إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا». روي أن هذا القول نزل في رجل سرق درعاً من بيت جاره ، فلما خاف أن تظهر عليه رمى بها في دار يهودي . فلما وجدت الدرع أنكر اليهودي أن يكون أخذها ، وجاء بشهود من اليهود على أن سارقها رماها بداره تخلصاً منها ، فأعان قوم سارقها على اليهودي ، وجاءوا الى رسول الله ﷺ يفتنونه بأن يحاج عن صاحبهم ويجادل أمام اتهام اليهودي له ، فمال الرسول الى قولهم - لأن ظاهر الأمر يؤيدهم - فأطلعهم الله على جلية الأمر وتدبير المدبرين ، ونهاه عن مخاصمة اليهودي ، وأمره بالاستغفار مما كان منه من ميل . ومن عليه أن هداه الى الحق ، وأبطل إضلال المضلين .

وهكذا نرى أن غير الله على الحق والعدل - المطلقين من كل ميل المنزهين من كل شائبة - قد اقتضت إيراد ائنتي عشرة آية في تلك الحادثة الفردية ، ذلك أنها نموذج لكل قضية يمكن أن يعترض طريق العدالة المطلقة فيها اختلاف العقيدة وتكاتف بعض الناس لهذا السبب على إخفاء الحقيقة .

«إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَهُوَ حَقٌّ ، وَتَنزِيلُهُ حَقٌّ . وَقَدْ جَاءَ لِيُحَقِّقَ الْحَقُّ ، جَاءَ لِيُحَكِّمَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَقَدْ أَطَاعَكَ اللَّهُ وَعَلَّمَكَ كَيْفَ تُحَكِّمُ ، فَاحْكُمْ عَلَى حَسَبِ مَا أُرَاكَ اللَّهُ «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا» تَجَادَلْ عَنْهُمْ وَتُدْفَعْ ، وَقَدْ خَانُوا أَمَانَةَ اللَّهِ أَنْ لَا يَعْتَدُوا عَلَى النَّاسِ وَخَانُوا أَمَانَتَكَ أَنْ يَصْدُقُوا وَلَا يَكْذِبُوا وَخَانُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَوْرَدُوا طَرِيقَ الْمَعْصِيَةِ وَطَرِيقَ الْخِيَانَةِ .

«وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» اسْتَغْفِرُهُ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ مِنْ مَيْلٍ إِلَى تَصْدِيقِ الْخَائِنِ وَتَكْذِيبِ الْبَرِّ قَبْلَ التَّائِيْدِ الْكَامِلِ وَالتَّثَبُّتِ مِنْ حَقِيقَةِ دَعْوَى الْفَرِيقَيْنِ^(١) .

قوله تعالى : وَلَا تَجَادَلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (١٠٧) .

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَجَّهَ النِّهْيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْعِبَادِ بِقَوْلِهِ «وَلَا تَجَادَلْ» ، أَيُّ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَخْلُوقُ لِلَّهِ إِذَا كُنْتَ تَرِيدُ الرَّاحَةَ لِنَفْسِكَ وَلِسَائِرِ الْخَلْقِ وَلِكُلِّ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَلِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ وَلِكُلِّ حُرٍّ وَمَمْلُوكٍ وَلِكُلِّ مُسْلِمٍ وَمُعَاهِدٍ فَلَا تَجَادَلْ عَنِ الَّذِي يَخُونُ النَّاسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، فَإِنَّ الْخَائِنَ إِذَا رَأَى النَّاسَ كُلَّهُمْ ضِدَّهُ وَأَنَّهُمْ غَيْرُ رَاضِينَ بِعَمَلِهِ يَقْلَعُ عَنِ الْخِيَانَةِ لِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَعْيشَ مَعَ النَّاسِ ، وَبِالْخِيَانَةِ يَبْتَغِدُ النَّاسَ عَنْهُ فَيُضْطَرُّ إِلَى تَرْكِهَا .

فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْعِبَادُ لَا تَجَادَلُوا عَنْهُ ، وَلَا تَسَاعَدُوهُ ، أَنْتُمْ أَيُّهَا الْقَاضِي لَا تَجَادَلْ عَنْهُ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَحَامِي لَا تَتَوَكَّلْ عَنْهُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْآيَةَ فِيهَا شِدَّةٌ وَضَرَامَةٌ لِأَنَّ الْمَجَادَلَةَ عَنِ الْخَائِنِ تَشْجَعُهُ عَلَى خِيَانَتِهِ ، وَالْحَالُ أَنَّ الْخِيَانَةَ فَسَادٌ فِي الْأَرْضِ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ لَكُمْ عَقُولٌ تُمَيِّزُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ وَتَعْرِفُونَ أَنَّ الْخِيَانَةَ قَبِيحَةٌ ، الْخِيَانَةُ مَفْسَدَةٌ فِي الْأَرْضِ ، الْخِيَانَةُ

وان لم تكن معك فإنها تضرك، فإن من خان غيرك اذا سكت عنه أو جادلت عنه يخونك غداً ويجادل عنه شخص آخر فلا تقدر على استرداد حقك .

لمن يخون الخائن ؟

الخائن هو الذي يتعدى على مال غيره فيحوزه لنفسه، أو يتعدى على منصب غيره فيعزله ويجلس في مجلسه ، أو يتعدى على عرض غيره فيتجاوز عليه، فيقال فلان خان فلاناً، وقد وصف الله الخائن لغيره بكونه خائناً لنفسه فقال: «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم». فكيف تتحقق خيانة المرء لنفسه؟ هل يسرق مال نفسه؟ أو يغتصب منصب نفسه لنفسه؟

نعم، إنه يخون نفسه ويتحقق ذلك ماله عن نفسه أو بسلب جاهه أو منصبه أو شرفه أو غير ذلك، فإنه اذا خان غيره فسرقة منه شيئاً من الملتاع أو سلبه منصبه أو خانه في شيء آخر فإنه سوف ينتقم منه ويقتصر منه إماماً في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، فإنه -أي الخائن- قد خان نفسه أي سلب من نفسه شرفها ومروءتها ودينها وأمانتها وسلب من نفسه عزها وسلب من نفسه سرورها وهناءها وراحتها وسلب نعيمها في الآخرة وجلب لنفسه العذاب والعقاب وسوء الحساب . ألا ترون بني إبيرق كيف سببوا على أنفسهم فسلبوا راحتها وخرجوا فارين من دار الاسلام الى دار الشرك وصارت عاقبة أمرهم أن ارتدوا مشركين ، ولما فتح النبي ﷺ مكة فروا الى الشام فلم يقر لهم قرار في الدنيا وقرارهم في الآخرة النار .

وأعظم كلمة قالها الله هي الجملة الأخيرة من الآية وهي قوله : «ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً» الخوان هو الذي يخون الناس بل يخون نفسه، فإن الله لا يحبه ، فإذا كان الله لا يحبه كيف تحبه أنت أيها المؤمن وتجادل عنه! وكيف تجيب نفسك إذا سألتك لماذا تحب من لا يحبه الله؟ فإذا قلت لا احبه فكيف تجادل عنه ، وإذا قلت احبه فقد أحببت من لا يحبه الله فتكون أنت مع الله ضداً لأنك

تحب من يكرهه الله ، هذا هو الخوان .

وأما الأثيم فهو الذي يخون ويرمي غيره بالخيانة ، هو الذي يرتكب الجريمة ويتهم غيره بارتكابها كما في قضية بني الابرق فإن الآيات كلها تتعلق بهذه القضية.

نداء لآخي المحامي

إن هذه الآية تنطبق عليك أكثر مما تنطبق على غيرك، وذلك اذا توكلت يوماً ما عن شخص وأنت تعلم أنه غير محق . فاعلم قبل ذلك أنت دخلت كلية الحقوق وطويت مراحلها الأربع وتحملت المشقات العظيمة وبعد أن نجحت وحصلت على الشهادة فلا تكن ممن يخون نفسه، ولا تكن محباً لمن لا يحبه الله ، فإنك قد حصلت على شهادة في الدنيا فاجتهد أن تحصل على شهادة في العقبى .

فإن الحقوقي ينبغي أن يلاحظ جميع الحقوق ، حقوقه في الاولى وحقوقه في الاخرى ، فلا تضيع الاخرى بالحصول على الاولى ، وقد تضيع الاولى أيضاً فتكون ممن خسر الدنيا والآخرة «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً» .

مقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره الكبير حول هذه الآية : والمراد بالذين يختانون أنفسهم (طعمة) ومن عاونه من قومه ممن علم كونه سارقاً، والاختيان كالخيانة يقال خانه واختانه، وذكرنا ذلك عند قوله تعالى : «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم»^(١) وإنما قال تعالى لطعمة ولمن ذب عنه أنهم يختانون أنفسهم لأن من أقدم على المعصية فقد حرم نفسه الثواب وأوصلها الى العقاب فكان ذلك منه خيانة مع نفسه ، ولهذا المعنى يقال لمن ظلم غيره إنه ظلم نفسه .

واعلم أن في الآية تهديداً شديداً وذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما

مال طبعه قليلاً الى جانب طعمة وكان في علم الله أن طعمة كان فاسقاً فالله تعالى عاتب رسوله على ذلك القدر من إعانة المذنب ، فكيف حال من يعلم من الظالم كونه ظالماً ثم يعينه على ذلك الظلم بل يحمله عليه ويرغبه فيه أشد الترغيب^(١) انتهى .

ماقاله المراغى :

قال في تفسيره عن قوله تعالى : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » : هذا الخطاب وجهه الى النبي ﷺ وهو أعدل الناس وأكملهم مبالغة في التحذير من هذه الخلعة المعهودة في كثير من الحكام ، وسمى خيانة غيرهم خيانة لأنفسهم لأن ضررها عائد إليهم ، والذين يختانون هم هذا السارق ومن عاونه لأنه شريك له في الاثم والخيانة ولهم نظراء في كل زمان ومكان .

وخلاصة المعنى : لاتدافع عن هؤلاء الخونة ولا تساعدكم عند التخاصم وإن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيماً المراد بعدم الحب البغض والسخط ، أي أن الله يبغض من اعتاد الخيانة وألفت نفسه اجتراح السيئات وضربت عليها ، ولم يعد للعقاب الالهي الرهبة والخشية التي ينبغي أن يفكر مثله فيها ، وإنما يحب الله أهل الأمانة والاستقامة^(٢) انتهى .

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيره للآية : إننا نحس في التعبير صرامة ، يفوح منها الغضب للحق والغيرة على العدل تبدو هذه الصرامة في صيغة النهي « لا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » وللمعنى في وصف الخائنين بأنهم « يختانون أنفسهم » وفي تعليل ذلك النهي : « إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيماً » . وهم خائنوا سواهم في ظاهر الأمر ، ولكنهم في الواقع يختانون أنفسهم . واغظ « يختان » أقوى من « يخون » في التعبير ، يختانونها

(١) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٣٤ .

(٢) تفسير المراغى . ج ٥ ص ١٤٩ .

مرتين ، الاولى : حين يخونون إخوانهم وهم منهم فكأنما خانوا أنفسهم، والثاني: حين يرتكبون الاثم فيعرضون أنفسهم للجزاء في الدنيا والآخرة ، وهي خيانة للنفس من غير شك ، ذلك فضلاً على تلويث هذه النفس بالخيانة ، وهو خيانة لها وتحقير ، والله لا يحب الخوان الأثيم .

وللتعبير بعدم الحب هنا قيمته ، لأن المؤامرة ضد اليهودي والجدل عن السارق من المسلمين كان منشأهما البغض والحب ، فالله يعلن أنه لا يحب الخوان الأثيم. فلا يجوز أن يحبه أحد، ولأن يجادل عند أحد، والله قد كرهه واجتواه^(١) انتهى محل الحاجة .

وبعد التأمل في الآية الشريفة والنظر في كلمات المفسرين نستفيد منها الامور

التالية :

الأول : أن إنزال الكتاب الى النبي ﷺ لأجل الحكم بين الناس .

الثاني : أن الكتاب فيه كل حكم مما يحدث ويتجدد من قضايا الخصام والتنازع ولا تشذ عنه قضية أبداً .

الثالث: أن الله علم النبي تفسير القرآن بأجمعه و كل ما فيه من دقائق الامور حتى صار مستحضراً لجميع معانيه ، فهو يرجع كل قضية تحدث لأحد من أمته الى قانون القرآن .

الرابع : أن الله يريد الرجوع الى حكم القرآن في كل قضية من القضايا ولا يرضى بالتخلف عن القرآن ولو بمقدار أن يميل الحاكم أو يحدث نفسه بحكم خلاف ذلك وإن لم يحكم به ، وهذا لا يتمن منه كل واحد ، وأن الذي يمكنه ذلك من كانت أحكام القرآن كلها متجلية له بحيث يراها كالشمس في رابعة النهار .

الخامس : أن هذه الآيات نزلت كلها في قضية درع سرق ورمى بالسرق

شخص بريء منها فكيف الحال بمن يسرق شيئاً أعظم من الدرع بحيث يتضرر بذلك جماعة من المسلمين أو يتضرر به عموم المسلمين ، وذلك كمن يزيد شيئاً في الدين أو ينقص شيئاً منه بحيث يعمل به عموم المسلمين.

السادس : أن المكلف بالحكم بين الناس هو النبي ﷺ في أيام وجوده بينهم لأن الله أراه وأدّخ له علوم القرآن ، أما بعد ارتحال النبي ﷺ فالذي يحكم بين الناس إنما هو من تكون عنده علوم القرآن ، ويلزم على كل مكلف عاقل أن يفحص عنه ويعرفه ويجهده في معرفته ، وقد تقدم بيانه ^(١) في الآية السابعة من سورة آل عمران في قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ، فقد علمنا أن في أمة محمد رجالاً عندهم علم القرآن ويجب علينا معرفتهم .

السابع : إذا ادعى مدعى أنه هو الحاكم بعد النبي ﷺ بين الناس وأعانته وساعده على ذلك جماعة من قومه ومن غيرهم فجلس في مجلس النبي وجعل يحكم بين الناس بما يوافق القرآن أو لا يوافقه لأنه ليس عنده علم القرآن فهذا أعظم ممن سرق درعاً بمراتب ليس لها حصر ، نعم إذا كان عنده علم القرآن فهو أهل للمحكم وقد جعله الله لذلك أهلاً .

فيلزم على المسلم أن يحقق في كل من تولى الحكم ويميز بين العالم وغيره فإن الأمور كلها والدنيا بأسرها مرتبطة بالعلم ، فلا تغفل ولا تجهل رتبة العلم .

قوله تعالى : يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً (١٠٨) .

إن الذي سرق الدرع هو ابن إبريق ، وإن الذين ساعدوه على ستر هذه

السرقه هم جماعة من قومه حيث جاؤوا الى النبي ﷺ وقالوا له: إن نسبة السرق الى طعمة تهمة كاذبة وإنه بريء منها ، وإن الله قد وصفهم بهذه الآية وصفاً يشنعهم به ويذمهم على عملهم هذا ، ويبقى عليهم عاره مادام القرآن وما دامت الدنيا ومادام من البشر من يقرأ القرآن .

وهذا الوصف يكشف عن عدم إيمانهم بالله لأنه قال: «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله» حيث إنهم لما أرادوا أن يستروا فعلتهم الشنيعة عن الناس رموا بالدرع في دار غيرهم ونسبوا السرق إليه حتى لا يشتهر وابين الناس بالسرقه، فالله يقول في التشنيع عليهم إن هؤلاء القوم يريدون أن يستتروا من الناس مع أن الناس لا يقدرّون على شيء من تعذيبهم في الدنيا كقطع الرزق عنهم أو تعذيبهم في الآخرة ولا يستخفون من الله وهو معهم عالم بأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم يعلم السر وأخفى ويعلم وساوس الصدور ويعلم خائنة الأعين فكيف لا يستخفون منه ! والاستخفاء منه إنما يكون بترك هذه الأعمال القبيحة. هذا كله في سارق الدرع فكيف بمن يسرق الأموال الكثيرة ويضرّ بجماعة من المسلمين ؟ أو كيف بمن يزيد في الدين شيئاً أو ينقص منه شيئاً ويريد أن يحمل عليه عموم المسلمين ؟ أو كيف بمن يدعي أنه هو العالم بعلوم القرآن ، وأن الحكم بين الناس هو وظيفته الخاصة به من الله بحيث جعلها رسول الله له بأمر من الله ، وهو ليس كذلك ويساعده على ذلك جماعة؟

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسيره للآية: ويعقب الوصف بالخيانة والائتم بيان منفرد لسلوك هذا الفريق من الناس أنهم « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله » فيجبون عن مواجهة الناس بخيانتهم وإثمهم ولا يخجلون من الله «وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول» وهي صورة زرية من جانب ، وداعية الى السخرية من جانب آخر ، زرية بما فيها من ضعف والتواء وخوف من الناس ، وداعية الى السخرية

بما فيها من غفلة عن رؤية الله لهم وهم يبيتون ما يبيتون من خيانة ومؤامرة .
 « وكان الله بما يعملون محيطاً » فالاحاطة هنا رسم صورة للعلم المطلق
 والقدرة المطلقة ، فكل ما يعملون محوط بعلم الله وقدرته ، وهم من الغفلة بحيث
 يدبرون في الظلام ويحسبون أنهم في نجوة من العيون .
 فاذا كان هذا شأنهم وكان الله مطلعاً على خياناتهم ومؤامراتهم فما جدوى
 أن يجادل عنهم فريق من المسلمين في هذه الدنيا^(١) .

ماقاله المراغى :

وقال في تفسيره للآية : ثم بين أحوال الخائنين ونعى عليهم أفعالهم فقال :
 « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من
 القول » أي أن شأن هؤلاء الخوانين أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم
 الآثام إما حياة وإما خوفاً من ضررهم ، ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه
 بتركها لضعف إيمانهم ، إذ الإيمان يمنع من الاصرار وتكرار الذنب ، ولا تقع
 الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لاتدوم ، فمن يعلم أن الله يراه
 في حنادس الظلمات لابد أن يترك الذنب والخيانة حياة منه تعالى وخوفاً من
 عقابه ، وهو تعالى شاهدهم حين يدبرون ليلاً ما لا يرضى من القول تبرئة لأنفسهم
 ورمي غيرهم بجريمتهم .

ثم نوعدهم على عظيم جرمهم فقال : « وكان الله بما يعملون محيطاً » أي
 حافظاً لأعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، فلا سبيل الى
 نجاتهم من عقابه^(٢) انتهى .

فوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن

(١) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٧٥٤ .

(٢) تفسير المراغى : ج ٥ ص ١٤٩ .

يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً (١٠٩).

هذه الآية من مميزات قصة الخائن، ومن يساعد الخائن فإن الله تعالى بوجهه سؤالاً توبيخياً إنكارياً لكل من يساعد خائناً في الدنيا مهما كانت الخيانة ومن أي نوع كانت المساعدة .

وقبل إلقاء السؤال على المساعدين يقدمها التنبيه بقوله: «ها» وها التنبيه تستعمل للمرء الغافل لكي يتنبه ، فكأن «التيان بها هنا إشارة إلى أن هؤلاء المساعدين للخائن في حالة سبات، وفي غفلة عن الدين وأحكامه، وفي غفلة عن الحلال والحرام ، وفي غفلة عن القرآن ، وفي غفلة عن الله ورسوله . فينبغي لهم أن يتنبهوا وأن يلتفتوا وأن يستيقظوا من سباتهم لكي يعرفوا ويفهموا ما يقول الله لهم .

ثم بعد ما نبههم الله وجهه إليهم السؤال وهو: إنكم أيها المساعدون للخائنين المجادلون عنهم في الحياة الدنيا تريدون أن تستروا أعمالهم القبيحة عن الناس وهي مسجلة في صحائف أعمالهم والله عالم بها ، فلو أنكم نجحتم في جدالكم عنهم وتمكنتم من سترها فمن يتمكن أن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، ولا يخفى أن سارق الدرع كان واحداً وهو طعمة بن إيريقي ، والذين أرادوا مساعدته والجدال وإخفاء فعلته الشنيعة هم قومه وأقرباؤه ، وفي هذه الآية جعلهم الله جمعاً فقال : «أنتم هؤلاء جادلتم عنهم» وما ذاك إلا لأجل كثرة من يرتكب الخيانة وليس منحصرأ في طعمة ، فيلزم على عموم المسلمين أن لا يدافعوا عن خائن ولا يساعده ولا يستروا عليه خيائته وان كان قريباً أو صديقاً، وكلما كانت الخيانة أعظم كانت المساعدة أعظم جرماً وأشد عقاباً.

ثم إن المؤمن يلزمه أن يعلم أن الخيانة التي يبغضها الله إنما يعلمها هو قبل كل أحد ، وأن القاضي قد لا يعلمها وقد يشبهه عليه الأمر كما روي عن النبي ﷺ على ما ذكره المراغي: إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون

ألحن بحجته من بعض فأقضى بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار^(١) .

فإذا كان يعلم بنفسه أنه خائن فلا يحل له أخذ ما حكم له به ، وإن حكم له حاكم فإنه خائن في نفسه والله يعلمه وملائكته .

فكل من تحققت منه الخيانة لا بد وأن يعاقب عليها في الآخرة وإن شهد قومه أنه من المؤمنين المتقين الأخيار وحكم له القاضي أنه بريء منها إلا إذا تاب ورد الحق لأهله في الدنيا .

وقد فضل الله على عباده أنه يقبل توبتهم ويبتن لهم ذلك بقوله :

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفوراً رحيماً (١١٠) .

إن الله عز وجل يرشد عباده إلى ما ينفعهم ويخلصهم من عقاب المعاصي ، فإن كل عمل سييء قد نهى الله عنه لا بد أن يستحق فاعله العقاب على فعله ، وقد نبهنا الله وعرفنا أن من فعل شيئاً من المعاصي - سواء كان هذا الفعل مضرّاً بالغير أم مضرّاً بنفس الفاعل وحده - فلا ينبغي له أن يبقى مصرّاً على عصيانه إن كان عاقلاً عارفاً بقدره الله ، فإن الله قد جعل لنا طريقاً إلى التخلص من عقاب هذا الفعل وشرع لنا باباً وسماء باب التوبة ، فالإنسان - مادام في الدنيا - يتمكن من تخليص نفسه من عقاب سيئاته وذلك بالتوبة إلى الله عز وجل والانابة إليه والندم على فعله السييء ورد ما أخذه من الناس إليهم ، فإن الله قد وعد عباده التائبين أن يغفر لهم ذنوبهم ويمحو سيئاتهم .

ثم إن السيئة التي يرتكبها العبد تارة تخص نفسه وحدها فيمكن التوبة

منها ، وتارة أخرى تكون مضرة بغيره واحداً كان ذلك الغير أو متعدداً محصوراً يعرفهم بأعيانهم ويمكنه التخلص من تبعثهم بحيث يرد إليهم أموالهم ، ومرة ثالثة تكون السيئة التي يرتكبها العبد هي بدعة يبتدعها ، فإذا تاب منها قبل أن تشيع ويعمل بها أحد فهذا أيضاً يمكن قبل توبته ، وأما إذا شاعت البدعة وعمل بها خلق كثير فيكون قبول توبته موقوفاً على إرجاع كل من عمل بالبدعة عن تلك البدعة ورفضها ، فإن امتنع أحد عن الرجوع عنها فإن صاحب البدعة مأثوم وهو شريك من عمل بها في الائم ، فلا بد في قبول توبته من إرجاع كل أحد عنها أما إذا مات أحد العاملين بالبدعة معتقداً بها فلامجال للخلاص من إثمه ولا يمكن توبة المبتدع .

فهذه الأنواع والأقسام ينبغي لكل من عمل بواحد منها أن يلاحظ هل يمكن التوبة منه أو لا يمكن ؟ لأن أصل القضية التي تزلت فيها الآيات هو الميل اليسير عن العمل بالقرآن المنزل وهو اتهام اليهودي بالدرع المسروق .

فكل حكم من الأحكام التي يكون القضاء فيه خلاف الحق يكون المسبب له مؤاخذاً ومأثوماً ومستحقاً للعقاب الشديد مالم تتحقق منه توبة واستغفار .

أما إذا كانت السيئة هي منع العالم بأحكام القرآن عن الحكم بين الناس فهذا من أعظم الأمور وأكبر الكبائر ، كما منع كفار قريش رسول الله ﷺ في أول بعثته من الحكم وهكذا يكون بالنسبة إلى غير النبي من أهل العالم بالقرآن فإن الآيات كلها إنما تفيد هذا المعنى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » وأن طعمة وقومه إنما صاروا سبباً لتغيير حكم واحد وهو اتهام غير السارق بالسرقة ثم انكشف السارق .

فما ظنك أيها المسلم بمن منع القاضي الحاكم عن الحكم بما أنزل الله وجعل غيره في مجلسه فحكم بخلاف ما أنزل الله وغير الأحكام كلها ! فالتفت أيها

المسلم ولا يفوتك الحق والحقيقة .

فيلزم كل من عمل سوءً بغير التفات وبغير حساب أو ظلم نفسه أن يستغفر الله ويتوب إليه ويرجع الى الصواب قبل أن يفوته ذلك فلا يمكنه التدارك .
إن الذي يغصب مال غيره أو يغصب منصبه يظن بجهله أنه جلب لنفسه مالاً أو جاهاً أو منصباً أو رئاسةً ولكنه ما جلب لنفسه إلا وبالاً ونكالا وعذاباً وقد عرفنا الله بذلك في قوله تعالى :

ومن يكسب اثمًا فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً
حكيماً (١١١) .

الكسب هو جلب النفع الى النفس ، وأن هذا الذي يستولي على مال غيره بالسرق أو بالقوة والسيطرة وكذا من يستولي على منصب الغير فيعزله ويجلس مجلسه فإنه يرى أنه قد كسب نفعاً لها، وإنما أوقعك بذلك جهلك وعدم معرفتك بالعواقب، فإن الشيء الذي تكسبه لنفسك ويعود نفعه إليك هو ما تحصله بشغلك وكد يمينك ، والمنصب الذي يليق أن تشغله وتجلس على كرسيه هو ما يكون من الله ومن الرسول بحيث لا تعاقب عليه في الآخرة ، أما المال المأخوذ من الغير سرقةً أو نهباً أو اغتصاباً فإنك محاسب عليه ومعاقب وسوف يسترد منك في الدنيا أو يؤخذ عوضه من أعمالك الحسنة في الآخرة ، وأما المنصب الذي تأخذه من غيرك فسوف تحاسب على كل حكم تصدره فيه ، وتعاقب أيضاً على كل حكم واقعي صرت سبباً في تعطيله وأنت تظن أنك كسبت لنفسك نفعاً ، ولكنك لو شعرت بالحقيقة لعرفت أن هذا ليس لك ولنفعك بل هو وبال عليك وعقاب في الدنيا والآخرة .

ولا تظن أن عملك الذي عملته يخفى على الله إن كنت مسلماً ، فإن المسلم

يعترف بأن الله يعلم كل شيء ويعلم ما كان وما يكون ، وإن كنت أيها السامع للقرآن غير مسلم فاعلم من الآن قوله تعالى ، « وكان الله عليماً حكيماً » ، فإنه تعالى يعلم جميع أفعال العباد ويعلم نياتهم التي حملتهم على اغتصاب حق الناس من مال أو منصب أو قضاء أو حكم ، وهو حكيم بكيفية عقابهم لا يزيد شيئاً على ما يستحقونه من العقاب ، فهذا المتجاوز لحدود الله الغاصب لحقوق الناس لا يضر إلا نفسه ولا يجلب الوزر والويل والثبور إلا لنفسه فلا يحميها أكثر من طاقتها.

قوله تعالى : ومن يكسب خطيئة أو أثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً (١١٢) .

هذا وعيد من الله شديد لا يحتمله بشر ولا يقدم عليه موحد معترف بقدرة الله ، فإن الله العزيز الحكيم يصف هذا الفعل وهو فعل الخطيئة والاثم ، مهما فسرت الخطيئة ومهما فسر الائم ، فإن المقصود بهما شيء لا يرضى به الله ونهى عباده عنه ، فيقول عز وجل : إن الذي يفعل شيئاً منهياً عنه إذا أتى به ثم انهم شخصاً بريئاً وقال فلان فعل هذا الشيء فإن المرتكب لهذه الجريمة قد احتمل بهتاناً ، أي تحمّل على ظهره بهتاناً وسجّل على نفسه في صحيفة أعماله بهتاناً .

وكذا سجّل على نفسه إثمًا مبيناً أي إثمًا بيّنًا ظاهراً مكشوفاً يراه كل أحد ولا يخفى على أحد من الناس ، فلا بد أن يكون هذا الائم البين الظاهر كبيراً كالجبل بحيث ينتظره كل أحد ، وهناك علامة وأماراة تدل على أن فاعل هذا الائم هو فلان بن فلان ، ثم يؤخذ هذا الائم المبين الظاهر المكشوف ويؤخذ فاعله ومرتكبه معه ويلقى في النار .

هذا كله بالنسبة إلى إثم واحد ، فما ظنك أيها العبد المجرم المرتكب لآثام كثيرة وقد رميت بكل إثم منها رجلاً بريئاً ، فإنك تجيء يوم القيامة فتجسم

لك هذه الآثام كالجبال الراسي وأنت واحد وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى، ولكن الله القدير قد أحصاها عليك، فمن يخلصك منها؟ فتذكر هنا قوله تعالى: «هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة» .

قوله تعالى: ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً (١١٣) .

إن قوم أبي طعمة^(١) ابن إبيرق قد هموا واتفقوا على أن يفعلوا شيئاً واحداً يسترون به على أبي طعمة حتى لا يفتضح بالسرق، فاجتمعوا كلهم وأنابوا النبي ﷺ وشهدوا عنده بأن أبا طعمة رجل عفيف وليس ممن يتهم بالسرق، وطلبوا من النبي أن يبرئه وينزهه من هذه التهمة على رؤوس الأشهاد وأن يحكم على اليهودي بالسرق، ولو أن قاضياً غير النبي شهد عنده جماعة بعدد قوم أبي طعمة فحكم القاضي ببراءته ما كان عليه بأس وما كان مأثوماً، أما النبي ﷺ فقد عرفه الله بكذب هؤلاء القوم وأن شهادتهم مزورة كاذبة فلم يحكم النبي ببراءة أبي طعمة^(٢) .

وفي هذه الآية يذكر الله فضله على النبي حيث عرفه بطلان شهادة القوم ويقول له: «ولولا فضل الله عليك» لهم القوم أن يضلوك - أي يخدعوك - فتحكم ببراءة الخائن وخيانة البريء، وهي حكومة جزئية تتعلق بسرقة درع، فكيف

(١) لا يخفى أن بعض التفسير - كما سبق - ذكرت أن اسمه طعمة، وبعضها - كما في التبيان والميزان ومجمع البيان ونور الثقلين - أن اسمه بشر وكنيته أبو طعمة .

(٢) راجع التبيان : ج ٣ ص ٣١٦ .

بمن تجري على يديه وبواسطة حكمه مثل هذه القضية في كل يوم مرات عديدة؟ وكيف بمن يعرف الخائن ومع ذلك يحكم ببراءته ويعرف البريء ويحكم بخيائته؟ وكيف بمن سمى نفسه خليفة رسول الله أو أمير المؤمنين وأصدر أحكاماً مخالفة للقرآن خلافاً ظاهراً بيناً ونرى جماعة من المسلمين يسمونه أمير المؤمنين؟! وأن الله قد أنزل على نبيه ثلاثة عشر آية كلها تتعلق بأبي طعمة وسرقه درعاً ورمى شخص بريء بهذه السرقة وذكر فضله على النبي حيث لم يحكم بهذا الأمر الباطل وبين في هذه الآيات أن الشرط في القاضي والحاكم أن يكون عارفاً بتأويل القرآن وأن يكون حكمه وقضاؤه مطابقاً لأحكام القرآن حتى لا يخطأ في قضية واحدة . وبعد هذا هل يتمكن أحد أن يقول إن الجاهل بأحكام القرآن تصح خلافته وإمارته وقضاؤه وحكمه حتى فيما خالف القرآن؟! .

مقاله المراغى :

يقول الاستاذ المراغى في خلاصة هذه الآية: إنه لولا فضل الله عليك بالنبوة والتأييد بالعصمة رحمة لك ببيان حقيقة الواقع لهمت طائفة منهم أن يضلوك عن الحكم العادل المنطبق على حقيقة القضية في نفسها ، ولكنهم قبل أن يطمعوا في ذلك ويهتموا به جاءك الوحي ببيان الحق وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق^(١) انتهى .

مقاله الفخر الرازى :

قال في ذكر معنى الآية : ولولا أن الله خصك بالفضل (وهو النبوة) وبالرحمة (وهي العصمة) لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وذلك لأن قوم طعمة كانوا قد عرفوا أنه سارق ، ثم سألوا النبي ﷺ أن يدفع ويجادل عنه ويبرئه عن السرقة وينسب تلك السرقة الى اليهودي . ومعنى « يضلوك » أي يلقوك في الحكم

الباطل الخطأ^(١) انتهى .

قوله تعالى : « وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء » وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً . والضلal هو الوقوع في الباطل إما عن عمد وإما عن غير عمد ، فإن كان عن غير عمد يسمى خطأً ، وهذا إما أن يكون بتضليل الغير له بأن يبرهن له ويستدل على كون الحكم هو كذا أو الموضوع هو كذا أو الفاعل للمشيء هو فلان كما أراد قوم أبي طعمة أن يخدعوا النبي ﷺ ليحكم ببراءة أبي طعمة . وأما إن كان الوقوع بالباطل عن عمد فإن فاعل ذلك يكون هو قد أضل نفسه بإرادته واختياره فيكون معنى الآية المذكورة هو أن الطائفة المذكورة وهم قوم أبي طعمة هممتوا (أي عزموا) أن يضلوك (أي يحملوك) على حكم خلاف الحق ، بمعنى أنهم أرادوا أن يوقعوك في الباطل عن طريق الكذب والزور والخداع ، ولكنهم قد أضلوا أنفسهم لأنهم أوقعوا أنفسهم في الباطل باختيارهم ، إذ أن الكذب محرم وقد كذبوا ، وشهادة الزور محرمة وقد شهدوا زوراً ، والخداع محرم وأرادوا أن يخدعوا النبي ﷺ ، والسرقة محرمة وقد سرقوا ، فهم قد أوقعوا أنفسهم في هذه المحرمات ، فلذا أخبر الله عنهم بقوله : « وما يضلون إلا أنفسهم » .

وقد تبين من الآية الشريفة أن كل من أراد أن يحصل على حكم شرعي من أحد القضاة أو من أحد الحكام بمقدمات غير شرعية من كذب وزور وبهتان وخداع فإنه قد أضل نفسه وأوقعها في الباطل باختياره وإرادته ، وكل من ساعده على ذلك فهو شريكه في الاثم .

وأما قوله تعالى : « وما يضرونك من شيء » فإنه يعرفنا أن القاضي أو الحاكم إذا كان متبعاً لأحكام القرآن ولم يخش أحداً في حكمه وقضائه ولا يميل إلى الهوى فإنه لا يضره المتخاصمان ولا أحدهما ، إذا كذب واحتمل وخادع فإنه

يضرب نفسه كما تقدم عن النبي ﷺ حيث قال : إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فأقضي بنحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار^(١) .

وأما قوله تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعامك ما لم تكن تعلم » فإن الإشارة في هذه الجملة الى أن القاضي الذي لا يضربه إضلال المضلين وكذب الكاذبين ومكر الماكرين هو الذي يكون قضاؤه وحكمه مطابقاً للقرآن والحكمة وهي السنة أو أسرار الأحكام ، وأن يكون حكمه بالعلم الذي يتعلمه من ثقات الرجال حتى يصل الى النبي ، حيث إنه ﷺ أخذه عن الله ، فهذا هو الذي لا يضربه شيء ، أما اذا كان يقضي بنظره أو بالقياس فهو ممن قد أضل نفسه وأضر بها ، فالقضاء يلزم أن يكون على طبق القرآن والسنة ، وكل مسألة لا يتمكن القاضي أن يستند فيها على القرآن والسنة ينبغي له التوقف فيها وعدم الحكم .

قوله تعالى : « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

أيها القاضي وأيتها الحاكِم هل عرفت عظمة فضل الله عليك في إلزامك القضاء على موجب الكتاب والسنة ، إذ لو أوكل القضاء الى رأيك ونظرك من غير رجوع الى الكتاب والسنة لكثير وقوعك في الضلال والخطأ ولكثير منك تحريم الحلال وتحليل الحرام ، ولكن لما ألزمك الله بالرجوع الى الكتاب والسنة واتباع ما تعلمته من العلم الذي ينتهي الى علم النبي المأخوذ عن الله عز وجل لا يقع حينئذ الخطأ إلا نادراً . فكل من نصب نفسه للقضاء من غير علم بالكتاب والسنة فهو مغتصب لهذا المنصب وهو من الخائنين ، وكل من ساعده وأعانه على ذلك فهو شريكه في الاثم وقد عرفه الله وأعلمه أنه لا يضل إلا نفسه ولا يضرب إلا نفسه .

قوله تعالى : لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً (١١٤) .

إن قوم أبي طعمة اجتمعوا وقرروا بينهم أن يأتوا رسول الله ويشهدوا عنده بتزكية صاحبهم السارق، وقد تكتموا في هذا الاجتماع طبعاً، وهكذا كل من أراد أن يقوم بعمل سيئ فبيح منافٍ للعرف مخالف للشرع فإنه يتكتم ويخفي ذلك عن الناس ، وقد أخبر الله عن نجوى أغلب الناس أنها لا خير فيها ، وأن الأمور التي فيها خير ونفع لا يتكتمون فيها .

هذا هو ما انطبع عليه الناس قبل الاسلام ، وقد بقي على هذه الطبيعة من لم يستقر الاسلام في قلبه، فإنهم يتناجون في أمور فيها فساد وضرر على الناس وعلى أنفسهم ولكنهم يظنون أن فيها نفع لهم وقد عرفهم الله في آية (١١١) المتقدمة .

إن هذه الأمور هي عليهم وليست لهم ، وقد ذكر الله سبحانه في القرآن المنزل على النبي ﷺ أن المسلم لا يحل له أن يتناجى فيما يضر به الناس بل ينبغي له أن يتناجى في أمور فيها نفع للناس ، وقد ذكر من هذه ثلاثة أشياء في هذه الآية كما في قوله تعالى : **الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس** . فهذه الأمور الثلاثة يحب الله النجوى فيها ، أما من يجتمعون ويتناجون في إثبات محرم أو ترك واجب فإن هذا مما لا خير فيه بل فيه الشر والضرر على الناس ، وأكثر منه وهو الضرر على نفس الفاعل .

أما الأمور الثلاثة التي يحب الله النجوى فيها فهي :

الأول : الصدقة، فإن الله يحب المتكتم فيها، وذلك لما في التكتم من التخلص

من الرياء والاحسان الى المتصدق عليه ، فإنه اذا اطلع عليه أحد يتألم لذلك ، واهل* بعض الاشخاص يردها ولا يقبلها وهو في غاية الحاجة إليها وقد قال تعالى : « وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم »^(١).

فمن بعض أهل المدينة قال : ما فقدنا صدقة السر* حتى مات علي بن الحسين عليه السلام وكان في المدينة كذا وكذا بيتاً يأتيهم رزقهم وما يحتاجون إليه لا يدرون من أين يأتيهم ، فلما مات زين العابدين عليه السلام فقدوا ذلك فصرخوا صرخة واحدة^(٢).
عن أبي جعفر عليه السلام قال : البر* وصدقة السر* ينفيان الفقر ، ويزيدان في العمر ، ويدفعان عن سبعين ميتة سوء^(٣).

وأما الأمر بالمعروف فالاسرار فيه أولى من الاعلان لأن* الذي يؤمر به يطلع عليه السامع أنه مقصر في المعروف وتارك له ، وهذا قد يحمله على الاصرار عليه ، أما اذا أسر* به الأمر فلمعلمه يكون أنفع وأكثر أثراً.

وأما الاصلاح بين الناس فإن* المصلح يحتاج أن ينفرد مع كل واحد من المتقاطعين ويتكلم مع كل منهما بانفراد ، ولعل* المقام يحتاج الى الكلام مع أحدهما غير الكلام مع الآخر ، ولاريب أن* الاسرار به خير ، إذ مع وجود الناس فإنه لا يتم* الأمر لأن* الناس لا يسكتون ولا تتفق آراؤهم وقد يتكلمون بكلمة تكون سبباً في شدة المتخاصمين ، أما مع الاسرار فغالباً ينجح المصلح اذا كان من أهل المعرفة .

فآية الشريفة تقول : من فعل هذه الامور الثلاثة أو بعضها طالباً بفعله رضا الله وتكون نيته خالصة لوجه الله « فسوف تؤتيه أجراً عظيماً » .

ولا يخفى أن* الله العلي العظيم - الذي يكون كل شيء عنده حقيراً - اذا وصف شيئاً بالعظمة فإن* العبد الحقير الضعيف لا يمكن أن يتصور هذا الشيء الذي عبر

(١) البقرة : ٢٧١ .

(٢) و (٣) سفينة البحار: ج ٢ ص ٢٣ مادة «صدق» .

الله عنه بالعظيم ، فلا ينبغي للإنسان المحتاج في يوم الجزاء الى الحسنه الواحدة أن يفوت هذا الأجر العظيم ، فاغتنم وعد الله فإنه فرصة ثمينة .

قوله تعالى : ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساعت مصيراً (١١٥) .

إن الآية الاولى من الآيات التي تتعلق بقصة بنى إبيرق آية محكمة عامة ليس فيها تخصيص ، مطلقة ليس فيها تقييد ، تفيدنا أن الكتاب إنما انزل لأجل الحكم بين الناس بما فيه من علم وحكمة ، وأنه لا يجوز لأحد أن يكون حاكماً بين الناس إلا أن يكون جامعاً لعلوم القرآن كالنبي أو وصيه الذي أودع عنده العلوم .

وهذه الآية أيضاً محكمة عامة ليس فيها تخصيص ، مطلقة ليس فيها تقييد ، نخبرنا أن الذي يخالف النبي ﷺ في أي حكم وفي أي فعل وفي أي قول فإن المشاققة هي المخالفة وهي تتحقق في المخالفة بشيء من الأشياء .

فإذا دل دليل وثبت عند شخص صدق النبي ﷺ في دعوى النبوة بحيث يحكم العقل أن هذا الشيء الذي فعله النبي أو أخبر به لا يكون إلا من قبل الله وليس له طريق آخر ثم بعد ذلك يخالف هذا الشخص النبي في بعض الامور ويتبع طريقاً آخر غير الطريق الذي يعينه النبي فإن النبي ﷺ قد جاءنا بشريعة كاملة وجعل لكل مسألة حكماً مستنبطاً من القرآن ، وكل من يعمل بأوامر النبي في جميع مسائله يسمى مؤمناً ، وهؤلاء المؤمنون سبيلهم وطريقهم واحد لا تعدد فيه ولا عوج فيه ولا التواء فيه ولا ظلمة فيه ، وهذا الطريق مستقيم سمح لا يضل فيه من سلكه ولا يتيه من سار فيه . فالذي يخالف النبي في حكم من الأحكام وإن كان جزئياً فلا بد أن يكون بسبب انحرافه عن الطريق الذي يعينه النبي للمؤمنين

فيكون في انحرافه هذا قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، فإما أن يلتفت الى نفسه أنه انحرف فيرجع الى الطريق ويتوب الى الله ويستغفر لذنبه ، فقد ذكر الله في آية ١١٠ أنه يقبل التوبة من المذنب اذا استغفر ، وأما اذا بقي مصراً على انحرافه فإن الله يقول : « نوله ماتولى ونصله جهنم وساعت مصيراً » أي لانعامه معاملة المؤمنين السائرين في الطريق الذي يسير فيه الرسول وأصحابه المطيعين له ، وإنما نعامه معاملة المتبع المتولى لما تولاها سواء تولى حجراً أم شجراً أم بشراً أو غير ذلك ، فإن الأمر المتيقن خروجه عن طريق المؤمنين ، أما ماهو الذي تولاها؟ فهو الطاغوت لأنه هو الذي جعله مقابلاً لسبيل الله في آيات عديدة .
وأما العاقبة الأخيرة فهي جهنم كما أخبر الله بقوله : « ونصله جهنم وساعت مصيراً » .

مقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره للآية : إعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو ما روي أن طعمة بن إبيرق لما رأى أن الله تعالى هتك ستره وبرأ اليهودي عن تهمة السرقة ارتد وذهب الى مكة ونقب جدار إنسان لأجل السرقة فتهدم الجدار عليه ومات فنزلت هذه الآية .

أما الشقاق والمشاقة فقد ذكرنا في سورة البقرة أنه عبارة عن كون كل واحد منهما في شق آخر من الأمر ، أو عن كون كل واحد منهما فاعلاً فعلاً يقتضي لحوق مشقة بصاحبه ، وقوله : « من بعد ما تبين له الهدى » أي من بعد ما ظهر له بالدليل صحة دين الاسلام .

قال الزجاج : لأن طعمة هذا كان قد تبين له بما أوحى الله تعالى من أمره وأظهر من سرقة مآدله ذلك على صحة نبوة محمد ﷺ فعادى الرسول وأظهر الشقاق وارتد عن دين الاسلام فكان ذلك إظهار الشقاق بعد ما تبين له الهدى .
قوله تعالى : « ويتبع غير سبيل المؤمنين » يعني غير دين الموحدين ، وذلك

لأن طعمة ترك دين الاسلام واتبع دين عبادة الأوثان .

ثم قال : « نوله ما نولى » أي نتركه وما اختار لنفسه ونكلمه الى ما نؤكل عليه ، قال بعضهم : هذا منسوخ بآية السيف لاسيما في حق المرتد .

ثم قال : « ونصله جهنم » يعني نلزمه جهنم ، وأصله الصلاة وهو لزوم النار وقت الاستدفاء . « وساءت مصيراً » انتصب مصيراً على التمييز كقولك فلان طاب نفساً وتصب عرقاً . وفي الآية مسائل :

(المسألة الاولى) روي أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن آية في كتاب الله تعالى تدل على أن الاجماع حجة ، فقرأ القرآن ثلاثمائة مرة حتى وجد هذه الآية . وتقرير الاستدلال أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجباً .

بيان المقدمة الاولى : أنه تعالى ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين ، ومشاققة الرسول وحدها موجبة لهذا الوعيد ، فلو لم يكن اتباع غير سبيل المؤمنين موجباً له لكان ذلك ضمماً لما لا أثر له في الوعيد الى ما هو مستقل باقتضاء ذلك الوعيد وأنه غير جائز ، فثبت أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام . واذا ثبت هذا لزم أن يكون اتباع سبيلهم واجباً ، وذلك لأن عدم اتباع سبيل المؤمنين يصدق عليه أنه اتباع لغير سبيل المؤمنين ، فاذا كان اتباع غير سبيل المؤمنين حراماً لزم أن يكون عدم اتباع سبيل المؤمنين حراماً ، واذا كان عدم اتباعهم حراماً كان اتباعهم واجباً لأنه لا خروج عن طرفي النقيض .

فإن قيل : لا نسلم أن عدم اتباع سبيل المؤمنين يصدق عليه أنه اتباع لغير سبيل المؤمنين فإنه لا يمتنع أن لا يتبع لاسبيل المؤمنين ولا غير سبيل المؤمنين . واجيب عن هذا السؤال بأن المتابعة عبارة عن الاتيان بمثل ما فعل الغير ، فاذا كان من شأن غير المؤمنين أن لا يتبعوا سبيل المؤمنين فكل من لم يتبع سبيل المؤمنين فقد أتى بمثل فعل غير المؤمنين ، فوجب كونه متبعاً لهم .

ولقائل أن يقول: الاتباع ليس عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير وإلا لزم أن يقال: الأنبياء والملائكة متبعون لآحاد الخلق من حيث إنهم يوحدون الله كما أن كل واحد من آحاد الأمة يوحد الله.

ومعلوم أن ذلك لا يقال بل الاتباع عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير لأجل أنه فعل ذلك الغير، وإذا كان كذلك فمن ترك متابعة سبيل المؤمنين لأجل أنه ما وجد على وجوب متابعتهم دليلاً فلا جرم لم يتبعهم، فهذا الشخص لا يكون متبعاً لغير سبيل المؤمنين، فهذا سؤال قوي على هذا الدليل وفيه أبحاث آخر دقيقة ذكرناها في كتاب المحصول في علم الأصول، والله أعلم.

(المسألة الثانية) دلت هذه الآية على وجوب عصمة محمد ﷺ عن جميع الذنوب، والدليل عليه أنه لو صدر عنه ذنب لجاز منعه، وكل من منع غيره عن فعل يفعله كان مشاققاً له، لأن كل واحد منهما يكون في شق غير الشق الذي يكون الآخر فيه. فثبت أنه لو صدر الذنب عن الرسول لوجب مشاققته، لكن مشاققته محرمة بهذه الآية فوجب أن لا يصدر الذنب عنه.

(المسألة الثالثة) دلت هذه الآية على أنه يجب الاقتداء بالرسول ﷺ في أفعاله، إذ لو كان فعل الأمة غير فعل الرسول لزم كون كل واحد منهما في شق آخر من العمل فتحصل المشاقة، لكن المشاقة محرمة فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله^(١) انتهى كلام الفخر الرازي.

وبعد أن يقرأ المسلم هذه الآية ويعرف معناها يثبت عنده أن الواجب عليه أن يتبع سبيل المؤمنين، وحيث إن اتباع سبيل المؤمنين موقوف على معرفته، ومعرفة موقوفة على معرفة المؤمنين أنفسهم، فلا تحصل المعرفة - أي معرفة سبيل المؤمنين - إلا بأخذه من النبي ﷺ، وهذا إنما يحصل لمن كان موجوداً في زمن

النبي ﷺ ، أما غيرهم فلا يعرفون ذلك إلا بمعرفة المؤمنين فرداً فرداً ، وهذا أيضاً لا يمكن تحصيله إلا بأن يعرف أمير المؤمنين فيأخذ السبيل والطريق بتعليمه ودلالته ، وقد تقدم في كتابنا هذا الأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ القائلة بأن علياً أمير المؤمنين ، وأحببت هنا تنبيه القاري ، إليها وهو أعرف بتكليفه وأبصر بنفسه .

تنبيه لعموم المسلمين

أيها الملوك ، أيها الرؤساء ، أيها المسيطرون على الأمم الإسلامية ، أيها الشعوب الإسلامية ، اذا قرأتم الآية الشريفة : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما نولّى ونصله جهنّم وساءت مصيراً » عرفتكم أن كل من ترك واجباً من الواجبات وكل من فعل محرماً من المحرمات فقد شاقق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين وذلك بعد ما تبين له الهدى .

إنكم كلكم معتقدون بنبوّة محمد ﷺ وصدقه وصحة دين الاسلام ، ومع كل هذا نرى في جميع البلاد الإسلامية أن الخمر وتباع علانية ، والربا يؤكل ويتعامل به علانية في جميع البنوك والمصارف ، والقمار يلعب به في النوادي والمقاهي علانية ، والسفور من النساء المسلمات وتبرج الجاهلية مباح من جميع الحكومات الإسلامية ، فهل هذه الامور وهل فعلها مشاقة للرسول أو متابعة له وموافقة لطريقه ؟ وهل هي اتباع لسبيل المؤمنين أو لغير سبيل المؤمنين ؟

إنني احرر هذه الكلمات في نهاية صفر وغرة ربيع الأول سنة ١٣٨٧ ، وإن كنتم لا تعرفون التاريخ الهجري الاسلامي فأقول لكم إنني احرر هذه السطور في يوم ١٠ / ٦ / ١٩٦٧ وهو اليوم الذي تغلب فيه اليهود على الحكومات الإسلامية بمساعدة أمريكا وبريطانيا ودخلوا أراضي سوريا واحتلوا قسماً كبيراً من الاردن

وقتلوا جماعة من المسلمين وشردوا العوائل وقتلوا الصبيان والشيوخ ودمروا وأحرقوا وهدموا .

أيها المسلمون، اكتبوا هذا التاريخ في صدوركم، اكتبوه بدماء شهدائكم حتى لا تنسوه ولا تغفلوه ، اكتبوه حتى تأخذوا ناركم .

إني أسمع جماعة من المسلمين يعتبرون على الله وعلى رسوله ويقولون لماذا لم يأخذ الله بأيدي المسلمين ؟ ولماذا لم ينصرهم على أعدائهم الكافرين ؟ .

أيها المسلمون، أيها الرؤساء، أتدرون لماذا لم ينصركم الله ؟ أنا أخبركم بذلك، إن الله يقول : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »^(١) .

إن الله يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » .

إنكم خالقم الرسول بفتح حوائت الخمر ، وتعاطي الربا في المصارف، ولعب القمار في النوادي ، ومخالفة القرآن في القصاص بالقتل وفي قطع يد السارق وفي جلد الزاني ، فقدتم الشرط الموجب لنصرة الله : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، ولهذا لم نحض بنصرة الله ، ولهذا استولى علينا الأعداء .

أيها المسلمون، إن الله يكون معنا إذا رجعنا إليه، وإذا وفينا له بالشرط، وإذا تركنا ما نهانا عنه ، وإذا فعلنا ما أمرنا به من صلاة وصيام وحج وزكاة ، إذا تركنا المحرمات وفعلنا الواجبات كان الله معنا في جهادنا وفي سائر الأوقات، وسوف نقهر اليهود وسوف نطرد المستعمر .

قوله تعالى : ليس بأمانيكُم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً (١٢٣) .

ذكروا في سبب نزول هذه الآية أنه تفاخر المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم . فقال المسلمون : نبينا ﷺ خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب وديننا الاسلام . فنزلت الآية ، فقال أهل الكتاب : نحن وأنتم سواء . فأنزل الله الآية التي بعدها « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن » ففلح المسلمون . عن قتادة والضحاك^(١) .

وقيل : لما قالت اليهود « نحن أبناء الله وأحباؤه »^(٢) وقال أهل الكتاب : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى »^(٣) نزلت الآية . عن مجاهد^(٤) .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره : الخطاب في قوله : « ليس بأمانيتكم » خطاب مع من ؟ فيه قولان ، الأول : أنه خطاب مع عبدة الأوثان ، وأمانيتهم أن لا يكون هناك حشر ولا نشر ولا ثواب ولا عقاب ، وإن اعترفوا به لكنهم يصفون أصنامهم بأنها شفعاؤهم عند الله . وأما أمانيت أهل الكتاب فهو قولهم « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » وقولهم « نحن أبناء الله وأحباؤه » فلا يعذبنا ...

القول الثاني : أنه خطاب مع المسلمين ، وأمانيتهم أن يغفر لهم وإن ارتكبوا الكبائر ، وليس الأمر كذلك^(٥) .

وعلى كل حال فإن الخطاب يعم جميع البشر في أنه لا يكون الأمر بأمانيت أمة أو طائفة وإنما يكون بإرادة الله وحكمته وما يستحقه العبد بحسب عمل الخير أو الشر .

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) المائدة : ١٨ .

(٣) البقرة : ١١١ .

(٤) مجمع البيان : ج ٢ ص ٥٤ .

(٥) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٥٢ .

وإن الذي يستفاد من هذه الآية هو عين ما يستفاد من آية ١١٥ التي فرغنا منها ، فإن الذي تفيدنا به هذه الآية هو : أن المرء الذي يعمل السوء لابد وأن يجازى به ولا يمكن أن يجد الانسان الذي عمل السوء ولياً يدفع عنه عقاب عمله السيئ ولا يجد أحداً ينصره من دون الله أبداً ، وإنما يمكن للانسان عامل السوء أن يتدارك نفسه في دار الدنيا اذا تاب ورجع الى الله وخرج عن حقوق العباد ، أما اذا مات وخرج من الدنيا مصراً على عمله غير نادم على فعله فهذا لابد وأن يؤخذ منه حق العباد ولا بد أن يعاقب على السوء الذي عمله .

فيكون مفاد هذه الآية عين مفاد تلك الآية وهو : أن الذي يتبع غير سبيل المؤمنين بمشاقة الرسول ، وهذا أيضاً يتبع غير سبيل المؤمنين بعمل السوء و كل واحد منهما لابد أن يعاقب. وقد ذكر الله بيان عقاب ذاك بقوله : «نصله جهنم» وذكر عقاب هذا بقوله : «من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً» ويكون مرجعه الى جهنم ، فليس للعبد إلا أن يتبع سبيل المؤمنين وهو السير في طريق النبي وما وصى به أمته من التمسك بعده بالقرآن والعروة التي عندها تأويل القرآن .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمعه في قوله تعالى : « من يعمل سوءاً يجز به » : اختلف في تأويله على أقوال ، أحدها : أنه يريد بذلك جميع المعاصي صفائرها و كبائرها ، وأن من ارتكب شيئاً منها فإن الله سبحانه يجازيه عليها إما في الدنيا وإما في الآخرة . عن عائشة وقتادة ومجاهد .

وروي عن أبي هريرة أنه قال : لما نزلت هذه الآية بكينا وحزننا وقلنا : يا رسول الله ما أبقت هذه الآية من شيء ، فقال : أما والذي نفسي بيده إنها لكما انزلت ، ولكن أبشروا وقاربوا وسددوا أنه لا نصيب أحداً منكم مصيبة إلا كفر

الله بها خطيئته حتى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه . رواه الواحدي في تفسيره مرفوعاً .

وقال القاضي أبو عاصم القاري العامري : في هذا قطع لتوهم من توهم أن المعصية لا تضر مع الإيمان ، كما أن الطاعة لا تضر مع الكفر^(١) انتهى .
هذا هو الظاهر من الآية ، أن كل عمل سييء نهى الله عنه عباده فإن العبد إذا فعله يؤاخذ عليه سواء كان الفاعل مؤمناً أم كافراً ، فينبغي للمؤمن التحفظ والتوقي وترك كل شيء من السيئات .

مقاله المراعى :

قال في توضيح المعنى الجملي للآية :
بعد أن بين سبحانه في الآيات السالفة أن الشيطان يعدهم ويمنّهم ويدخل في تلك الأمانى ما كان يمنّيه أهل الكتاب من الغرور بدينهم إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص ويقولون : إنهم أبناء الله وأحباءه ، وإن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات . وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكالمهم على الشفاعات وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لأبائهم ، حذرنا في هذه الآيات الكريمات أن نكون مثلهم ، وكانت هذه الأمانى قد دبّت الى المسلمين في عصر النبي ﷺ كما دلّ على ذلك في قوله : ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل ،^(٢) الآية . فاضعفاء الإيمان من المسلمين في الصدر الأول ولأمثالهم في كل زمان انزلت هذه الموعظة ، ولو تدبروها لما

(١) مجمع البيان : ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) الحديد : ١٦ .

كان لهذه الأمانى عليهم من سلطان .

أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن موقوفاً : ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وفر في القلب وصدق العمل .

وقال الحسن : إن قوماً غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملوون بالذنوب ولو صدقوا لأحسنوا العمل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : إلتقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى ، فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين ابراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً . وقالت النصارى : مثل ذلك . فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم ، وقد امرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين ابراهيم واسماعيل واسحاق ، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا . فأنزل الله : ليس بأمانيتكم ، الى آخر الآية ، فأفلج الله حجة المسلمين على من ناداهم من أهل الأديان الاخرى .

الايضاح : « ليس بأمانيتكم ولاأمانى أهل الكتاب » أي ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاه أهله به أن يقول القائل منهم : إن ديني أفضل وأكمل ، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمني والغرور ، فليس أمر نجاتكم ولاأمر نجاه أهل الكتاب منوطاً بالأمانى في الدين ، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهي ولا تحصل فائدها بالانتساب إليها دون العمل بها .

ثم أكد ذلك وبينه بقوله : « من يعمل سوءً يجز به » أي أن من يعمل سوءً يلق جزاءه لأن الجزاء بحسب سنته تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف في اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأمانى والظنون .

فعلى الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه

ورسوله ويجعل ذلك المعيار في سعادته لأن يجعل تكاثره أن هذا الكتاب أكمل ولا أن ذلك الرسول أفضل .

روى أنه لما نزل قوله : «من يعمل سوءً يجز به» راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبي ﷺ قال : من ينجو مع هذا يا رسول الله ؟ فقال له النبي ﷺ : أما تحزن أما تمرض أما يصيبك البلاء ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : هو ذاك .

ثم ذكر رواية أبي هريرة التي نقلناها من مجمع البيان قبل صفحات ، ثم قال : والأحاديث بهذا المعنى كثيرة .

ومن ثم يرى عامة العلماء : أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا .

ورأى بعضهم : أن المصائب لا تكفر إلا إذا أثرت في النفس تأثيراً صالحاً وكانت سبباً في قوة الإيمان وترك سوء والتوبة منه والرغبة في صالح العمل بما تحدثه من العبرة ، وتكون مربية لعقله ونفسه ، أما إذا ضاعفت الذنوب كالمصائب التي تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الإيمان إلى ذنوب أخرى لم يكونوا ليقتروها لولا المصيبة فلا تكفر شيئاً من الخطايا بل تزيد بها .

«ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً» أي من يعمل سوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له ولياً غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه ، ولا نصيراً ينصره وينقذه مما يحل به لامن الأنبياء الذين تفاخر بهم ولامن غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأرباباً ، فكل تلك الأمانى تكون أضغاث أحلام ، وإنما يكون المدار في ذلك على الإيمان والأعمال^(١) انتهى .

ماقاله سيد قطب :

وقال في تفسيره : ثم يعقب السياق بقاعدة الاسلام الكبرى في العمل والجزاء .

أن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأمانى أنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف وقانون لا يحاىي ، قانون يستوي أمامه المسلمون وأهل الكتاب ، وسنة تجري على هؤلاء وهؤلاء ولا تقف أمام أمنية لهؤلاء أو هؤلاء ، إن صاحب السوء مجزى بالسوء ، وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة ، ولا محاباة في هذا ولا مماراة^(١).

هذا هو القانون الثابت وهذه هي السنة النافذة ، فلا يعلق أحد نفسه بالأمانى الخادعة ، وليختار طريقه على هدى وفي وضع النور بلا جدال ولا محال .
وقد تبين من هذه الآية أن الناس كلهم سواء بالنسبة إلى عمل السوء ، حيث إن الله ذكر أن من يعمل السوء يجز به ، فلا فرق في ذلك بين المؤمن الكامل الإيمان وبين المؤمن الضعيف الإيمان ، ولا بين المنافق والكتابي والمشارك وعبد الأوثان ، الكل في ذلك سواء ، فمن كان يؤمن بالله ويعتقد بصدق وعده ووعديه وأن ما يقوله لا محالة واقع تكون هذه الآية صادة له ومانعة عن فعل السوء لأن ضرره يعود على نفسه وإن كان بحسب الظاهر فيه نفع دنيوي ولكنه بحسب الواقع والحقيقة هو ضرر محض كما تقدم في قوله تعالى : « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً »^(٢).

فإذا عمل العبد السيئ كتب عليه سيئة إما كبيرة أو صغيرة ، وكل واحدة منهما تختلف كبراً وصغراً ، وقد تكون الكبيرة كالجبال الرواسي ، وقد تكون سيئة سيئة يكون عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وقد تكون هذه السيئة السيئة في أمر عبادي فتكون سبباً لبطالان عبادة كل من عمل بها ، وهذه بالطبع أعظم مما تكون في غير العبادة ، فليرحم الإنسان نفسه ولا يحرقها لأجل الدنيا الفانية .

ثم إن العبد إذا عمل السيئة وسجلت عليه وكتبت في صحيفته ليجازى بها

(١) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٧٦٢ .

(٢) النساء : ١١١ .

في عالم الأخرى فهل يمكن أن تمحى من الصحيفة ويتخلص منها ولا يؤخذ عليها في الآخرة ؟

فإن الله سبحانه يقول : «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين»^(١) .

فيستفاد من هذه الآية أن السيئة يمكن أن تذهب وتمحى ويتخلص منها وأن الذي يذهب بها هي الحسنة ، ولكن الحسنة التي تكون عند الله حسنة لا التي يعدها العبد حسنة ، فالشرط في الحسنة التي تمحو السيئة وتذهب بها هي المقبولة عند الله .

فهل أن كل من يعمل السوء يمكنه أن يعمل الحسنة المقبولة عند الله فتكون ماحية للسيئة سواء كان العامل مؤمناً كاملاً أم ناقصاً أو منافقاً أو مشركاً أو كافراً أو غير ذلك ؟

إن هذا لا يمكن أن يقول به أحد، فإن الله قد بيّن في الآية الآتية العبد الذي يقبل عمله ويثيبه عليه :

فقال تعالى : ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً (١٢٤) .

بعد أن ساوى الله بين جميع العباد في جزاء السيئة بمثلها فرق في هذه فيمن تقبل منه الحسنة ويثاب عليها ، فجعل الشرط فيمن تقبل منه الحسنة أن يكون مؤمناً ، أما إذا لم يكن مؤمناً فلا تكون حسناته مقبولة ولا يكون عمله الصالح موجباً له دخول الجنة ، بل لا يسمى عمله صالحاً ما لم يكن مؤمناً .

فكل من يكون مؤمناً ويعمل عملاً صالحاً تكون حسناته مقبولة وهي التي

تمحو السيئات وتذهب بها ، أما من لم يكن مؤمناً فتبقى سيئاته ثابتة في صحيفته جائزة على قلبه وسوف يجازى بها في الآخرة .

مقاله الطبرسي :

قال في مجمع البيان: وقوله سبحانه: «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن» وإنما قال «وهو مؤمن» ليبين أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان «فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً» .
وعد الله تعالى بهذه الآية جميع المكلفين من الرجال والنساء اذا عملوا الأعمال الصالحة أي الطاعات الخالصة وهم مؤمنون موحدون مصدقون نبيه بأن يدخلهم الجنة ويثبتهم فيها ولا يبخسهم شيئاً مما يستحقونه من الثواب وإن كان مقدار نقير في الصغر، وقد قابل سبحانه الوعيد العام في الآية التي قبل هذه الآية بالوعد العام في هذه الآية ليقف المؤمن بين الخوف والرجاء^(١) انتهى .

مقاله المراغي :

قال في تفسيره للآية : أي ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في آدابها وأخلاقها وأحوالها الاجتماعية سواء كان العامل ذكراً أم انثى وهو مطمئن القلب بالإيمان فاولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاه أنفسهم وطهارة أرواحهم ولا يظلمون من اجور أعمالهم شيئاً ولو حقيراً كالنقير .

وفي هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأمانى التي يأوي إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين الذين يظنون أن الله يحابي من يسمي نفسه مسلماً ويفضله على اليهودي والنصراني لأجل هذا اللقب ، فالذين

يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرّموا الاهتداء بهديه هم في ضلال مبين^(١) انتهى .

ثم بعدما بين الله للبشر أن كل شيء افتخـر به المسلمون أو النصارى أو اليهود ، و كل شيء علقوا عليه أمانيتهم فإنه شيء واهٍ ضعيف ليس عليه اعتماد ، وأن هذا الافتخار وهذه الامنية لا يترتب عليهما ثواب ولا يدفع بهما عقاب ولا يقربان العبد الى الله ، وأن من عمل سوءً يكن جزاءه بمثل عمله ، ومن عمل الصالحات فاولئك يدخلون الجنة لأن عملهم مقبول عند الله .

وبعد هذا كله بين للناس قانوناً كلياً وقاعدة عامة ، وأن كل من انصف بهذه الصفات التي يذكرها الله فهذا المتصف بها هو المقرب عند الله ، وهو الذي يدخله الله الجنة وهو الذي لا ينقص شيئاً من أعماله الحسنة وكلها تكتب له ، لأنه لا يعمل شيئاً يبطل به صالح أعماله ويحبط به حسناته ، وهي محفوظة له وفي كل يوم تزداد وتكثر وتنمو وتربو ، والقانون العام هو ما ذكره الله تعالى في قوله :

ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً (١٢٥) .

هذا سؤال موجه الى جميع البشر والى جميع أهل الأديان ، موجه الى المسلم والى المؤمن الكامل الايمان والى ضعيف الايمان والى المنافق والى المشرك والى أهل الكتاب بجميع أصنافهم والى عبدة الأوثان والى غيرهم من أصناف الناس ، هذا سؤال امتحان وسؤال انكار .

أي هل يمكن أن يقول أحد أو يدعي مدعٍ أو يخطر على بال أحد إن في عالم الوجود أحداً هو أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ؟ وتسليم الوجه عبارة عن

تسليم سائر البدن الذي في ضمنه القلب ، حيث إن الوجه مشتمل على الحواس الخمس ، فلا يسلمه الانسان بالطوع والرغبة والارادة إلا بإرشاد من القلب وأمر من العقل ، فاذا سلم الوجه لله يكون خاضعاً لارادته ممتثلاً لأمره ونهيه موقفاً نفسه لاشارة من مولاه لا يتخلف عنه مقدار ذرة .

فتسليم الوجه عبارة عن الايمان الكامل الذي لا يشوبه شيء بحيث يعتقد أن الله هو الخالق المكون لجميع الأشياء والامور كلها بيده وتجري بأمره ، والرزق كثرة وقلة بيده ، فلا يبيع آخرته بدنياه ، فاذا صحت عقيدته وحسنت نيته تكون جميع أفعاله وأقواله مطابقة لارادة الله بحيث لا يصدر منه فعل أو قول يكون فيه مشاققة للرسول ولا يعتمد في سوء عمله حتى يجازى به .

ثم مع هذا الدين ومع هذه النية ومع هذا الخضوع ومع هذه الطاعة يكون محسناً أيضاً ، والمحسن من يكون محسناً لنفسه ومحسناً للناس ، وليعلم المرء أن الانسان كلما كان محسناً لنفسه فلا بد أن يكون محسناً للناس لأن الاحسان للناس يعود حسنه على نفس الفاعل ، فالانسان العاقل العارف بكيفية جلب الاحسان لنفسه لا يصدر منه فعل مسيئاً لغيره أبداً ، أما الذي لا يعرف كيف يجلب النفع لنفسه ويرى نهب أموال الناس من جملة النفع فقد تقدم ذكره في قوله تعالى : « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » .

أما هذا الذي ذكره الله في هذه الآية وجعله أحسن من جميع الكائنات ديناً وقد أوردنا الله أن نكون على مثل هذه الطريقة فهو في كل الأفعال والأقوال يراعي مرضاة الله وإرادته ، ولا يخفى أن مرضاة الله تكره وتأبى أذى العباد وظلمهم . ثم لما كان أكثر الناس بل كلهم لا يعرفون كيفية اسلام الوجه لله التي يرضاها ويقبلها ولا يعرفون أيضاً الأشياء الحسنة على الحقيقة ، وأن الكثير من الامور نشبه عليهم وهم يريدون أن يتصفوا بهذه الصفة التي ذكرها الله وجعلها أحسن الأشياء ، ولهذا نبهنا الله على الطريقة التي تعرفنا بها في الجملة الأخيرة

من الآية وهي : « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

إعلم أيها الطالب لمرضاة الله ، أيها الانسان الذي يريد أن يتصف بالصفة التي جعلها الله أحسن صفات أهل الأرض وأهل السماء أحسن صفات الأولين والآخرين ولا يقدر أحد أن يقول بوجود دين أو شريعة أحسن منها ، اذا أردت هذا الدين فيلزمك أن تتبع ملة إبراهيم التي أودعها الله بجميع حدودها وأحكامها ومسائلها كلية وجزئية عند خاتم الأنبياء وسيدهم ، وليس هناك أحد غيره يعلم هذه الملة والشريعة ، والنبي ﷺ بينها بجملتها وأودعها عند وصيه علي بن أبي طالب عليه السلام وأوصى أمته أن يتمسكوا بالقرآن وبالعقيدة فالقرآن مشتمل على جميع الأحكام والسنن، والعقيدة عندها علم القرآن بأجمعه لا يفوتها منه شيء ، فلا مناص لمن أراد أن يسلم وجهه لله وأن يكون من المحسنين إلا باتباع ملة إبراهيم، وهي إنما تتحقق باتباع النبي ومن بعده بالتمسك بالثقلين كتاب الله والعقيدة النبوية.

مقاله المراغى :

قال في تفسيره للآية : أي لأحد أحسن ممن جعل قلبه خالصاً لله وحده فلا يتوجه الى غيره في دعاء ولا رجاء ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسائط والشفعاء ولا يرى في الوجود إلا هو، ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته ، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها وهي السنن والأسباب التي سنتها في الخليقة ، وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل متحلٍ بأحسن الأخلاق والفضائل .

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من إقبال وإعراض وشرور وكآبة وما فيه هو الذي يدل على ما في السريرة .

« واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » أي واتبع إبراهيم في حنيفيته التي كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها، قال تعالى : « وإن

قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون* إلا الذي فطرني فإنه سيهدين* وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون،^(١)

« واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، أي اصطفاه الله لاقامة دينه في بلاد غلبت عليها الوثنية وأفسد الشرك عقول أهلها ، وقد بلغ من الزلفى عند ربه ما صح به أن يسمى خليلاً فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملتته وتؤتسى طريقته .

والخلاصة : إنه من عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة وفنائه في التوحيد^(٢) انتهى .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمعه : ثم بين سبحانه من يستحق الوعد الذي ذكره قبل فقال: «ومن أحسن ديناً» وهو في صورة الاستفهام ، والمراد به التقرير. ومعناه من أصوب طريقاً وأهدى سبيلاً ، أي لا أحد أحسن اعتقاداً «ممن أسلم وجهه لله» أي استسلم وجهه .

والمراد بقوله «وجهه» هنا ذاته ونفسه كما قال تعالى: «كل شيء هالك إلا وجهه»^(٣) والمعنى إنقاد لله سبحانه بالطاعة ولنبيه ﷺ بالتصديق .

وقيل : معنى «أسلم وجهه لله» قصده بالعبادة وحده كما أخبر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: «وجهت وجهي للمذي فطر السماوات والأرض»^(٤) .

وقيل : معناه أخلص أعماله لله ، أي أتى بها مخلصاً لله فيها .

« وهو محسن » أي فاعل للفعل الحسن الذي أمره الله تعالى .

(١) الزخرف : ٢٦ - ٢٨ .

(٢) تفسير المراغي : ج ٥ ص ١٦٦ .

(٣) القصص : ٨٨ .

(٤) الانعام : ٧٩ .

وقيل : معناه وهو محسن في جميع أقواله وأفعاله .

وقيل : إن المحسن هنا الموحّد .

وروي أن النبي ﷺ سئل عن الاحسان فقال : أن تعبد الله تعالى كأنك

تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك .

« واتبع ملة ابراهيم » أي اقتدي بدينه وسيرته وطريقته ، يعني ما كان

عليه ابراهيم ، وأمر به بنيه من بعده وأوصاهم به من الاقرار بتوحيده وعدله

وتنزيهه عما لا يليق به ، ومن ذلك الصلاة الى الكعبة والطواف حولها وسائر المناسك .

« حنيفاً » أي مستقيماً على منهاجه وطريقه ، وقد مرّ معنى الحنيف في سورة

البقرة .

« واتخذ الله ابراهيم خليلاً » أي محبباً لا خلد في مودته لكمال خلته ،

والمراد بخلته لله أنه كان موالياً لأولياء الله ومعادياً لأعداء الله ، والمراد بخلته الله

تعالى له نصرته على من أراد به سوء كما أنقذه من نار النمرود وجعلها عليه برداً

وسلاماً وكان فعله بملك مصر حين رآه عن أهله وجعله إماماً للناس وقدوة لهم .

قال الزجاج : جائز أن يكون سمي خليل الله بأنه الذي أحبه الله بأن

اصطفاه محبة تامة كاملة ، وأحب الله هو محبة تامة كاملة .

وقيل : سمي خليلاً لأنه افتقر الى الله وتوكل عليه وانقطع بحوائجه إليه

وهو اختيار الفراء وأبي القاسم البلخي . وإنما خصه الله بهذا الاسم - وإن كان الخلق

كلهم فقراء الى رحمته - تزييفاً له بالنسبة إليه من حيث إنه فقير إليه لا يرجو لسد

خلته بسواه كما خص موسى بأنه كلم الله ، وعيسى بأنه روح الله ، ومحمد بأنه

حبيب الله .

وقيل : إنما سمي خليلاً لأنه سبحانه خصه بمالم يخص به غيره من إنزال

الوحي عليه وغير ذلك من خصائصه ، وإنما خصه من بين سائر الأنبياء بهذا الاسم

على المعنيين اللذين ذكرناهما وإن كان كل واحد من الأنبياء خليل الله في زمانه

لأنه سبحانه خصهم بالنبوة .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : قد اتخذ الله صاحبكم خليلاً - يعني نفسه - وهذا الوجه اختيار أبي علي الجبائي قال : وكلما تعبد الله به ابراهيم فقد تعبد به نبينا وزاده أشياء لم يتعبد بها ابراهيم .

ومما قيل في وجه خلّة ابراهيم ماروي في التفسير : أن ابراهيم كان يضيف الضيفان ويطعم المساكين ، وأن الناس أصابها جرب ، فارتحل ابراهيم الى خليل له بمصر يلتبس منه طعاماً لأهله ، فلم يصب ذلك عنده ، فلما قرب من أهله بمفازة ذات رمل لينة ملأ غرائره من ذلك الرمل لئلا يغم أهله برجوعه من غير ميرة ، فحوّل الله ما في غرائره دقيقاً ، فلما وصل الى أهله دخل البيت ونام استحياء منهم ففتحوا الغرائر وعجنوا من الدقيق وخبزوا وقدموا إليه طعاماً طيباً ، فسألهم من أين خبزوا ؟ قالوا : من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك المصري ، فقال : أما أنه من خليلي وليس بمصري ، فسماه الله سبحانه خليلاً . رواه علي بن ابراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام^(١) .

مقاله الفخر الرازي :

قال في تفسير هذه الآية : أعلم أنه تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الانسان مؤمناً شرح الايمان وبين فضله من وجهين : أحدهما : أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى .

والثاني : وهو أنه الدين الذي كان عليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب في دين الاسلام .

أما الوجه الأول : فاعلم أن دين الاسلام مبني على أمرين : الاعتقاد والعمل .

أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله : « أسلم وجهه » ، وذلك لأنّ الاسلام هو الانقياد والخضوع ، والوجه أحسن أعضاء الانسان ، فالانسان اذا عرف بقلبه ربه وأقرّ بربوبيته ومعبودية نفسه فقد أسلم وجهه لله .

وأما العمل فإليه الإشارة بقوله : « وهو محسن » ، ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات ، فتأمل في هذه اللفظة المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض .

وأيضاً فقوله تعالى : « أسلم وجهه لله » يفيد الحصر ، معناه أنه أسلم نفسه لله وما أسلم لغير الله ، وهذا تنبيه على أن كمال الايمان لا يحصل إلا عند تفويض جميع الامور الى الخالق وإظهار التبري من الحول والقوة .

وأيضاً ففيه تنبيه على فساد طريقة من استعان بغير الله ، فإنّ المشركين كانوا يستعينون بالأصنام ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، والدهرية والطبيعيون يستعينون بالأفلاك والكواكب والطبايع وغيرها ، واليهود كانوا يقولون في دفع عقاب الآخرة عنهم أنهم من أولاد الأنبياء ، والنصارى كانوا يقولون : ثالث ثلاثة ، فجميع الفرق قد استعانوا بغير الله .

وأما المعتزلة فهم في الحقيقة ما أسلمت وجوههم لله لأنهم يرون الطاعة الموجبة لثوابهم من أنفسهم والمعصية الموجبة لعقابهم من أنفسهم ، فهم في الحقيقة لا يرجون إلا أنفسهم ولا يخافون إلا أنفسهم .

وأما أهل السنة الذين فوضوا التدبير والتكوين والابداع والخلق الى الحق سبحانه وتعالى واعتقدوا أنه لا موجد ولا مؤثر إلا الله فهم الذين أسلموا وجوههم لله وعوّّلوا بالكلية على فضل الله وانقطع نظرهم عن كل شيء ماسوى الله .

وأما الوجه الثاني : في بيان فضيلة الاسلام وهو أن عهداً عليه الصلاة والسلام إنما دعا الخلق الى دين ابراهيم عليه السلام ، فلقد اشتهر عند كل الخلق أن ابراهيم

عَلَيْهِمَا مَا كَانَ يَدْعُو إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ: «إِنِّي بريء مما تشركون»،^(١) وما يدعو إلى عبادة فلك ولا طاعة كوكب ولا سجدة صنم ولا استعانة بطبيعة بل كان دينه الدعوة إلى الله والأعراض عن كل ماسوى الله .

ودعوة محمد ﷺ قد كان قريباً من شرع إبراهيم عليه السلام في الختان وفي الأهمال المتعلقة بالكعبة مثل الصلاة إليها والطواف بها والسعي والرمي والوقوف والحلق والكلمات العشر المذكورة في قوله: «وإذ ابتلى إبراهيم ربه»،^(٢)

ولما ثبت أن شرع محمد ﷺ كان قريباً من شرع إبراهيم ، ثم إن شرع إبراهيم مقبول عند الكل وذلك لأن العرب لا يفتخرون بشيء كافتخارهم بالانتساب إلى إبراهيم ، وأما اليهود والنصارى فلا شك في كونهم مفتخرين به ، وإذا ثبت هذا لزم أن يكون شرع محمد ﷺ مقبولا عند الكل .

ثم قال تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) في تعلق هذه الآية بما قبلها ، وفيه وجهان ، الأول: أن

إبراهيم عليه السلام لما بلغ في علو الدرجة في الدين أن اتخذه الله خليلاً كان جديراً بأن يتبع خلقه وطريقته.

والثاني: أنه لما ذكر ملة إبراهيم ووصفه بكونه حنيفاً ثم قال عقيبه «واتخذ

الله إبراهيم خليلاً» أشعر هذا بأنه سبحانه إنما اتخذه خليلاً لأنه كان عالماً بذلك الشرع آتياً بتلك التكليف ، ومما يؤكده هذا قوله: «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن» قال إني جاعلك للناس إماماً ، وهذا يدل على أنه سبحانه إنما جعله إماماً للخلق لأنه أتم تلك الكلمات .

وإذا ثبت هذا فنقول: لما دلت الآية على أن إبراهيم عليه السلام إنما كان بهذا

المنصب العالي وهو كونه خليلاً لله تعالى بسبب أنه كان عاملاً بتلك الشريعة كان

(١) هود: ٥٤ .

(٢) البقرة: ١٢٤ .

هذا تنبيهاً على أن من عمل بهذا الشرع لابد وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين ، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين . ثم قال بعد أسطر :

(المسألة الثانية) ذكروا في اشتقاق الخليل وجوهاً ، الأول : أن خليل الانسان هو الذي يدخل في خلال اموره وأسراره والذي دخل حبه في خلال أجزاء قلبه ، ولا شك أن ذلك هو الغاية في المحبة .

قيل : لما أطلع الله ابراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل، ودعا القوم مرة بعد اخرى الى توحيد الله ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس ، ومنعهم عن عبادة الأوثان ، ثم سلم نفسه للنيران وولده للمقرمان وماله للمضيفان ، جعله الله إماماً للخلق ورسولاً إليهم وبشره بأن الملك والنبوة في ذريته، فلهذه الاختصاصات سمّاه خليلاً لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لا يصل الخيرات والمنافع إليه. الوجه الثاني في اشتقاق اسم الخليل : أنه الذي يوافقك في خلالك .

أقول: روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: تخلّقوا بأخلاق الله، فيشبهه أن ابراهيم عليه السلام - لما بلغ في هذا الباب مبلغاً لم يبلغه أحد ممن تقدم - لاجرم خصّه الله بهذا الشريف .

الوجه الثالث: قال صاحب الكشاف: إن الخليل هو الذي يسايرك في طريقك من الخل وهو الطريق في الرمل . وهذا الوجه قريب من الوجه الثاني، أو يحمل ذلك على شدة طاعته لله وعدم تمرده في ظاهره وباطنه عن حكم الله كما أخبر الله عنه بقوله : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين »^(١).

الوجه الرابع : الخليل هو الذي يسد خللك كما تسد خلله. وهذا القول ضعيف لأن ابراهيم عليه السلام لما كان خليلاً مع الله امتنع أن يقال إنه يسد الخل، ومن هاهنا علمنا أنه لا يمكن تفسير الخليل بذلك .

أما المفسرون فقد ذكروا في سبب نزول هذا اللقب وجوهاً :

الأول : أنه لما صار الرمل الذي أتى به غلماناه دقيقاً قالت امرأته: هذان عند خليلك المصري ، فقال ابراهيم : بل هو من خليلي الله .

والثاني : قال شهر بن حوشب : هبط ملك في صورة رجل وذكر اسم الله بصوت رخيم شجي، فقال ابراهيم عليه السلام: اذكره مرة أخرى، فقال: لا أذكره مجاناً فقال : لك مالي كله . فذكره الملك بصوت أشجى من الأول، فقال : اذكره مرة ثالثة ولك أولادي ، فقال الملك : أبشر فإني ملك لأحتاج الى مالك وولدك وإنما كان المقصود امتحانك . فلما بذل المال والأولاد على سماع ذكر الله لاجرم اتخذه الله خليلاً .

الثالث : روى طاووس عن ابن عباس : أن جبريل والملائكة لما دخلوا على ابراهيم في صورة غلمان حسان الوجوه وظن الخليل أنهم أضياف وذبح لهم عجلأً سميناً وقرّب به إليهم وقال : كلوا على شرط أن تسموا الله في أوله وتحمدوه في آخره، فقال جبريل : أنت خليل الله ، فنزل هذا الوصف .

وأقول: فيه عندي وجه آخر وهو : أن جوهر الروح اذا كان مضيئاً مشرقاً علوياً قليل التعلق باللذات الجسمانية والأحوال الجسدانية ثم انضاف الى مثل هذا الجوهر المقدس الشريف أعمال تزيد صفاته عن الكدورات الجسمانية وأفكار تزيد استنارة بالمعارف القدسية والجلال الإلهية صار مثل هذا الانسان متوغلاً في عالم القدس والطهارة متبرئاً عن علائق الجسم والحس .

ثم لا يزال هذا الانسان يتزايد في هذه الأحوال الشريفة الى أن يصير بحيث لا يرى إلا الله ولا يسمع إلا الله ولا يتحرك إلا بالله ولا يسكن إلا بالله ولا يمشي إلا بالله، فكان نور جلال الله قد سرى في جميع قواه الجسمانية وتخلل فيها وغاص في جوهرها وتوغل في ماهياتها، فمثل هذا الانسان هو الموصوف حقاً بأنه خليل لما أنه تخللت محبة الله في جميع قواه ، وإليه الإشارة بقول النبي ﷺ في دعائه :

اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي عصبي نوراً^(١) .
ثم لما بين الله الدين الذي اختاره وارتضاه وفضله على جميع الأديان وأمرنا
بالاتصاف به والتمسك فيه ومن جملة هذا الدين الذي اختص به محمد وأمة وبيّن
لنا أن من جملة هذا الدين هو اتباع ملة إبراهيم بعد ذلك قال تعالى : « واتخذ
الله إبراهيم خليلاً » .

تأمل أيها المسلم بما فضلك الله به أن جعلك من أمة محمد ، وتأمل بما فضل
به محمد ﷺ أن جعل دينه أحسن الأديان كلها ، ومن جملة هذا الدين ملة إبراهيم
التي كان العمل بها سبباً لاتخاذ الله إبراهيم خليلاً ، فما ظنك بدين محمد الذي يكون
بعضه سبباً لصيرورة العامل به خليلاً لله .

فعليك أيها الراغب في القرب من الله ، أيها الطالب للدرجات الرفيعة ، أن
تعرف دين محمد بحقيقته وأن تعمل به بتمامه وكمالهِ ولا تقصر في المعرفة والعمل
حتى تكون من أبرار أمة محمد وحتى تكون مع محمد يوم القيامة .

قوله تعالى : ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل
شيء محيطاً (١٢٦) .

هذه الآية الشريفة تنبه العبد الغافل وتعلم المرء الجاهل بأن الله سبحانه
لم ينزل عالماً بجميع ما يفعله العباد من خير أو شر من الأفعال الظاهرة والخفية ،
وما تكون بالجوارح أو من قبيل النيات التي تكون في القلوب فإنه محيط بها ،
والمحيط بالشيء لا يخفى عليه ذلك الشيء بل يعلم بحقيقته ويعلم دقائقه وجزئياته .
إن العبد الذي يظهر للناس الاسلام وعمله يكون مخالفاً لما أمر به النبي
فإن الله عالم به غير خفي عليه ، وإن من اطلع على ما أمر به النبي فغيره وحرفه

وبدله فإن الله عالم به لأنه مالك للعبد ومالك لقلب العبد ، والمالك للشيء عالم بحقيقة ذلك الشيء ، وكل من أظهر للناس أنه قد أسلم وجهه لله واتبع ملة ابراهيم وهو مشافق للنبي في بعض ما أمر به فإنه مكشوف عند الله غير خفي عليه ، لأن ملة ابراهيم إنما يعرفها النبي بكمالها وتامها وهو قد أودعها عند من أودع عنده تأويل القرآن ، وهو الذي جعله عدلاً للقرآن وأمر أمته بالتمسك بهما ، فمن ادعى أنه تابع لملة ابراهيم وأنه يعرفها وهو مخالف لمن أمر النبي بالتمسك به فإن الله محيط به إحاطة تامة يعلم السبب الذي حمله على هذه المخالفة ويعلم غرض العبد من هذه المخالفة .

ماقاله الطبرسي :

قال في تفسيره : ثم يبين سبحانه أنما اتخذ ابراهيم خليلاً لطاعته ومساعدته الى رضاه لالحاجة منه سبحانه الى خلقه فقال: «ولله مافي السماوات ومافي الارض» مملكاً ومملكاً فهو مستغن عن جميع خلقه والخلق محتاجون إليه « وكان الله بكل شيء محيطاً » يعني لم يزل سبحانه عالماً بجميع ما يفعله عباده ، ومعنى المحيط بالشيء أنه العالم به من جميع وجوهه^(١) انتهى .

ماقاله الفخر الرازي :

ذكر في تفسيره لهذه الآية مسائل :

(المسألة الاولى) في تعلق هذه الآية بما قبلها ، وفيه وجوه :

الأول : أن يكون المعنى أنه لم يتخذ الله ابراهيم خليلاً لاحتياجه إليه في أمر من الامور كما تكون صلة الآدميين ، وكيف يعقل ذلك وله ملك السماوات والارض ! ومن كان كذلك فكيف يعقل أن يكون محتاجاً الى البشر الضعيف ! وإنما اتخذ خليلاً بمحض الفضل والاحسان والكرم ، ولأنه لما كان مخلصاً في

العبودية لاجرم خصه الله بهذا التشریف .

والحاصل : أن كونه خليلاً يوهم الجنسية، فهو سبحانه أزال وهم المجانسة والمشاكلة بهذا الكلام .

والثاني : أنه تعالى ذكر من أول السورة الى هذا الموضع أنواعاً كثيرة من الأمر والنهي والوعد والوعيد ، فبيّن هاهنا أنه إله المحدثات وموجد الكائنات والممكنات، ومن كان كذلك كان ملكاً مطاعاً، فوجب على كل عاقل أن يخضع لتكاليفه وأن ينقاد لأمره ونهيه .

الثالث : أنه تعالى لما ذكر الوعد والوعيد ولا يمكن الوفاء بهما إلا عند حصول أمرين ، أحدهما : القدرة التامة المتعلقة بجميع الكائنات والممكنات . والثاني : العلم التام المتعلق بجميع الجزئيات والكمليات حتى لا يشبهه عليه المطيع والعاصي والمحسن والمسيء، فدلّ على كمال قدرته بقوله : « ولله ما في السموات وما في الأرض » وعلى كمال علمه بقوله : « وكان الله بكل شيء محيطاً » .

الرابع : أنه سبحانه لما وصف إبراهيم بأنه خليله بيّن أنه مع هذه الخلّة عبداً له ، وذلك لأنه له ما في السموات وما في الأرض، ويجري هذا مجرى قوله « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ^(١) ومجى قوله : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون » ^(٢) يعني أن الملائكة مع كمالهم في صفة القدرة والقوة في صفة العلم والحكمة لم يستنكفوا عن عبودية الله فكيف يمكن أن يستنكف المسيح ﷺ مع ضعف بشريته عن عبودية الله! كذا هاهنا يعني إذا كان كل من في السموات والأرض ملكه في تسخير وفنائه إلهيته فكيف يعقل أن يقال إن اتخاذه الله إبراهيم ﷺ خليلاً يخرج عنه عبودية الله . وهذه الوجوه كلها حسنة متناسبة .

(المسألة الثانية) إنما قال : « ما في السموات وما في الأرض » ولم يقل « من »

(١) مريم : ٩٣ .

(٢) النساء : ١٧٢ .

لأنه ذهب مذهب الجنس والذي يعقل اذا ذكر واريد به الجنس ذكر به «ما» .
 (المسألة الثالثة) قوله تعالى : « وكان الله بكل شيء محيطاً » فيه وجهان ،
 أحدهما : المراد منه الاحاطة بالعلم . والثاني : المراد منه الاحاطة بالقدرة كما
 في قوله تعالى : « واخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها »^(١) .

قال القائلون بهذا القول : وليس لقائل أن يقول لمادل قوله « والله مافي
 السماوات ومافي الأرض » على كمال القدرة ، فلو حملنا قوله « وكان الله بكل شيء
 محيطاً » على كمال القدرة لزم التكرار ، وذلك لأننا نقول إن قوله : « لله مافي
 السماوات ومافي الأرض » لا يفيد ظاهره إلا كونه تعالى قادراً مالكا لكل مافي
 السماوات ومافي الأرض ، ولا يفيد كونه قادراً على ما يكون خارجاً عنهما ومغائراً
 لهما ، فلمّا قال : « وكان الله بكل شيء محيطاً » دلّ على كونه قادراً على ما لا
 نهاية له من المقدورات خارجاً عن هذه السماوات والأرض ، على أن سلسلة القضاء
 والقدر في جميع الكائنات والممكنات إنما تنقطع بإيجاده وتكوينه وإبداعه .
 فهذا تقرير هذا القول ، إلا أن القول الأول أحسن لما بيننا أن الالهية
 والوفاء بالوعد والوعيد إنما يحصل ويكمل بمجموع القدرة والعلم ، فلا بد من
 ذكرهما معاً . وإنما قدّم ذكر القدرة على ذكر العلم لما ثبت في علم الاصول
 أن العلم بالله هو العلم بكونه قادراً ، ثم بعد العلم بكونه قادراً يعلم كونه عالماً
 أن الفعل بحدوثه يدلّ على القدرة وبما فيه الاحكام والاتقان يدلّ على العلم ، ولا
 شك أن الأول مقدم على الثاني^(٢) انتهى .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره : ثم ذكر ما هو كالعلة لما سبق بقوله « والله مافي السماوات
 ومافي الأرض » أي أن كل مافي السماوات والأرض ملك له ومن خلقه مهما

(١) الفتح : ٢١ .

(٢) تفسير الرازي : ج ١ ص ٦٠ .

اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة خاضعة لأمره .
 « وكان الله بكل شيء محيطاً » ، إحاطة قهر وتسخير ، وإحاطة علم وتدير ،
 وإحاطة وجود ، لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ولا هي ابتدعت
 نفسها بل وجودها مستمدة من ذلك الوجود الأعلى ، فالوجود الالهي هو المحيط
 بكل موجود ، فوجب أن يخلص له الخلق ويتوجه إليه العباد .

وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد :

(١) بيان الدليل على أنه المستحق وحده لاسلام الوجه له والتوجه إليه
 في كل حال ، لأنه هو المالك لكل شيء وغيره لا يملك لنفسه شيئاً .
 (٢) نفي ما يتوهم في اتخاذ الله ابراهيم خليلاً من أن هناك شيئاً من المقاربة
 في حقيقة الذات والصفات .

(٣) التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها .
 إذ من له ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً فهو أكرم من وعد^(١) انتهى .

قوله تعالى : والله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا
 الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وان تكفروا
 فان لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً (١٣١) .

إن هذه الآية مذكورة في القرآن الكريم في مواضع عديدة ، وفي كل
 موضع تذكر إنما هي لأجل مناسبة الآيات التي قبلها أو التي بعدها ، والمعنى
 واحد في جميع المواضع ، وهو تنبيه وتذكير للعبد بأن جميع ما في السماوات وما
 في الأرض إنما وجد بأمر الله وأنه تحت تصرفه وفي قبضته ، فلا يعجزه أمر مما
 في السماوات وفي الأرض ، فكل شيء يرومه العبد المملوك لله ينبغي له أن يطلبه

من الله لأنه ملك الله، وكل شيء يصعب تحصيله ينبغي له أن يستعين بالله في تحصيله و كل شيء يريد أن يفعله العبد ينبغي له أن يحرز رضا الله في هذا الفعل، فعلى العبد العاقل أن يعرف معنى الآية ، وأن يجعل أفعاله وأقواله مطابقة لمعناها . ليكون عبداً مطيعاً لله ولا يكون عبداً آبقاً .

وأما المقصود من ذكرها في هذا المقام والمناسبة مع الآيات المتقدمة عليها فهو : أن الله سبحانه قد ذكر في الآيات السابقة بعض الأحكام المتعلقة بالزوجين وما يجب لأحدهما على الآخر ، وأنه يجب على كل واحد من الزوجين أن يكون عاملاً بأمر الله ، وأنه إذا وقع بينهما نزاع ينبغي للآخرين إصلاحهما وينبغي لهما أن يرضيا بالحق ويرجعا إليه، ثم لو لم يصطلحا ويتراضيا واختار كل منهما الفراق فافترقا فإن الله يغني كل واحد منهما من سعته ومن رزقه .

ثم ذكر في هذه الآية ما هو كالعلة لذلك الأمر الذي ذكره، أي أن الزوجين إذا افترقا ينبغي لهما أن يتكلا على الله في الحصول على زوج أحسن من الزوج المفارق ، وأن يطلبوا من الله سعة الرزق ، حيث إن الزواج يحتاج إلى مال ومالك المال هو الله لأنه مالك السماوات والأرض ، وينبغي لكل أحد أن يطلب الشيء من مالكة الحقيقي الذي خلقه والذي يقدر على التصرف به من سائر الوجوه كالإبقاء والاعدام وتقويته وضعفه . هذا لو فرض أن الطالب للشيء غير مملوك لذلك المالك ، أما إذا كان الطالب هو أيضاً مملوك لذلك المالك فهذا يؤكد ويؤيد أن يجعل طلبه من ذلك المالك وأن يخلص له في النية والعمل حتى يسعفه بقضاء حاجته .

وعلى ما ذكر يكون نجاح العبد في الدنيا والآخرة موقوفاً على إطاعة الله بالطريقة التي يريد بها الله وعدم عصيانه في شيء من الأشياء ، فالرجل العاقل الذي يريد النفع لنفسه الرجل الذي يحاذر على نفسه من الضرر بل من التلف بل من عذاب مستمر لا طاقة له به ، فليفتنم هذه الفرصة حتى يكون من الناجحين .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: عامل وجهاً واحداً يكفيك كل الوجوه^(١) وأن الله عز وجل - الخالق لكل والمالك لكل والقادر على كل شيء - قد نبه جميع الخلق الى هذا الأمر بقوله في وسط الآية: «ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واباكم أن اتقوا الله وان تكفروا فان الله مافي السماوات وما في الاض وكان الله غنياً حميداً» .

لقد كرر هذه الجملة مرتين وهي قوله: «لله مافي السماوات وما في الأرض» التي عرفت معناها، وجعل الوصية لنا بالتقوى وسط الجملتين زيادة في تنبيهنا، ويثبت لنا أن من لم يقبل هذه الوصية ولم يعمل بها فإنه كافر، والكافر إنما يضر نفسه لا يضر غيرها، لأن الله له مافي السماوات وما في الأرض لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين .

فالعبد الذي يقرأ هذه الآية التي تصف الله في أولها وآخرها بأنه مالك ما في السماوات وما في الأرض ويقرأ أو يسمع وصية الله له بالتقوى ثم لم يتق الله ويعصه فإن أحسن وصف يوصف به هذا العبد هو ما وصفه الله من الكفر حيث قال: «وان تكفروا فإن لله مافي السماوات ... الخ» .

ما قاله الطبرسي:

قال في بيان معنى الآية: ثم ذكر سبحانه بعد إخباره بإغناء كل واحد من الزوجين بعد الافتراق من سعة فضله ما يوجب الرغبة إليه في ابتغاء الخير منه فقال: «ولله مافي السماوات وما في الأرض» إخباراً عن كمال قدرته وسعة ملكه أي فإن من يملك مافي السماوات وما في الأرض لا يتعذر عليه الاغناء بعد الفرقه والايناس بعد الوحشة .

ثم ذكر الوصية بالتقوى فإن بها ينال خير الدنيا والآخرة فقال: «ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم، من اليهود والنصارى وغيرهم «وإيتاكم»

أي وأوصيناكم أيها المسلمون في كتابكم « أن اتقوا الله » وتقديره بأن اتقوا الله أي اتقوا عقابه باتقاء معاصيه ولا تخالفوا أمره ونهيه .

« وإن تكفروا ، أي تجحدوا وصيته إيتاكم أن تخالفوها » فإن لله مافي السماوات ومافي الأرض ، لا يضره كفرانكم وعصيانكم ، وهذه إشارة الى أن أمره جميع الامم بطاعته ونهيه إيتاهم عن معصيته ليس استكثاراً بهم عن قلة ولا استنصاراً بهم عن ذلة ولا استغناء بهم عن حاجة ، فإن له مافي السماوات ومافي الأرض ملكاً وممالكاً وخلقاً ، لا يلحقه العجز ولا يعتريه الضعف ولا تجوز عليه الحاجة ، وإنما أمرنا ونهاينا نعمة منه علينا ورحمة بنا .

« وكان الله غنياً » أي لم يزل سبحانه غير محتاج الى خلقه بل الخلاق كلهم محتاجون إليه .

« حميداً » أي مستوجباً للحمد عليكم بصنائه الحميدة إليكم وآلائه الجميلة لديكم ، فاستديموا ذلك باتقاء معاصيه والمسايرة الى طاعته فيما يأمركم به^(١) .

ماقاله الفخر الرازي

قال في تفسيره : وفي تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أنه تعالى لما ذكر أنه يغني كلاً من سعته وأنه واسع أشار الى ما هو كالتفسير لكونه واسعاً فقال : « والله مافي السماوات ومافي الأرض » يعني من كان كذلك فإنه لا بد وأن يكون واسع القدرة والعلم والجود والفضل والرحمة .

الثاني : أنه تعالى لما أمر بالعدل والاحسان الى اليتامى والمساكين بين أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه الى أعمال العباد لأن مالك السماوات والأرض كيف يعقل أن يكون محتاجاً الى عمل الانسان مع ما هو عليه من الضعف والقصور بل

إنما أمر بها رعاية لما هو الأحسن لهم في دنياهم و آخرهم .

ثم قال تعالى : « ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم وإيتاكم أن اتقوا الله » وفيه مسائل :

(المسألة الاولى) المراد بالآية أن الأمر بتقوى الله شريعة عامة لجميع الامم

لم يلحقها نسخ ولا تبديل بل هو وصية الله في الأولين والآخرين .

(المسألة الثانية) قوله « من قبلكم » فيه وجهان ، الأول : أنه متعلق بـ

« وصينا » يعني ولقد وصينا من قبلكم الذين اوتوا الكتاب . والثاني : أنه متعلق

بـ « اوتوا » يعني الذين اوتوا الكتاب من قبلكم وصيئناهم بذلك ، وقوله : « وإيتاكم »

بالعطف على « الذين اوتوا الكتاب » والكتاب اسم للجنس يتناول الكتب السماوية

والمراد اليهود والنصارى .

(المسألة الثالثة) قوله : « أن اتقوا الله » كقولك أمرتك الخير ، قال الكسائي :

يقال : أوصيتك أن افعل كذا وأن تفعل كذا ، ويقال : ألم آمرك أن ائتي زيدا ،

وأن تأتي زيدا ، قال تعالى : « أمرت أن أكون أول من أسلم »^(١) وقال : « إنما

أمرت أن أعبد رب هذه البلدة »^(٢) .

ثم قال تعالى : « وإن تكفروا فإن الله مافي السماوات ومافي الأرض وكان

الله غنياً حميداً » .

قوله : « وإن تكفروا » عطف على قوله : « اتقوا الله » والمعنى : أمرناهم

وآمركم بالتقوى وقلنا لهم ولكم : « إن تكفروا فإن الله مافي السماوات ومافي

الأرض » وفيه وجهان :

الأول : أنه تعالى خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها ، فحق

كل عاقل أن يكون منقاداً لأوامره ونواهيه يرجو ثوابه ويخاف عقابه .

(١) الانعام : ١٤ .

(٢) النمل : ٩١ .

والثاني : أنكم إن تكفروا فإن الله مافي سماواته ومافي أرضه من أصناف المخلوقات من يعبدده ويتقيه وكان مع ذلك غنياً عن خلقهم وعن عبادتهم ومستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد منهم فهو في ذاته محمود سواء حمدوه أم لم يحمده^(١).

مقاله المراغي :

قال العلامة المراغي في بيان المعنى الجملي للآية : بعد أن أمر الله سبحانه بالعدل والاحسان الى اليتامى والمساكين بيّن أنه ماأمر بهذه الأشياء لاحتياجه الى أعمال العباد لأن كل مافي السماوات والأرض ملكه ، فهو مستغن عنهم وقادر على إثابتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصلحتهم ، بل ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحمّلهم على العمل بها والوقوف عند حدودها .

الايضاح : « والله مافي السماوات ومافي الأرض ، خلقاً وملكاً فهو وحده مدبر الأكوان فلايتعذر عليه الاغناء بعد الفقر ، ولا اليناس بعد الوحشة الى نحو هذا مما ينبىء بعظيم القدرة وكمال الجود والاحسان .

« ولقد وصّينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم وإيتاكم أن اتقوا الله ، أي ولقد أمرنا من قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الامم كما أمرناكم بتقوى الله في إقامة سننه وإقامة شريعته ، فبالاولى ترقى معارفكم ، وبالثانية تزكو نفوسكم وتنظم مصالحكم الدينية والدنيوية .

« وإن تكفروا فإن الله مافي السماوات وما في الأرض ، أي وإن تكفروا أنعم الله وتجدوا فضله وإحسانه فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملوك لا يضره كفركم ومعاصيكم ، كما لا ينفعه شكركم وتقواكم وقد وصّاكم وإيتاهم بهما لرحمته لالحاجته .

ثم زاد ما سلف تو كيداً فقال :

« وكان الله غنياً حميداً » أي وكان الله غنياً عن كل شيء بذاته محموداً بذاته وكمال صفاته فهو لا يحتاج الى شكركم لتكميل نفسه « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »^(١).

وفي الحديث القدسي: يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إثابها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. رواه مسلم^(٢).

قوله تعالى : والله ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله

وكيلاً (١٣٢).

هذه هي المرة الثالثة التي كررت - في هذه الآية والآية التي سبقتها - جملة «لله ما في السماوات وما في الارض». ففي المرة الاولى ذكر بعدها الوصية للأولين والآخرين بالتقوى ، وفي المرة الثانية ذكر بعدها صفتين من صفات الله لتعليم الجاهل وتنبيه الغافل وهما في قوله : «وكان الله غنياً حميداً» ، وفي المرة الثالثة ذكر بعدها صفة من صفات الله تكفي عن كل الصفات وهي قوله : « وكفى بالله

(١) الاسراء : ٤٤ .

(٢) تفسير المراغي : ج ٥ ص ١٧٥ .

و«كيلاً» حيث إنه لم يقل و«كيلاً» في أمر خاص وإنما هو و«كيل مطلق أي في كل أمر من الأمور لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، وكل شيء من الأشياء تحتوي عليه السماوات والأرض فهو و«كيل على كل شيء» «وسع كرسية السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما»^(١) ويشمل الوصف أيضاً ما هو خارج عما في السماوات والأرض كالعرش والكرسي وغيرهما .

وهذا الذي يكون بهذه القوة وهذه القدرة وهذه الحكمة وهذا العز^٢ ينبغي للعبد الضعيف العاجز أن يتخذ و«كيلاً»، فلو تركه وتوكل على عبد ضعيف مثله كان سليب العقل عديم المعرفة، فإن^٣ الوكيل على الشيء هو المتعهد لحفظ ذلك الشيء، فإذا كان الشيء مخلوقاً له لا يمكن أن يخرج عن إرادته، فلا يفسد أو يخرب أو يموت أو يطغى أو يتغير من حال إلى حال إلا بإذنه وإرادته .

إن^٤ كل أمر من الأمور إذا أراد العبد أن يحصله إما أن يكون هذا الأمر داخلياً تحت قدرة البشر أو لا يكون، فإذا لم يكن داخلياً في قدرة البشر فلا بد^٥ من طلبه من الله والاستعانة عليه بعد إيجاد مقدماته بالله تعالى، وأما إذا كان داخلياً تحت قدرة البشر فتارة^٦ يكون كل أحد قادراً عليه كالأكل والشرب والمشي والنوم وأمثال ذلك، لهذا كل أحد يهيئ لنفسه ما يحتاج، وتارة^٧ أخرى لا يكون كل أحد قادراً على تحصيله كتحصيل الحقوق المغتصبة بواسطة المحاكم المدنية، فمثل هذا يوكل المرء أحد الرجال المتخرجين من كلية الحقوق حتى يحصل له حقه، والكلام في الوكيل الذي يتعهد لموكله، والوكيل هو الذي قد اُصطلح عليه في هذا العصر بالمحامى، فإنه يعتبر فيه أن يكون متصفاً بصفات تؤهله للوكالة بتحصيل الحق^٨ لصاحبه .

شروط المحامى:

الأول : أن يكون عالماً بجميع القوانين مستحضراً لها بحيث إذا ألقى

عليه خصمه أو وكيل خصمه سؤالاً يوجب سقوط حقه يتمكن من الإجابة عليه، وإلا فسوف يكون الحكم عليه ولا يحصل على نتيجة حسنة بل يكبد دفع مصارف المحكمة . وإذا كان عالماً بالقوانين يلتفت إلى كل حيلة ومكر يقوم بهما الخصم ويعرف كل أمر باطل مصوراً بصورة الحق كما فعل عمرو بن العاص مع أبي موسى الأشعري .

الأمر الثاني من الأمور المعتبرة في الوكيل المحامي : أن يكون قوي القلب شجاعاً لا يخاف من خصمه إذا كان أقوى منه وإذا هددته وتوعده، ويكون جريئاً على التصريح بالحق، فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء، أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به .

الثالث من شروط المحامي : الفصاحة وطلاقة اللسان بحيث يتمكن على بيان ما يريد بأحسن بيان وأوضحه ليتجلى للمسامع مراده ، فليس كل من يطلع على مواقع التلبس يمكنه بيان ذلك ما لم يكن ذلق اللسان فصيح البيان.

الأمر الرابع من شروط المحامي: أن يكون ثقة، صاحب ضمير طيب وقلب طاهر ، ونفس زكية وسريرة تزينة عن كل عيب، بحيث يبذل جهده لموكله ويتعب نفسه في تحصيل حقه وغلبة خصمه . وهذا الأمر الرابع هو أهم الأمور كلها والمقدم عليها رتبة لأن الوكيل إذا لم يكن طاهر القلب نقي النفس لا يهمله أمر موكله ولا يبالي به سواء أظفر به خصمه أم لم يظفر به، وسواء غدر حقه أم لم يغدر .

الأمر الخامس من شروط المحامي : أن يكون غني النفس لا يغلب عليه الطمع ، لأنه إذا غلب عليه الطمع فتعامل مع أحد الخصمين أو تعامل مع صاحب الحق على أجر معلوم قدره عشرة أو مائة ثم جاءه الطرف الآخر ودفع له أكثر مما دفع الأول رفض هذا المحامي الطمع الأول وتوكل عن الثاني ، وهذا الفعل لا يفعله غيور وصاحب نفس أبيّة ، أما ذلك المحامي الذي يرتشي وينخون موكله

فإنه خارج عن حدّ البشرية وداخل في نوع البهيمية، فليعرف نفسه قبل أن يعرفه الناس .

فاذا أراد أحد أن يتخذ و كياً ليقوم بتنفيذ بعض مطالبه المتعلقة بالدوائر الرسمية أو غير الرسمية فليتخذ من توفرت فيه هذه الشروط الخمسة المتقدم ذكرها ، ولاأظنّ أنه يجد مثل هذا ، ولكن اذا وجد رجلاً ذا نفس طيبة وضمير طاهر لا يخونه ولا يكون عوناً عليه فهو المطلوب ، فليتخذه و كياً .

اذا عرفت ما تقدم فينبغي للمؤمن المعتقد بصفات الله الثبوتية والسلبية أن لا يتخذ و كياً غير الله فإنه هو الخالق لما في السماوات وما في الأرض من علم ومن قوة ومن غنى ومن فصاحة وبلاغة ، وهو العالم بالسرائر والضمائر ، وهو العالم بمصالح العباد ، ولا يفوته شيء ولا يشغله شيء عن شيء .

ماقاله الطبرسي :

قال في مجمعه : ثم قال : « ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله و كياً » أي حافظاً لجميعه لا يعزب عنه علم شيء منه ولا يؤده حفظه وتديره ولا يحتاج مع سعة ملكه الى غيره .

وأما وجه التكرار لقوله : « ولله ما في السماوات وما في الأرض » في الآيتين ثلاث مرات فقد قيل : إنه للتأكيد والتذكير .

وقيل : إنه للإبانة عن علل ثلاث :

أحدها : بيان إيجاب طاعته فيما قضى به لأنّ له ملك السماوات والأرض .

الثاني : بيان غناه عن خلقه وحاجتهم إليه واستحقاقه الحمد على النعم لأنّ

له ما في السماوات وما في الأرض .

الثالث : بيان حفظه إياهم وتديره لهم لأنّ له ملك السماوات والأرض^(١)

انتهى .

ماقاله الفخر الرازي:

قال في تفسيره الكبير : إن قيل ما الفائدة في تكرير قوله : « والله ما في السماوات وما في الأرض » ١٤ .

قلنا : إنه تعالى ذكر هذه الكلمات في هذه الآية ثلاث مرات لتقرير ثلاثة أمور :

فأولها : أنه تعالى قال : « وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته »^(١) والمراد منه كونه تعالى جواداً متفضلاً فذكر عقيب قوله : « والله ما في السماوات وما في الأرض » والغرض تقرير كونه واسع الجود والكرم .

وثانيها : قال « وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض » والمراد منه أنه تعالى منزّه عن طاعات المطيعين وذنوب المذنبين فلا يزداد جلاله بالطاعات ولا ينقص بالمعاصي والسيئات فذكر عقيب قوله : « فإن الله ما في السماوات وما في الأرض » والغرض منه : تقرير كونه غنياً لذاته عن الكل^(٢).

ماقاله المراغي :

قال العلامة المراغي في بيان المعنى الجملي للآية : ثم أعاد ما سلف بزيادة التوكيد فقال :

« والله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيباً » أي له سبحانه ما فيهما خلقاً وملكاً يتصرف فيهما كيف ما شاء إبداعاً وإعداماً وإحياء وإماتة^(٣) وكفى به قيسماً وكفياً ، يوكل به أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم^(٣).

(١) النساء : ١٣٠ .

(٢) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٧٠ .

(٣) تفسير المراغي : ج ٥ ص ١٧٦ .

قوله تعالى : ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً (١٣٣) .

إن الله سبحانه أوصانا بالتقوى كما وصى بها قبلنا الامم السالفة، ومعنى التقوى هو الاتقاء من عذابه وعقابه ، و كيفية الاتقاء أن يبتعد الانسان عن كل أمر نهاه الله عنه وتوعد فاعله بالعقاب عليه ، ويثبت لنا : أن من لم يعمل بهذه الوصية وكان مخالفاً لها فهو كافر .

ثم يبين لنا: أنه هو المالك للسموات والأرض وما فيهما والخلق كلهم على وجه الأرض وهم عبيد لله، وقد كرر هذا الأمر ثلاث مرات ليعرف العبد أنه مخلوق لله مملوك له ، والخالق المالك يمكنه إعدام مخلوقه في أسرع وقت .

وقد يبين الله لنا في هذه الآية ما فيه وعيد عظيم وهو : أنه اذا لم يعمل العباد بهذه الوصية - وهي تقوى الله - وعصوه وخالفوا أمره وأصروا على ذلك ولم يتوبوا ولم يستغفروا فإنه قد يشاء ويختار إعدامهم وإفناءهم وإزهابهم من على وجه الأرض الى بطنها وجوفها ، ثم يخلق خلقاً آخر هم أسمع لوحيته منا وأطوع لأمره، فإنه قادر على هذا التبديل والتغيير وإفناء الموجودين وإيجاد المعدمين، فقد عرفتم أنه هو المالك لما في السموات والأرض وأنتم من جملة من في الأرض.

ماقاله الطبرسي:

قال في مجمل في بيان معنى الآية : لما ذكر سبحانه غناه عن الخلق بأن له ملك السموات والأرض عقب ذلك بذكر كمال قدرته على خلقه ، وأن له الإهلاك والانجاء والاستبدال بعد الافناء فقال : « ان يشأ يذهبكم » يعني : إن يشأ الله يهلككم « أيها الناس » ويفنكم ، وقيل : فيه محذوف أي إن يشأ الله أن يذهبكم يذهبكم أيها الناس « ويأت بآخرين » أي يقوم آخريين غيركم

ينصرون نبيه ويؤازرنه .

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية ضرب النبي ﷺ يده على ظهر سلمان وقال:
هم قوم هذا - يعني عجم الفرس - .

« وكان الله على ذلك قديراً » أي لم يزل سبحانه ولا يزال قادراً على
الابدال والافناء والاعادة^(١) .

ما قاله الفخر الرازي:

قال في تفسيره الكبير في بيان المراد من الآية : إنه تعالى قادر على الافناء
والايجاد ، فإن عصيتموه فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية ، وعلى أن يوجد
قوماً آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه ، فالغرض هاهنا تقدير كونه سبحانه
وتعالى قادراً على جميع المقدورات .

وإذا كان الدليل الواحد دليلاً على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك
الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات ، ثم يذكره مرة أخرى ليستدل به
على الثاني ، ثم يذكره ثالثاً ليستدل به على المدلول الثالث ، وهذه الاعادة أحسن
وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة ، لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر
في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول ، فكان العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى
فظهر أن هذا التكرير في غاية الحسن .

وأيضاً فإذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى
من صفات جلال الله تنبه الذهن حينئذ لكون تخليق السماوات والأرض دالاً
على أسرار شريفة ومطالب جليلة ، فعند ذلك يجتهد الانسان في التفكير فيها
والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى .

ولما كان الغرض الكلي من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام عن
الاشتغال بغير الله الى الاستغراق في معرفة الله وكان هذا التكرير مما يفيد حصول

هذا المطلوب ويؤكد كده لاجرم كان في غاية الحسن والكمال ...

وقوله : « وكان الله على ذلك قديراً ، معناه أنه تعالى لم يزل ولا يزال موصوفاً بالقدرة على جميع المقدورات ، فإن قدرته على الأشياء لو كانت حادثة لافتقر حدوث تلك القدرة الى قدرة اخرى ولزم التسلسل^(١) .

ماقاله المراعى

قال في تفسيره للآية : « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، أي إن يرد إفناءكم واستئصالكم من الوجود وإيجاد قوم آخرين من البشر يحلون محلكم في الحكم والتصرف فهو قادر على ذلك ، لأن كل ما في السماوات والأرض فهو تحت قبضته وخاضع لسلطانه .

والخلاصة : إن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غذاء عن طاعتكم ، ولأن مشيئته لم تتعلق بهذا الافناء لحكم ومصالح أرادها سبحانه لا لعجز عن ذلك ، تعالى الله علواً كبيراً .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز^(٢) » وقوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم^(٣) » .

وفي هذه الآيات تهديد للمشركين الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقاومون دعوته ، وتنبيه للناس الى التأمل في سنن الله التي جرت في حياة الامم وموتها ، وأن هذه السنن اذا تعلق بها المشيئة وقعت لامحالة .

« وكان الله على ذلك قديراً ، أي وكان الله قديراً على ذلك الافناء وإيجاد

(١) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٧١ .

(٢) ابراهيم : ١٩ .

(٣) محمد : ٣٨ .

خلق آخر إذ بيده ملكوت كل شيء لكنه لحكم يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك^(١) انتهى .

ولقد انكشف للقاريء من الآية الشريفة ومن تفسيرها أن العباد إذا أمرهم الله بأمر فعصوه ولم يمتثلوا أمره فإنهم يستحقون الافناء والابادة ولكن إرادة الله ومشيته لم تتعلق بهذه الابادة أي إبادة مجموع أهل الأرض ، ولكن ينبغي للعاقل أن يلتفت الى هذه الحوادث التي تحدث في هذه العصور من الثورات الكثيرة والمؤامرات وقتل الكثيرين من البشر .

هذه كلها من أجل كثرة المعاصي ومخالفة أوامر الله ، فإن الافناء العام لم يرد الله ولم تتعلق مشيته به ، أما الافناء الخاص الذي يعم المئات والالوف أو مئات الالوف فإنه متكرر الوقوع لا تخلو منه سنة أو شهر ، فينبغي للمعبد أن يلتفت الى نفسه ولا يحشرها مع هؤلاء الذين يخالفون الله ويخرجون من دين الاسلام بأعمالهم المحرمة المنافية للاسلام ، فإن الدخول فيها خسران الدنيا والآخرة ، كل ذلك طمعاً في الدنيا وتكالباً عليها ، وقد يحوز الانسان الواحد آلافاً من الدنانير وقد تبلغ الملايين ، فما تمضي عليه مدة من الزمن حتى تسلب منه أو يتركها ويمضي سريعاً الى جهنم لأنه سلبها من الناس وقتل على سلبها كثيراً من النفوس المحرمة ، فإن المال الذي يجمعه المرء من غير الوجه المباح ليس له حق تملكه ولا يجوز له الأكل والشرب منه ولا سائر التصرف .

وقد نبهنا الله تعالى في الآية التي بعدها في قوله تعالى :

من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة
وكان الله سميعاً بصيراً (١٣٤) .

إن الله بيّن لنا في آيات كثيرة من القرآن بأنه خلق مع الدنيا آخرة ،
وبيّن لنا أن الدنيا زائلة والآخرة باقية ، وبيّن لنا أن المرء في الآخرة دائر أمره
بين طريقين : إما طريق الجنة وإما طريق النار ، وأن طريق الجنة إنما يؤذن
له في سلوكها إذا طلبها وهو في الدنيا وعمل لها العمل الذي عرفوه به وهو إطاعة
الله ورسوله ، وأما الذي يترك العمل لتحصيل طريق الجنة ويكون عمله في الدنيا
محضاً للدنيا وحدها فإنه لا يمكنه السير في طريق الجنة ، هذا كله مذكور في
الآيات القرآنية .

وقد ذكر الله لنا قبل هذه الآية بأنه مالك السماوات والأرض وكررها
علينا ثلاث مرات ، وفي هذه الآية بيّن لنا أمراً عقلياً مبنياً على حساب واضح
جلي وهو : أن الإنسان إذا كان مسلماً أو كان معتقداً بأن الدنيا والآخرة بيد الله
وتحت قدرته وتصرفه لأنه هو الخالق لهما ، وخالق الشيء قادر على التصرف فيه بكل
وجه ، فهذا الذي يعرف أن الدنيا والآخرة بيد الله لا ينبغي له بموجب الحكم
العقلي أن تكون أعماله كلها من المعاملات والعبادات لأجل الدنيا وحدها ولا يعمل
شيئاً لأجل الآخرة ، فإنه لو أتى بالعبادة من صلاة وجهاد وحج وغير ذلك من
العبادات لأجل أن يحصل على الأموال الدنيوية فهو غير مؤمن بالله وبوعده ووعيده
وإلا لو كان مؤمناً بالله ومعتقداً بأن الأمور كلها بيد الله وأن الأرزاق مقسمة من
قبل الله وأن الله متعهد لجميع عباده بالرزق لما كان بهذه الدرجة من الانهماك
والانغماس فيها .

إن الله عز وجل يقول لمن يطلب الجزاء الدنيوي من جميع أعماله : إن
الجزاء الدنيوي إنما هو بيد الله وعند الله فلا يمكنك أن تحصل على شيء منه إلا
بإذن الله وبتقديره وقضائه وإن يده أيضاً ثواب الآخرة مع ثواب الدنيا ، فلو
كنت عاقلاً مفكراً عارفاً بالحساب كان ينبغي لك أن تطلب الثواب الآخروي من
أعمالك ، وأما الدنيا فإن الله متكفل بها ضامن لها وهي حاصلة على كل حال ،

وإنك أيها الطالب للدنيا قد عكست الأمر فطلبت الدنيا المضمونة فلا يصيبك منها إلا ما قدر لك وخسرت الآخرة فلا تحصل على شيء منها .

قوله تعالى : «وكان الله سميعاً بصيراً» هذا إنذار عظيم لطالب الدنيا والمعرض عن الآخرة ، فإنه يأتي بأعمال الآخرة أمام الناس مظهراً لهم أنه يعمل للآخرة ليصيب من دنياهم ما أمكن من غنائم الحرب ومن غيرها ، وقد غفل أو تغافل بأن الله يسمع وسادس صدره ويبصر ليثته المطوية في قلبه ويعلم سريره الخبيثة ، فهو وإن أخفاها على الناس فهي لا تخفى على الله .

ثم هذا الذي يطلب بأعماله ثواب الدنيا إما أن يكون منافقاً يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، وإما أن يكون في غاية من الجهل والغفلة من معنى الاسلام والايمان ويظن أنه قول باللسان ليس وراءه شيء .

وقد وردت آيات وأخبار كثيرة في ذم الدنيا وذم من يطلبها طلباً حثيثاً وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة وأنها جيفة وطالبها الكلاب ، وأنها بمنزلة قنطرة يعبر عليها .

فقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه وشتت أمره ولم يزل من الدنيا إلا ما قسم له ، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله تعالى الغنى في قلبه وجمع له أمره^(١) . وعنه عليه السلام قال : من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشد لحسرتة عند فراقها^(٢) . وعنه عليه السلام قال : رأس كل خطيئة حب الدنيا^(٣) .

وقال الامام الحسن العسكري عليه السلام : لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض^(٤) .

(١) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ١٧ ب ١٢٢ ح ٦ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ١٩ ب ١٢٢ ح ٨ .

(٣) الكافي : ج ٢ ص ٣١٥ ح ١ .

(٤) تحف العقول : ص ٤٨٩ طبعة مؤسسة النشر الاسلامي - قم .

ولا يخفى أن المقصود من الدنيا هي المدة التي تكون قبل الموت ، فالمراد من إرادة نوابها في الآية ومن حبها والاشتغال بها في الأحاديث هو أن يصرف الانسان أوقاته وأعماله في تحصيلها واكتسابها ، ويكون منهمكاً في جلب المادة إليه بحيث لا يعمل للآخرة شيئاً ، وقد وصفت الدنيا بأوصاف كثيرة كلها توضح للناس أن الانغماس فيها والتوغل بها شيء مذموم يوجب الهلاك للانسان ويجب على العاقل تركه .

قال الله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١) .

وقال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » (٢) .

وقال تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » (٣) .

وقال تعالى : « اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٤) .

فقد وصف الله تعالى الدنيا في هذه الآيات بأنها لهو ولعب ، وجعل الذي يختارها ويقدمها على الآخرة غير عاقل كما في الآية الاولى حيث أخبر أن الدار الآخرة هي خير من الدنيا ، والعاقل ينبغي له أن يقدم الآخرة على الدنيا ، فاذا

(١) الانعام : ٣٢ .

(٢) النكبات : ٦٤ .

(٣) محمد : ٣٦ .

(٤) الحديد : ٢٠ .

عكس الأمر فهو غير عاقل .

وفي الآية الثانية : وصف الدنيا باللعب واللهو ووصف الآخرة بأنها دار الحيوان ، أي الحياة الحقيقية الدائمة .

والإنسان إذا علم علماً قطعياً بإخبار الله أن الدنيا زائلة فانية ناقصة وأن الآخرة باقية دائمة تامة النعم من جميع الجهات فلا ينبغي له تقديم الزائل على الباقي والمنقطع على الدائم والناقص على الكامل لأن هذا لا يفعله إلا غير العالم بالحوال ، ومن علم بالأمر وقدم المفضل على الفاضل فكأنه غير عالم وكأنه من الجاهلين ولذا قال تعالى : « لو كانوا يعلمون ، فقد أنزلهم منزلة من لا يعلم .
وأما الآية الثالثة : فقد وصف الدنيا باللعب واللهو ثم ذكر لنا أنه إذا آمنا به واتقينا فإنه يعطينا أجراً في الآخرة ولا يأخذ منا أموالنا التي جعلها في أيدينا وهذا أمر يحكم العقل بوجوب المصير إليه واختياره على غيره ، فمن تركه وصار إلى غيره فهو غير عاقل .

وأما الآية الرابعة : فقد وصف فيها الدنيا باللعب واللهو والزينة وجعل عاقبتها ومآلها كالنبات الذي يكون آخر أمره حطاماً ولا يستفاد من ثمره .
هذه هي عاقبة الدنيا ، أما الآخرة فقد جعل نتيجتها مرددة ودائرة بين أمرين : إما مغفرة من الله ورضوان ، وإما عذاب شديد ، فمن اختار ثواب الدنيا فحسب يكون نصيبه في الآخرة العذاب الشديد ، ومن عمل للآخرة عملها ولم يجعل الدنيا وحدها ثواباً له بل كان من المؤمنين المتقين يحصل في الآخرة على مغفرة الله ورضوانه .

مقاله الدكتور زكي مبارك :

قال في كتابه « التصوف في الاسلام » : هناك كتاب نفيس للطرطوشي اسمه « سراج الملوك » وهو يفيض بأخبار الزهاد والنساك وما يجب أن يطلع عليه من

يحرصون على صفاء القلوب ، وقد جاء فيه أن* وهب بن منبه قال : صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيئاً فوجده مشغولاً عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفتر ، ثم التفت إليه في اليوم السابع فقال : يا هذا قد علمت ما تريد ، حب* الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير ، والتوفيق نتاج كل خير ، فاحذر رأس كل خطيئة ، وارغب في رأس كل خير ، وتضرع الى ربك أن يهب لك نتاج كل خير ، قال : فكيف أعرف ذلك ؟ قال : كان جدي رجلاً من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء: شبهها بالماء المالح يغر* ولا يروي ويضر* ولا ينفع ، وبسحاب الصيف يغر* ولا ينفع ، وبظل الغمام يغر* ويخذل ، وبزهر الربيع ينضر ثم يصفر فتراه هشيماً ، وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فاذا استيقظ لم يكن في يده إلا الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسم* الزعاف يغر* ويقتل. فتدبرت هذه الأحرف سبعين سنة ثم زدت حرفاً واحداً فشبهتها بالغول التي تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها^(١) انتهى .

وروي عن الصادق عليه السلام قال: في ما ناجى الله به موسى عليه السلام: يا موسى لا تر كن الى الدنيا ركون الظالمين وركون من اتخذها أباً وأماً - الى أن قال:- واعلم أن* كل فتنة بدؤها حب* الدنيا ، ولا تغتبط أحداً بكثرة المال فإن* كثرة المال تكثر الذنوب^(٢).

وعنه عليه السلام قال : إن* في كتاب علي صلوات الله عليه: إنما مثل الدنيا كمثل الحية ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع يحذرها الرجل العاقل ويهوى إليها الصبي الجاهل^(٣) .

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام الى بعض أصحابه : فارفض الدنيا فإن* حب*

(١) التصوف في الاسلام : ج ١ ص ٢٣٨ طبع دار الجيل - بيروت .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ٧٣ ب ١٢٢ ح ٣٧٢ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ٧٥ ب ١٢٢ ح ٣٨٨ .

الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله^(٢).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أحب دنياه أضرب بآخرته^(٣).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله جل جلاله أوحى إلى الدنيا أن أتبعي من خدمك وأخدميني من رفضك^(٤).

إن كلمات النبي والأئمة عليهم السلام والحكماء والعقلاء في ذم الدنيا كثيرة جداً لا يمكن إحصاؤها، ويكفي لمن يعتقد بوجود الخالق وقدرته هذه الآية التي نحن في صدد تفسيرها وهي قوله: «من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والاخرة وكان الله سميعاً بصيراً».

إن الاعتقاد باليوم الآخر وهو يوم الجزاء يحتم على العاقل أن لا يحض نفسه ويمحضها للدنيا فقط فإنه لا يحتاج من الدنيا إلا أن يقضي أيام حياته فيها، وإن كان يريد قضاءها بترف وراحة فهذا لا يقتضي أن يرفع يده عن الآخرة ويغض النظر عنها، فإن الذي يحض نفسه بالدنيا ويرضى بها جزاء وثواباً ولم يفكر أو يدبر أن يهيئ لآخرته شيئاً يقدم عليه إذا انتقل من هنا إلى هناك، ليس يخاف عليه أن يكون كثير المال فقط فيتصف بمفاسد كثرة المال وإنما هو يفقد جميع الخصال الطيبة الحسنة ويتصف بجميع الصفات الرذيلة الخبيثة، فلا يراعي حقوق الناس ولا يؤدي الأمانة، ولا يعين الضعيف ولا يشهد بالحق ولا يحكم بالعدل ولا يفعل شيئاً مما يريد الله، ولذا نرى أن الآية التي بعد هذه الآية ترشدنا إلى الصفات الجمالية الحسنة وتدلنا على ما يريد الله منا من العدل والقسط فقال تعالى:

(١) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ٧٥ ب ١٢٢ ح ٣٩ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ٧٩ ب ١٢٢ ح ٤٠ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ٨١ ب ١٢٢ ح ٤٣ .

(٤) بحار الانوار : ج ٧٣ ص ٨٧ ب ١٢٢ ح ٥١ .

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً (١٣٥) .

القسط هو العدل والقوام بالقسط هو الملازم له الذي لا ينحرف عنه، وأن الله قد وجه الخطاب في هذه الآية إلى المؤمنين فناداهم ثم أمرهم أمراً حتمياً دالاً على الوجوب بقوله: «كونوا». فيلزم على كل مؤمن أن يمثل هذا الأمر ولا يخالفه، وإلا فقد أخل بإيمانه .

فيكون معنى الآية أن من شروط المؤمن ومن صفاته أن يكون ملازماً للعدل في جميع أحواله وأزمائه، لا يحول ولا يميل طرفه عين أبداً، فإن الميل لأحد الطرفين وإن كان قليلاً يخل به ويخرجه عن العدالة مع أنه أمرنا أن نكون قوامين بها بصيغة المبالغة، أي مستوفين للعدل بتمام معناه وبتمام الدقة، أي عدلاً ليس فيه نقص ولا خلل ولا عيب، أي ندوليه عنايتنا بحيث نجعله صفة راسخة في نفوسنا وصدورنا ولا يخطر ببالنا مخالفته وفعل ضده، هكذا أراد الله من المؤمنين وأمرهم به جميعاً، غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، حاكمهم ومحكومهم، رئيسهم ومرؤوسهم، سلاطانهم ورعيتههم . وهذا الأمر - القيام بالقسط - أمر مطلق يعم جميع الأمور المتعلقة بالنفس ومع الناس، فيعم المعاملات والمحاكمات والقضاء ومعاشرة النساء وتربية الأهل والأولاد وغير ذلك .

وأول شيء يتناول به الأمر وأول طبقة ينطبق عليها الأمر هي طبقة الحكام الذين تكون مرافعات الناس كلها عندهم، فلو أردنا أن نشرح الآية ونوجه لكل طبقة نداءً خاصاً فإن أول من يسبق إلى الذهن من الناس هم طبقة الحكام

فيكون الشرح والتفصيل هكذا :

يا أيها الحكّام الذين آمنوا بالله ورسوله والقرآن «كونوا قوامين بالقسط» ولا تظنّ أنّ الحاكم هو الذي ينظر في المرافعات وهو القاضي فحسب وإنما الوزير حاكم، والرئيس حاكم، والمالك حاكم، وأمنال هؤلاء كلهم حكّاماً. ولا بأس بذكر كلمات بعض العلماء مع بعض الحكّام لعلّه ينتفع به حكّام هذا العصر .

نصيحة الأوزاعي للمنصور :

نقل أبو حامد الغزالي قصة استدعاء المنصور للأوزاعي فقال : عن الأوزاعي عبدالرحمان بن عمرو قال : بعث إليّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته فلما وصلت إليه وسلّمت عليه بالخلافة ردّ عليّ واستجلسني ثم قال لي : ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي ؟ قال : قلت : وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والافتباس منكم ، قال : فقلت : فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئاً مما أقول لك ، قال : وكيف أجهل وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمتك له ؟ قال : قلت : أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به ، فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فأنهزم المنصور وقال : هذا مجلس منوبة لا مجلس عقوبة ، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام ، فقلت يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله ﷺ : أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيفت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كان حجة من الله عليه ليزداد بها إثماً ويزداد الله بها سخطاً عليه .

يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : أيما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة .

يا أمير المؤمنين ، من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين ، إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ

وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً ، مواسياً لهم بنفسه في ذات يده ، محموداً عند الله وعند الناس ، فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً ، ولعوراتهم سائراً لا تغلق عليك دونهم الأبواب ، ولا تقيم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم ، وتبتئس بما أصابهم من سوء .

ياأمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه .

ياأمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له : يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك فملأت قلوبهم رعباً؟ فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه؟! ياأمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً ، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال : اقتص مني ، فقال الأعرابي: قد أحملتك بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أنيت على نفسي ، فدعا له بخير .

ياأمير المؤمنين ، رض نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض التي يقول فيها رسول الله ﷺ: لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها .

ياأمير المؤمنين ، إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك .

ياأمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك؟ وما لهذا الكتاب

لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها،^(١) قال : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك . فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن !

ياأمير المؤمنين ، بلغني أن عمر بن الخطاب (رض) قال : لو مانت سخله على شاطيء الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟

ياأمير المؤمنين ، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ؟ « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »^(٢) .

قال الله تعالى في الزبور : يا داود اذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك عن نبوتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة . يا داود إنما جعلت رسلي الى عبادي رعاء كراء الابل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسير ويدكوا الهزيل على الكلاء والماء .

ياأمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه .

ياأمير المؤمنين ، حدثني يزيد بن جابر عن عبدالرحمان بن عمرة الأنصاري أن عمر بن الخطاب (رض) استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيماً فقال له: ما منعك من الخروج الى عملك، أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله ؟ قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: ما من وال يلي شيئاً من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مفلولة يده الى عنقه لا يفكها إلا عدله ، فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر

(١) الكهف : ٤٩ .

(٢) ص : ٢٦ .

إنتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوي به في النار سبعين خريفاً فقال له عمر (رض) : ممن سمعت هذا ؟ قال : من أبي ذر وسلمان .

فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا : نعم سمعناه من رسول الله ﷺ ، فقال عمر : واعمرأه من يتولأها بما فيها ؟ فقال أبوذر رحمه الله : من سلب الله أنفه وألصق خده بالأرض .

قال : فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني ثم قلت : ياأمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي ﷺ : ياعباس ياعم النبي نفس تحييها خير من إمارة لانحصيها . نصيحة منه وشفقة عليه ، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه « وأنذر عشيرتك الأقربين »^(١) فقال : ياعباس وياصفية عمتي النبي ، ويافاطمة بنت محمد ، إني لست اغني عنكم من الله شيئاً إن لي عملي ولكم عملكم .

وقد قال عمر بن الخطاب (رض) : لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد ، لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم . وقال : الامراء أربعة : فأمر قوي ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة . وأمر فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرجمه الله . وأمر ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله ﷺ : شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده . وأمر أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً .

وقد بلغني ياأمير المؤمنين أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال : أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسع ليوم القيامة ، فقال له : يا جبريل صف لي النار ، فقال : إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم

أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة لا يضيء جرها ولا يطفأ لهبها ، والذي بعثك بالحق لو أن^١ ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لما تواتوا جميعاً ، ولو أن^٢ ذنوباً من شرابها صب^٣ في مياه الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ، ولو أن^٤ ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله وضع جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلت ، ولو أن^٥ رجلاً ادخل النار ثم اخرج منها مات أهل الأرض من تنن ريحه وتشويه خلقه وعظمه . فبكى النبي ﷺ وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال : أتبكي يا محمد وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على رحيه ؟ قال : أخاف ان ابتلي بما ابتلي به هاروت وماروت ، فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي فأكون قد آمنت مكره . فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء : يا جبريل ويا محمد ، إن^٦ الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة .

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن^٧ عمر بن الخطاب (رض) قال : اللهم إن كنت تعلم أنني ابالي اذا قعد الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين .

يا أمير المؤمنين ، إن^٨ أشد^٩ الشدة القيام لله بحقه ، وإن^{١٠} أكرم الكرم عند الله التقوى ، وإنه من طلب العز^{١١} بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه ، فهذه نصيحتي اليك والسلام عليك^(١) انتهى .

صفة الامام العادل :

نقل ابن عبد ربه الأندلسي ما كتبه الحسن بن أبي الحسن البصري في وصف الامام العادل فقال : كتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة الى الحسن بن أبي

الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الامام العادل ، فكتب إليه الحسن :
 أعلم يا أمير المؤمنين، إن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل، وقصد كل
 جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصف كل مظلوم، ومفرع كل ملهوف.
 والامام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها الذي
 يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ،
 ويكنها من أذى الحر والقر .

والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحان على ولده يسعى لهم صفاراً
 ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته .
 والامام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرقيقة بولدها ، حملته
 كرهاً ووضعت كرهاً وربته طفلاً ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة
 وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى وخازن المساكين، يربي صغيرهم
 ويمون كبيرهم .

والامام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه
 وتفسد بفساده .

والامام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام
 الله ويسمعهم ، وينظر الى الله ويرىهم ، وينقاد الى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير
 المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال
 وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين، أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش
 فكيف اذا أتاها من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف اذا قتلهم
 من يقتص لهم ، واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياءك عنده
 وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه نواؤك ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك « يوم يفر » المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبه وبنيه ،^(١)

واذكر يا أمير المؤمنين « إذا بعث ما في القبور * وحصل ما في الصدور »^(٢) فالأسرار ظاهرة والكتاب « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »^(٣)

فالآن يا أمير المؤمنين ، وإنك في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ، لاتحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزاراً مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يفرئك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، وبأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك ، لاتنظر الى قدرتك اليوم ، ولكن انظر الى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبال الموت وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد غنت الوجوه للمحي « القيوم »^(٤)

نصيحة العابد للمنصور :

نقل أبو حامد الغزالي نصيحة رجل عابد لأبي جعفر المنصور فقال : عن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة - شرفها الله - حاجاً فكان يخرج من دار الندوة الى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به ، فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة ، وجاء المؤذنون فسلموا عليه واقامت الصلاة فيصلّي بالناس . فخرج ذات ليلة حين أسحر ، فبينما هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم

(١) عبس : ٣٤ - ٣٦ .

(٢) العاديات : ١٠٩ .

(٣) الكهف : ٤٩ .

(٤) العقد الفريد : ج ١ ص ١٢ منشورات دار الهلال - بيروت .

وهو يقول : اللهم ! إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع .

فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله .

ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه ، فاتاه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلّى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه .

فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني .

فقال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل .

فقال له : أنت آمن على نفسك ؟

فقال : الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق والاصلاح وما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت .

فقال : ويحك ! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي ؟

قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنك نفسك فيها منهم ، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة ، إن نسيت لم يذكرّوك وإن ذكرت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ، ولا الجائع ولا العاري

ولا الضعيف ولا الفقير ولا أحد إلا وله في المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر - الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيته وأمرت أن لا يحجبوا عنك - تجبي الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فمالنا لانخونه وقد سخر لنا ، فائتمروا على أن لا يوصلوا إليك من علم أخبار الناس شيئاً إلا ما أرادوا ، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس دهابهم ، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعيته ، ثم فعل ذلك ذو القدرة والثروة من رعيته لينالوا ظلم من دونهم من الرعية ، فامتألت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاً في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك ، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته ، وإن كانت للمظالم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ، فإذا جهدوا خرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ، فما بقاء الاسلام وأهله على هذا

لقد كنت يا أمير المؤمنين اسافر الى أرض الصين وبها ملك ، فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي ، فقال له وزراؤه : مالك تبكي ؟ ولا بكت عيناك .

فقال : أما أني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في الناس ألا لا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم ، فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوماً فينصفه .

هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة :

إن قلت : أجمعها لولدي ، فقد أراك الله عبداً في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه ، وما له على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء .

وإن قلت : أجمع المال لاشيّد سلطاني ، فقد أراك الله عبداً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكرام ، وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد . وإن قلت : أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح .

يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟
قال : لا .

قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا ؟
وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم ، وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضرته جوارحك ، فما تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك فدعاك إلى الحساب هل يغني عنك عنده شيء لما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا ؟

فبكى المنصور بكاءً شديداً حتى نحب وارتفع صوته ، ثم قال : ياليتني لم اخلق ولم أك شيئاً ، ثم قال : كيف احتياي فيما خوات فيه ولم أر من الناس إلا خائن ؟

قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين .

قال : ومن هم ؟

قال : العلماء .

قال : قد فرّوا مني .

قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ماظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب وسهّل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وارفع المظالم وخذالشيء مماحلّ وطاب وأقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك .

فقال المنصور : اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه واقامت الصلاة فخرج فصلّى بهم ثم قال للحرسى : عليّ بالرجل ...^(١) والقصة طويلة ، وفي آخر المطاف اخبر المنصور بأن الرجل الناصح هو الخضر عليه السلام .

وروي عن النبي ﷺ قال : السلطان ظلّ الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم ، فمن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، ومن جار كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر حتى يأتيهم الأمر^(٢) .

وروي عن النبي ﷺ قال : من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وحرمت غيبته^(٣) .

وأما قوله تعالى : «شهداء الله» فإنه موجه إلى المؤمنين الذين ناداهم الله في أول الآية فأمرهم :

أولاً : أن يكونوا قوّامين بالقسط .

(١) احياء علوم الدين : ج ٧ ص ٨٢ باختصار ، ونقله ابن عبد ربه الاندلسي في العقد الفريد : ج ١ ص ٣٠٤ تحت عنوان : مقام رجل من العباد عند المنصور .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٥ ص ٢٥٢ ب ٦٦ ح ٢٦٠ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٥ ص ٣٥٤ ب ٨١ ح ٦٩٠ .

وثانياً: أن يكونوا شهداء لله، فإنه أمرنا في هذه الآية بالمحافظة على حقوق الناس المادية والمعنوية، وحيث إن أغلب الناس لا يعطون الحق من ذات أنفسهم وغالباً يقع التنازع والتخاصم بينهم، ولا يرجع الحق لأهله إلا بالرجوع إلى القضاة أو الحكام كما يعبر عنهم في هذا العصر، وإثبات صاحب الحق حقه لدى الحاكم إنما يكون بشهادة الشهود، فإذا كان بعض الشهود أو كلهم غير محققين، وكذا إذا كان القاضي الحاكم بكون الحق لفلان وهو غير محقق سبب ذلك بطلان الحقوق وضياعها وأكل أموال الناس بالباطل.

ولأجل عدم الوقوع في هذه المنكرات أمر الله المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط إذا كانوا في مقام الحاكم، وأن تكون شهادتهم لله إذا كانوا في مقام الشهود. ومعنى كون الشهادة لله أن يكونوا وكلاء عن الله في تحقيق هذا الحق وجعله لأهله بهذه الشهادة، فإذا فرضوا أنفسهم -أي كل واحد من الحاكم والشاهد- أنهم وكلاء عن الله في تحقيق الحق في هذه القضية يلزمهم أن يسيروا على الحق ولا يجاوزوه مقدار ذرة.

فإذا كان الشاهد الذي سماه الله مؤمناً وناداه بقوله: «يا أيها الذين آمنوا»، إذا كان قيامه في هذا المقام أي في مقام الشهادة بين يدي الحاكم ليثبت في شهادته هذه حقاً لأحد المسلمين الذين غدرت حقوقهم وهو يرد له لأهله بشهادته هذه فإن الله قد أمره أن تكون شهادته لله لا لغيره، أي لا لأجل المادة ولا لأجل القرابة أو الصداقة أو الجاه أو المنصب، بل لأجل إحقاق الحق وإبطال الباطل، وأن موقفه هذا بأمر الله. ولا ينبغي له أن يميل عن الحق مقدار جناح بعوضة، فإن ميله هذا يوجب ميل كفة حسناته فتسقط منها ولا يبقى منها شيء.

أما نفس الحاكم إذا كان حكمه مخالفاً للحق أو علم بتزوير الشهود وبطلان شهادتهم وحكم على طبقها فحكمه حكم ضلال وفسوق وحكم كفر وجـاهلية، فليعرف نفسه وليتذكر قوله تعالى: «كونوا قوامين بالحق» الذي أمر الله به

الذين آمنوا ، فإن كان يعدّ نفسه من المؤمنين ومع ذلك حكم بهذا الحكم وخالف أمر الله وغدر حقّ المسلم وظلمه فقد خرج بهذا العمل عن الاسلام فإنه جرم كبير . هذا الرجل الذي وصفه الله بالايمان وناداه و كل نداء يلزمه الجواب فاذا تحقق الجواب من العبد بقوله لبيك يارب هاأنا ذا عبدك بين يديك وطوع أمرك هكذا ينبغي أن يكون الجواب من المؤمن لنداء الله . وبعد تحقيق الجواب يأتي الأمر من الله وهو قوله : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » .

أمرنا الله أن نقوم بهذين الأمرين أمراً مطلقاً عاماً غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط ، أمرنا أن يكون حكمنا بالعدل وشهادتنا لله ، فإن الله لا يقبل الشهادة الكاذبة التي تغيّر الحق . فهذه الشهادة ملزمة بها - سواء كانت فائدتها لنا أو لغيرنا ، وسواء كان ضررها علينا أو على الدنيا أو على قرابتنا أو على شخص غني ننتفع منه ومن ماله ، أو على شخص فقير نضره ضرراً يجحف به - يلزمنا أداؤها على حقيقتها بلا تحريف ولا تغيير . فالذي يتكلم بلسانه في أداء الشهادة والذي يسجلها - أي يأخذ إفادة المدعي والمدعى عليه ليقدمها للمحكمة وهذه هي وظيفة الشرطة - عليه أن يؤديها على حقيقتها لا تبديل ولا تغيير ولا تحريف ، وعليه أن يوضح شخصية الظالم ليعرفه الحاكم وأن يوضح شخصية المظلوم ليأخذ الحاكم له بحقه ولا يبخس منه شيئاً .

هذا كله مستفاد من قوله تعالى : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ولكن الله أوضح لنا الأمر أيضاً يفهمه كل أحد حتى لا يقول أحد الشهود أو كاتب الشرطة إن الشهادة كانت على أبي أو أخي أو قرابتي أو صديقي أو من يعطيني الدريهمات التي أنعم بها ولذا قد غيرتها وحرفتها فقال تعالى : « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » .

فقد أوضح الله لنا الأمر بقوله : « ولو على أنفسكم » الى آخره . فلم يبق مجال لأحد أن يغيّر أو يحرف أو يكتّم شيئاً فيها ، ومن فعل شيئاً من ذلك فقد أخلّ بإيمانه وقد خالف الله فيما أمر به ، ثم بعد ذلك قد هدّد الله تعالى بقوله : « فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوّلوا أو تعرضوا » .

إنَّ الله بعد أن أمرك أيتها المؤمن أن تكون قوَّاماً بالقسط وأن تكون شاهداً لله - وحيث إنَّ اتصافك بهاتين الصفتين يجعلك عادلاً ، وأنَّ العدالة أحسن صفة في الانسان - فإنَّ في هذه الجملة ينهاك عن اتباع الهوى في مخالفة أمر الله سواء كنت حاكماً أو شاهداً ، فإنك إن لم تحكم بالقسط وإن لم تؤدَّ الشهادة لله لاتكون عادلاً ، وهذا الاخلال بالعدالة إنما ينشأ من اتباع الهوى أي هوى النفس فإنَّ الانسان اذا هوت نفسه أن تحكم أو تشهد لغير الحق بغير الحق إمَّا لقرابته أو صداقته أو دربهما ته يكون بذلك منسلخاً عن العدالة متبعاً لهواه .

فيكون معنى هذه الجملة : اتركوا متابعة الهوى لأجل أن تعدلوا ، أي لتحافظوا على عدالتكم ، فتكون العدالة التي أمر الله بها إنما تتحقق من الحاكم بالحكم بالقسط ومن الشاهد ، وهو في هذا الزمان عبارة عن مأمور المر كز و كاتب الشرطة وسائر أفراد الشرطة ، فإنهم هم الشهود أمام الحاكم وهم يقدمون التقارير الى الحاكم ، فهؤلاء إنما تثبت عدالتهم ويكونون مطيعين لله ولأوامره اذا كتبوا الحق والحقيقة وشهدوا بها أمام الحاكم ، أما اذا اتبعوا أهواءهم ولاحظوا الغنى لما يقدمه من النقود لهم أو لاحظوا الصداقة أو القرابة ولم يكتبوا الحق فقد اتبعوا أهواءهم ولم يعدلوا ، وقد اتصفوا بما نهاهم الله عنه بقوله : « وإن تلووا أو تعرضوا ، أي أنك أيها الحاكم وأنت أيها الشاهد لاتمطلوا في حكمكم وشهادتكم ، فإنَّ كلمة « تلووا » مأخوذة من (اللي) وهو المطل . فالحاكم اذا عرف الحق في أحد الجانبين وطلب منه الجانب الآخر - لصداقة أو واسطة ناطقة أو صامتة - أن يؤجل الحكم فأجمله لالشك بل لطلب ذلك المبطل فهذا هو (اللي) الذي نهى الله عنه .

وأما الاعراض فهو أعظم من (اللي) فإنه يعرف أحقية المحق ويعرض عنه وهذا بالنسبة الى الحاكم والشاهد على حد سواء ، فإنَّ الله قد هدهما وأنذرهما بقوله : « فان الله بما تعملون خبيراً » .

وحاصل الأمر: أن "إحقاق الحق" وإيصاله لأهله في هذا الزمان إنما يكون بواسطة المحاكم وضبط الافادات بواسطة الشرطة ، وأن الناس يفرعون إليهم في تحصيل حقوقهم ، والذي يشاهد من الناس أن الشخص المتصل بهما أو بأحدهما يسارع الى إقامة الدعوى في كل صغيرة وكبيرة وفي كل حق وباطل وذلك لما يطمأن إليه من توثق العلاقة بينه وبينهم ، وأنه سيربح وينجح في دعواه .

أما الضعيف الذي لاصلة له مع حاكم أو شاهد فإنه يخشى من مراجعة المحاكم خوفاً من ذهاب حقه وتحميله مصارف المحاكم ، ولذا أكد الله في هذه الآية على الحاكمين والشاهدين تأكيداً شديداً .

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تفسيره في بيان معنى الآية : إن الله تعالى لما حكى عن الذين سعوا الى رسول الله ﷺ في أمر بني إبيرق وقيامهم لهم بالعدر وذهبهم عنهم من حيث كانوا أهل فقر وفاقه أمر الله المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط يعني بالعدل ، والقسط والاقساط : العدل ، يقال : أقسط الرجل اقساطاً اذا عدل وأتى بالقسط ، وقسط يقسط قسوطاً اذا أجاز . وقسط البعير يقسط قسطاً اذا يبت يد . ويدقسط : أي يابسة .

« شهداء لله » وهو جمع شهيد ، ونصب شهداء على الحال من الضمير في قوله « قوامين » وهو ضمير « الذين آمنوا » .

وقوله : « ولو على أنفسكم » يعني ولو كانت شهادتكم على أنفسكم أو على والديكم أو على أقرب الناس اليكم فقوموا فيها بالقسط والعدل ، وأقيموها على صحتها ، وقولوا فيها الحق ، ولا تميلوا فيها لغنى غنى ولا فقر فقير فتجوروا ، فإن الله قد سوى بين الغني والفقر فيما ألزمكم من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل ، وهو تعالى أولى بهما وأحق لأنه مالكما وإلهما دونكم ، وهو أعلم

بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك وفي غيره من الامور كلها منكم، فلا تتبعوا الهوى في الميل في شهادتكم اذا قمتم لغني أو لفقر الى أحدهما فتعدلوا عن الحق أي تجوزوا عنه وتضلوا ، ولكن قوموا بالقسط وأدوا الشهادة على ما أمركم الله عز وجل بأدائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله .

فإن قيل: كيف تكون شهادة الانسان على نفسه حتى يأمر الله تعالى بذلك؟ قلنا : بأن يكون عليه حق لغيره فيقر له ولا يجحده ، فأدب الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذروا بني إيرق في سرقتهم ما سرقوا وخيانتهم ما خانوا وإظافتهم ذلك الى غيرهم ، فهذا اختيار الطبري .

وقال السدي : إنها نزلت في النبي ﷺ وقد اختصم إليه رجلان غني وفقر فكان ضلعه مع الفقير لظنه أن الفقير لا يظلم الغني ، فأبى الله تعالى إلا القيام بالقسط في أمر الغني والفقير قال : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » . وهذا الوجه فيه بُعد لأنه لا يجوز على النبي في الحكم أن يميل الى أحد الخصمين سواء كان غنياً أو فقيراً ، فإن ذلك ينافي عصمته .

وقال ابن عباس : أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم وأبنائهم ولا يحابوا غنياً لغناه ولا مسكيناً لمسكنته ، وهذا هو الأولى لأنه أليق بالظاهر من عدول عنه .

وفي الآية دلالة على جواز شهادة الوالد لولده والولد لوالده وكل ذي قرابة لمن يقرب منه ، فقال ابن شهاب : كان سلف المسلمين على ذلك حتى دخل الناس فيما بعد تهمهم ، وظهرت فيهم امور حملت الولاية على اتهامهم ، فتركت شهادة من يتم اذا كان من أقربائهم وجاز ذلك من الولد والوالد والأخ والزوج والمرأة ، وبمعنى قول ابن عباس قال قتادة وابن زيد .

وقوله : « فالله أولى بهما » إنما نثني ولم يقل به لأنه أراد « فالله أولى » بغناه الغني وفقير الفقير لأن ذلك منه تعالى .

وقال قوم : لم يقصد غنياً بعينه ولا فقيراً بعينه وهو مجهول ، وما ذلك حكمه جاز الرد عليه التوحيد والتثنية والجميع . وفي قراءة أبي « فالله أولى بهم » .
وقال قوم : « أو » بمعنى الواو في هذا الموضع فلذلك ثنى .
وقال آخرون : جاز تثنية قوله « بهما » لأنهما قد ذكرا كما قيل : « وله أخ أو اخت فلكل واحد منهما »^(١) .

وقيل : جاز ذلك لأنه أضمر فيه « من » كأنه قال وله أخ أو اخت أن يكون من خاصم غنياً أو فقيراً بمعنى غنيين أو فقيرين « فالله أولى بهما » .
قوله : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » يحتمل ثلاثة أوجه :
أحدهما : لا تتبعوا الهوى في أن تعدلوا عن الحق فتجوروا بترك إقامة
الشهادة بالحق .

والثاني : أن يكون التقدير لا تتبعوا أهواء أنفسكم هرباً من أن تعدلوا في إقامة الشهادة .

والثالث : فلا تتبعوا الهوى لتعدلوا ، كما يقال : لا تتبع هواك لترضى ربك بمعنى أنهاك عنه كيما ترضى ربك بتركه ، ذكره الفراء والزجاج .
وقوله : « وإن تلووا أو تعرضوا » اختلفوا في تأويله ، فقال قوم : معناه وإن تلووا أيها الحكماء في الحكم لأحد الخصمين على الآخر أو تعرضوا « فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وحملوا الآية على أنها نزلت في الحكماء ، ذهب إليه السدي على ما قال إنها نزلت في النبي ﷺ .

وروي عن ابن عباس أنه قال : هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي فيكون لي القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر .

وقال آخرون : معناه وإن تلووا أيها الشهداء في شهادتكم فتحرفوها فلا

تقيموها أو تعرضوا عنها فتتركها ، ذهب إليه ابن عباس ومجاهد .
 وقال مجاهد : معنى «تلقوا» تبدلوا الشهادة «أو تعرضوا» أي : تكتموها ،
 وهو قول أبي جعفر عليه السلام ، وبه قال ابن زيد والضحاك .
 وأولى التأويلين قول من قال : إنه لي^١ الشهادة لمن شهد له أو عليه بأن
 يحرفها بلسانه أو يتركها فلا يقيمها ليبطل بذلك شهادته وإعراضه عنها ، فلو ترك
 إقامتها فلا يشهد بها ، وسياق الآية يدل^٢ على ما قال ابن عباس .
 وقوله : «فإن^٣ الله كان بما تعملون خبيراً» معناه : أنه كان عالماً بما يكون
 منهم من إقامة الشهادة وتحريفها والإعراض عنها ، واللي هو المطلق لما يجب من
 الحق^(١) انتهى .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره للآية : في الآية مسائل :
 (المسألة الاولى) في اتصال الآية بما قبلها وجوه :
 الأول : أنه لما تقدم ذكر النساء والنشوز والمصالحة بينهن^٤ وبين الأزواج
 عقبه بالأمر بالقيام بأداء حقوق الله تعالى وبالشهادة لأحياء حقوق الله . وبالجمله
 فكأنه قيل : إن اشتغلت بتحصيل مشترياتك كنت لنفسك^٥ لا لله ، وإن اشتغلت بتحصيل
 مأمورات الله كنت لله^٦ لا لنفسك ، ولا شك^٧ أن هذا المقام أعلى وأشرف ، فكانت هذه
 الآية تأكيداً لما تقدم من التكليف .

الثاني : أن^٨ الله تعالى لما منع الناس عن أن يقصروا عن طلب ثواب الدنيا
 وأمرهم بأن يكونوا طالبين لثواب الآخرة ذكر عقيب هذه الآية وبين أن^٩ كمال
 سعادة الانسان في أن يكون قوله لله وفعله لله وحر كته لله وسكونه لله ، حتى
 يصير من الذين يكونون في آخر مراتب الانسانية وأول مراتب الملائكة ، فأما

إذا عكس هذه القضية كان مثل البهيمة التي منتهى أمرها وجدان علف، أو السبع الذي غاية أمره إيذاء حيوان .

الثالث : أنه تقدم في هذه السورة أمر الناس بالقسط كما قال : « وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى »^(١) وأمرهم بالشهاد عن دفع أموال اليتامى اليهم، وأمرهم بعد ذلك ببذل النفس والمال في سبيل الله ، وأجرى في هذه السورة قصة طعمة بن إبيرق واجتماع قومه على الذب عنهم بالكذب والشهادة على اليهودي بالباطل . ثم إنه تعالى أمر في هذه الآية بالمصالحة مع الزوجة ، ومعلوم أن ذلك أمر من الله لعباده بأن يكونوا قائمين بالقسط شاهدين لله على كل أحد بل وعلى أنفسهم ، فكانت هذه الآية كالمؤكد لكل ما جرى ذكره في هذه السورة من أنواع التكليف .

(المسألة الثانية) القوام من قائم، والقسط العدل، فهذا أمر منه تعالى لجميع المسكلفين بأن يكونوا مبالغين في اختيار العدل والاحتراز عن الجور والميل. وقوله: « شهداء لله » أي تقيمون شهادتكم لوجه الله كما أمرتم بإقامتها ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم ، وشهادة الانسان على نفسه لها تفسيران : الأول: أن يقر على نفسه لأن الإقرار كالشهادة في كونه موجبا لإلزام الحق. الثاني : أن يكون المراد وإن كانت الشهادة وبالا على أنفسكم وأقاربكم وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره .

(المسألة الثالثة) في نصب الشهداء ثلاثة أوجه :

الأول : على الحال من « قوامين » .

والثاني : أنه خبر على أن « كونوا » لها خبران .

والثالث : أن تكون صفة لـ « قوامين » .

(المسألة الرابعة) إنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه:

الأول : أن " أكثر الناس عاداتهم أنهم يأمررون غيرهم بالمعروف ، فاذا آل الأمر على أنفسهم تركوه حتى أن " أقبح القبيح اذا صدر عنهم كان في محل "المسامحة وأحسن الحسن ، واذا صدر عن غيرهم كان في محل " المنازعة . فالله سبحانه نبه في هذه الآية على سوء هذه الطريقة وذلك أنه تعالى أمرهم بالقيام بالقسط أولاً ، ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانياً ، تنبيهاً على أن " الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الانسان مع نفسه فوق مضايقتها على الغير .

الثاني : أن " القيام بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير وهو الذي عليه الحق " ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير .

الثالث : أن " القيام بالقسط فعل والشهادة قول ، والفعل أقوى من القول ، فإن قيل : إنه تعالى قال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » ^(١) فقد تم الشهادة على القيام بالقسط ، وها هنا قد تم القيام بالقسط فما الفرق ؟ قلنا : شهادة الله تعالى عبارة عن كونه تعالى خالقاً للمخلوقات ، وقيامه بالقسط عبارة عن رعاية القو " امين بالعدل في تلك المخلوقات ، فيلزم هناك أن تكون الشهادة مقدمة على القيام بالقسط ، أما في حق " العباد فالقيام بالقسط عبارة عن كونه مراعيّاً للعدل ومبايناً للجور ، ومعلوم أنه مالم يكن الانسان كذلك لم تكن شهادته على الغير مقبولة . فثبت أن " الواجب في قوله : « شهداء لله » أن تكون تلك الشهادة مقدمة على القيام بالقسط ، والواجب هاهنا أن تكون الشهادة متأخرة عن القيام بالقسط ، ومن تأمل علم أن " هذه الأسرار مما لا يمكن الوصول إليها إلا بالتأيد الالهي ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » أي إن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً فلا تكتموا الشهادة ، أما لطلب رضا الغني والترحم على الفقير فالله أولى بأمورهما ومصالحهما ، وكان من حق الكلام أن يقال : فالله أولى به لأن " قوله : « إن يكن غنياً أو فقيراً » في معنى إن يكن أحد هذين ، إلا أنه بنى

الضمير على الرجوع الى المعنى دون اللفظ ، أي الله أولى بالفقر والغنى ، وفي قراءة أبي : «فإن الله أولى بهم» وهو راجع الى قوله : «أو الوالدين والأقربين». وقرأ عبد الله : «إن يكن غنياً أو فقيراً ، على كان التامة .

ثم قال تعالى : «فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا» والمعنى : اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل .

وتحقيق الكلام أن العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى ، ومن ترك أحد النقيضين فقد حصل له الآخر . فتقدير الآية : فلا تتبعوا الهوى لأجل أن تعدلوا ، يعني : اتركوا متابعة الهوى لأجل أن تعدلوا .

ثم قال تعالى : «وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً» وفي الآية قراءتان : قرأ الجمهور «وإن تلووا» بواوين ، وقرأ ابن عامر وحزرة «تلوا» ، وأما قراءة «تلوا» ففيه وجهان :

أحدهما : أن يكون بمعنى الدفع والاعراض من قولهم : لواء حقه اذا ماطله ودفعه .

الثاني : أن يكون بمعنى التحريف والتبديل من قولهم : لوى الشيء اذاقلته ومنه يقال : التوى هذا الأمر ، اذا تعقد وتفسر تشبهاً بالشيء المنفقل .
وأما «تلوا» ففيه وجهان :

الأول : أن ولاية الشيء إقبال عليه واشتغال به ، والمعنى أن تقبلوا عليه فتمثوه أو تعرضوا عنه «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» فيجازى المحسن المقبل بإحسانه والمسيء المعرض بإساءته ، والحاصل إن تلووا عن إقامتها أو تعرضوا عن إقامتها .

والثاني : قال الفراء والزجاج : يجوز أن يقال : «تلوا» أصله «تلوا» ثم قلبت الواو همزة ثم حذفت الهمزة والقيت حركتها على الساكن الذي قبلها فصارت (تلوا) . وهذا أضعف الوجهين .

وأما قوله : « فإن الله كان بما تعملون خبيراً » فهو تهديد ووعد للمذنبين ووعد بالاحسان للمطيعين^(١) انتهى .

ماقاله المراغي :

قال في بيان المعنى الجملي للآية : بعد أن أمر سبحانه بالقسط في اليتامى والنساء في سياق الاستفتاء فيهن " لأن حقهن " آكدو ضعفهن " معهود عمم الأمر هنا بالقسط بين الناس لأن قوام امور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل ، وحفظ النظام لا يتم إلا به ، وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس والوالدين والأقربين وعدم محاباة أحد لغناه أو لفقره ، لأن العدل مقدم على حقوق النفس وحقوق القرابة وغيرهما وقد كانت سنة الجاهلية محاباة ذوي القربى لأنه يعتز بهم كما كانوا يظلمون النساء واليتامى لضعفهن وعدم الاعتزاز بهن .

ثم قال في إيضاح قوله عز من قائل : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » :

القوام هو المبالغ في القيام بالشي والالتيان به مستوفياً تاماً لانقص فيه ، وقد أمر الله بإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط تأكيداً للعناية بهذه الأشياء ، أي : فلتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم راسخة في نفوسكم .

والعدل كما يكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم يكون في العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم ، ولو سار المسلمون على هدي القرآن لكانوا أعدل الأمم وأقومهم بالقسط ، وقد كانوا كذلك ربحاً^(٢) من الدهر حين كانوا مهتدين بهديه ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم ، فصارت تضرب بهم الأمثال في ظلم حكّامهم وسوء أحوالهم .

(١) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٧٢ - ٧٤ .

(٢) الردح : المدة الطويلة .

« شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، أي كونوا شهداء لله بأن تتحروا الحق الذي يرضاه ويأمر به من غير مراعاة أحد ولا محاباته ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم ، ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها ، لأن الشهادة إظهار الحق ولو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوانكم ، إذ ليس من بر الوالدين ولا من صلة ذوي الرحم أن يعاونوا على ما ليس لهم بحق الاعراض عن الشهادة عليهم أو ليثها والتحريف فيها ، بل البر والصلة في الحق والمعروف ، وليس من شك في أن الحياة قصاص ، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم ، فتكبر المحاباة من أسباب فشو الظلم والعدوان والمفاسد التي لا يؤمن شرها .

« إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، أي إن يكن المشهود عليه من الأقارب أو غيرهم غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، وشرعه أحق أن يتبع فيهما ، فحذار أن تحابوا غنياً طمعاً في برة ولا خوفاً من أذاه وشره ، ولا فقيراً عطفاً عليه وشفقة به ، فمرضاة كل منهما ليست خيراً لكم ولا لهما من مرضاة الله ، ولستم أعلم بمصلحتهما من ربهما ، ولولا أنه يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق خير للمشاهد والمشهود عليه لما شرع ذلك ولا أوجبه .

وروى ابن جرير عن السدي في سبب نزول الآية : « أن رجلين فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي ﷺ فكان حلفه (ميله القلبي) مع الفقير ، يرى أن الفقير لا يظلم الغني ، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير .

وقال قتادة في هذه الآية : هذا في الشهادة فأقم الشهادة يا ابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو على ذوي قرابتك وأشراف قومك ، فإنما الشهادة لله وليست للناس ، والعدل ميزان الله في الأرض ، به يرد الله من الشديد على الضعيف ، ومن الصادق على الكاذب ، ومن المبطل على المحق .

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، أي فلا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق

الى الباطل إذ في الهوى الزلل .

« وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، أي وإن تلووا ألسنتكم بالشهادة وتحرفوها أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها فالله خبير بأعمالكم ، لا يخفى عليه قصدكم ، فهو مجازيكم بما تعملون ، وعبر بالخبر ولم يعبر بالعليم لأن الخبرة أعلم بدقائق الأمور وخفاياها ، والشهادة يكثر فيها الغش والاحتيال حتى يغش الإنسان فيها نفسه ويلتمس المآذير في كتمان الشهادة أو تحريفها .
فليتدبر المسلمون ذلك وليعملوا بهدي كتابهم ، وقيموا الشهادة بالحق ففي ذلك فلاحهم في دينهم ودنياهم ^(١) انتهى .

مقاله الطبرى :

قال في تأويل الآية : وهذا تقدم من الله تعالى ذكره الى عباده المؤمنين به وبرسوله أن يفعلوا فعل الذين سعوا الى رسول الله ﷺ في أمر بني إيرق أن يقوم بالعدر لهم في أصحابه وذبتهم عنهم وتحسينهم أمرهم بأنهم أهل فاقة وفقر . يقول الله لهم : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » يقول : ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام بالقسط ، يعني بالعدل .
« شهداء لله » والشهداء جمع شهيد ، ونصبت الشهداء على القطع مما في قوله : قوامين من ذكر « الذين آمنوا » ومعناه : قوموا بالقسط لله عند شهادتكم أو حين شهادتكم .

« ولو على أنفسكم » يقول : ولو كانت شهادتكم على أنفسكم أو على الديكم أو أقربيكم فقوموا فيها بالقسط والعدل ، وأقيموها على صحتها بأن تقولوا فيها الحق ولا تميلوا فيها لغني لغناه على فقير ولا لفقير لفقره على غني فتجوروا ، فإن الله الذي سوى بين حكم الغني والفقير فيما ألزمكم أيها الناس من إقامة الشهادة

لكل واحد منهما بالعدل أولى بهما وأحق منكم لأنه مالكما وأولى بهما دونكم فهو أعلم بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما .

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » يقول : فلا تتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها لغني على فقير أو لفقير على غني إلى أحد الفريقين فتقولوا غير الحق ولكن قوموا فيه بالقسط وأدوا الشهادة على ما أمركم الله بأدائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله .

فان قال قائل: كيف يقوم بالشهادة على نفسه الشاهد بالقسط؟ وهل يشهد الشاهد على نفسه؟ قيل: نعم، وذلك أن يكون عليه حق لغيره فيقر له به، فذلك قيام منه له بالشهادة على نفسه .

هذه الآية عندي تأديب من الله جل ثناؤه لعباده المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذروا بني إبيرق في سرقتهم ما سرقوا وخيانتهم وما خانوا من ذكر ما قبل عند رسول الله ﷺ وشهادتهم لهم عنده بالصلاح فقال لهم: إذا قمتم بالشهادة لانسان أو عليه فقوموا فيها بالعدل ولو كانت شهادتكم على أنفسكم وآبائكم وأمهاتكم وأقربائكم ، فلا يحملنكم غنى من شهدتم له أو فقره أو قرابته ورحمه منكم على الشهادة له بالزور ولا على ترك الشهادة عليه بالحق وكتمانها^(١) .

ثم ذكر جملة من الروايات الدالة على ما ذكره في تفسير الآية ثم قال في تأويل قوله تعالى : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أي عن الحق فتجوروا بترك إقامة الشهادة بالحق .

ولو وجهه إلى أن معناه: فلا تتبعوا أهواء أنفسكم هرباً من أن تعدلوا عن الحق في إقامة الشهادة بالقسط كان وجهاً . وقد قيل معنى ذلك: فلا تتبعوا الهوى لتعدلوا كما يقال: لا تتبع هواك لترضي ربك، بمعنى أنهاك عنه كيما ترضي ربك بتركه .

القول في تأويل قوله: «وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً»:
اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: عنى «وإن تلووا أيها
الحكام لأحد الخصمين على الآخر أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً»،
ووجهها معنى الآية إلى أنها نزلت في الحكماء على نحو القول الذي ذكرنا عن
السدي من قوله: «إن الآية نزلت في رسول الله ﷺ على ما ذكرنا قبل» .
ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا: حدثنا جرير عن قابوس بن أبي ظبيان
عن أبيه عن ابن عباس في قول الله «وإن تلووا أو تعرضوا»، قال: هما الرجلان
يجلسان بين يدي القاضي فيكون لى القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر.
وقال آخرون: معنى ذلك «وإن تلووا أيها الشهداء في شهادتكم فتحرفوها
ولا تقيموها أو تعرضوا عنها فتتركوها» .

ذكر من قال ذلك :

حدثني المثنى قال: حدثنا عبدالله بن صالح - حتى يصل إلى ابن عباس -
قوله: «وإن تلووا أو تعرضوا»، يقول: «إن تلووا بالسنتكم بالشهادة أو تعرضوا
عنها» .

حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي - حتى يصل إلى ابن عباس - قوله:
«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله»، إلى قوله: «وإن تلووا
أو تعرضوا»، يقول: تلوي لسانك بغير الحق - وهي اللجلجة - فلا تقيم الشهادة على
وجهها، والأعراض: الترك .

حدثني محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنا عيسى بن أبي نجيع
عن مجاهد في قوله: «وإن تلووا»، أي تبدلوا الشهادة، «أو تعرضوا»، قال:
نكتموها .

حدثني المثنى - حتى يصل إلى مجاهد - «وإن تلووا»، قال: بتبديل الشهادة

والاعراض كتمانها .

حدثنا ابن وكيع - حتى يصل الى مجاهد - « وإن تلووا أو تعرضوا » قال :
إن تحرفوا أو تتركوا .

حدثنا بشر - حتى يصل الى قتادة - « وإن تلووا أو تعرضوا » قال : تلجلجوا
أو نكتموا ، وهذا في الشهادة .

حدثنا محمد بن الحسين - حتى يصل الى السدي - « وإن تلووا أو تعرضوا »
أما « تلووا » فتلوي للشهادة فتحرفها حتى لا تقيمها ، وأما « تعرضوا » فتعرض
عنها فتكتمها وتقول ليس عندي شهادة .

حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد « وإن تلووا »
فتكتموا الشهادة : تلوي تنقص منها ، أو تعرض عنها فتكتمها فتأبى أن تشهد عليه
تقول : أكتم عنه لأنه مسكين أرحمه ، فتقول : لا اقيم الشهادة عليه ، وتقول : هذا
غني ابقه وأرجو ما قبله فلا تشهد عليه ، فذلك قوله : « إن يكن غنياً أو فقيراً » .
حدثنا ابن بشار - حتى يصل الى مجاهد - « وإن تلووا » تحرفوا أو تعرضوا
وتركوا .

حدثنا محمد بن همارة قال : حدثنا - حتى يصل الى عطية - في قوله : « وإن
تلوا » قال : إن تلجلجوا في الشهادة فتفسدوها . « أو تعرضوا » قال : فتركوها .
حدثنا المثنى - حتى يصل الى الضحاك - في قوله : « وإن تلووا أو تعرضوا » قال :
« إن تلووا » في الشهادة أن لا تقيموها على وجهها . « أو تعرضوا » قال : تكتموا الشهادة .
حدثني المثنى - حتى يصل الى قتادة - أنه كان يقول : « وإن تلووا أو
تعرضوا » يعني تلجلجوا . « أو تعرضوا » قال : تدعها فلا تشهد .

حدثت عن الحسين بن الفرج - حتى يصل الى عبيد بن سلمان - قال : سمعت
الضحاك يقول في قوله : « وإن تلووا أو تعرضوا » أما « تلووا » فهو أن يلوي الرجل
لسانه بغير الحق ، يعني في الشهادة .

ثم قال الطبري : قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من تأوله أنه ليّ الشاهد شهادته لمن يشهد له وعليه، وذلك تحريفه إياها لسانه وتركه إقامتها ليبطل بذلك شهادته لمن شهد له ومن شهد عليه . وأما إعراضه عنها فإنه تركه أداءها والقيام بها فلا يشهد بها .

وإنما قلنا هذا التأويل أولى بالصواب لأنّ الله جلّ ثناؤه قال : «كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ، فأمرهم بالقيام بالعدل . «شهداء» وأظهر معاني الشهداء ما ذكرنا من وصفهم بالشهادة .

واختلفت القراء في قراءة قوله : «وإن تلووا» .

فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار سوى الكوفة «وإن تلووا» بواوین من لواني الرجل حقى ، والقوم يلوونني ديني ، وذلك اذا مطلوه لياً .

وقرأ ذلك جماعة من قراء الكوفة «وإن تلووا» بواو واحدة . والقراءة من قرأ ذلك كذلك وجهان :

أحدهما : أن يكون قارئها أراد همز الواو لانضمامها ثم أسقط الهمزة فصار إعراب الهمزة في اللام اذا أسقطه وبقيت واو واحدة كأنه أراد «تلووا» ثم حذف الهمز . واذا عني هذا الوجه كان معناه معنى من قرأ «وأن تلووا» بواوین غير أنه خالف المعروف من كلام العرب . وذلك أن الواو الثانية من قوله «تلووا» وادجمع وهي علم لمعنى . فلا يصح «همزها» ثم حذفها بعد همزها فيبطل علم المعنى الذي له ادخلت الواو المحذوفة .

والوجه الآخر : أن يكون قارئها كذلك أراد «وإن تلووا» من الولاية فيكون معناه : «وإن تلووا أمور الناس أو تتركوا» . وهذا معنى اذا وجه القارئ قراءته على ما وصفنا إليه خارج عن معاني أهل التأويل وما وجه إليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون تأويل الآية .

فإذا كان فساد ذلك واضحاً من كلا وجهيه فالصواب من القراءة الذي لا يصلح غيره أن يقرأ به عندنا . « وإن تلووا أو تعرضوا » بمعنى اللبى الذي هو مطل ، فيكون تأويل الكلام : وإن تدفعوا القيام بالشهادة على وجهها لمن لزمكم القيام له بها فتغيروها ، وتبدلوا أو تعرضوا عنها فتتركوا القيام له بها . كما يلوي الرجل دين الرجل فيدافعه بأدائه إليه على ما أوجب عليه له مطلقاً منه له ، كما قال الأعشى :

يلوينني ديني النهار وأقتضي ديني اذا وقد النعاس الرقدا

وأما تأويل قوله : « فإن الله كان بما تعملون خبيراً » فإنه أراد : فإن الله كان بما تعملون من إقامتكم الشهادة وتحريفكم إياها وإعراضكم عنها بكتما نكموها خبيراً ، يعني ذا خبرة وعلم به ، يحفظ ذلك منكم عليكم حتى يجازيكم به جزاءكم في الآخرة ، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته يقول فاتقوا ربكم في ذلك ^(١) انتهى .

ما قاله سيد قطب :

قال في تفسيره للآية : إنها الأمانة التي نيّطت بكم في الأرض « يا أيّها الذين آمنوا ، أمانة القسط والعدل ودفع البغي والظلم ، ولتنهضوا بل لتكونوا « قوامين » لا تكلمون ولا تفترون عن القيام لتكونوا « قوامين بالقسط » غير متعلق هذا القسط بأمر دون أمر ولا بقضية دون قضية ، إنما هو القسط المطلق والعدل المجرد ، ومتى كانت لله على هذا النحو فقد خلصت من كل تأثير ، وقد تجردت عن النفس والوالدين والأقربين « ولو على أنفسكم والوالدين والأقربين » كما تجردت عن كل الاعتبارات والقيم الأرضية المتعلقة بدنيا الناس .

« إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » فما يهم أن يكون المشهود له أو

عليه غنياً أو فقيراً وارتفع الأمر كله عن أن يكون لملاسات هذه الأرض دخل فيه منذ أن دعوا إلى التجرد عن كل شيء سوى الله، ومنذ أن دعوا إلى أن يكونوا « شهداء لله » فأين يذهب الميل إلى النفس أو الميل إلى الوالدین والأقربین في هذا المرتقى العلوي الكريم؟ وأين تذهب اعتبارات الغنى والفقر في هذا المجال الإلهي العظيم؟ وإن لا تكن الشهادة لله فهي إذن للهوى .

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، لا تتبعوا الهوى فيمنعكم أن تعدلوا ويلوي بكم عن العدل أو يصدكم عن الحق .

« وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، وهو تهديد خفي يدركه الذين آمنوا ولا يجهلونه أنه التهديد بخبرة الله العميقة بالنوايا والاتجاهات والتهديد بعاقبة هذه الخبرة حتى تلتوي الطوايا وتفسد النيات ، وحين ينصرف الناس عن العدل المطلق إلى الهوى والشهوات^(١) انتهى .

مقاله العلامة الطباطبائي:

قال في « الميزان » في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ... الخ » . القسط : هو العدل ، والقيام بالقسط العمل به والتحفظ له ، فالمراد بالقوامين بالقسط القائمون به أتم قيام وأكمله من غير انعطاف وعدول عنه إلى خلافه لعامل من هوى وعاطفة أو خوف أو طمع أو غير ذلك، وهذه الصفة أقرب العوامل وأتم الأسباب لاتباع الحق وحفظه عن الضيعة، ومن فروعها ملازمة الصدق في أداء الشهادة والقيام بها .

ومن هنا يظهر أن الابتداء بهذه الصفة في هذه الآية المسوقة لبيان حكم الشهادة ثم ذكر صفة الشهادة من قبيل التدرج من الوصف العام إلى بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل كونوا شهداء لله ، ولا ييسر لكم ذلك إلا بعد أن تكونوا

(١) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٧٧٦ مع اختلاف يسير .

قوله "أمين بالقسط . فكونوا قوامين بالقسط حتى تكونوا شهداء لله .

وقوله : « شهداء لله » اللام فيه للغاية ، أي كونوا شهداء تكن شهادتكم لله كما قال تعالى : « وأقيموا الشهادة لله » ^(١) ومعنى كون الشهادة لله كونها اتباعاً للحق ولأجل إظهاره وإحيائه كما يوضحه قوله : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » . قوله تعالى : « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » أي ولو كانت على خلاف نفع أنفسكم أو والديكم أو أقربائكم ، فلا يحملنكم حب منافع أنفسكم أو حب الوالدين والأقربين أن تحرفوها أو تتركوها .

فالمراد بكون الشهادة على النفس أو على الوالدين والأقربين أن يكون ما تحمله من الشهادة لو أدى مضرأ بحاله أو بحال والديه وأقربيه . سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بالواسطة كما إذا تخاصم أبوه وإنسان آخر فشهد له على أبيه ، أو يكون المتضرر مع الواسطة كما إذا تخاصم اثنان وكان الشاهد متحماً لأحدهما ماله أداه لتضرر به نفس الشاهد أيضاً كالمختصم الآخر .

قوله تعالى : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » إرجاع ضمير التثنية إلى الغني والفقير مع وجود (أو) الترديدية ، لكون المراد بالغني والفقير هو المفروض المجهول الذي يتكرر بحسب وقوع الوقائع وتكررها ، فيكون غنياً في واقعة وفقيراً في أخرى ، فالترديد بحسب فرض البيان وما في الخارج تعدد ، كذا ذكره بعضهم .

فالمعنى : أن الله أولى بالغني في غناه وبالفقير في فقره .

والمراد - والله أعلم - : لا يحملنكم غنى الغني أن تميلوا عن الحق إليه ولا فقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق ، بل أقيموا الشهادة لله سبحانه ثم خلوا بينه وبين الغني والفقير ، فهو أولى بهما وأرحم بحالهما .

ومن رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الاتباع ، والقسط هو المندوب

الى إقامته وفي قيام القسط وظهور الحق "سعادة النوع التي يقوم بها صلب الغني" ويصلح بها حال الفقير .

والواحد منهما وإن انتفع بشهادة محرقة أو متروكة في شخص واقعة أو وقائع لكن ذلك لا يلبث دون أن يضعف الحق ويميت العدل وفي ذلك قوة الباطل وحياة الجور والظلم وفي ذلك الداء العضال وهلاك الانسانية .

قوله تعالى : « ولا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، أي مخافة أن تعدلوا عن الحق والقسط باتباع الهوى وترك الشهادة لله . فقوله : « أن تعدلوا » مفعول لأجله ، ويمكن أن يكون مجروراً بتقدير اللام متعلقاً بالاتباع ، أي لأن تعدلوا .

قوله تعالى : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، اللئى بالشهادة : كناية عن تحريفها من لى اللسان . والاعراض : ترك الشهادة من رأس وقرىء « وإن تلووا » بضم اللام وإسكان الواو من ولى يلى ولاية . والمعنى : وإن وليتم أمر الشهادة وآيتهم بها أو أعرضتم فإن الله خبير بأعمالكم يجازيكم بها^(١) انتهى .

ماقاله الطنطاوى :

قال في جواهره في تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته .

« شهداء لله » بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله ولو كانت الشهادة « على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » فإن المدار على المصلحة العامة وحفظ النظام وبقاء الدولة ، فليس المقام مقام أفراد يعيشون على مال غيرهم ، ولكن المجموع مرتبط ببعضه ببعضه ، وهو كجسم واحد لو اختلف نظام أحد الأعضاء اختلف المجموع فمرض فمات .

هكذا أنتم بامعاشر المسلمين إن لم تقيموا الشهادة لله وتراعوا المصالح العامة لا تبقى أممكم إلا قليلاً ، فإذا كانت الشهادة صادقة وتحملتكم المكروه عليكم وعلى أقاربكم وكان ذلك خلقاً في الآلة عاشت الأمة عيشة راضية فلا يعتريها الفناء إلا إذا اعتراها هذا الداء ، وإلا أذهبتكم وأتيت بقوم آخرين ، فإيتاكم أن تقولوا أن هذا الغني بماله يؤذيني إذا شهدت عليه ، وأن هذا الفقير إذا شهدت عليه اعتراه الأذى فيجتمع عليه الأمران الفقر الطبيعي والحكم المدني .

فالنظام العام يفرض بهدم تلك النظريات ونبت تلك النزعات « إن يكن ، المشهود عليه غنياً أو فقيراً ، فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة عليه ولا تجوروا فيها ولا تميلوا ميلاً » فالله أولى بهما ، بالغني والفقير .

فالمصالح العامة هي التي بها بقاء الأمم فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، أي بأن تعدلوا عن الحق « وإن تلدوا » ألسنتكم عن شهادة الحق « أو تعرضوا » عن أدائها « فإن الله كان بما تعملون خبيراً » فيجازيكم بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا الخاص في أنفسكم .

ثم يقول: يأمرنا إننا إذا قتلنا أو سرقنا أو زينا ووقفنا تحت آلات القتل نفر . وإذا رأيت أبي واقفاً وآلة الشنق منصوبة له أقول: إن أبي قاتل ولا أخجل ولا أخاف ، كل ذلك يأمرني به الله يأمرنا الله بما لم يشهد أحد عمله إلا نادراً جداً ، وليس في النوع الانساني من يبادر الى ذلك إلا في النادر . ولكن الله سبحانه إنما يريد أن يعيش الناس بسلام ووثام ويكونوا إخواناً لتحلوا الحياة ويكون الصفاء .

فهل لك أن تسمع من العلم الحديث والكشف الغريب ما يجعل هذا الاقرار أمراً متداولاً ؟ هل لك أن تقر ما رسمته الدول المعاصرة لنا وما كشفوه في هذا المقام حتى تحكم أنهم إذا ساروا على هذا المنوال سنين أصبح ما يقوله الله الآن أمراً معتاداً ويقر الانسان على نفسه وعلى آله وعلى أبيه وعلى قريبه وعلى ملكه ، على اللص الذي سرق معه ، بل يصبح الناس لاسرقة عندهم ولاقتل إلا نادراً ،

ويزول الكذب في الشهادات وتصدق الأحكام ، فلأذ كر لك ثلاث مسائل :

(المسألة الاولى) الاقرار بمصل الصدق ، وأصل هذا المصل أن طبيباً يسمى الدكتور « هادس » من المختصين بالتوليد ، وعادة الأطباء أنهم اذا رأوا امرأة تعسر وضعها حقنوها بهذا المصل المسمى « اسكوبلامين » فلاحظ أثناء الحقن والمرأة تضع وهي لا تحس بأنم أنها تفشي أسرارها ما كانت تنطق بها عادة ، بل تلك الأسرار من أكبر الفضائح والعار ، فتوجه الى رجال الحكومة ، وأحضروا من السجون نحو خمسمائة مسجوناً وحقنوهم بالمصل كما تحقن الوالدات واستنطقوهم فكانوا يجيبون إجابات صريحة ويخبرون بالحقائق كما هي ، ولم يجدوا في جميع من سألوهم كلمة واحدة تخالف الصواب ، ولما أفاق أولئك الرجال دهشوا لما علموا أنهم أجابوا بالحقائق التي أنكروها قبلاً .

وقد قال العلماء في ذلك: إن استعماله سيفضي الى إخلاء السجون من الأبرياء ولقد وضعوا الرجال المتهمين على موائد كما توضع المرضى وحقنوهم ، ثم سألوهم في معارض حضرها رجال القضاء والطب فأسفرت من النتائج عينها . ويقولون إنه في بلاد الانكليز التي كشف فيها هذا المصل يقدم عشرة من المتهمين الى المحاكمة فلا يحكم إلا على واحد لثبوت التهمة ويبرأ الباقي ، ومتى حقنوا بهذا المصل ظهر المحق من المبطل ، وأيضاً يقبض على الثلث من المقبوض عليهم خطأ ويبرأون فيما بعد ، فهذا المصل ينفي التهمة ويخرجهم ، وليس هذا نافعاً لانكلترا وحدها بل للعالم قاطبة متى انتشر في الكرة الأرضية .

(المسألة الثانية) إن الجناء يعرفون في العالم الانساني الآن بآثار الابهام ، وذلك أن بلادنا المصرية جعلت إدارة خاصة لآثار الأصابع وجعلتها أصنافاً وأنواعاً بحيث إن الانسان ليس يكون أثر إبهامه له مشابه آخر في المشرق وفي المغرب ولذلك تراهم يأتون بالمذنبين ويأمرونهم بوضع أصابعهم على الورقة وهي ملوثة بالحبر ، فهذا الأثر يدل على صاحبه ، لا يشاركه فيه سواه .

وهكذا الأقدام فإنّ عرب البادية في بلادنا يعرفون الناس بآثارهم كالقدماء من العرب الذين كانوا يقصون الأثر، فكل امرئ له قدم بصفات خاصة لا يشار كه سواه .

(المسألة الثالثة) لقد ظهر في أمريكا وفي أوربا علم يقال له (السيكومتري) أعني علم قياس الأثر، وقد استعملت هذه اللفظة سنة ١٨٤٢ م ، وهي مشتقة من لفظة يونانية (سيكي) أي النفس و (مترون) أي قياس ، ومعناها اللفظي قياس النفس . وقالوا في هذا العلم : إنه لا يقع ظلّ على حائط من دون أن يترك أثراً فيه يمكن إظهاره بالوسائل الصناعية ، و كل غرفة نظنّ أنها محبوبة عن العيون فيها آثار كل ما حصل فيها ولو من مئات السنين، بل كل حجر وشجر ومدر توجد عليه رسوم ما حصل عنده من خير أو شرّ ، فكل حركة و كل فكرة تصدر من الناس ترسم على ما حوله، فكان هناك صور لطيفة لأعداد لها ثابتة على جميع الأشياء لاتزول بمرور القرون والدهور .

قال الدكتور جون وليم ، مؤلف كتاب « سرّ تقدم أوربا » ما يأتي - بعد أن أفاد معنى ما تقدم :- ويمكنني أن اصرح بأنّ صدى العبارات التي قالها الواحد منا يمكن أن يسمع بعد مرور الأعوام على موته ويبقى من بعده عظة لأولاده . ثم إنّ هذه الصور والآثار التي أشار إليها ديري ، قد تظهر بهيأة أفكار تطرأ على الأذهان ، فكل فكر من أفكارنا أو حركة من حركاتنا وعمل من أعمالنا يترك حتماً أثراً لا تمحوه الأيام .

ثم قال : وأنا اصرح بأنّ البارع في هذا العلم يمكنه اذا سئل أن يصف عيشة أيّ إنسان بمجرد ما يرى أثراً من آثاره أو يسمع بعضاً من أقواله أو يتأمل في مكان يقيم فيه أو يتردد فقط عليه .

وقد كان الاستاذ «دانتون» زوجته وأولاده واخته جميعهنّ بارعات في قياس الأثر ، فمتى أعطاهنّ شعراً من شعر إنسان أو أيّ شيء من آثاره قصوا أثره ،

وقد أثبتوا أن كل عشرة من الرجال وفي كل ست من النساء واحداً يقدر أن يتعلم هذا العلم بسهولة .

ثم العالم « دانتون » وثق بهذا العلم بعد أن جربه ، مثلاً أعطى قطعة من حجر من الأحجار الساقطة من الجو الى حماته فقالت : إنني أرى أشياء تشبه النجوم والندى ويخيل لي أنني صاعدة الى فوق . ثم أعطاها لزوجته في مكان آخر وهي لا تعلم فقالت مثل ماتقدم ، ثم وضعه في صندوق مع أحجار كثير وأمر زوجته أن تلتقط كل حجر وتصفه وصارت تصف كل حجر ومدد وتقول : هذا من بلدة كذا أو حصل عنده كذا وكذا وهذا من المكسيك وهذا من روما وهكذا ، ومنها حجر من جبل الزيتون فوصفت اورشليم وصفاً جيداً ، ولما وصلت الى الحجر الذي سقط من الجو وصفته كما وصفته أولاً . انتهى^(١) .

انظر الى هذه المسائل الثلاث بعقلك وتفكر فيها ، ألسنت ترى أن المسألة الاولى هي التي تحقق إقرار الانسان على نفسه وعلى أبويه وتكون الامم أقرب الى السعادة منها الآن ؟ واذا كان هذا الكشف الحديث يعم العالم ويظهر صدقه أفليس ذلك يكون مما يجب علينا الأخذ به متى تحققنا أن مايقوله الفر نجة حتى لاخطأ فيه ؟ فلسنا نحن نأخذ بقولهم بل نجرب تجاربهم ونعمل بها بعد التحقيق واذا كان النوع الانساني ليس عنده من الصدق والأمانة ما يحمله على الاقرار على النفس والأهل أفلا يكون أمثال هذا المصل (اذا صح مايقال) من أوجب الواجبات على أمة الاسلام .

وقال في اعتراضه على مؤلف هذا التفسير : ولما وصلت الى هذا المقام حضر أحد العلماء واطلع على ما كتبت فأظهر أشد الاستياء وقال : ياسبحان الله كيف تجيز أن تأخذ بقول من حققوا بهذا المصل ؟ وكيف تأخذ بأقوال من فقدوا الارادة ؟ إن هذا القول هراء ، عجباً لك كيف تقول ذلك والله عز وجل يطلب أن نقر

(١) منى انتهى مقاله « جون وليم » في كتابه : سر تقدم اوربا .

على أنفسنا وأهلنا بمحض إرادتنا، وأما أنت فإنك تقول يكفي أن يسلبوا عقولهم كالمجانين ثم يقرون ، وهذا لا يفرك عليه العقلاء ولا الجهلاء وهو أشبه بالخرافات وأقرب الى الضلالات .

فقلت له: حيّاك الله وبيّاك، فهل اذا أقمت لك دليلاً على ما أقول من كتاب الله تعمل به؟ فقال: بشرط أن يكون مقنعاً، فقلت له: أأست ترى أن الله أحكم الحاكمين؟ قال: بلى. قلت له: أأست ترى أنه مطلع على ضمائرنا؟ قال: بلى. قلت له: أأست ترى أنه مطلع على ضمائرنا؟ قال: بلى. قلت: لقد قبل هو الشهادة من الأيدي والأرجل وحكم بها، فمن باب أولى الذين هم ليسوا بأحكم الحاكمين وهم قضاة البشر، ألم تر قوله تعالى: «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون»^(١). وقوله أيضاً: «حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون» وقالوا لجلودهم لم شهدتهم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء. وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون* وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثير مما تعملون ،^(٢) . وفي آية أخرى: «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون»^(٣).

فاذا كان الله قبل هذه الشهادة من الجلود والجوارح بالرغم من أصحابها وهم يعاتبون أعضاءهم على ذلك صريحاً لا تقبل من يحقن بالمصل ويشهد بالحق ويكون حكم القضاة حقاً لازلاً فيه ، بخلاف الأحكام الحاضرة فإنها ظنية لأن الشهادات لا تثبت الحقيقة ، وليس الاستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي

(١) النور : ٢٤ .

(٢) الصافات : ٢٠ - ٢٢ .

(٣) يس : ٦٥ .

في أيماننا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن؛ وإذا كان الله يعلم ما في البواطن بل هو القائل للانسان: «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً»^(١) والقائل: «بل الانسان على نفسه بصيرة»^(٢) أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والخلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا أن من الدلائل ما ليس بالبيّنات المشهورة عند المسلمين! وأن هناك ما هو أفضل منها وهي التي يحكم بها الله! فاحكموا بها، ويكون ذلك القول لينبهنها ويفهمنا أن الأيدي فيها أسرار وفي الأرجل أسرار وفي النفوس أسرار! فالأيدي لا تشبهه، والأرجل لا تشبهه، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم، والألسن تنطق بالحق متى أنمت البصيرة إنامة بهذا المصل أو بغيره.

أوليس في الحق أن أقول إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه؟ وإلا فلماذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها وفصها والمسلمون كانوا غافلين عنها كما غفلوا عن منع الخمر والربا، وقامت الامم الغربية بهذا خير قيام؟

أوليس قوله: «قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء»^(٣) يشير الى ما كشفه علماء اوربا وأميركا في علم «السيكومتري» المتقدم؟ وأن كل فكر من أفكارنا وقول وعمل يرسم بصورة غير محسوسة على الحيطان والأبواب والأحجار ويقراء قوم بعد آلاف السنين، ويفهمون حوادثنا التي فعلناها؟

أليس هذا من معاني النطق التي جعلها الله في كل شيء؟ أوليس ذلك يفسر لنا كثيراً من أسرار ديننا مثل أن المؤذن يشهد له ما حوله الى غاية ما وصل إليه صوته؟

ولقد علمنا أن استاذاً في المدرسة الأمريكية معه آلة لها مفتاح فاذا تكلم

(١) الاسراء : ١٤ .

(٢) القيامة : ١٤ .

(٣) فصلت : ٢١ .

فتحتها وبعد انتهاء المجلس أو الخطبة يستمع لتلك الآلة فتلقى له القول كما قال، فاذا وجد خطأً في الحديث أرسله لأصحابه ما يكمله، وهذا موجود في زماننا الحاضر، بل المدرسة قريبة من بيتي الذي أسكنه، بينهما نحو كيلومترين، وهذه الآلة استحضرها من أمريكا وهو أمريكي الجنس^(١).

وأقول: لعل هذا العلم هو الذي ورد في حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري وإن لم يرد في الصحيحين، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الانس، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده. ومعنى عذبة سوطه المعلق في طرفه.

ومعلوم أن الآلة تسترق السمع المذكور يمكن أن تسمع كل شيء حولها في المكان حتى الهمس الذي يهمس ثم يكبر الصوت كما يكبر المبصر سواء بسواء. فعلى المسلمين أن يفتحوا أعينهم فليس لهم أن يقيموا على الجهالة البتراء وليعلموا أن دين الاسلام فيه أبواب واسعة ما طر قوها وعرفها الغربيون والطر فان يجهلان أن تلك الأبواب في القرآن^(٢). انتهى كلام الطنطاوي.

ولكن لا يخفى على أهل الفقه أن هذا الذي ذكره لا يتفق مع القواعد الشرعية، لأن الإقرار المعتبر الذي يترتب عليه الأثر إنما هو ما كان عن إرادة واختيار والتفات إلى ما يقوله ويعترف به، أما الذي يتكلم عن غير قصد وإرادة فلا يمكن أن يؤخذ بكلامه.

وأما الذي ذكر من نطق الأيدي والأرجل والجلود فهو قياس مع الفارق، ولا يعقل أن نقيس هذا على ذلك، فإن الله الذي يأمر الجوارح بالنطق عالم بحقائق الأشياء، وإنما يأمر الجوارح بالنطق لانمام الحجة على العبد، حيث إنه أنكر الفعل الذي ارتكبه بجوارحه، فالله يأمر نفس العضو الذي فعل الجريمة أن

(١) الكلام يشير به إلى المسجل فقط وليس فيه غيره. (من المؤلف رحمه الله).

(٢) تفسير الجواهر: ج ٣ ص ٩٣ - ٩٥.

يعترف ويشهد على صاحبه ، وهذا إنما يكون في عالم الآخرة .

أما في الدنيا فإن الله يريد منا أن نكون مطيعين لأمره حيث أمرنا أن نقوم بالقسط ونشهد لله بالصدق ، فإن الذي يقوم بالقسط هو الحاكم والقاضي بين المتخاصمين ، والذي يأخذ إفادات المترافعين هو كاتب الشرطة ، فيكون بمنزلة الشاهد عليهم ، وقد أمره الله أن تكون شهادته لله ، أي شهادة حق وصدق ، أما ذلك الكاتب الذي يغير ويحرف ويزيد وينقص فهل نحققه بهذا المصل الذي ذكره الكاتب ؟

وأما بالنسبة للمجرم الذي يتعدى على الناس بسرقه أو ضرب أو قتل فهذا قد أمرنا الله أن نقيم عليه الشهود ونرتب الجزاء على ما ثبتت عند الحاكم الذي يقوم بالقسط كما كان يفعل رسول الله ﷺ ولم يكن يطلب من الله أن يعلمه بالمحق والمبطل ، ولو أراد الله ذلك لأنزل عليه الوحي في كل قضية كما أنزل في قضية بني إبيرق التي من توابعها هذه الآية .

ويروى أن داود عليه السلام طلب من الله أن يطلعه على حقيقة الأمر في الدعاوي فأجابه الله إلى ذلك في قضية واحدة ، وقد وقع منها في ورطة ، ودعا الله أن يخلصه منها ويرجعه إلى ما كان عليه أولاً في حسم الدعوى من البينات واليمين .

وعلى كل حال فإن ما قاله الاستاذ لا يتفق مع قانون الشرع ، وإنما ذكرت أقواله ليعلم الحاكم والشاهد مقدار اهتمامه غيره من العلماء في حمل الحاكم على القيام بالقسط والشهادة لله بأن تكون صادقة غير محرفة . فلو أن الحاكم والشاهد أطاعا الله وصدقوا في الحكم والشهادة لاستقامت أكثر الأمور ولقل الفساد بين الناس .

وإنني أرجو ممن له الأمر أن يأمر بطبع هذا الذي كتبته في تفسير الآية ، وما قاله العلماء فيها في كراسة خاصة وتوزيعها على دوائر القضاء ومراكز الشرطة وإلزامهم بقراءتها والعمل بما فيها إن رأى هذا الأمر صالحاً ، ونسأل الله أن يهدينا

تتمة

لما نادى الله المؤمنين في هذه الآية ثم أمرهم بعد ندائهم بهذين الأمرين - أن يكونوا قوامين بالقسط وأن يكونوا شهداء لله - دل هذا الأمر على وجوب اتصافهم بهذين الوصفين وجوباً مطلقاً دائماً غير مشروط ولا مقيد بزمان أو مكان فيكون الإيمان مشروطاً بحصول هذين الشرطين .

أما إذا كان الشخص غير متصف بهما فلا يتحقق إيمانه وإن سمي نفسه مؤمناً أو سماه الناس مؤمناً، ويمكن أن تكون الآية التي بعد هذه الآية إشارة إلى ذلك أي أن الله يأمر المؤمنين المجريدين عن هذين الوصفين بأن يتصفوا بهما وبسائر شروط الإيمان فقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً (١٣٦) .

إن المفسرين لهم أقوال في تفسير هذه الآية، وإن أقرب الأقوال وأظهرها هو : أن الخطاب للمؤمنين الذين هم آمنوا باللسان وفي الظاهر أو حسبوا أن الإيمان هو الاعتراف بالشهادتين فقط من دون تعمق في معنى الشهادتين^(١) .

وإن العارف بحقيقة معنى الشهادتين يلزمه الاعتراف بما ذكر في الأمر الثاني وهو قوله : « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ » .

أما الذين لم يعرفوا الحقيقة في أداء الشهادة ولم يتصفوا بصفات المؤمنين

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٢٥ نقلاً بالمعنى .

كالقيام بالقسط وأداء الشهادة وغيرهما من الصفات التي مرّ ذكرها والتي تأتي بعد ذلك فإن من لم يتصف بصفات المؤمنين التي جعلها الله شرطاً للإيمان فهو عند الله غير مؤمن وإن عدّه الناس مؤمناً، ولكن هذه التسمية لا تنفعه، يوم لا ينفع اسم ولا لقب وإنما ينفعه أن يتصف بما جعله الله شرطاً للإيمان، فإن الله يأمرهم ويقول لهم يا أيها الذين آمنوا بظاهر الشهادتين آمِنُوا بِاللَّهِ ورسوله فيهما بالمعنى الحقيقي ويلزمكم في تحقيق الإيمان أن تؤمنوا بالكتاب الذي نزل على رسوله وهو القرآن ومعنى الإيمان به أن تحلوا حلاله وتحرموا حرامه، فإن من جملة أحكامه أن تكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، فإن هذين الأمرين يتوقف عليهما صحة القضاء وإيصال الحقوق إلى أهلها وقمع المفسدين الذين يريدون غصب حقوق الناس وعذرهم بواسطة الشهود لغير الله بل للطمع وللمادة، ويلزمكم أيضاً أن تؤمنوا بكل كتاب أنزله الله قبل كتابكم كالطوراة والإنجيل وغيرهما مما أخبرنا به النبي ﷺ، فإذا لم يتحقق الإيمان بهذه الأمور من المؤمن باللسان فقط وكان إيمانه بالظاهر دون القلب فهو عند الله كافر كما قال تعالى : «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» .

وإن قال بلسانه أنا مؤمن وأقرّ بالشهادتين فإنها لا تنفعه ما لم يعقد القلب عليهما.

ماقاله الفخر الرازي :

ويؤكّد هذا المعنى ما قاله الفخر الرازي ، حيث قال بعد ذكر الآية :

وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) : في اتصال هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أنها متصلة بقوله «كونوا قوامين بالقسط» وذلك لأنّ الإنسان لا

يكون قائماً بالقسط إلا إذا كان راسخ القدم في الإيمان بالاشياء المذكورة في هذه

الآية .

وثانيهما: أنه تعالى لما بين الأحكام الكثيرة في هذه السورة ذكر عقيبها آية الأمر بالإيمان^(١) انتهى .

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسير هذه الآية : ومن الأمر بالقسط والتجرد لله والخلاص من الهوى والتهديد الخفي بما وراء اللي والاعراض، من هذا الأمر إلى الأمر بالإيمان بالله ورسوله والكتاب الذي أنزل من قبل . وتهديد الذين يكفرون بشيء من هذا بسوء العاقبة والضلال البعيد .

ثم قال : إن هناك ارتباطاً خفياً بين التمحض لله والتجرد في الآية السابقة وبين الأمر بالإيمان هنا وتهديد من يحيد عن هذا الإيمان .

إن قضية العدل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقضية الإيمان ، فمن لم يقم بالقسط ومن لم يشهد لله فهو في سبيله إلى الضفة الأخرى ، ضفة الكفر بالله والتنكر لما أنزل الله . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً . لا ترجى منه أوبة ولا تنتظر بعده هداية ، لأنه بعيد موغل في التيه والظلام على أن الكفر الذي يسبق الإيمان يغتفر ، فالذي يشهد النور معذور إذا هو أدلج في الظلام ، فأما الكفر بعد الإيمان فهو الكبيرة التي لا غفران لها ولا معذرة فيها . إن الكفر حجاب ، فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق واتصل الشارد بالركب واتصلت النبتة بالينبوع ، فالذين يرتدون بعد الإيمان إنما يفترون على الفطرة ويلجئون عمداً في الغواية ويذهبون مختارين إلى التيه والضلال ، فلا غفران بعد ذلك ولا هداية ، وهم قادوا أنفسهم متطوعين إلى هناك ، وبخاصة حين يتكرر منهم الكفر بعد الإيمان^(٢) .

(١) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٧٥ .

(٢) في ظلال القرآن : ج ٢ ص ٧٧٨ .

ماقاله ابن كثير :

قال بعد ذكر الآية :

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتبنيته والاستمرار عليه كما يقول المؤمن كل صلاة : « إهدنا الصراط المستقيم، أي بصراً فيه وزدنا هدىً وتبلياً عليه ، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ،^(١) .

وقوله : « والكتاب الذي نزل على رسوله ، يعني القرآن : « والكتاب الذي أنزل من قبل ، وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة ، وقال في القرآن : نزل لأنه نزل مفزاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم . وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة لهذا قال تعالى : « والكتاب الذي أنزل من قبل ، .

ثم قال تعالى : « ومن يكفر بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، أي : فقد خرج من طريق الهدى وبعُد عن القصد كل البعد^(٢) .

ماقاله المراغي :

قال بعد ذكر الآية : هذا خطاب لمؤمني اليهود ، فقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في : عبدالله بن سلام ، واسيد وأسد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، وسلام ابن اخت عبدالله بن سلام ، ويامين بن يامين إذ أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسول ، فقال رسول الله ﷺ : بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن

(١) الحديد : ٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤١٤ .

وبكل كتاب كان قبله ، فقالوا : لا نفعل ، فنزلت الآية ، قال : فأمنوا كلهم .

وقيل : إن الخطاب فيها للمؤمنين كافة .

والمعنى : ازدادوا في الإيمان طمأنينةً وبقينةً وآمنوا برسوله خاتم النبيين

وبالقرآن الذي نزل عليه وبالكتاب التي نزلها على رسوله من قبل فإنه لم يترك عباده في زمنٍ ما محرومين من البينات والهدى .

وبعد أن أمر بالإيمان بما ذكر توعد من كفر بذلك فقال : « ومن يكفر

بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » . وهي أساس

الدين وأركانه فقد ضلّ عن صراط الحق الذي ينجي صاحبه في الآخرة من العذاب الأليم ويمتعه بالنعيم المقيم .

ومن فرق بين كتب الله ورسوله فأمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى

فلا يعتقد بإيمانه ، لأنه إما يتبع الهوى أو يقلد من جهل وعمى . ذاك أن سرّ

الرسالة هي الهداية ولم يكن بعض النبيين فيها بأكمل من بعض ، فإذا كفر ببعض

الكتب والرسول كان كفره بها دليلاً على أنه لم يؤمن بشيء منها إيماناً صحيحاً

مبنياً على فهم حقيقتها والبصير بحكمتها ، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق

الهداية^(١) .

مآقاله العلامة الطباطبائي :

قال بعد ذكر الآية : أمر المؤمنين بالإيمان ثانياً بقرينة التفصيل في متعلق

الإيمان الثاني أعني قوله : « بالله ورسوله والكتاب... الخ » ، وأيضاً بقرينة الابعاد

والتهديد على ترك الإيمان بكل واحد من هذه التفاصيل إنما هو أمر يبسط المؤمنين

إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف مرتبطة بعضها ببعض مستلزمة

بعضها لبعض ، فإله سبحانه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وهي

الموجبة لأن يخلق خلقاً ويهديهم الى ما يرشدهم ويسعدهم ثم يبعثهم ليوم الجزاء ولا يتم ذلك إلا بإرسال رسل مبشرين ومنذرين ، وإتزال كتب تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، وتبين لهم معارف المبدأ والمعاد واصول الشرائع والأحكام .
فالإيمان بواحد من حقائق هذه المعارف لا يتم إلا مع الإيمان بجميعها من غير استثناء ، والرد لبعضها مع الأخذ ببعض آخر كفر لو أظهر ونفاق لو كتم وأخفى .

ومن النفاق أن يتخذ المؤمن مسيراً ينتهي به الى رد بعض ذلك ، كأن يفارق مجتمع المؤمنين ويتقرب الى مجتمع الكفار ويواليهم ويصدقهم في بعض ما يرمون به الإيمان وأهله ، أو يعترضون أو يستهزئون به الحق وخاصيته ، ولذلك عقب تعالى هذه الآية بالتعرض لحال المنافقين ووعدهم بالعذاب الأليم .

وما ذكرناه من المعنى هو الذي يقضي به ظاهر الآية ، وهو أوجه مما ذكره بعض المفسرين أن المراد بقوله : « يا أيها الذين آمنوا آمينوا » . يا أيها الذين آمنوا في الظاهر - بالاقرار بالله ورسوله - آمينوا في الباطن ليوافق ظاهركم باطنكم ، وكذا ما ذكره بعضهم أن معنى « آمينوا » اثبتوا على إيمانكم ، وكذا ما ذكره آخرون أن الخطاب للمؤمنين أهل الكتاب أي : يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب آمينوا بالله ورسوله الذي نزل على رسوله وهو القرآن .

وهذه المعاني وإن كانت في نفسها صحيحة ولكن القرائن الكلامية ناهضة على خلافها وأردأ الوجوه آخرها .

قوله تعالى : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » .

لما كان الشطر الأول من الآية أعني قوله : « يا أيها الذين آمنوا آمينوا » الى قوله : « من قبل » دعوة الى الجمع بين جميع ما ذكر فيه ، بدعوى أن أجزاء هذا المجموع مرتبطة غير مفارقة بعضها بعضاً كان هذا التفصيل ثانياً في معنى

الترديد .

والمعنى: ومن يكفر بالله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أي:

من يكفر بشيء من أجزاء الإيمان فقد ضلّ ضلالاً بعيداً .

وليس المراد بالعطف بالواو الجمع في الحكم ليتمّ الجميع موضوعاً واحداً

ليتمّ الجميع موضوعاً واحداً له حكم واحد ، بمعنى أن الكفر بالمجموع من

حيث إنه مجموع ضلال بعيد دون الكفر بالبعض دون البعض ، على أن الآيات

القرآنية ناطقة بكفر من كفر بكل واحد مما ذكر في الآية على وجه التفصيل^(١)

انتهى .

فقد تحصل مما ذكرنا : أن المقصود من الآية هو أن الله يأمر المؤمنين

الذين اعترفوا بالشهادتين أن يؤمنوا أيضاً - إضافة الى تلك الشهادة - :

١ - بالله إيماناً شتملاً على معرفة صفات الله الثبوتية والسلبية ولا يجهلوا

شيئاً منها .

٢ - برسوله بأن يصدقوه فيما أخبرهم به من الواجبات والمحرمات ، وأن

يطيعوا أوامرهم ويتمسكوا بما أمرهم بالتمسك به من بعده حتى لا يميلوا عن الطريق

ولا يضلّوا ، وهذا هو الإيمان الحقيقي وإلا فهم غير مؤمنين .

٣ - بالكتاب الذي نزل على رسوله ، بأن يحلّوا حلاله ويحرموا حرامه

ولا يحرفوه ولا يبدلوا شيئاً من أحكامه ، فإن الإيمان بالكتاب معناه العمل به ،

وإلا فإن الاعتراف بنزوله من غير عمل به لا يعدّ إيماناً به .

٤ - بكل كتاب أنزله الله على أحد من الأنبياء الذين أرسلوا قبل نبينا ،

وهي الكتب التي ذكرت في كتابنا أو ذكرها النبي ﷺ ويدخل في ضمن الإيمان

بالكتاب :

١ - الإيمان بالملائكة ، حيث إن الكتاب ذكر ذلك .

٢- الايمان باليوم الآخر، فقد ذكر ذلك الكتاب مكرراً في موارد كثيرة. ونحن اذا أمعنا النظر ودققنا في الأمر رأينا أن هذه الامور الأربعة وما يتبعها من الأمرين الآخرين كلها داخله ضمن الايمان بالله أو الايمان بكتابه، ولكن الانسان العادي غير المعصوم لا يلتفت إليها إِمَّا لعدم المعرفة أو لأنه يريد قلة التكليف وخفته، ويعلم هذا من وصف الله تعالى لايمان الرسول ليلة المعراج حيث إنه لم يصفه بأكثر من قوله: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه»^(١) مع أن الرسول مؤمن وعالم ومتصف بكل ما يلزم الايمان به، ولكن الله لم يزد على هذه الجملة لأن جميع الصفات والشروط تدخل في ضمنها.

أما وصف النبي ﷺ للمؤمنين فقد ذكر فيه الامور التي جاءت في هذه الآية كما حكى الله بقوله: «والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»^(٢) حيث إن إيمانهم متدرج حسب علمهم وتكليفهم، فكل واحد من هذه الامور يؤمرون به، فمن امتثل وأطاع واعتقد واتصف واستقام وداوم على العقيدة والانصاف كان مؤمناً كما يريد الله والرسول، وأما اذا خرج وانسلخ عن أحد هذه الامور إما الايمان بالله أو برسوله أو بكتابه أو بملائكته أو باليوم الآخر فإنه داخل فيما حكم الله عليه في ذيل الآية بقوله: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً».

قال الراغب في مفرداته: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، وبضاده الهداية قال تعالى: «فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها»^(٣) ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً^(٤) انتهى.

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

(٣) يونس: ١٠٨.

(٤) المفردات: ص ٢٩٧ مادة «ضل».

والمقصود هنا هو الطريق الذي أوضحه الله لعباده بواسطة رسوله الأكرم الذي نبّه عليه بقوله : « إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »^(١).

فالرجل الذي يعتقد بنفسه أنه مؤمن ينبغي له أن لا يعدل عن الطريق الذي عيّنه الرسول في حياته وأرشد إلى التمسك به بعد وفاته، فإذا عدل عنه فقد ضلّ إذن ، والضلال يسبب بعده عن الله عزّ وجلّ .

وأما الكفر بأحد هذه الأمور التي جعلها أركان الإيمان - أي الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر - فإنه قد يصدر من العبد وهو لا يشعر به أي يظنّ أن الكفر هو أن ينكر وجود الباري أو بعثة النبي أو نزول القرآن ولا يشعر بأنّ إنكار صفات الله الثبوتية أو السلبية هو كفر أيضاً، أو وصف النبي ﷺ بما يخلّ بالنبوة والرسالة هو كفر بالنبي أيضاً ، أو تحليل ما حرمه القرآن وتحريم ما أحله كفر أيضاً ، وأنّ الله جعل الكفر بأحد هذه الأمور ضلالاً بعيداً ، والضلال البعيد معناه وقوع الإنسان في متاهة واسعة لا يمكنه الاهتداء إلى السبيل إلا بمعونة الله عزّ وجلّ ، مع أنّ الذي أوقعه في هذه المتاهة هو الكفر بالله فكيف يمكنه الخروج منها ، فلامحالة يكون مصيره النار والهلاك الأبدي .

الإيمان والكفر

ما قاله القمي :

وقد ذكر القمي في تفسيره وجوهاً للإيمان وللکفر أحببت ذكرها هنا بنصّها ليعرف القاري أنّ الكفر لا ينحصر في إنكار الباري . قال في تفسير سورة البقرة عند قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »^(٢).

(١) الانسان : ٣ .

(٢) البقرة : ٣ .

والإيمان في كتاب الله على أربعة وجوه :

فمنه إقرار باللسان .

ومنه تصديق بالقلب .

ومنه الأداء .

ومنه التأيد .

فأما الإيمان الذي هو إقرار باللسان وقد سماه الله تبارك وتعالى إيماناً

ونادى أهله به بقوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جُمُعًا * وَإِنْ

مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ

شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ بِالِيتْنَى

كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا »^(١).

قال الصادق عليه السلام: لو أن هذه الكلمة قالها أهل المشرق وأهل المغرب لكانوا

بها خارجين عن الإيمان، ولكن قد سماهم الله مؤمنين بإقرارهم ثم قال لهم صدقوا.

وأما الإيمان الذي هو التصديق بالقلب فقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» وكانوا يتقنون

لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة،^(٢) يعني صدقوا .

وقوله : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى... »^(٣) أي : لا نصدقك .

وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا »^(٤) أي: يا أيها الذين أقروا صدقوا

فالإيمان بالحق هو التصديق . وللتصديق شروط لا يتم التصديق إلا بها .

وقوله : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ

(١) النساء : ٧١ - ٧٣ .

(٢) يونس : ٦٤ .

(٣) الأسراء : ٩٠ .

(٤) النساء : ١٣٦ .

ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون،^(١).

فمن أقام بهذه الشروط فهو مؤمن مصدق .

وأما الايمان الذي هو الأداء فهو قوله لما حوّل الله قبلة رسوله الى الكعبة قال أصحاب رسول الله : يا رسول الله فصلاتنا الى بيت المقدس بطلت ؟ فأَنزل الله تبارك وتعالى : « وما كان ليضيع إيمانكم »^(٢) فسمّى الصلاة إيماناً .

والوجه الرابع من الايمان وهو : التأييد الذي جعله الله تبارك وتعالى في قلوب المؤمنين من روح الايمان فقال : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأُتدّهم بروح منه »^(٣).

والدليل على ذلك قوله ﷺ : لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن ، يفارقه روح الايمان مادام على بطنها ، فإن قام عاد اليه . قيل : وما الذي يفارقه؟ قال : الذي يرعد في قلبه . ثم قال ﷺ : ما من قلب إلا له اذنان ، على أحدهما ملك مرشد وعلى الآخر شيطان مغتر ، هذا يأمره وهذا يزجره .

ومن الايمان ما قد ذكره الله في القرآن خبيث وطيب فقال : « ما كان الله ليجعل المؤمنين على ما أأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب »^(٤) .

فمنهم من يكون مؤمناً مصداً ولكنه يلبس إيمانه بظلم وهو قوله :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »^(٥).

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) المجادلة : ٢٢ .

(٤) آل عمران : ١٩ .

(٥) الانعام : ٨٢ .

فمن كان مؤمناً ثم دخل في المعاصي التي نهى الله عنها فقد لبس إيمانه بظلم، فلا ينفعه الايمان حتى يتوب الى الله من الظلم الذي لبس إيمانه حتى يخلص الله تعالى إيمانه .

فهذه وجوه الايمان في كتاب الله .

وقوله : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»^(١) فإنه حدثني أبي عن بكر بن صالح عن أبي عمر الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الكفر في كتاب الله على خمسة وجوه :

فمنه كفر الجحود وهو على وجهين : جحود بعلم وجحود بغير علم .

فأما الذين جحدوا بغير علم فهم الذين حكى الله عنهم في قوله : « وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »^(٢) . وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » فهو لاء كفروا وجحدوا بغير علم .

وأما الذين كفروا وجحدوا بعلم فهم الذين قال الله تبارك وتعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »^(٣) . فهو لاء كفروا وجحدوا بعلم .

قال : وحدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ، يقول الله تبارك وتعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ (يعني رسول الله ﷺ) كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »^(٤) « لَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَةَ

(١) البقرة : ٦ .

(٢) البقرة : ٢٤ .

(٣) البقرة : ٨٩ .

(٤) البقرة : ١٤٦ .

أصحابه بنعمته ومنهاجه وهو قوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل »^(١). فهذه صفة رسول الله في التوراة والانجيل وصفة أصحابه ، فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » . فكان اليهود يقولون للعرب قبل مخرج النبي ﷺ : أيتها العرب ، هذا أدان نبي يخرج بمكة ويكون مهاجرة الى المدينة وهو آخر الأنبياء وأفضلهم ، في عينه حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة ، يلبس الشملة ويجتري بالكسر والتميرات ، ويركب الحمار العريّة ، وهو الضحوك القتال ، يضع سيفه على عاتقه ، لا يبالي بمن لاقاه ، يبلغ سلطانه ، منقطع الخف والحافر ، ولنهقتكم به يامعشر العرب قتل عاد . فلما بعث الله نبيه بهذه الصفة حسدوه وكفروا به كما قال الله : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

ومنه كفر البراءة وهو قوله : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض »^(٢) أي : يتبرأ بعضهم من بعض .

ومنه كفر الترك لما أمر الله تعالى وهو قوله : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر ... »^(٣) أي : ترك الحج وهو مستطيع فقد كفر .

ومنه كفر النعم وهو قوله : « ليلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر ... »^(٤) أي : لم يشكر نعمة الله فقد كفر .

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) النكبات : ٢٥ .

(٣) آل عمران : ٩٧ .

(٤) النمل : ٤٠ .

فهذه وجوه الكفر في كتاب الله^(١).

وذكر في البحار عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال : بنى الكفر على أربع دعائم : الفسق ، والفلو ، والشك ، والشبهة .

والفسق على أربع شعب : الجفاء ، والعمى ، والغفلة ، والعتو . فمن جفا احتقر الحق ومقت الفقهاء وأصر^٢ على الحنث العظيم .

ومن عمى نسى الذكر واتبع الظن وبارز خالقه وألح^٣ عليه الشيطان وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة .

ومن غفل جنى على نفسه وانقلب على ظهره وحسب غيئه رشداً وغر^٤ته الأمانى وأخذته الحسرة والندامة اذا قضى الأمر وانكشف عنه العطاء وبدا له ما لم يكن يحسب ، ومن عتا عن أمر الله شك^٥ ومن شك^٦ تعالى الله عليه فأذله بسلطانه وصغره بجلاله كما اغتر^٧ بربه الكريم وفرط في أمره .

والفلو على أربع شعب : على التعمق بالرأي والتنازع فيه والزيغ والشقاق . فمن تعمق لم ينب الى الحق ، ولم يزد إلا غرقاً في الغمرات ، ولم تحبس عنه فتنة إلا غشيته أخرى ، وانخرق دينه فهو يهوى في أمر مريب .

ومن نازع في الرأي وخاصم شهر بالفشل من طول اللجاج .

ومن زاغ قبحته عنده الحسننة وحسنت عنده السيئة .

ومن شاق^٨ أعورت عليه طريقه ، واعترض عليه أمره ، وضاق مخرجه اذا لم

يتبع سبيل المؤمنين .

والشك^٩ على أربع شعب : على الريب ، والهوى ، والتردد ، والاستسلام ، وهو

قول الله عز وجل : « فبأي آلاء ربك تتماارى »^(١٠) .

وفي رواية أخرى على المرية والهول من الحق والاستسلام للجهل وأهله ، فمن

(١) تفسير القمى : ج ١ ص ٣٠ - ٣٣ .

(٢) النجم : ٥٥ .

هاله ما بين يديه نكص على عقبيه ، ومن امتري في الدين تردد في الريب وسبقه الأولون من المؤمنين وأدركه الآخرون ووطأته سنابك الشيطان ، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيما بينهما ، ومن نجا من ذلك فمن فضل اليقين، ولم يخلق الله خلقاً أقل من اليقين .

والشبهة على أربع شعب: إعجاب بالزينة ، وتسويل النفس ، وتأول العوج ، ولبس الحق بالباطل ، وذلك أن الزينة تصدف عن البيئة ، وأن تسويل النفس تهجم على الشهوة ، وأما العوج يميل بصاحبه ميلاً عظيماً ، وأن اللبس ظلمات بعضها فوق بعض ، فذلك الكفر ودعائمه وشعبه^(١) .

وقد نقل المجلسي القول بأن الكفر على أربعة أقسام :

- ١ - كفر إنكار : وهو كفر من لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به .
- ٢ - كفر جحود : وهو كفر من يعتقد به بقلبه ولا يقر به بلسانه، وهو كفر إبليس .

- ٣ - كفر عناد : وهو أن يعرف بقلبه ويعترف بلسانه ولكن لا يدين به حسداً وبغياً ، وقد مثلوه بكفر أبي جهل وأضرا به .

- ٤ - كفر نفاق : وهو أن يعترف بلسانه وينكره بقلبه^(٢) انتهى .

وبعد ما علمنا أقسام الكفر وأنواعه ودعائمه وشعبه وفهمنا معنى الروايات التي ذكرها الأئمة الأطهار عليهم السلام فينبغي للمؤمن الذي يريد المحافظة على إيمانه أو يريد المحافظة على نفسه لتكون مرضية لله عند الموت أن لا يتجاوز الطريق الذي عينه الله له ولا يميل يميناً أو شمالاً ، فإن الخروج عن الطريق يوجب الضلال والوقوع في التيه، وقد قال الله بأن الكفر به أو برسله أو بكتبه أو باليوم الآخر يوجب الضلال البعيد وهو الهلاك الأبدي الذي لا يرجى معه نجاة .

(١) بحار الانوار : ج ٧٢ ص ١١٦ ب ٩٩ ح ١٥ .

(٢) سفينة البحار : ج ٢ ص ٤٨٤ مادة « كفر » .

فينبغي للإنسان العاقل أن يتأمل في قوله تعالى: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» .

وأنّ العامّي أو الأمّي الذي لا يتمكن من معرفة معنى الآية يرجع الى العالم في فهم معناها ليكون مؤمناً حقاً ، نسأله تعالى التوفيق والهداية لما يحب ويرضى .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » (١٤٤) .

لقد تكرّر النداء من الله الى المؤمنين في آيات كثيرة، ثم بعد النداء بينهم عن موالاته الكافرين ، وفي كل آية يكون النهي ببيان غير البيان الذي في بقية الآيات .

أما في هذه الآية فقد ذكر أن من يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فإنه قد اختار وأراد أن يقدم لله حجة قوية ليس فيها خلل ولا نقص ولا وهن ، حجة ناطقة بأنه قد استحقّ العذاب من الله لأنه قد خرج من زمرة المؤمنين ودخل في حزب الكافرين ، فكانّ الصحيفة التي تكتب فيها موالاته للكافر اذا نشرت له يوم القيامة فهي وحدها كافية في استحقاقه العذاب ، ولا يمكن أن يعترض عليها أو يناقش فيها أو يعتذر عنها ، فهي حجة كافية وسلطان قوي ، وأنّ مرتكب هذا العمل لا ريب في كفره ، والكافر في النار بلا ريب .

فإنّ من يظهر للمؤمنين أنه منهم وأنه مؤمن بالله ومصدق برسوله وهو بالباطن والسرّ يوالي الكافرين ويأتمر بأوامرهم ويخبرهم بما عند المؤمنين من

خير أو سوء فهذا بعينه هو المنافق كما ذكره الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآية بقوله : « مذبذبين بين ذلك لآلى هؤلاء ولا لآلى هؤلاء »^(١). ولا ريب أن المنافق ضرره على المؤمنين أكثر من ضرر الكافر حيث إنه مختلط معهم ومطلع على أمورهم فهو ينقل أخبارهم إلى عدوهم وهم غافلون عن ذلك ، وهذا العمل هو وحده موجب للعذاب لأنه مضر بالمسلمين ضرراً كلياً ، فتكون الحجة على صاحبه ظاهرة بيّنة لا تحتاج إلى شيء آخر في إثباتها .

ماقاله ابن كثير :

قال بعد ذكر الآية : ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم كما قال تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه »^(٢) أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه ، ولهذا قال هاهنا « أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » أي حجة عليكم في عقوبته إياكم . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس ، قوله : « سلطاناً مبيناً » قال : كل سلطان في القرآن حجة ، وهذا اسناد صحيح . وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعبد بن كعب القرظي والضحاك والسدي والنضر بن عربي^(٣) .

ماقاله الطبري :

قال في تفسيره للآية : وهذا نهى من الله عباده المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق

(١) النساء : ١٤٣ .

(٢) آل عمران : ٢٨ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤٢١ .

المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه ، يقول لهم جل ثناؤه : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لاتوالوا الكفار فتؤازروهم من دون أهل ملتكم ودينكم من المؤمنين فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين ثم قال جل ثناؤه متوعداً من اتخذ منهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين إن هو لم يرتدع عن موالاته وينزجر عن مخالته أن يلحقه بأهل ولايته من المنافقين الذين أمر نبيه ﷺ بتبشيرهم بأن لهم عذاباً أليماً .

أتريدون أيها المتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ممن قد آمن بي وبرسولي «أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً» يقول حجة باتخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين فتستوجبوا منه ما استوجبه أهل النفاق الذين وصف لكم صفتهم وأخبركم بمحلهم عنده «مبيناً» يعني يبين عن صحتها وحقيقتها يقول: لا تعرضوا لغضب الله بإيجابكم الحجة على أنفسكم في تقدمكم على ما نهاكم ربكم من موالاة أعدائه وأهل الكفر به^(١) ثم ذكر الأحاديث الدالة على ما قاله .

فاذا قرأت أو سمعت أيها المدعي للإيمان والاسلام هذه الآية وهذه التفسير التي ذكرها العلماء وأنت مع ذلك توالي الكافرين من دون المؤمنين وتنقل إليهم أخبار المسلمين وأسرارهم فاعلم أنك تحشر مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، وأن المسلمين يسألون الله أن يضاعف لك العذاب .

قال تعالى : ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد

لهم نصيراً (١٤٥) .

قال الراغب في مفرداته : الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود

والدرك اعتباراً بالحدود ، ولهذا قيل: درجات الجنة ودرجات النار^(١) .

مقاله الفخر الرازي :

ذكر في تفسيره للآية مسائل : المسألة الاولى : قال الليث : الدرك أقصى قعر الشيء كالبحر ونحوه ، فعلى هذا المراد بالدرك الأسفل : أقصى قعر جهنم .
ثم قال في ذكر المسألة الثالثة : قال ابن الأنباري : أنه تعالى قال في صفة المنافقين إنهم في الدرك الأسفل ، وقال في آل فرعون « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »^(٢) فأيهما أشد عذاباً المنافقون أم آل فرعون ؟ وأجاب بأنه يحتمل أن أشد العذاب إنما يكون في الدرك الأسفل ، وقد اجتمع فيه الفريغان .

المسألة الرابعة : لما كان المنافق أشد عذاباً من الكافر لأنه مثله في الكفر ، وضم إليه نوع آخر من الكفر وهو الاستهزاء بالاسلام وبأهله ، وبسبب أنهم لما كانوا يظهرون الاسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين ، فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار^(٣) .

مقاله الطبري :

قال في تأويله للآية : يعني جل ثناؤه بقوله : « ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار » إن المنافقين في الطبقة الأسفل من أطباق جهنم ، وكل طبق من أطباق جهنم درك ، وفيه لغتان :
درك (بفتح الراء) ودرك (بتسكينها) ، فمن فتح الراء جمعه في القلة إدراك ، وإن شاء جمعه في الكثرة الدروك . ومن سكن الراء ، قال : ثلاثة أدرك وللکثیر الدروك .

(١) المفردات : ص ١٦٧ مادة « درك » .

(٢) غافر : ٤٦ .

(٣) تفسير الرازي : ج ١١ ص ٨٧ .

ثم ذكر اختلاف القراء^١ وما اختاره هو، ثم ذكر الأحاديث الدالة على ذلك وقال: حدثنا ابن وكيع قال: حدثني أبي عن سفيان عن سلمة بن كهيل عن خيثمة عن عبدالله «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» قال: في توأيت من حديد مبهمه عليه. ثم ذكر حديثاً آخر عن عبدالله وقال: في توأيت من حديد مقفلة عليهم في النار. وذكر حديثاً عن أبي هريرة وقال: في توأيت ترج عليهم. وذكر حديثاً عن خيثمة عن عبدالله، وقال: توأيت من نار تطبق عليهم^(١) انتهى.

ما قاله ابن كثير :

قال في تفسيره للآية: ثم أخبر تعالى : «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» أي: يوم القيامة جزاءً على كفرهم الغليظ.

قال الوالبي عن ابن عباس : « في الدرك الأسفل من النار ، أي: في أسفل النار .

وقال غيره: النار دركات كما أن الجنة درجات.

وقال سفيان الثوري عن عاصم عن ذكوان أبي صالح عن أبي هريرة: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» قال: في توأيت ترج عليهم. كذا رواه ابن جرير عن ابن وكيع عن يحيى بن يمان عن سفيان الثوري به، ورواه ابن حاتم عن المنذر بن شاذان عن عبيدالله بن موسى عن إسرائيل عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة، «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم.

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا عبدالرحمن حدثنا سفيان عن سلمة ابن كهيل عن خيثمة عن عبدالله يعني ابن مسعود: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» قال: في توأيت من نار تطبق عليهم أي مغلقة مقفلة. ورواه

ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن وكيع عن سفيان عن سلمة عن خيثمة عن ابن مسعود : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » قال : في توابيت من حديد مبهمة عليهم ، ومعنى قوله مبهمة : أي مغلقة مقفلة لا يهتدى لمكان فتحها . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو اسامة حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود سئل عن المنافقين فقال : يجعلون في توابيت من نار تطبق عليهم في أسفل درك من النار^(١) .

ماقاله السيوطي :

قال في تفسيره للآية : وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن أبي الأحوص قال : قال ابن مسعود : أي « أهل النار أشدّ عذاباً » قال رجل : المنافقون ، قال : صدقت ، قال : فهل تدري كيف يعذبون ؟ قال : لا ، قال : يجعلون في توابيت من حديد تصمد عليهم ، ثم يجعلون في الدرك الأسفل في تناير أضيّق من زج يقال له جبّ الحزن يطبق على أقوام بأعمالهم آخر الأبد^(٢) انتهى .

أيها الانسان الذي تعد نفسك من المسلمين ، اذا كنت تصدق بالوعد والوعيد فينبغي لك أن تنظر نفسك ومقدار تحملها لهذا العذاب ، فهل تقدر أن تسكن في الدرك الأسفل من النار الى آخر الأبد أو الى مدة معلومة وإن كانت يوماً واحداً ؟ فاذا رأيت نفسك عاجزاً عن ذلك فلا ينبغي لك أن توالي الكافرين لأجل دراهم معدودة . أما اذا لم تكن مصداقاً بهذا الوعد والوعيد ولم تكن مؤمناً بالله فلا داعي لك أن تظهر للمسلمين أنك منهم ، فإنّ هذا غشّ ، والغشّ يستقبّحه العقل ، فالأولى لك أن تجاهر بالكفر وتحشر نفسك مع الكافرين .

وأما إن كنت في شك من نفسك ولم تعلم أنك مسلم أو كافر أو منافق فإني سأذكر لك علامة ذلك لتعرف حقيقة نفسك وتختار ما تشاء من ذلك .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٣٦ .

أما المنافق فقد وردت الآيات والأخبار في صفته وتعريفه ، فمن الآيات قوله تعالى : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً »^(١).

وقوله عز وجل « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً »^(٢).

وقوله سبحانه وتعالى « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً »^(٣).

وقوله جل وعلا « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهازأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً »^(٤).

وقوله سبحانه « الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً »^(٥).

وقوله عز من قائل « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً »^(٦).

وقوله جل شأنه « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً »^(٧).

فهذه الآيات كلها تصف المنافقين ، وبعدها الآية التي ينادي الله بها المؤمنين

(١) النساء : ١٣٧ .

(٢) النساء : ١٣٨ .

(٣) النساء : ١٣٩ .

(٤) النساء : ١٤٠ .

(٥) النساء : ١٤١ .

(٦) النساء : ١٤٢ .

(٧) النساء : ١٤٣ .

وينهاهم عن اتخاذ الكافرين أولياء ويخبرهم أنهم إذا فعلوا ذلك فقد جعلوا لله عليهم الحجة البيّنة التي لا تقبل الاعتذار ولا تقبل التسوية ولا يمكن التخلص من عذاب المنافقين أبداً ، ثم يبيّن كيفية عذابهم ومكانه كما سمعت ما ذكر في ذلك .

وأما الروايات التي تذكر علامات المنافق فمنها :

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال لقمان لابنه : يا بني لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها (الى قوله :) للمنافق ثلاث علامات : يخالف لسانه قلبه ، وقلبه فعله ، وعلايته سريره ^(١) .

وعن أبي الحسن الأول عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أربع يفسدن القلب وينبتن النفاق في القلب كما ينبت الماء الشجر : استماع اللغو ، والبذاء ، وإتيان باب السلطان ، وطلب الصيد ^(٢) .

وعن أبي جعفر عليه السلام : لا تقم الى الصلاة متكاسلاً ولا متناعساً ولا متناقلاً فإنها من خلال النفاق ، وقد نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقوموا الى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم ، وقال للمنافقين : « وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » ^(٣) .

وعن عبد الله بن سنان قال : كنا جلوساً عند أبي عبد الله عليه السلام إذ قال له رجل من الجلساء : جعلت فداك يا ابن رسول الله أخاف عليّ أن أكون منافقاً ، فقال له : إذا خلوت في بيتك نهائراً أو ليلاً أليس تصلي ؟ فقال : بلى ، فقال : فلمن تصلي ؟ فقال : لله عز وجل ، فقال : فكيف تكون منافقاً وأنت تصلي لله عز وجل ولا لغيره ^(٤) .

(١) الخصال : ج ١ ص ١٢١ ح ١١٣ باب الثلاثة .

(٢) الخصال : ج ١ ص ٢٢٧ ح ٦٣ باب الأربعة .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٥٦٦ ح ٦٣٥ ، والآية ١٤٢ من سورة النساء .

(٤) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٥٦٦ ح ٦٣٦ .

تأمل أيها العبد المسلم في هذا الحديث لتعرف أن الذي يصلي في مكان وحده وأن صلاته خالصة لله عز وجل لا يمكن أن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وأن الذي يفعل ذلك فهو منافق وإن صلى وصام، وليعلم أن صلاته ليست خالصة لله. وعن أبي المعز الخفاف رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من ذكر الله عز وجل في السر فقد ذكر الله كثيراً ، إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السر فقال الله عز وجل : « يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » (١).

وعن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : إن المنافق ينهي ولا ينتهي ، ويأمر بما لا يأتي ، وإذا قام إلى الصلاة اعترض ، قلت : يا ابن رسول الله ما الاعتراض قال : الالتفات ، فإذا ركع ربح ، يمسي وهمته العشاء وهو مفطر ، ويصبح وهمه النوم ولم يسهر ، وإن حدثك كذبك ، وإن ائتمنته خانك ، وإن غبت اغتابك ، وإن وعدك أخلفك (٢).

وعن سعيد بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : مثل المنافق مثل جذع النخل أراد صاحبه أن ينتفع به في بعض بنيانه فلم يستقم له في الموضع الذي أراد فحوله في موضع آخر فلم يستقم ، فكان آخر ذلك أن أحرقه بالنار (٣).

وقال الصادق عليه السلام : أربع علامات للنفاق : فساد القلب ، وجور العين ، والاصرار على الذنب ، والحرص على الدنيا (٤).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ثلاث من كن فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : من إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا

(١) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٥٦٦ ح ٦٣٧ .
(٢) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٥٦٦ ح ٦٣٨ .
(٣) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٥٦٧ ح ٦٣٩ .
(٤) بحار الانوار : ج ٧٢ ص ١٧٦ ب ١٠٣ ح ٤ .

وعد أخلف، إن الله عز وجل قال في كتابه : «إن الله لا يحب الخائنين»^(١) وقال : «أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين»^(٢).

ومن كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام كتبه لمحمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر : ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيخزيه الله بشره، ولكنني أخاف عليكم كل منافق عالم اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون»^(٣).

فقد اتضح من كلمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن المؤمن يمنعه إيمانه عن كل سوء ولا يأتي من ناحيته شر على المؤمنين ما لم يتخذ الكافرين أولياء ، أما إذا اتخذ الكافرين أولياء فقد خرج من جماعة المؤمنين .

وبعدما عرفت المنافق بصفته وعمله وضرره على المسلمين وعرفت عقابه ومكانه في نار جهنم فاعلم أنه لا يمكنه التخلص من هذا العذاب ولا يجعل له ذلك اليوم من يشفع له كما قال تعالى : «ولن تجد لهم نصيراً» .

إن الله يخاطب نبيه الأكرم بآية كريمة أثبتها في القرآن ليقرأها كل فرد من أمة يقرأها المؤمن والمنافق ، فيقول له : إن المنافقين الذين يكون عذابهم في أسفل درك من الجحيم لن تجد لهم يوم القيامة أحداً ينصرهم فينقذهم مما هم فيه من العذاب أو يخفف عنهم شيئاً منه أو ينقلهم من تلك الطبقة السفلى الى الأعلى منها، فليعلم المنافق أنه اذا مات على ما هو عليه من النفاق فإن عذابه هو من أشد أنواع عذاب أهل النار ولا يشفع له أحد ، فإن أقرب الشفعاء الى الله هو خاتم الأنبياء وقد أخبره الله أنه لا يجد لهم نصيراً . وهذا الخبر يتضمن النهي عن الشفاعة لهم، بيّنه الله للنبي ولأمة حين وجودهم في الدنيا ليبقى راسخاً في أذهانهم وقلوبهم وليذكروهم يوم القيامة حتى لا يخطر في قلب أحد أن يشفع لأحد المنافقين

(١) الانفال : ٥٨ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٢ ص ١٠٨ ب ٩٩ ح ٨ والاية ٧ من سورة النور .

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٢٧ .

في ذلك اليوم ، فاعرف أيها الانسان الموالى للكافرين ما أبعدك عن الله وعن رسوله وعن المسلمين .

ثم الله عز وجل من شدة رحمته لعباده ورأفته بهم وجب إبعادهم عن عقابه بين لهم أن هذا المجرم المستحق لهذا النوع من العذاب اذا التفت في الدنيا الى قبح هذه الصفة وأنه لا ينبغي للانسان العاقل أن يتصف بها - لأن الله يبغضها والرسول يبغضها، ولأن فيها ضرراً على أمة الرسول بأجمعهم - فتاب الى الله منها وتركها واتصف بصفات المؤمنين فإن الله يتوب عليه ويرفع عنه العذاب الذي سجل عليه ويمحو اسمه من ديوان الأشقياء المنافقين ويثبت في ديوان السعداء المؤمنين كما هو صريح الآية في قوله :

الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله
فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً (١٤٦).

فيكون معنى الآية أن رفع العذاب عن المنافق مشروطاً بأربعة شروط :
الأول : التوبة منه ، بأن يلتفت الى قبحه وضرره فيندم على فعله ويعزم على تركه وعدم العود إليه أبداً .

الثاني : أن يكون صالحاً ، بحيث يصلح نيته ويصلح عمله ويصلح ما أمكنه إصلاحه مما أفسده النفاق ، فلا تكون أعماله إلا أعمالاً حسنة يرضى بها الله ورسوله وتكون نافعة للمؤمنين مضادة للكافرين والمنافقين ليشعر أصحابه المنافقون أنه قد انفصل منهم وباينهم ودخل في زمرة المؤمنين .

الثالث : الاعتصام بالله تعالى ، قال الراغب في مفرداته : الاعتصام الاستمسك^(١)
فيكون هذا التائب بعدما كان متمسكاً بالشیطان حينما كان منافقاً وبعدهما عرف

أنّ ذلك التمسك لا ينفعه ولا يخلصه من العذاب يتمسك حينئذٍ بالله بحيث تكون أعماله وأفعاله بأمر الله وإرادته وصادرة عن رضاه بالطريق الذي عينه الله له وهو الرسول الأعظم والقرآن والعالم بتأويل القرآن ، كل ذلك عن تدبر وتأمل ومعرفة .

الرابع : الاخلاص لله في دينه ، قال الراغب في مفرداته : الخالص كالصافي إلا أنّ الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه^(١) . فيكون المقصود من قوله تعالى : « وأخلصوا دينهم » هو أن ينقوا قلوبهم ونفوسهم وصدورهم من ذلك حتى يكون الدين الذي يظهر منه بالسنتهم خالصاً لله غير مشوب بشيء من الأشياء المحرمة كالنفاق المضّر بالغير ، ولا مشوباً بشيء حلال كالحصول على المال والجاء . فإذا حصلت وتحققت هذه الامور الأربعة فإنّ الله يجعل هؤلاء الذين تحققت عندهم مع المؤمنين ، ثم أخبر أنه يعطي المؤمنين أجراً عظيماً .

فالامور التي تزيل العذاب عن المنافقين شديدة تحتاج الى ملكة والى مجاهدة النفس لأجل الحصول عليها ولا تحصل بسهولة ، إلا أنّ الغاية التي تحصل من هذه الامور عظيمة جداً لا تحصل بملك الدنيا ولا تحصل لو اتفق عليها جميع العالم كما في الآية السابقة من قوله تعالى : « ولن تجد لهم نصيراً » .

قوله تعالى : يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً (١٧٤) .

إنّ الله قد وجه النداء في هذه الآية لكافة الناس وعموم المكلفين وأخبرهم بأنه قد أرسل لهم نبياً يدعوهم الى عبادة الله وتوحيده ، وأنّ هذا النبي يقيم لهم برهاناً ودليلاً على كل شيء يأمرهم به وينهاهم عنه ، وأنّ ما جاء به هو من عند

الله حق لا مريية فيه ولا يعتريه شك وكل ذلك بدليل وبرهان ، وأن الرجل الآتي الذي لم يتعلم في مدرسة ولم يحضر على أحد من العلماء ولم يجتمع معهم في معاهدهم ومحافلهم ثم يأتيهم بهذه الامور الحكيمة مقرونة بالبرهان والدليل يكون ذلك منه أكبر برهان على صدق دعواه وصحة مايقوله ، وبحكم العقل بوجوب متابعتة وامتنال أوامره ونواهيه .

وحيث إن الله قد أبطل في الآيات السابقة كل الأقوال الباطلة من أقوال النصارى واليهود والمنافقين ، وأنزل القرآن على خاتم الأنبياء مشتملاً على الحجج والبراهين ، وإن كل كلام اذا كان مستنداً الى حجة قوية لا يمكن دفعها يكون بمنزلة النور في الطريق لمن كان له عين يبصر بها فلا يعتريه ضلال وضياح ، كذلك الكلام المشتمل على برهان لا يعتريه الشك والريب اذا سمعه العاقل الطالب للحق فيكون التعبير عن القرآن بالنور من هذه الجهة ، فإن الذي يسلك الطريق الذي يدل عليه الرسول اذا كان مؤمناً بالله ومصدقاً برسوله و متمسكاً بالقرآن لا يمكن أن يضل أو يتيه أو يميل عن الطريق يميناً وشمالاً .

فاذا سلك الانسان العاقل الطريق الذي أرشده الله إليه ودله الرسول عليه تعهد له الله أن يعطيه ثلاثة امور وهي التي بينها في قوله :

فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم الله في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً (١٧٥) .

هذا بيان من الله لكافة الناس الذين ناداهم في الآية السابقة ، ووعد صادق وبشارة عظيمة لمن آمن بالله وصدق بالنبي المعتبر بالبرهان وتمسك بالقرآن المعبر عنه بالنور وعمل به ولم يمل يميناً أو شمالاً ، وعده الله أن يعطيه هذه الامور الثلاثة : الأول : بدخله في رحمته ، وهذا أمر يشمل الدنيا والآخرة . أما رحمته في

الدنيا فهي نجاته من كل شيء يوجب له الخروج عن الدين أو الميل عنه بحيث يوجب العقاب في الآخرة ، وأما رحمة الآخرة فهي الدخول في الجنة ولا غاية بعدها .
الثاني : الفضل من الله ، والفضل هو الشيء الزائد عما يستحقه العامل ، ولا يخفى أن الشيء الذي يسميه الله فضلاً ليس كفضل العباد ، وقد يكون بعضه أفضل من الدنيا وما فيها من أولها الى آخرها .

الثالث : « ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » فإذا هدى العبد الى الطريق المستقيم تكون جميع أفعاله وأقواله مطابقة للحكمة في كل وقت وزمان ولا يسلك طريقاً إلا بهداية من الله ورضاً منه . وهذه الامور الثلاثة تجمع لصاحبها خير الدنيا والآخرة .
وعن ابن عباس قال : الرحمة الجنة ، والفضل ما يتفضل به عليهم بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً » يريد ديناً مستقيماً ^(١) .

والدين المستقيم هو من أهم الامور بل هو الوحيد الذي لا يساويه شيء ، فإن أهل الأديان كل واحد منهم يدعى أن دينه هو الحق وصاحب هذا الدين قد شهد الله له بأحقية دينه فهو على علم من صحة دينه ويقين من أمره .
أيها المؤمن إنك تطلب من الله في كل يوم وليلة عشر مرات على الأقل أن يهديك الى الصراط المستقيم وذلك عند صلاتك حيث تقول : « إهدنا الصراط المستقيم » وفي هذه الآية يقول الله لنا : إن من آمن بالله واعتصم به فسوف يهديه الله الى الصراط المستقيم ويعطيه أيضاً أمرين آخرين « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً »
فان كنت صادقاً في دعوتك خالصاً في عبادتك فينبغي لك أن تعرف حقيقة الايمان بالله وكيفية الاعتصام به لتكون مشمولاً لهذه الامور الثلاثة :

(١) الدخول في الرحمة . (٢) والاستحقاق لفضله . (٣) والاهتداء الى الصراط

المستقيم .

(١) تفسير ابن عباس المطبوع مع مجموعة التفاسير : ج ٢ ص ٢١٨ نقلاً بالحق .

أما حقيقة الايمان بالله فهي الاعتراف بالوحدانية والعدل والاعتراف بصفاته الثبوتية والسلبية والاذعان بها عن يقين صادق، ولازم هذا الايمان التصديق بالرسول وامتنال أوامر الله التي يخبر عنها الرسول واستعمال الشيء فيما خلق لأجله، فإن البصر إنما اعطي للانسان ليميز به طريقه الذي يريد سلوكه، ولينظر به الى من يخاطبه من الناس فيعرفهم بأشخاصهم، ولينظر به الى ما يأكله ويشربه، وليتقي بواسطته عن عدوه اذا أقبل عليه يريد به سوء أو مكروهاً، ولغير ذلك من فوائد البصر . وقد ذكر الله في الآية المتقدمة « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » والنور هو الذي يضيء للانسان الطريق حتى يسير مستقيماً معتدلاً لا يميل عنه يميناً أو شمالاً فيقع في متاهة ويضل الطريق ويكون نصيبه الهلاك الأبدي. فهذا النور الذي أنزله الله المعبر به عن القرآن يبين لنا طريق الآخرة ، ويوضح لنا أحكام الدين ، ويرشدنا الى النافع والضار ، ويميز بين الرشd والغى ، فيرتفع به الجهل ويزول العمى ، فمن عمل بأحكام القرآن بأخذها ممن يعرف تأويل القرآن فقد انتفع بالنور حيث استعمله فيما اريد منه ، فهذا هو حقيقة الايمان بالله .

وأما كيفية الاعتصام: فإن الاعتصام هو الاستمسك بالشيء خوفاً من السقوط الموجب للهلاك ، فالانسان الذي يريد أن يطوي الدنيا ليصل الى الآخرة ويريد أن يكون هناك منعماً غير معذب عليه أن يعتصم بالقرآن بعد أن يكون مؤمناً وقد عرفت أن الاعتصام هو الامساك بالشيء خوفاً من السقوط ، ومعنى الامساك هو أن يشد بيديه على الحبل كما عبّر عنه النبي ﷺ بالحبل ، وهذا الحبل هو الحبل اذا غفل وتراخت يده عن امساكه فلت الحبل من يده فسقط ، وبالسقوط يكون هلاكه ، وعلى هذا يكون معنى الاعتصام الذي يستحق صاحبه النخال الثلاثة التي وعد بها الله هو أن تكون عقيدته وأعماله مطابقة للقرآن مأخوذة ممن يعرف معناه وهو الذي قرنه النبي بالقرآن حين أرشده الى الهدى بقوله : إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله حبل ممدود من السماء الى

الأرض وعترتي أهل بيتي^(١).

فإذا عرفت أيها المؤمن حقيقة الايمان وعرفت كيفية الاعتصام وعملت بهما حينئذ تستحق من الله ما وعدك به في قوله: « فَاَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا » .

ماقاله الفيض الكاشاني :

قال عند تفسير قوله تعالى : « إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » : في المعاني وتفسير الامام عن الصادق عليه السلام يعني : أرشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك والمبلغ الى جنتك والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب أو أن نأخذ بأرائنا فنهلك . وعن أمير المؤمنين عليه السلام : يعني آدم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا .

أقول : لما كان العبد محتاجاً الى الهداية في جميع اموره آنأ فآنأ ولحظة فلاحظة فإدامة الهداية هي هداية اخرى بعد الهداية الاولى ، فتفسير الهداية بإدامتها ليس خروجاً عن ظاهر اللفظ .

وعنه عليه السلام : الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام ، وفي الآخرة طريق المؤمنين الى الجنة .

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام : وهي الطريق الى معرفة الله وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، فأما الصراط في الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة ، وهو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله بقوله : من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية . من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم .

وعنه عليه السلام : إن الصراط أمير المؤمنين علي عليه السلام .

وفي رواية أخرى : إنه معرفة الامام .

وفي أخرى : نحن الصراط المستقيم .

والقمي عنه عليه السلام : الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، فمنهم من

يمر عليه مثل البرق ، ومنهم من يمر عليه مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمر

عليه ماشياً ، ومنهم من يمر عليه حبواً ، ومنهم من يمر عليه متعلقاً فتأخذ النار

منه شيئاً وتترك شيئاً .

وفي رواية أخرى : إنه مظلم يسمى الناس عليه على قدر أنوارهم .

أقول : ومآل الكل واحد عند العارفين بأسرارهم وبيانه على قدر فهمك

أن لكل إنسان من ابتداء حدوده الى منتهى عمره انتقالات جيلية باطنية في الكمال

وحرركات طبيعية ونفسانية تنشأ من تكرار الأعمال وتنشأ منها المقامات والأحوال

فلا يزال ينتقل من صورة الى صورة ومن خلق الى خلق ومن عقيدة الى عقيدة

ومن حال الى حال ومن مقام الى مقام ومن كمال الى كمال حتى يتصل بالعالم

العقلي والمقربين ، ويلحق بالملأ الأعلى والسابقين إن ساعده التوفيق وكان من الكاملين

أو بأصحاب اليمين إن كان من المتوسطين ، أو يحشر مع الشياطين وأصحاب الشمال

إن ولّاه الشيطان وقارنه الخذلان في المآل ، وهذا معنى الصراط .

والمستقيم منه ما اذا سلكه أوصله الى الجنة ، وهو ما يشتمل عليه الشرع

كما قال الله عز وجل " وإنا نك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله ، ^(١) وهو

صراط التوحيد والمعرفة والتوسط بين الأضداد في الأخلاق والتزام صالح الأعمال .

وبالجملة ، صورة الهدى الذي أنشأ المؤمن لنفسه مادام في دار الدنيا مقتدياً

لهدى إمامه وهو أدق من الشعر وأحد من السيف في المعنى مظلم لا يهتدي إليه

إلا من جعل الله له نوراً يمشي به في الناس يسعى الناس عليها على قدر أنوارهم .

وروي عن الصادق عليه السلام : إن الصورة الانسانية هي الطريق المستقيم الى كل

خير والجسر الممدود بين الجنة والنار .

أقول : فالصراط والمار عليه واحد في كل خطوة يضع قدمه على رأسه ، أعني : يعمل على مقتضى نور معرفته التي هي بمنزلة رأسه ، بل يضع رأسه على قدميه ، أي يبني معرفته على نتيجة عمله الذي كان بناؤه على المعرفة السابقة حتى يقطع المنازل الى الله وإلى الله المصير .

وقد تبين من هذا أن الامام هو الصراط المستقيم وأنه يمشي سوياً على الصراط المستقيم ، وأن معرفته معرفة الصراط المستقيم ومعرفة الماشي على الصراط المستقيم ، وأن من عرف الامام ومشى على صراطه سريعاً أو بطيئاً بقدر نوره ومعرفته إياه فاز بدخول الجنة والنجاة من النار ، ومن لم يعرف الامام لم يدر ما صنع فتزل قدمه وتردى في النار^(١) انتهى ما في الصافي .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسير قوله تعالى : « إهدنا الصراط المستقيم » : وفيه لطائف :
اللطيفة الاولى : إن المنهج الحق في الاعتقادات وفي الأعمال هو الصراط المستقيم ، أما في الاعتقادات فبيانه من وجوه :
الأول : أن من توغل في التنزيه وقع في التعطيل ونفي الصفات ، ومن توغل في الاثبات وقع في التشبيه وإثبات الجسمية والمكان ، فهما طرفان معوجان ، والصراط المستقيم الاقرار الخالي عن التشبيه والتعطيل .
والثاني : أن من قال فعل العبد كله منه فقد وقع في القدر ، ومن قال لا فعل للعبد فقد وقع في الجبر ، وهما طرفان معوجان ، والصراط المستقيم إثبات الفعل للعبد مع الاقرار بأن الكل بقضاء الله .

وأما في الأعمال فنقول : من بالغ في الأعمال الشهوانية وقع في الفجور ، ومن بالغ في تركها وقع في الجمود ، والصراط المستقيم هو الوسط وهو العفة . وأيضاً

من بالغ في الأعمال الغضبية وقع في التهور ، ومن بالغ في تركها وقع في الجبن ، والصراط المستقيم هو الوسط وهو الشجاعة .

اللطيفة الثانية: أن ذلك الصراط وصفه بصفتين : أولهما إيجابية والآخرى سلبية . أما الإيجابية فكون ذلك الصراط صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وأما السلبية فهي أن تكون بخلاف صراط الذين فسدت قواهم العلمية بارتكاب الشهوات حتى استوجبوا غضب الله عليهم ، وبخلاف صراط الذين فسدت قواهم النظرية حتى ضلوا عن العقائد الحققة والمعارف اليقينية .

اللطيفة الثالثة : قال بعضهم : إنه لما قال : « إهدنا الصراط المستقيم » لم يقتصر عليه بل قال : « صراط الذين أنعمت عليهم » ، وهذا يدل على أن المؤيد لاسبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل ، وذلك لأن النقص غالب على أكثر الخلق وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط ، فلا بد من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل ذلك الكامل ، فحينئذ يصل إلى مدارج السعادات ومعارج الكمالات^(١) انتهى .

وقد تبين واتضح مما ذكر أن الله عز وجل قد وصف المؤمنين بأنهم اعتصموا بالله ، وعرفت معنى الاعتصام وهو التمسك بالشئ خوفاً من السقوط كمن يتمسك بجبل أو عمود إذا كان تحته بحر يخاف السقوط فيه ، فإذا تراخت يده شيئاً قليلاً أفلت الجبل من يده وسقط . فالاعتصم بالله إذا فعل شيئاً أخذه عن غير الطريق الذي نصبه الله لعباده فقد أخل بالاعتصام ، فإذا استغفر وتاب ورجع إلى الاعتصام فقد حفظ نفسه واستقام على الصفة المطلوبة ، وإن استمر في العصيان والتمادي ودخل في القسم الآخر المقابل للمعتصمين بالله خرج حينئذ من حزب المؤمنين ، فالله تعالى يريد من المؤمنين أن يعتصموا به ويستمدوا منه في كل وقت

وزمان وفي جميع أفعالهم وأقوالهم .

وقد مرت عليك كلمة الفخر الرازي بأن الإنسان لا يتمكن أن يسلك طريق الهدى إلا بواسطة شيخ عالم يهديه الطريق ويدلّه على الأمور الحسان ويردعه عما يضلّه ، فإن كان الشرط في سائر المؤمنين أن يكونوا في جميع أعمالهم معتمدين بالله فكيف ينبغي أن يكون الشيخ المعلم لهم ومن أين تعلم هذا الشيخ ما يعلم به سائر الناس ؟ لا بدّ وأن يكون الله قد هياً لهذا الشيخ أسباب العصمة فهو في جميع أعماله معصوم عن الزلل والخطأ ، وهذا ما ينطبق عليه قول الفرقة الإمامية من وجوب وجود المعصوم حتى يرجع إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم .

قال الراغب في مفرداته : وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم، ثم بإتزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق ، قال تعالى : « والله يعصمك من الناس »^(١) انتهى .

ولا يخفى على ذوي الألباب أن من يجعله الله مرشداً لعباده لا بدّ وأن يخصه بهذه الصفات، فالأنبياء وأوصياؤهم لا بدّ من القول بعصمتهم وإلا فلا يمكن الاعتماد على أقوالهم إذا كانوا مثل سائر الناس .

(١) المفردات : ص ٣٣٧ مادة « عصم » والاية ٦٧ من سورة المائدة .

سورة المائدة

عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه : نزلت المائدة قبل أن يقبض النبي صلى الله عليه وآله بشهرين أو ثلاثة ^(١).

وعن عيسى بن عبدالله عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً ، وإنما كان يؤخذ عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بآخره ، فكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، فنسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء. لقد نزلت عليه وهو على بغلته الشهباء وثقل عليه الوحي حتى وقفت وتدلى بطنها حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض، وانغمى على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وضع يده على ذؤابة شيبه بن وهب الجمحي ، ثم رفع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقرأ علينا سورة المائدة فعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وعملنا ^(٢).

عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لي : يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت: نعم، فقالت : أما أنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ^(٣).

(١) و (٢) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٨٨ .

(٣) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٢ .

في أنه لم ينسخ من المائدة شيء ————— ٢٢٥

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا : قال رسول الله ﷺ : المائدة من آخر القرآن تنزيلاً فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها^(١) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي ميسرة قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة وأن فيها لسبع عشرة فريضة^(٢) .

وأخرج الفريابي وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي ميسرة قال : في المائدة ثمان عشرة فريضة ليس في سورة من القرآن غيرها وليس فيها منسوخ :

« المنخقة والموقونة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام »^(٣) و « الجوارح مكبلين »^(٤) و « طعام الذين اتوا الكتاب ... والمحصنات من الذين اتوا الكتاب »^(٥) و « تمام الطهور إذا قمت إلى الصلاة فاغسلوا »^(٦) و « السارق والسارقة »^(٧) و « ما جعل الله من بحيرة »^(٨) ... الآية^(٩) .

وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال : لم ينسخ من المائدة شيء^(١٠) .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن المنذر عن ابن عون قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شيء ؟ فقال : لا^(١١) .

(١) و (٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) المائدة : ٣ .

(٤) المائدة : ٤ .

(٥) المائدة : ٥ .

(٦) المائدة : ٦ .

(٧) المائدة : ٣٨ .

(٨) المائدة : ١٠٣ .

(٩) و (١٠) و (١١) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٢ .

تقسيم الطنطاوي لسورة المائدة :

وقد قسم الطنطاوي سورة المائدة الى :

- ١- الحلال والحرام في الصيد ونحوه. من أول السورة الى قوله: «الخاسرين»،^(١).
- ٢ - طهارة الجسم بالماء ، وطهارة القلب بالصلاة وبالعدل وشكر النعمة .
من قوله : « يا أيها الذين آمنوا - الى قوله :- وعلى الله فليتوكل المؤمنون »،^(٢).
- ٣ - أخذ العهد على بني إسرائيل بالصلاة والزكاة والايمان فنقضوا عهدهم
وكذلك النصارى ، وتوبيخ الطائفتين وتقريعهم ، وقصة دخول بني إسرائيل بيت
المقدس . من قوله : « ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل - الى قوله :- على القوم
الفاسقين »،^(٣).
- ٤ - قصة إبنی آدم ، وكيف كان الظلم قديماً كما صار حديثاً. من قوله :
« واتل عليهم - الى قوله : - فأصبح من النادمين »،^(٤).
- ٥ - حكم القاتل وقاطع الطريق والسارق . من قوله : « من أجل ذلك
- الى قوله :- والله على كل شيء قدير »،^(٥).
- ٦ - أحكام التوراة والانجيل والقرآن وأن أهل كل كتاب يحكمون به .
من قوله : « يا أيها الرسول لا يحزنك - الى قوله :- يوقنون »،^(٦).
- ٧ - أمر الله المؤمنين أن لا يتولوا اليهود والنصارى وأن لا يرتدوا. وتقريع
اليهود والنصارى على ذنوبهم. من قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود

(١) المائدة : ١ - ٥ .

(٢) المائدة : ٦ - ١١ .

(٣) المائدة : ١٢ - ٢٦ .

(٤) المائدة : ٢٧ - ٣١ .

(٥) المائدة : ٣٢ - ٤٠ .

(٦) المائدة : ٤١ - ٥٠ .

والنصارى - الى قوله :- و كثير منهم ساء ما يعملون ،^(١).

٨ - أمر الله النبي ﷺ أن يبلغ الرسالة ووعده أن يحفظه من الناس ، وأن يجاهد اليهود والنصارى بأنهم ليسوا على شيء من دينهم ، و ذكر فريقين من النصارى هادين وضالين ، و ذم اليهود . من قوله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - الى قوله :- أولئك أصحاب الجحيم »^(٢).

٩ - الحلال والحرام في الصيد ، و ذكر الخمر والميسر ونحوهما . من قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم - الى قوله :- فينبئكم بما كنتم تعملون »^(٣).

١٠ - نوع من الشهادات . من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم - الى قوله :- والله لا يهدي القوم الفاسقين »^(٤).

١١ - خطاب الله لعيسى بن مريم يوم القيامة وجوابه . من قوله : « يوم يجمع الله الرسل ... الى آخر السورة »^(٥).

وقبل شروعه في تفسير السورة ذكر مقدمة لها قال فيها :

نزلت سورة المائدة بالمدينة إلا قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم » فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفة فقرأها النبي ﷺ في خطبته وقال : يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها .

قال البغوي : روي عن ميسرة أن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها وهي قوله تعالى :

(١) المائدة : ٥١ - ٦٦ .

(٢) المائدة : ٦٧ - ٨٦ .

(٣) المائدة : ٨٧ - ١٠٥ .

(٤) المائدة : ١٠٦ - ١٠٨ .

(٥) المائدة : ١٠٩ - ١٢٠ .

- ١ - والمنخنقة ، ٢ - والموقوفة ، ٣ - والمتردية ، ٤ - والنطيحة ، ٥ - وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم ، ٦ - وما ذبح على النصب ، ٧ - وأن تستقسموا بالأزلام ، ٨ - وما علمتم من الجوارح مكلّبين ، ٩ - وطعام الذين اتوا الكتاب حلّ لكم ، ١٠ - والمحصنات من الذين اتوا الكتاب ، ١١ - وتمايم بيان الطهر في قوله : « إذا قمتم إلى الصلاة » ، ١٢ - والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، ١٣ - لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ١٤ - ما جعل الله من بحيرة ، ١٥ - ولا سائبة ، ١٦ - ولا وصيلة ، ١٧ - ولا حام ، ١٨ - شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت .

أقول : وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما حرم وكان حلالاً عند العرب ، وهو سبعة .

والثاني : ما أحلّ ، وهو سبعة .

والثالث : وهو أربعة أقسام : ما يفيض إلى تنزيه الجسم من الأقدار الحسية والمعنوية وهي النجس والحدث ، وإلى تنزيه النفوس من الخيانة في الأموال بالسرقات ، وإلى عدم قتل الحيوان في أحوال خاصة ، وإلى العدل في الشهادات ، فهذه هي (١٨) .

فلنشرح :

١ - أولاً هذه الأقسام الثلاثة .

٢ - ثم لا يسن كيف أباح الله قتل الحيوان مع أنه رحيم ؟ وكيف اجتمعت الرحمة والابلام في عالمنا الأرضي ؟

٣ - وبيان الحيوانات الآكلة والمأكولة .

٤ - وكيف كان النظام يطلب ذلك ؟

٥ - وكيف اختلف نوع الإنسان باختلاف الحيوان ؟ وكيف كان الإسلام

وسطاً ؟ وكيف كان الله هو الملهم والمعلم بالالهام تارة وبالاختبار تارة أخرى ؟

٦ - وتحريم أكل الطيور النافعة للإنسان شرعاً .

٧ - وكيف سمى الله هذه السورة مائدة وبسط فيها الحلال والحرام ؟

٨ - وكيف كانت هذه السورة هي مفتاح لباب العلوم الحيوانية حتى يلج

منها المسلمون فيعرفوا الضار^١ والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى واختبار الضار^٢ والنافع فيحفظون ما ينفعهم ويحرمون أكله ؟ وفي ذلك باب واسع لدرس الحيوانات كلها ولسائر مافي الأرض ، وهذا بحر مستمد^٣ من قوله تعالى : « هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً » ^(١) فلا بد^٤ من دراسة العالم الذي نحن فيه .

وأما البقاء على الجهالة العمياء في الاسلام وذلك باب يجر^٥ الى فناء هذه الأمة وقيام غيرها مقامها ، فليس علم الفقه المعروف كل شيء بل هو جزء قليل جداً من الدين ، والدين لا يزال بحاله . فليقم في الاسلام عقلاء وليفكروا ، فهذا موسمهم والله قد أذن بذلك . فهذه ثمان مسائل فلنبتديء بالمسألة الاولى فنقول :

١ - شرح هذه الأقسام الثلاثة ذات المسائل الثماني عشرة :

القسم الأول : ما كان حلالاً وحرم القرآن ، وهو سبعة ، خلاف الأربعة التي

حرمت قبل هذه السورة في القرآن وهي : الميتة والدم والخنزير وما أهلك^٦ لغير الله به ، فيكون هذا بما اضيف إليه أحد عشر محرماً ... الخ ^(٢) .

ثم يذكر بعد هذه المحرمات الواردة في الشرع المذكورة في كتب الفقه

ثم يذكر ما أحله القرآن ثم يذكر بعض الامور النافعة ، وسوف نذكر بعضها في محلها إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود احلت لكم بهيمة الانعام

الا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ان الله يحكم ما

يريد (١) .

(١) البقرة : ٢٩ .

(٢) تفسير الجواهر : ج ٣ ص ١١٦ .

لقد تحقق مما مرّ أمور :

الأول : لقد تبين مما ذكرنا من أقوال المفسرين من أن هذه السورة هي آخر القرآن نزولاً ، وأن أحكامها كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء ، فيلزم علينا تحليل حلالها وتحريم حرامها ، كما ذكر عن النبي ﷺ .

الثاني : أن المقصود من الوفاء هو إتيان الشيء وافيّاً لانقص فيه . قال الراغب في مفرداته : وفى بعهد يفي وفاءً وأوفى : إذا تمم العهد ولم ينقض حفظه .

الثالث : أن المقصود من العقود هي العهود ، فإن العقد هو ربط شيء بشيء آخر أو ربط أحد طرفي الشيء بطرفه الآخر ، كربط أحد طرفي الحبل بطرفه الآخر بحيث لا يحلّ بنفسه إلا أن يحلّه العاقد بتكليف ، وهذا المعنى إنما يكون في الأجسام ثم استعير للمعاني في الأمور التي تقع بين شخصين كعقد البيع وعقد الزواج وغير ذلك من العقود التي تقع بين اثنين بحيث يكون تحقق العقد وحصوله في الخارج من طرفين ، ويتصور هذا على ثلاثة أقسام :

الأول : العقد بين الله وعبده .

الثاني : العقد بين إنسان وشخص آخر من الناس .

الثالث : العقد بين إنسان ونفسه .

أما العقد بين الله وبين عبده فإنه يشمل جميع العهود التي عهد الله بها إلى عبده المؤمن الذي ناداه بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فإنه عهد إليه بالواجبات والمحرمات بأن يفعل الواجب ويترك المحرم .

روى عن ابن عباس : أن المراد بالعقود عهود الله التي عهد بها إلى عباده ، أي ما أحلّ وما حرم وما فرض وما حدّ في القرآن كله لا غدر فيها ولا نكث^(١) .

وفي التفسير المنسوب إلى ابن عباس قال في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » : أتموا العهود التي بينكم وبين الله أو بين الناس ، ويقال

أتموا الفرائض التي عليكم مع القبول يوم الميثاق وفي هذا الكتاب^(١).

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال الشيخ في تفسيره بعد ذكر الآية الشريفة : هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المعترفين بوحدانيته عز وجل المقرين له بالعبودية المصدقين لرسوله ﷺ في نبوته وفي ما جاء به من عند الله من شريعة الاسلام، أمرهم الله بإيفاء العقود وهي العهود التي عاهدوها مع الله وأوجبوا على أنفسهم حقوقاً وألزموا نفوسهم بها، فروضاً أمرهم الله تعالى بالاتمام بالوفاء والكمال لما لزمهم. يقال: أوفى بالعهد ووفى به، وأوفى به لغة أهل الحجاز، وهي لغة القرآن.

واختلف أهل التأويل في العقود التي أمر الله تعالى بالوفاء بها في هذه الآية بعد إجماعهم على أن المراد بالعقود العهود، فقال قوم : هي العقود التي كان أهل الجاهلية عاقد بعضهم بعضاً على النصره والمؤازرة والمظاهرة على من حاول ظلمهم أو بغاهم سوء، وذلك هو معنى الحلف. ذهب إليه ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس والضحاك وقتادة والسدي وسفيان الثوري.

والعقود جمع عقد وأصله عقد الشيء بغيره وهو وصله به كما يعقد الحبل إذا وصل به شيء. يقال : ومنه عقد فلان بينه وبين فلان عقداً فهو يعقده وذلك إذا واثقه على أمر عاهده على عهد بالوفاء له بما عاقده عليه من أمان أو ذمة أو نصره أو نكاح أو غير ذلك.

قال قتادة : هي عقود الجاهلية الحلف.

ويقال: أعقدت العسل فهو عقيد ومعقد، وروى بعضهم عقدت العسل والكلام وعقدت.

وقال آخرون: هي العهود التي أخذ الله على عباده بالإيمان به وطاعته فيما

(١) التفسير المنسوب لابن عباس المطبوع بهامش الدر المنثور : ج ١ ص ٣١٥ .

أحلّ لهم وحرم عليهم . روي ذلك عن ابن عباس وقال : هو ما أحلّ وحرم وما فرض وما أحد في القرآن كلّهُ فلا تتعدوا ولا تنكثوا ثم سدد فقال : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، الى قوله : «سوء الدار»^(١) . وبه قال أيضاً مجاهد . وقال قوم : بل العقود التي يتعاقدها الناس بينهم ويعقدها المرء على نفسه كعقد الايمان وعقد النكاح وعقد العهد وعقد البيع وعقد الحلف . ذهب إليه عبد الله ابن عبيدة وابن زيد وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه .

وقال آخرون : ذلك أمر من الله لأهل الكتاب بالوفاء بما أخذ به ميثاقهم من العمل بما في التوراة والانجيل في تصديق محمد ﷺ وما جاء به من عند الله . ذكر ذلك ابن جريح وأبو صالح .

وقال الجبائي : أراد به الوفاء بالايمان فيما يجوز الوفاء به ، فأما ما كان يميناً بالمعصية فعليه حنثه وعليه الكفارة ، وعندنا أن اليمين في معصية لا تنعقد ولا كفارة في خلافها .

وأقوى هذه الأقوال ما حكيناه عن ابن عباس أن معناه أوفوا بعقود الله التي أوجبها عليكم وعقدها فيما أحلّ لكم وحرم وألزمكم فرضه وبيّث لكم حدوده، ويدخل في جميع ذلك ما قالوه إلا ما كان عقد على المعاونة على أمر فبيع فإن ذلك محظور بلا خلاف^(٢) انتهى .

والذي يظهر من الآية الشريفة هو الذي قواه الشيخ الطوسي وهو المحكي عن ابن عباس من أن المعنى المقصود من العقود هي عقود الله التي أوجبها على عباده وعقدها فيما أحلّ وحرم^(٣) .

ولا يخفى أن الله قد أخذ العهد والميثاق من عباده في مقامين :

(١) الرد : ٢٥ .

(٢) التبيان : ج ٣ ص ٤١٤ - ٤١٥ مع اختلاف يسير .

(٣) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٥٢ .

في أن الله تعالى أخذ الميثاق من عباده في مقامين ————— ٢٨٣

المقام الاول : هو العهد والميثاق الذي أخذه في عالم الذر ، وهو الذي

يشير إليه بقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، ^(١) فَإِنْ جَاءَكَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ ذِكْرٌ فَاذْكُرُونَهُمْ هَذِهِ الْآيَةُ إِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ كَالذَّرِّ ^(٢) .

وروي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى أهبط ظملاً من الملائكة على آدم وهو بوادي يقال له الروحاء ، وهو وادي بين الطائف ومكة ، ثم صرخ بذريته وهم ذر ، فخرجوا كما يخرج النحل من كورها ، فاجتمعوا على شفير الوادي . فقال الله لآدم : انظر ماذا ترى ؟ قال آدم : ذراً كثيراً على شفير الوادي . فقال الله : يا آدم هؤلاء ذريتك أخرجتهم من ظهرك لآخذ عليهم الميثاق لي بالربوبية ، ولحمد بالنبوة كما أخذته عليهم في السماء . قال آدم : وكيف سميهم ظهري ؟ قال تعالى : يا آدم بلطف صنيعي ونافذ قدري . قال آدم : يارب فما تريد منهم في الميثاق ؟ قال الله : أن لا تشركوا بي شيئاً . قال آدم : فمن أطاعك منهم يارب فما جزاؤه ؟ قال تعالى : اسكنه جنتي . قال آدم : فمن عصاك فما جزاؤه ؟ قال : اسكنه ناري . قال آدم : يارب لقد عدت فيهم وليعصينك أكثرهم إن لم تعصمهم ^(٣) .

وقال علي بن ابراهيم القمي في تفسيره :

وأما قوله : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى » فإنه حدثني أبي عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن ابن سنان قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : أول من سبق من الرسل

(١) الاعراف : ١٧٢ .

(٢) راجع مجمع البيان : ج ٤ ص ٤٩٧ .

(٣) بحار الانوار : ج ١٤ ص ٩ ب ١ ح ٨ .

الى « بلى » محمد ﷺ ، وذلك أنه كان أقرب الخلق الى الله تبارك وتعالى ، وكان بالمكان الذي قال جبرئيل لما أسرى به الى السماء : تقدم يا محمد فقد وطأت موطئاً لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل. ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه ، فكان كما قال الله « قاب قوسين أو أدنى »^(١) أي : بل أدنى ، فلما خرج الأمر من الله وقع الى أوليائه ﷺ ، فقال الصادق عليه السلام : كان الميثاق مأخوذاً عليهم لله بالربوبية ولرسوله بالنبوة ولأمير المؤمنين والأئمة بالامامة ، فقال : ألت بربكم ومحمد نبيكم وعلي إمامكم والأئمة الهادون أئمتكم ؟ قالوا : بلى . فقال الله تعالى : « شهدنا أن تقولوا يوم القيامة » أي : لئلا تقولوا يوم يوم القيامة « إنا كنا عن هذا غافلين » .

فأول ما أخذ الله عز وجل الميثاق على الأنبياء لله بالربوبية وهو قوله : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم »^(٢) فذكر جملة الأنبياء ثم أبرز أفضلهم بالأسامي فقال : « ومنك » يا محمد ، فقدم رسول الله ﷺ لأنه أفضلهم . « ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء ورسول الله ﷺ أفضلهم ثم أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله على الأنبياء بالايمان به وعلى أن ينصروا أمير المؤمنين فقال : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم »^(٣) يعني رسول الله « لتؤمنن به ولتنصرنه » يعني أمير المؤمنين وأخبروا اممكم بخبره وخبر وليه من الأئمة ﷺ .

حدثني أبي عن محمد بن أبي عمير عن عبدالله بن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام وعن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « لتؤمنن به ولتنصرنه » قال : قال : ما بعث الله نبياً من لدن آدم وهلم جراً إلا ويرجع الى الدنيا فيقاتل وينصر رسول

(١) النجم : ٩ .

(٢) الاحزاب : ٧ .

(٣) آل عمران : ٨١ .

في أن الله تعالى أخذ الميثاق من عباده في مقامين ————— ٢٨٥
الله ﷻ وأمير المؤمنين ﷺ، ثم أخذ أيضاً ميثاق الأنبياء على رسول الله ﷺ
فقال : « قل ، يا محمد ، آمناً بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق
بين أحد منهم ونحن له مسلمون »^(١).

وحدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله ﷺ : « وإن
أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم
قالوا بلى ، قلت : معاينة كان هذا ؟ قال : نعم ، فثبتت المعرفة ونسوا الموقف
وسيدك رونه ، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه ، فمنهم من أقر بلسانه
في الذر ولم يؤمن بقلبه فقال الله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل »^(٢)
انتهى كلام القمي .

وقال العلامة المراغي في ذكر المعنى الجملي لقوله تعالى : « وإن أخذ
ربك من بني آدم ... الخ » :

بعد أن ذكر سبحانه هدايته للبشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة
بني إسرائيل قفى على ذلك بذكر هدايته لهم بما أودع في فطرتهم وركب في
عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى فهو سبحانه
بعد أن أظهر تمادي هؤلاء اليهود في النفي بعد أخذ الميثاق الخاص الذي دل
عليه قوله : « وإن نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة »^(٣) وقوله : « وإن أخذنا
ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور »^(٤) ذكر هنا أنهم نقضوا أيضاً الميثاق العام
الذي أخذه على بني آدم جميعاً وهم في صلب آدم ، وأشركوا بالله وقالوا

(١) آل عمران : ٨٤ .

(٢) تفسير القمي : ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ والاية ٧٤ من سورة يونس .

(٣) الاعراف : ١٧١ .

(٤) البقرة : ٦٣ .

عزيز ابن الله .

ثم قال في إيضاح معنى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ... الخ » : أي : « وإذ أكرأهم الرسول للناس كافة مأخذ الله من ميثاق الفطرة على البشر عامة إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً إثر بطن وخلقهم على فطرة الاسلام بما أودع في قلوبهم من غريزة الايمان اليقيني بأن " كل فعل لابد له من فاعل ، وأن " فوق كل العوالم القائمة على سنة الأسباب والمسببات سلطاناً أعلى على جميع الكائنات هو المستحق " للعبادة وحده ، وأشهد كل واحد من هؤلاء الذرية الحادثة جيلاً بعد جيل على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداده قائلاً لهم قول إرادة وتكوين لا قول وحى وتبليغ : أأست بربكم ؟ فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال : أنت ربنا المستحق " وحدك للعبادة . فالكلام من قبيل التمثيل . وله نظائر في القرآن الكريم وأساليب العرب كقوله تعالى بعد ذكر خلق السماء : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين »^(١) وقوله : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون »^(٢) وقول بعض العرب : قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني فإن الذي ورائي ما خلاني ورائي . أي ورأيي^(٣) انتهى وسوف نذكر بقية ما قيل في هذه الآية عند الوصول إليها إن شاء الله تعالى .

المقام الثاني : في اليهود التي أخذها الله من عباده - وهم في الدنيا وهم يعقلون ويفهمون - بواسطة الأنبياء والرسل ، فإن كل رسول مبعوث من قبل الله إذا آمن به كل الأمة وبعضها يبلغهم من الله بما يريد الله من المؤمنين فيبايعونه على فعل ما يأمرهم به ولا يحل لهم عقلاً مخالفته وترك كل الأوامر أو بعضها عمداً ونحن أمة محمد ﷺ حينما اعتنقنا الدين الاسلامي صرنا ملزمين بكل ما أنى به

(١) فصلت : ١١ .

(٢) النحل : ٤٠ .

(٣) تفسير المراغى : ج ٩ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

في أن الله تعالى أخذ الميثاق من عباده في مقامين ————— ٢٨٧
النبي من أحكام الحلال والحرام وشملنا كل ما عقد الله به على عباده وألزمه إيتائهم
من الإيمان وبملائكته وكتبه ورسله وأوصيائه رسله .

وقد تقدم بعض الكلام على ذلك في آخر آية من سورة البقرة وهي قوله:
« آمن الرسول بما أنزل إليه ... الخ » ويلزم على المسلم مراعاة الحدود والأوامر
والنواهي في كل كبيرة وصغيرة . فينبغي لنا أن نستمع إلى كلمات النبي ﷺ
مع أول جماعة اعتنقت الدين الإسلامي وما بينه لهم من الشروط التي يجب الوفاء
بها ويعرف أن نكثها أو نقضها وعدم الوفاء بها موجب للخروج عن الإسلام .
روي أنه قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم
العرب وهما من الخزرج ، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهرأ
طويلاً ، وكانوا لا يضعون السلاح إلا بالليل ولا بالنهار ، وكان آخر حرب بينهم يوم
بعث ، وكانت للأوس على الخزرج ، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في
عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس .

وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة ، فنزل عليه فقال له : إنه كان
بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناك نطلب الحلف عليهم ، فقال له عتبة : بعدت
دارنا عن داركم ، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء . قال : وما شغلكم وأنتم في حرمكم
وأمنكم؟ قال له عتبة : خرج فينا رجل يدعي أنه رسول الله ، سفته أحلامنا وسب
آلهتنا وأفسد شبائنا وفرق جماعتنا . فقال له أسعد : من هو منكم؟ قال : ابن عبد الله
ابن عبد المطلب ، من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً .

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود - الذين
كانوا بينهم النظير وقريظة وقينقاع - أن هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجر
بالمدينة لنقتلنكم به يامعشر العرب .

فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود ، قال : فأين هو؟
قال : جالس في الحجر ، وأنهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم ، فلا تسمع منه

ولأنكلمه فإنه ساحر يسحرك كلامه . وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب . فقال له أسعد : فكيف أصنع وأنا معتمر ؟ لا بد لي أن أطوف بالبيت . قال : ضع في اذنيك القطن .

فدخل أسعد المسجد وقد حشى اذنيه بالقطن ، فطاف بالبيت ورسول الله ﷺ جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم ، فنظر إليه نظرة فجازه ، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه : ما أجد أجهل مني ، أكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أتعرفه حتى أرجع الى قومي فاخبرهم . ثم أخذ القطن من اذنيه ورمى به ، وقال لرسول الله : أنعم صباحاً ، فرفع رسول الله رأسه إليه وقال : قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة : السلام عليكم . فقال له أسعد : إن عهدك بهذا لقريب ، الى ما تدعو يا محمد ؟ قال : الى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأدعوكم الى أن لا تشرکوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيتاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ،^(١) .

فلما سمع أسعد هذا قال له : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، إنا من أهل يشرب من الخمر رج ، وبيننا وبين إخواننا من الأوس حبال مقطوعة ، فإن وصلها الله بك ولا أجد أعز منك ، ومعى رجل من قومي ، فإن دخل في هذا الأمر ورجوت أن يتمم الله لنا أمرنا فيك . والله يا رسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك ويبشروننا بمخرجك ويخبروننا بصفتك ، وأرجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا ، فقد أعلمنا اليهود ذلك ، فالحمد لله الذي

ساقني إليك ، والله ما جئت إلا لنطلب الحلف على قومنا ، وقد آتانا الله بأفضل مما أتيت له .

ثم أقبل ذكوان فقال له أسعد : هذا رسول الله ، الذي كانت اليهود تبشرنا به وتخبّرنا بصفته ، فهلمّ وأسلم ، فأسلم ذكوان . ثم قالوا : يا رسول الله ابعت معنا رجلاً يعلمنا القرآن ويدعو الناس الى أمرك ، فبعث معهم مصعب بن عمير... الخ^(١) . فمضى معهما مصعب بن عمير الى المدينة ونزل على أسعد بن زرارة وجعل يعلمهم القرآن ويدعو الناس الى الاسلام دعاية حسنة بكلام لين ، فصار الناس يدخلون في الدين الاسلامي ، فلم يبق بيت من الأوس والخزرج إلا ويدخل منه الرجل والرجلان سوى أربعة بيوت ، وكاتت طريقة دعاية مصعب منحصرة في قراءة آيات من القرآن تتقدمها كلمة قصيرة هي أن يقول لهم : إني أعرض عليكم أمراً إن قبلتموه دخلتم فيه ، وإن كرهتموه نحينا عنكم ما تكرهون ، ثم يقرأ عليهم القرآن ، فكانوا يسرعون الى الاسلام .

وإني أذكرك أيها الشاب المسلم قصة رجل واحد - نقلها صاحب البحار - لتعرف كيف يتأثر العربي بسماع القرآن .

جاء مصعب بن عمير مبعوث النبي مع أسعد بن زرارة الى محلة سعد بن معاذ فقعده على بشر من آبارهم ، واجتمع إليه قوم من أحداثهم وهو يقرأ عليهم القرآن فبلغ ذلك سعد بن معاذ فقال لاسيد بن حضير وكان من أشرفهم : بلغني أن أبا أمامة أسعد بن زرارة قد جاء الى محلّتنا مع هذا القرشي يفسد شبّاننا ، فائته وأنه عن ذلك ، فجاء اسيد بن حضير فنظر إليه أسعد فقال لمصعب : إن هذا رجل شريف ، فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمّ أمرنا ، فأصدق الله فيه . فلما قرب اسيد منهم قال : يا أبا أمامة يقول لك خالك : لاناأنا في نادينا ولا نفسد شبّاننا واحذر الأوس على نفسك . فقال مصعب : أو تجلس فنعرض عليك أمراً فإن أحببته

دخلت فيه، وإن كرهته نحينا عنك ماتكروه . فجلس فقرأ عليه سورة من القرآن فقال : كيف تصنعون اذا دخلتم في هذا الأمر؟ قال : نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين ونشهد الشهادتين ونصلي ركعتين . فرمى اسيد بنفسه مع ثيابه في البئر ثم خرج وعصر ثوبه . ثم قال : اعرض علي . فعرض عليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالها ثم صلى ركعتين^(١).

هذه قصة رجل سمع القرآن ، فعرف أنه كلام الله وأن المنزل عليه هو نبي . مبعوث من الله ، فرمى بنفسه في البئر لتحقيق الغسل ، وأن المسلم ينبغي أن يكون مثل هذا الرجل مبادراً لأمر الله بعدما يعلم أن القرآن هو منزل من عند الله . ولكن المسلمين في هذا العصر قد ضعف إيمانهم فترك الكثير منهم الصلاة ، والذي لا يصلي يتهاون أيضاً في غسل الجنابة ويخالف أحكام القرآن فيترك الواجب ويفعل المحرم ، وهذا خلاف ما أملاه النبي ﷺ على أسعد من شروط الاسلام في الآيات المتقدمة ، ثم إن الذين أسلموا من أهل المدينة قد جاؤوا الى النبي ﷺ في السنة الثانية واجتمعوا به وبايعوه وسألوه عما يجب عليهم لله وما يلزمهم لرسول الله ﷺ .

ثم قال في البحار :

وخرج من خرج من الأنصار الى الموسم مع حجاج قومهم ، فاجتمعوا في الشعب عند العقبة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان في أيام التشريق بالليل فقال ﷺ : ابايعكم على الاسلام ، فقال له بعضهم : نريد أن نعرف فذا يارسول الله مال الله علينا ومالك علينا وما لنا على الله ؟ فقال النبي ﷺ : أما الله عليكم فأن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً ، وأما مالي عليكم فتصرونني مثل نسائكم وأبنائكم ، وأن تصبروا على عض السيف وإن يقتل خياركم .

قالوا : فاذا فعلنا ذلك مالنا على الله ؟

في الشروط التي يلزم على من دخل في الاسلام أن يتصف بها ————— ٢٩١
قال: أما في الدنيا فالظهور على من عاداكم وفي الآخرة رضوانه والجنة .
فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق لنمنعك بما نمنع
به أزدنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلفة ، ورتناها
كباراً عن كبار .

فقال أبو الهيثم: إن بيننا وبين الرجال حباً، وإنا إن قطعناها أو قطعوها
فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا؟ فتبسم
رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم احارب من حاربتم واسالم
من سالمتم^(١).

فقد تحقق أن الاسلام والايمان يشترط في صحته وتحققه الامور التي
بينها النبي ﷺ، ولا يتحقق الاسلام بالقول وحده اذا كان مجرداً من هذه الامور
كلها أو بعضها، وهي:

(الاول) قوله تعالى: « أن لا تبشركوا به شيئاً » .

وهو عبارة عن التوحيد الخالص الذي ينعقد عليه القلب، حيث إن العرب
كانت تعبد الأصنام إما باتخاذها آلهة أو باعتقاد أنها تقرب الى الله زلفى ، فإن
العقل يحكم بأدنى تأمل بسخافة هذه العقيدة وبطلانها .

(الثاني) قوله سبحانه: « وبالوالدين إحساناً » .

لقد تكثرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار عن الأئمة
الأطهار بالوصاية بالوالدين والاحسان إليهما وإطاعة أمرهما وبرهما حين وميتين
حتى قال النبي ﷺ من جملة وصيته لأحد المسلمين: ووالديك فأطعهما وبرهما
حين كانا أو ميتين، ولو أمراك أن تخرج من مالك وأهلك فافعل فإن ذلك من
الايمان^(٢).

(١) بحار الانوار : ج ١٩ ص ٢٥ ب ٥ ح ١٥ .

(٢) الوسائل : ج ١٥ ص ٢٠٥ ب ٩٢ ح ٤ .

(الثالث) قوله عز وجل: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيتاهم» .

كانت العرب في أيام الجاهلية تقتل الأولاد مطلقاً ذكراً أو أنثى، هذا يفعله بعض العرب، حيث إنهم كانوا يخشون الفقر و كثرة العيال حيث إنهم لم يكونوا يعقلون ولا يعتقدون أن الرازق هو الله، هذا قسم منهم .

وقسم آخر كانوا يقتلون البنات فقط خشية أن يقعن في أيدي الأجانب، وهذا ناشيء من الغيرة الهوجاء التي لا يقرها العقل ولا يوافق عليها، فيعدمون حياتهن^١ الدنيوية المنقطعة لأنهم لم يكونوا متمسكين بدين ولا شريعة ولم تكن لهم عقول كاملة وأذواق سليمة ويخدعهم الشيطان فيعدمون حياة البنات الضعيفات.

أما في عصرنا هذا فإن المسلمين الذين عاهدوا الرسول حينما اعتنقوا الدين الاسلامي بأن يكون عملهم مطابقاً لأحكام القرآن وموافقاً لأوامر النبي ﷺ فإنهم يطلقون لبناتهم الحريصة فيخرجن متبرجات تبرج الجاهلية الاولى ويجالسن الرجال ويماشين الفسقة المجردين عن الدين، فتسبب هذه الأفعال الوقوع في الزنا، وهذا الفعل من الرجال يكون موجباً لفوات حياة البنات الاخرية الدائمة، وهو أعظم من الوأد والقتل الذي كان يفعله أهل الجاهلية .

(الرابع) قوله عز من قائل: «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» .

جاء في بعض التفاسير أن المراد من «الفواحش» كبائر الذنوب أو الزنا و «ما ظهر منها» نكاح امرأة الأب، «وما بطن» الزنا^(١).

وعن الباقر عليه السلام: «ما ظهر» هو الزنا «وما بطن» المخافة^(٢) بالتشديد من

الخلّة يعني اتخاذ الخليل .

(١) تفسير الصافي : ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) مجمع البيان : ج ٤ ص ٣٨٢ .

في الشرط التي يلزم على من دخل في الاسلام الانصاف بها ————— ٢٩٣
قال تعالى : « ولا تمتنعذات أخذان »^(١) وهذا يدل على أن مجالسة النساء
للرجال من الفواحش الباطنة . هذا اذا كان الجليسان مستتران عن الناس مختفيان
لا يراهما أحد ، فيعد فعلهما من الفواحش الباطنة .

أما في عصرنا الحاضر فإن المخالفة يتظاهران بها ولا يخشى الرجل أحداً
ولا المرأة تخشى أهلها ، فيعد فعلهما من ظاهر الفواحش لا مما بطن منها ، إذ أنهما
يمشيان جنباً لجنب في الشوارع ويجلسان في النادي وتخرج المرأة المسلمة متبرجة
الى الشارع والسوق على علم من ولي أمرها . وقد قال الله تعالى : « ولا تبرج
نبرج الجاهلية الاولى »^(٢) والمسلم والمسلمة لا ينبغي لهما ذلك ، ألا ومن فعل
شيئاً مما ذكر من هذه الأفعال التي نهى الله عنها فليتذكر اليوم الذي ليس فيه
خلعة ولاشفاعة كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقكم الله
من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة »^(٣).

عن محمد بن منصور قال : سألت مؤمناً صالحاً (يعني موسى بن جعفر عليه السلام)
عن قول الله عز وجل : « إنكما حرمت ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » فقال
عليه السلام : إن القرآن له ظاهر وباطن ، فجميع ما حرم الله تعالى في القرآن فهو حرام
على ظاهره كما هو في الظاهر والباطن ، من ذلك أئمة الجور ، وجميع ما أحل الله
في الكتاب فهو حلال وهو الظاهر والباطن ، من ذلك أئمة الهدى عليهم السلام^(٤).

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال : إن من شر عباد الله من تكره مجالسته لفحشه^(٥) .
وعنه صلى الله عليه وآله : إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذيء قليل الحياء لا يبالي
ما قال ولا ما قيل له ، فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغية أو شرك شيطان^(٦).

(١) النساء : ٢٥ .

(٢) الاحزاب : ٣٣ .

(٣) البقرة : ٢٥٤ .

(٤) سفينة البحار : ج ٢ ص ٣٤٧ مادة « فحش » .

(٥) و (٦) سفينة البحار : ج ٢ ص ٣٤٦ مادة « فحش » .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بأبعدكم مني شياً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الفاحش المتفحش البذيء، البخيل المختال الحفود الحسود، القاسي القلب، البعيد من كل خير يرجى، غير المأمون من كل شر يتقى^(١).

وعن محمد بن منصور قال: سألته (يعني أبا عبد الله عليه السلام) عن قوله تعالى: «واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون»^(٢) قال: فهل رأيت أحداً زعم أن الله أمره بالزنا وشرب الخمر وشيء من هذه المحارم؟ قلت: لا، قال: فما هذه الفاحشة التي يدعون أن الله أمرهم بها؟ قلت: الله أعلم ووليته، قال: فإن هذا في أولياء أئمة الجور ادعوا أن الله أمرهم بالائتمام بهم، فرد الله ذلك عليهم وأخبرهم أنهم قالوا عليه الكذب وسمى ذلك منهم فاحشة^(٣).

(الخامس) قوله جل ثناؤه: «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق».

قالوا: إن قتل النفس بالحق يكون في ثلاثة مواضع:

١ - كفر بعد إيمان.

٢ - زنا بعد إحصان.

٣ - القود: وهو قتل من قتل نفساً عمداً بلا ذنب، وهو الذي نبهنا الله عليه

بقوله: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب»^(٤).

(السادس) قوله عز شأنه: «ولا تقربوا مال اليتيم».

حذر الكتاب والسنة من التقرب إلى مال اليتيم إلا لأجل منفعته. أما كله

(١) سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٤٦ مادة «فحش».

(٢) الاعراف: ٢٨.

(٣) سفينة البحار: ج ٢ ص ٣٤٦ مادة «فحش».

(٤) البقرة: ١٧٩.

في الشروط التي يلزم على من دخل في الاسلام الاتصاف بها ————— ٢٩٥

في الأخذ منه فهو من أكبر الكبائر ويكفي قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ » (١) فيلزم على
كل مسلم المحافظة على مال اليتيم حتى يكبر فيسلم اليه .

(السابع) قوله جلّ وعلا : « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » .

لقد أمر الله العباد في آيات عديدة بإيفاء الكيل والوزن بالقسط وأن لا
يبخسوا الناس شيئاً من حقوقهم وتوعد المطففين بالويل ، والويل وادٍ في جهنم
كما يظهر من الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال رسول الله ﷺ ذات يوم : يا علي
إِنَّ جبرئيل أخبرني أَنَّ أمتي تغدربك من بعدي ، فويل ثم ويل لهم ثلاث مرات
قلت : يا رسول الله وما ويل ؟ قال : وادٍ في جهنم ، أكثر أهليه معادوك والقاتلون
لذريتك والناس كمنون لبيعتك ... الخ (٢) .

(الثامن) قوله سبحانه وتعالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » .

هذا هو الشرط الثامن من شروط الاسلام وهو يشمل جميع الأقوال والأفعال
التي يأتي بها الانسان ، فيلزمه أن تكون أقواله مطابقة للعدل الذي يرضى به
الله ولا يكون فيها شيء من الجور والظلم والحيث . قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » (٣) فالعدل هو مقابلة الشيء بمثله إن خيراً فخير ، وإن شراً
فشر ، والإحسان هو المضاعفة في الخير والعفو في الشر .

سئل أمير المؤمنين أيهما أفضل العدل أو الجور ؟ قال : العدل يضع الأمور
مواضعها ، والجور يخرجها عن وجهتها ، والعدل سائس عام ، والجور عارض خاص

(١) النساء : ١٠ .

(٢) بحار الانوار : ج ٨ ص ٣١٢ ب ٢٤ ح ٨٢ .

(٣) النحل : ٩٠ .

فالعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا^(١).

وقال النبي ﷺ : أَعْدِلْ النَّاسَ مِنْ رِضَى الْمَنَاسِ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ وَكَرِهَ لَهُمْ مَا كَرِهَ لِنَفْسِهِ^(٢).

إنَّ العَدْلَ لَازِمٌ وَفَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَمَعَ كُلِّ أَحَدٍ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْحَاكِمِ بَيْنَ النَّاسِ أَشَدُّ لَزُومًا، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : العَدْلُ حَسَنٌ وَلَكِنْ فِي الْأَمْرَاءِ أَحْسَنُ^(٣).

ولما دخل رسول ملك الروم على كسرى رآه قد فتح بابه ورفع حجابَه فقال له : لقد أقدرت عليك بفتحك الباب ورفعك الحجاب ، قال كسرى : إنما أتحصن من عدوي بعدلي ، وإنما انصبت هذا المنصب وجلست هذا المجلس لقضاء الحاجات ودفع الظلّامات ، فإن لم تتصل الرعية إليّ فمتى أقضي حاجاتها وأدفع ظلّاماتها^(٤) ؟

وروي عن النبي ﷺ : السّلطان ظلّ الله في الأرض ، يأوي إليه كل مظلوم فمن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، ومن جار كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر حتى يأتيهم الأمر^(٥).

وعن محمد الحلبي أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى ، « أن الله يحيي الأرض بعد موتها »^(٦) قال: العَدْلُ بَعْدَ الْجَوْرِ^(٧).

وأما صفة العادل فهي كما روي عن النبي ﷺ أنه قال : من عامل الناس

(١) بحار الانوار : ج ٧٥ ص ٣٥٠ ب ٨١ ح ٥٩ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٥ ص ٢٥ ب ٣٥ ح ١ .

(٣) ارشاد القلوب : ص ١٩٣ ب ٥٢ .

(٤) سفينة البحار : ج ٢ ص ١٦٧ مادة « عدل » .

(٥) بحار الانوار : ج ٧٥ ص ٣٥٤ ب ٨١ ح ٦٩ .

(٦) الحديد : ١٧ .

(٧) الروضة من الكافي : ص ٢٦٧ .

في الشروط التي يلزم على من دخل في الاسلام الاتصاف بها ————— ٢٩٧
فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته
وظهرت عدالته ووجبت اخوته وحرمت غيبته^(١).

وعن الصادق عليه السلام قال: من صلى خمس صلوات في اليوم والميلة في جماعة فظنوا
به خيراً وأجيزوا شهادته^(٢).

بقي أمر مهم وهو أنه لا ريب عند من آمن بالنبي ﷺ أن دينه خير
الأديان وأن شريعته أسمع الشرائع، وإذا طلب من أحدهم أن يصف عدل الأديان
لا يصف غير دين محمد. ثم إنني أرجو من المؤمن الجاني على نفسه - بترك الواجب
أو بارتكاب المحرم - أن يلتفت الى هذه الكلمة الصادرة من الامام الصادق عليه السلام فإنه
قال: إن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم عمل بغيره^(٣).

فإنك أيها المؤمن إذا وصفت دين محمد بأنه أعدل الأديان ثم خالفته وعملت
بضده، بحيث تصف الدين بأنه يوجب الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصفه بأنه يحرم الخمر والميسر والظلم والرياء
والغيبة والنميمة وغيرها وأنت ترتكب جميع ذلك أو بعضه، فإذا فعلت سوف تشتد
حسرتك يوم القيامة، فارحم نفسك واعطف عليها فإنها أعز الأنفس عليك. وقد
فسر «الفاوون» في قوله تعالى: «فكذبوا فيها هم والفاوون»^(٤) بمن وصف العدل
ثم خالفه^(٥).

(التاسع) قوله تبارك وتعالى: «وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم
تذكرون».

هذا هو الشرط التاسع من الاسلام التي يلزم من دخل في الاسلام أن يتصف

(١) بحار الانوار: ج ٧٠ ص ١ ب ٣٩ ح ١.

(٢) بحار الانوار: ج ٧٠ ص ٢ ب ٣٩ ح ٣.

(٣) سفينة البحار: ج ٢ ص ١٦٧ مادة «عدل».

(٤) الشعراء: ٩٤.

(٥) تفسير البرهان: ج ٣ ص ١٨٥.

بها ، وهذا الشرط عين مانحن فيه من معنى الآية وهي قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود » فَإِنَّ الآية تفيد أن كل عقد وعهد يأخذه الله على العباد يلزمهم الوفاء به ، وهذا المعنى هو نفس هذه الجملة وهي قوله : « وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا » وهذا وحده اذا تمسك به العبد يكون متصفاً بجميع الشروط ، فَإِنَّ كل واحد من الشروط عهد من الله على عباده يلزمهم الوفاء به .

ثم إن هذه الشروط هي التي يبينها لأول جماعة آمنوا به من أهل المدينة أما الذين جاؤوا في السنة الثانية وهم ثلاثة وسبعون وامرأتان فقد أخذ عليهم النبي ﷺ إضافة الى ما سبق وهو الشرط (العاشر) وذلك في قوله « وَأَمَّا مَالِي عَلَيْكُمْ فَمَنْصُورٌ نِي مِثْلَ نِسَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا عَلَى عِصِّ السَّيْفِ وَإِنْ يَقْتُلْ خِيَارَكُمْ »^(١) فهذه شروط ثلاثة جمعها النبي ﷺ في هذه الجملة :

الأول : أنه يجب على المسلم أن ينصر النبي ﷺ حياً وميتاً ، واذا رأى أحداً يتلاعب بسنة النبي أو بحديثه أو يضع حديثاً عن لسان النبي ﷺ كذباً واقتراء يلزمه اذن ، ويتمحتم عليه أن يقابل ذلك المتلاعب أو ذلك الواضع ويبطل قوله ويظهر كذبه .

الثاني : اذا اقتضى المقام الحرب والجهاد يلزم الحرب حتى ينتصر ويتغلب على الكافرين أو يقتل .

الثالث : اذا رأى المسلمون خيارهم قد قتلوا يلزمهم الصبر والثبات والمثابرة على الحرب حتى ينتصر المسلمون ولا يذلوا ولا يتخاذلوا .

ولا يخفى أن هذه الصفات الثلاث جعلها النبي ﷺ من شروط الاسلام ، وأن كثيراً من الناس قد تجرد عنها وفقدوها ، والذي يختار الاسلام ديناً له يلزمه الانصاف بها لأن النبي أخبرهم عن الله أن الذي لله عليهم هو انصافهم بهذه الصفات وأن الذي للنبي عليهم هو النصرة له كما ينصرون نساءهم وأبنائهم ، وأن الذي لهم

على الله هو أن يظهرهم على عدوهم في الدنيا ، وأن يجبرهم برضوانه والجنة في الآخرة ، وأن الله لا ينقض عهده ولا يخلف وعده .

فلو أن المسلمين اتصفوا بالصفات المذكورة واتفقوا فيما بينهم واتفقت قلوبهم لما تمكن أعداؤهم - الصهاينة - أن يحتلوا أراضيهم ولنصرهم الله عليهم . فينبغي لنا الرجوع الى الله تعالى وإطاعة أوامره ليتحقق إسلامنا وحسنه . يفي الله لنا بوعده و وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ... الآية ،^(١) و « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ،^(٢) .

ثم إن النبي ﷺ عقد مع أصحابه بيعة أخرى هي أشد مما تقدم ، وأن كل من أسلم هو مطالب بها وهي « بيعة الرضوان » التي عقدها النبي ﷺ في غزوة الحديبية .

والأنسب أن أذكر لك غزوة الحديبية من أولها ليتضح لك الأمر تماماً .

قال علي بن ابراهيم في تفسير سورة الفتح وسبب نزولها :

حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان سبب نزول هذه السورة وهذا الفتح العظيم أن الله عز وجل أمر رسول الله ﷺ في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلق مع المحلقين ، فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا ، فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن وساق رسول الله ﷺ ستاً وستين بدنة وأشعرها عند إحرامه ، وأحرموا من ذي الحليفة ملبسين بالعمرة ، وساق من ساق منهم الهدى مشعرات مجلات .

فلما بلغ قريشاً ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً ليستقبل رسول الله ﷺ فكان يعارضه على الجبال ، فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذن بلال وصلى رسول الله ﷺ بالناس ، فقال خالد بن الوليد :

(١) الاعراف : ٢٩ .

(٢) محمد : ٧ .

لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم فإنهم لا يقطعون صلاتهم ولكن نجى لهم الآن صلاة أخرى أحب إليهم من ضياء أبصارهم (أرجو من المسلم المتهاون بالصلاة أن يتأمل في هذه العبارة ليعرف محل الصلاة عند المسلم)^(١) . فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم ، فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف بقوله : «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة»^(٢) الآية .

فلما كان في اليوم الثاني نزل رسول الله ﷺ الحديبية وهي على طرف الحرم ، وكان رسول الله يستنفر بالأعراب في طريقه معه فلم يتبعه أحد ويقولون: أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم ؟ إنه لا يرجع محمد وأصحابه إلى المدينة أبداً . فلما نزل رسول الله الحديبية خرجت قريش يحلفون باللات والعزى لا يدعون محمدًا يدخل مكة وفيهم عين تطرف ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ : إني لم آت لحرب وإنما جئت لأقضي نسكي وأنحر بدني واخلي بينكم وبين لحمانها . فبعثوا عروة بن مسعود الثقفي وكان عاقلاً لبيباً وهو الذي أنزل الله فيه «وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»^(٣) فلما أقبل على رسول الله ﷺ عظم ذلك وقال : يا محمد تركت قومك وقد ضربوا الأبنية وأخرجوا العود المطافيل^(٤) يحلفون باللات والعزى لا يدعوك تدخل مكة فإن مكة حرمهم وفيها عين تطرف أفتريد أن تبعد أهلك وقومك يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ : ما جئت لحرب وإنما جئت لأقضي نسكي فأنحر بدني واخلي بينكم وبين لحمانها ، فقال عروة : بالله ما رأيت كاليوم أحداً صد كما صدت . فرجع إلى قريش وأخبرهم ، فقالت قريش : والله لئن دخل محمد مكة وتسامعت به

(١) ما بين القوسين من المؤلف - رحمه الله - .

(٢) النساء : ١٠٢ .

(٣) الزخرف : ٣١ .

(٤) عود - كطود - المسن ، المطافيل : ذوات أظفار .

العرب لنذان* ولتجترين علينا العرب .

فبعثوا حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو فلما نظر إليهما رسول الله ﷺ قال : ويح قريش قد نهكتهم الحرب ، ألا خلوأ بيني وبين العرب ، فإن أك صادقاً فإنما أجز الملك إليهم مع النبوة ، وإذ أك كاذباً كفتهم ذؤبان العرب ، لا يسألني اليوم امرؤ من قريش خطة ليس لله فيها سخط إلا أجبتهم إليه .

قال : فوافوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ألا ترجع عنا عامك هذا الى أن ننظر الى ماذا يصير أمرك وأمر العرب ، فإن العرب قد تسامعت بمسيرك ، فإن دخلت بلادنا وحرمتنا استذلكتنا العرب واجترأت علينا ، ونخلي لك البيت في العام القابل في هذا الشهر ثلاثة أيام حتى تقضي نسكك وتنصرف عنا . فأجابهم رسول الله ﷺ الى ذلك وقالوا له : وترد إلينا كل من جاءك من رجالنا ونرد إليك كل من جاءنا من رجالك ؟ فقال رسول الله ﷺ : من جاءكم من رجالنا فلاحاجة لنا فيه ولكن على أن المسلمين بمكة لا يؤذون في إظهارهم الاسلام ولا يكرهون ولا ينكر عليهم شيء يفعلونه من شرايع الاسلام . فقبلوا ذلك .

فلما أجابهم رسول الله ﷺ الى الصلح أنكر عامة أصحابه وأشد ما كان إنكاراً عمر بن الخطاب ، فقال : يا رسول الله : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ! فقال : نعم . قال فنعطى الذلة (الدنية خ) في ديننا ! قال : إن الله قد وعدني ولن يخلفني . قال : لو أن معي أربعين رجلاً لخالفته .

ورجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف الى قريش فأخبرهم بالصلح فقال عمر : يا رسول الله ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ونحلق مع المحلقين ؟ فقال : أمن عامنا هذا وعدتك ؟ قلت لك : إن الله عز وجل قد وعدني أن أفتح مكة وأطوف وأسعى مع المحلقين . فلما أكثروا عليه ﷺ قال لهم : إن لم تقبلوا الصلح فحاربوهم . فمروا نحو قريش وهم مستعدون للحرب ، وحملوا عليهم فانهزم أصحاب رسول الله ﷺ ومروا برسول الله ﷺ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : يا علي خذ

السيف واستقبل قريشاً ، فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام سيفه وحمل على قريش ، فلما نظروا الى أمير المؤمنين عليه السلام تراجعوا وقالوا : يا علي بدا لمحمد فيما أعطانا ؟ فقال : لا .

وتراجع أصحاب رسول الله ﷺ مستحيين وأقبلوا يعتذرون الى رسول الله ، فقال لهم رسول الله ﷺ : أستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم وإذا تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، ^(١) أستم أصحابي يوم أحد إذ تصعدون ولا تلذون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ؟ أستم أصحابي يوم كذا ؟ فاعتذروا الى رسول الله ﷺ وندموا على ما كان منهم وقالوا : الله أعلم ورسوله فاصنع ما بدا لك .

ورجع حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو الى رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمد قد أجابت قريش الى ما اشترطت عليهم من إظهار الاسلام وأن لا يكره أحد على دينه ، فدعا رسول الله ﷺ بالمكتب ودعا أمير المؤمنين عليه السلام وقال له : اكتب ، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو : لانعرف الرحمن اكتب كما كان يكتب آباؤك - باسمك اللهم - فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم فإنه اسم من أسماء الله ، ثم كتب : هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله والملا من قريش . فقال سهيل بن عمرو : لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك ، اكتب : هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبد الله ، أتأنف من نسبك يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا رسول الله وإن لم تقرؤا . ثم قال : امح يا علي واكتب محمد بن عبد الله ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما أمحو اسمك من النبوة أبداً ، فمحاء رسول الله بيده .

ثم كتب : هذا ما اصطلاح عليه محمد بن عبد الله والملا من قريش وسهيل بن عمرو ، اصطحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكف بعض عن بعض

وعلى أن لأسلال ولا أغلال^(١) وأن^(٢) بيننا وبينهم غيبة مكفوفة ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل ، وأنه من أتى من قريش إلى أصحاب محمد بغير إذن وليه يرد إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه إليه ، وأن يكون الاسلام ظاهراً بمكة لا يكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يعير ، وأن^(٣) محمداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه ثم يدخل علينا في العام القابل مكة فيقيم فيها ثلاثة أيام ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافرين ، السيوف في القراب .

وكتب علي بن أبي طالب عليه السلام وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار .
ثم قال رسول الله ﷺ : يا علي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة فوالذي بعثني بالحق نبياً لتجيبن^(٤) أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد^(٥) . فلما كان يوم صفين ورضوا بالحكمين كتب : هذا ما اصطاح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، فقال عمرو بن العاص : لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ولكن اكتب : هذا ما اصطاح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . فقال أمير المؤمنين : صدق الله ورسوله ذلك ، ثم كتب الكتاب .
قال : فلما كتبوا الكتاب قامت خزاعة فقالت : نحن في عهد محمد رسول الله وعقده ، وقامت بنو بكر وقالت : نحن في عهد قريش وعقدها ، وكتبوا نسختين نسخة عند رسول الله ونسخة عند سهيل بن عمرو ، ورجع سهيل بن عمرو وحفص ابن الأحنف إلى قريش فأخبراهم .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه : انحروا بدنكم واحلقوا رؤوسكم ، فامتنعوا وقالوا : كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة ، فاغتم رسول الله ﷺ من ذلك وشكا ذلك إلى أم سلمة فقالت : يا رسول الله انحروا

(١) أسلال : سل السيف ، أغلال : الاسارة .

(٢) مض مضيقاً : ألم من وجع المصيبة ، مضطهد : المقهور المظلوم .

أنت وخلق . فنحر رسول الله ﷺ وخلق ونحر القوم على حيث يقين وشك^١ وارتياب ، فقال رسول الله ﷺ تعظيماً للبدن : رحم الله المحلقين ، وقال قوم : لم يسوقوا البدن يا رسول الله والمقصرين لأن من لم يسق هدياً لم يجب عليه الحلق ، فقال رسول الله ﷺ ثانياً : رحم الله المحلقين الذين لم يسوقوا الهدى ، فقالوا : يا رسول الله والمقصرين ؟ فقال : رحم الله المقصرين .

ثم رحل رسول الله ﷺ نحو المدينة فرجع الى التنعيم ونزل تحت الشجرة فجاء أصحابه الذين أنكروا عليه الصلح واعتذروا وأظهروا الندامة على ما كان منهم وسألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم^(١) انتهى .

ثم اعلم يا أخي المسلم ! إني إنما ذكرت لك هذه القصة بطولها لكي يتضح لك معنى البيعة التي يعقدها النبي مع المسلم ، فإنه لما نزل تحت الشجرة طلب من أصحابه البيعة ، فإنهم وإن بايعوه في أول دخولهم في الاسلام ولكنهم حيث لم يعرفوا حقيقة البيعة أراد النبي ﷺ أن يبين لهم شروط البيعة قال تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ... الخ »^(٢) .

فقد اشترط النبي ﷺ عليهم :

١ - أن لا ينكروا على رسول الله بعد ذلك شيئاً بفعله .

٢ - أن لا يخالفوه في شيء يأمرهم به .

فمن وفى بهذا الشرط ولم ينقضه يشمله رضا الله في قوله تعالى « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة »^(٣) .

٣ - إن البيعة هي عبارة عن بيع النفس بالجنة ، فهي الجهاد في سبيل الله

(١) تفسير القمي : ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٤ مع بعض الاختصار .

(٢) الفتح : ١٠ .

(٣) الفتح : ٨ .

في معنى قوله تعالى «ويسلموا تسليماً» ٣٠٥
بأمر النبي ﷺ .

فقد اتضح لنا أن الدخول في الاسلام هو بمعنى البيعة مع النبي والذي يبايع النبي إنما يبايع الله كما هو صريح الآية ، فيلزمه أن يفى بالشروط التي تقدم ذكرها ، فلا يمكن لمسلم أن ينكر شيئاً يفعل به رسول الله ﷺ ، ولا يمكن أن يخالف شيئاً من أوامره ، ويلزمه امتثال جميع أوامره .

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه تلا هذه الآية : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »^(١) فقال : لو أن قوماً عبدوا الله ووجدوه ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله لو صنع كذا وكذا أو وجدوا ذلك في أنفسهم كانوا بذلك مشركين . ثم قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » قال : هو التسليم في الامور . بيان : «لو» في قوله « لو صنع » للمتنى^(٢) انتهى .

عن سعيد بن غزوان قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : والله لو آمنوا بالله وحده وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم لم يسلموا لكانوا بذلك مشركين ، ثم تلا هذه الآية : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »^(٣) .

وعن أبي بصير قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قوله : « ويسلموا تسليماً » قال : هو التسليم في الامور^(٤) .

وعن المفضل بن عمر قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : بأي شيء علمت الرسل

(١) النساء : ٦٥ .

(٢) بحار الانوار : ج ٢ ص ١٩٩ ب ٢٦ ح ٦١ .

(٣) بحار الانوار : ج ٢ ص ٢٠٠ ب ٢٦ ح ٦٣ .

(٤) بحار الانوار : ج ٢ ص ٢٠٠ ب ٢٦ ح ٦٤ .

أنها رسل؟ قال : كشف لها عن الغطاء، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : بأي شيء علم المؤمن أنه مؤمن؟ قال : بالتسليم لله في كل ماورد عليه^(١) .

وقد مرّ الكلام في هذا في تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة »^(٢) ولقد بسطنا الكلام في هذا الموضوع ليتضح للمسلم معنى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »^(٣) فإن هذه الأمور كلها عقود اخذت على المسلم حين اعتنق الدين الاسلامي ، وكلما خالف واحداً منها فقد نكث العهد ، فيخرج بهذا النكث عن الدين .

ثم إنّ للدين والاسلام شروطاً غير ما ذكر ينبغي للمسلم مراعاتها وهي التي ذكرها الله في بيعة النساء وقد شرطها النبي صلى الله عليه وآله في عقد البيعة مع الرجال في بعض المقامات .

قال الشيخ الطبرسي في بيان معنى قوله تعالى :

« يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يساتين يبهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبایعنهن » واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم^(٤) .

ذكر سبحانه بيعة النساء وكان ذلك يوم فتح مكة لما فرغ النبي صلى الله عليه وآله من بيعة الرجال وهو على الصفا ، جاءته النساء يبایعنه فنزلت هذه الآية ، فشرط الله في مبايعتهن أن يأخذ عليهن هذه الشروط وهو قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك ، على هذه الشروط وهي :

« أن لا يشركن بالله شيئاً ، من الأصنام والأوثان .

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص ٢٠١ ب ٢٦ ح ٦٩ .

(٢) البقرة : ٢٠٨ .

(٣) المائدة : ١ .

(٤) المتحنة : ١٢ .

في الشروط التي أخذها النبي ﷺ على النساء في بيعتهن له ————— ٣٠٧

« ولا يسرقن ، لا من أزواجهن* ولا من غيرهم .

« ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، على وجه من الوجوه لا بالوآد ولا بالاسقاط .

« ولا يأتين بيهتان يفترينه ، أي : بكذب يكذبنه في مولود يـوجد « بين

أيديهن* وأرجلهن* » أي : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن . عن ابن عباس .

وقال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا وادي منك ،

فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد اذا وضعته الام*

سقط بين يهديها ورجليها ، وليس المعنى على نهيهن* من أن يأتين بولد من الزنا

فينسبته الى الأزواج ، لأن* الشرط بنهي الزنا قد تقدم .

وقيل : البهتان الذين نهين عنه قذف المحصنات والكذب على الناس وإضافة

الأولاد الى الأزواج على البطالان في الحاضر والمستقبل من الزمان .

« ولا يعصينك في معروف ، هو جميع ما يأمرهن* به لأنه لا يأمر إلا بالمعروف ،

والمعروف نقيض المنكر وهو ما دل* العقل والسمع على وجوبه ونهيه ، وسمي معروفاً

لأن* العقل يعترف به من جهة عظم حسنه ووجوبه .

وقيل : عني بالمعروف النهي عن النوح وتمزيق الثياب وجز* الشعر وشق* الجيب

وخمش الوجه والدعاء بالويل . عن المقاتلين^(١) والكلبي .

والأصل أن* المعروف كل بر* وتقوى وأمر وافق طاعة الله تعالى .

« فبايعهن* » على ذلك « واستغفر لهن* الله » أي : اطلب من الله أن يغفر

لهن* ذنوبهن* ويسترها عليهن .

« إن* الله غفور » أي : صفوح عنهن* رحيم ، منعم عليهن .

وروي أن* النبي ﷺ بايعهن* وكان على الصفا وكان عمر أسفل منه وهند

بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً أن يعرفها رسول الله ﷺ فقال : ابايعكن

على أن لا تشركن بالله شيئاً .

(١) أحدهما مقاتل بن حيان البلخي ، وثانيهما مقاتل بن سليمان .

فقات هند : إنك لتأخذ علينا أمراً مارأيناك أخذته على الرجال . وذلك أنه بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط .
فقال ﷺ : ولا تسرقن .

فقات هند : إن أبا سفيان رجل ممسك وأنا أصبت من ماله هناة فلا أدري أيحل لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من مالي فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قلت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك .
فقال ﷺ : ولا تزني .

فقات هند : أوتزني الحرة ؟ فتبسم عمر بن الخطاب لما جرى بينه وبينها في الجاهلية .

فقال ﷺ : ولا تقتلن أولادكن .
فقات هند : ربيناهم صفاراً وقتلتموهم كباراً وأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى وتبسم النبي ﷺ .

ولما قال : ولا تأتين بيهتان ، فقات هند : والله إن البهتان قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

ولما قال : ولا يعصينك في معروف ، فقات هند : ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء .

وروى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : كان النبي يبايع النساء بالكلام بهذه الآية : « أن لا يشركن بالله شيئاً » وما مست يد رسول الله يد امرأة قط إلا امرأة يملكها . رواه البخاري في الصحيح .

وروي : أنه كان اذا بايع النساء دعا بقدر ماء فغمس فيه يده ثم غمس أيديهن فيه . وقيل : إنه كان يبايعهن من وراء الثوب . عن الشعبي .

في الشروط التي أخذها النبي ﷺ على النساء في بيعتهن له ————— ٣٠٩
والوجه في بيعة النساء مع أنهن "لسن من أهل النصره بالمحاربة هو أخذ
العهد عليهن" بما يصلح من شأنهن" في الدين والأنفس والأزواج ، وكان ذلك في
صدر الاسلام ، ولئلا ينفق بهن" فتق لما وضع من الأحكام، فبايعهن" النبي حسماً
لذلك^(١) انتهى ما في المجمع .

وأخرج أحمد بن مردويه عن مھر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاءت
اميمة بنت رقيقة الى رسول الله ﷺ تباعه على الاسلام فقال : اباعك على أن
لا تشركي بالله شيئاً ولا تسرقى ولا تزني ولا تقتلي ولدك ولا تأتني ببهتان تفتريه
بين يديك ورجليك ولا تبرجي تبرج الجاهلية الاولى^(٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر
عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبي ﷺ فقال: بايعوني على أن لا تشركوا
بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا - وقرأ آية النساء - فمن وفى منكم فأجره على
الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب ذلك
شيئاً فستره الله فهو الى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له^(٣) .

وقد ظهر من هذين الحديثين :

١ - أن من شروط إسلام المرأة هو عدم تبرجها تبرج الجاهلية الاولى ، فإن
تبرجت فقد أخلت بشرط الاسلام الأساسي .

٢ - أن الرجال يشترط عليهم هذه الشروط التي ذكر للنساء .

فقد اتضح من جميع ما ذكر معنى قوله تعالى : «أوفوا بالعقود» فإن الانسان
إذا دخل في الاسلام فقد بايع الله ورسوله ، فعليه أن يلتزم بجميع الشروط التي
مر ذكرها ، فإذا نكث العهد في واحد منها فقد أخل بإسلامه ويكون ممن قال

(١) مجمع البيان : ج ٩ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٢) و(٣) الدر المنثور : ج ٦ ص ٢٠٩ .

الله فيهم « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه »^(١).

ما قاله السيد شبر :

قال في تفسيره المخطوط « الجواهر الثمين في تفسير الكتاب المبين » وهو التفسير الوسيط في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود » عن الصادق عليه السلام : أي بالعهود . وقيل : الإيفاء والوفاء بمعنى والعقد العهد الموثق ، ويشمل هذا كلما عقد الله على عباده وألزمه إيتائهم من الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله وتحليل حلاله وتحريم حرامه والانيان بفرائضه وسننه ورعايته حدوده وأوامره ونواهيه وكلما يعقده المؤمنون على أنفسهم لله وفيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات غير المحظورة^(٢).

عن الحسين بن محمد بن عامر عن المعلّى بن محمد البصري عن ابن أبي عمير عن عن أبي جعفر الثاني عليه السلام في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود » قال : إن رسول الله ﷺ عقدها عليهم لعلي بالخلافة في عشرة مواطن ، ثم أنزل الله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود » التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين عليه السلام^(٣). فهذه الأمور التي بينها النبي حين عقد البيعة مع الرجال والنساء تكون كأصول أساسية لتحقيق البيعة وعقدها ، أو بتحقيق هذه الأمور في الإنسان يكون مسلماً أو مؤمناً ويدخل تحت قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » . وبعد صيرورته من المؤمنين يلزمه امتثال أوامر النبي جميعها من واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات ، وهذه الأحكام تعرف من كتاب الله : « إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون »^(٤).

(١) الفتح : ١٠ .

(٢) الجواهر الثمين : (مخطوط) .

(٣) تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٥٨٣ ح ٩ ، وتفسير القمي : ج ١ ص ١٦٠ .

(٤) البقرة : ١٣٢ .

وحيث إن حياة الانسان موقوفة على الأكل والشرب ولاستقيم بدونهما ذكر الله تعالى الأشياء التي يجوز للانسان أكلها .
ولما كان الانسان أحد أنواع الحيوان فقد بين الله للانسان ما يحل له من أنواع جنسه فقال تعالى : « احلت لكم بهيمة الأنعام » .

فيما يحل أكله :

البهيمة : هي كل حيوان ذي أربع من دواب البحر والبر .
والأنعام : هي الابل والبقر والغنم .
وفي تفسير هذه الآية ثلاثة أقوال :
الأول : أن المقصود منها مطلق الأنعام، وتكون كلمة البهيمة من الاضافة البيانية . فهذا القول منقول عن الحسن وقتادة والسدي والربيع والضحاك .
الثاني : أن المقصود من البهيمة الجنين الذي يوجد في بطن أمه إذا ذكيت، بشرط أن يكون الجنين قد أشعر أو أوبر، وهو المقصود بما ورد في الروايات : ذكاة الجنين ذكاة أمه . وهذا القول مروي عن الباقر والصادق عليهما السلام ، وقال به ابن عباس وابن عمر .

الثالث : أن المقصود من بهيمة الأنعام الحيوان الوحشي كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش . والقول بهذا منقول عن الكلبي والفراء .
قال في التبيان ، وفي مجمع البيان : الأولى حمل الآية على الجميع ^(١) .
فقد تحقق لنا من هذه الآية أن الله أباح لنا أكل ثلاثة أنواع من الحيوان :
الأول : الأكل من لحوم الأنعام ، والأنعام تشمل ثلاثة أنواع : الابل والبقر والغنم .

الثاني : أكل أجنة هذه الأنواع الثلاثة التي توجد في بطونها بعد التذكية .

الثالث : الحيوان الوحشي من الطباء وبقر الوحش وحمر الوحش .
ولما كانت البهيمة غير مباحة بجميع أقسامها وحالاتها وأن بعض أقسامها
محرمه استثنى الله ذلك بقوله تعالى «الا ما يتلى عليكم» أي : احلت لكم بهيمة
الأنعام غير ما يتلى عليكم من الأقسام التي هي محرمة عليكم، والمراد بذلك ما قرأه
علينا النبي ﷺ من قوله تعالى : «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير
وما اهل غير الله به»^(١) فإن هذه الأشياء وإن كانت مشمولة لاسم البهيمة ولكن
الله حرمها لما يعلم فيها من المضار .

ثم استثنى سورة اخرى لايجوز منها الأكل وهي قوله تعالى : «غير محلى
الصيد وأنتم حرم» أي : اذا كنتم محرمين للحج فلايجوز لكم اصطياد البهائم
الوحشية كالطباء والحمر الوحشية، فإذا اصطدتم شيئاً فلايجوز لكم أكله. وهذا
قد حرمه الله على من أحرم للحج. أما في غير هذا الحال فهو مباح فلا مانع منه،
فقد ذكره الله تعالى في قوله : «وإذا حملتم فاصطادوا»^(٢) فإن الله يبين لنا في هذه
الجملة أن المؤمن إذا أتم حجه وحل من إحرامه فلا بأس عليه أن يصطاد ويأكل
من الصيد .

فقد ظهر مما ذكر من ابتداء الشروع بسورة المائدة الى الوصول الى هذا

المقام :

أن الأحكام الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة كلها ترتب على الوفاء
بالعقد المأمور به في قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» فمن أخل
بشيء من الأحكام للمدين الاسلامي فقد أخل بصدق اسم المؤمن عليه وقد جنى
على نفسه، فعليه أن يتدارك هذه الجناية قبل أن يمحى اسمه من جماعة المؤمنين.
هذا ما يتعلق بالآية الاولى .

(١) المائدة : ٣ .

(٢) المائدة : ٢ .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وإذا حللتهم فاصطادوا ولا يجر منكم شنثان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب (٢) .

الشعائر جمع شعيرة ، والشعيرة هي العلامة التي تعين من قبل واضعها دالة على حكم من الأحكام أو على شيء آخر ، وشعائر الله هي الأمور التي وضعها الله دالة على بعض الأشياء ، وهي بلفظها عامة ولكنها خصت في علامات الحج . فإن الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين ويقول لهم «لا تحلوا شعائر الله» أي: كل علامة جعلتها لفعل من أفعال الحج فلا تخالفوها ولا تقصروا كما تشاؤون، فلا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً ، فإن إحلال الحرام وتحريم الحلال ليست من صفات المؤمن بالله المصدق برسوله، وإن المؤمن ينبغي أن يكون مطيعاً لله وللرسول في جميع الأوامر والنواهي .

وإن من جملة أوامر الله مناسك الله التي عينها النبي ﷺ لأمته . فالإلزام على كل مؤمن أن يأتي بها كما أمر الرسول الأعظم ولا يخالف شيئاً منها . ثم قال تعالى : «ولا الشهر الحرام» فإن الله حرم القتال في أربعة من شهور السنة وهي : محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة .

وفي هذه الآية يؤكّد على المؤمنين أن لا يحلّوا القتال في هذه الأشهر الحرم فإن الالتزام بحرماتها من شروط الإسلام والإيمان .

« ولا الهدي ولا القلائد » : أما الهدي فهو الذي يسوقه الانسان من النعم الثلاثة ليضعه هدياً للكعبة . وأما القلائد - جمع قلادة - فهو الذي يجعل في عنق الهدي من جلد وغيره ليدل على كونه هدياً فلا يتعرض له أحد .

فهذه الامور كلها من شعائر الله فصلها لعباده بعد أن أجملها بلفظة الشعائر ونهى المؤمنين أن يتصرفوا برأيهم .

« ولا آمين البيت الحرام » أي : من كان مؤمناً فلا يجوز له أن يتعرض لقاصدي البيت الحرام بكل سوء سواء كان التعرض بالقتال أو بالصد عن البيت أو بأخذ الاجرة منهم بأي اسم كان هذا الأخذ سواء - منوه نزولية أو اجرة أو خلوة أو غيرها من الأسماء . فإن هؤلاء الذين أتوا البيت إنما جاؤوا لابتغاء الفضل من الله في الدنيا والآخرة ، ومن جاء حاجاً متعبداً مبتغياً لفضل الله فلا يحل لمؤمن أن يتعرض له أو يصدّه أو يمنعّه ، حتى لو استشاره المسلم في السفر الى الحج لا يجوز له أن يشير عليه بالترك .

روي عن اسحاق بن عمار قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إن رجلاً استشارني في الحج وكان ضعيف الحال فأشرت عليه أن لا يحج ، فقال : ما أخلقك أن تمرض سنة فمرضت سنة ^(١) .

وأما قوله : « واذا حللتم فاصطادوا » فقد تقدم أن المسلم اذا كان محرماً لا يجوز له الاصطياد ، فاذا أحل من إحرامه صار الاصطياد مباحاً له .

قوله تعالى : « ولا يجرمكم شئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » هذه الجملة من الآية الشريفة ترشد المؤمنين وتعلمهم ، وحاصل المعنى هو : أنه اذا اعتدى عليكم قوم فصدوكم عن المسجد الحرام فأبغضتموهم على فعلهم هذا فلا يحملنكم بغضكم لهم على صدوكم عن المسجد الحرام لأن الصد عنه إنهم محرّم ، فاذا صددتموهم فقد تعاوتتم معهم على هذا الائم والعدوان ، ولو فعله

بعض منكم فلا تعاونوه .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ،
هكذا أدب الله عباده بهذه الآداب الكريمة ، نهاهم عن التعاون على الاثم والعدوان
وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، فكل انسان اذا عاون شخصاً على الاثم والعدوان
يكون شريكاً له في إثمه وعدوانه ، فيعذب كعذابه ويحاسب كحسابه . وكذا كل
إنسان اذا عاون شخصاً على البر والتقوى كان له مثل ثوابه .

ولقد عرفت فيما تقدم معنى البر في قوله : « ليس البر » أن تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ،^(١) . وعرفت معنى
التقوى أيضاً وفوائدها الكثيرة في أول آية من سورة البقرة^(٢) .

ولما نهانا أولاً : أن نجازي الصاد لنا عن المسجد الحرام - إشارة الى قصة
الحديبية المتقدمة - فقد نهانا أن نجازيهم بمثل فعلهم ، لأننا اذا صددناهم وصدونا
صربنا جميعاً سبباً لقطع الحج وبطلانه ، وهذا خلاف المقصود ، فإن هذا القطع
للحج إنما يأتي من تعاون المسلمين والمشر كين معاً .

نهانا في هذه الجملة عن كل تعاون على الاثم والعدوان ، فكل مجرم اذا
قصد ذاك بفعل يكون سبباً لتترك واجب وفعل محرم لا يحل لك أن تفعل شيئاً
يؤذيه ولكنه يسبب ترك واجب أو فعل محرم لأن فعله يكون تعاوناً على الاثم
والعدوان .

وقد ذكر في مجمع البيان أن سبب نزول الآية ماروي عن أبي جعفر الباقر
عليه السلام أنها نزلت في رجل من بني ربيعة يقال له الحطم .

وقال السدي : أقبل الحطم بن هند البكري حتى أتى النبي ﷺ وحده
وخلف خيله خارج المدينة فقال الى ما تدعوا وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه : يدخل

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب : ص ٤٥ - ٤٨ .

عليكم اليوم رجل من بني ربيعة يتكلم بلسان شيطان . فلما أجابه النبي ﷺ قال : انظرني لعلي أسلم ولي من اشاوره .

فخرج من عنده فقال رسول الله ﷺ : لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر . فمرّ بسرح من سروح المدينة فساقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول :

قد افتمها الليل بسوآف حطم ليس براعي إبل ولا غنم

ولا بجزّارٍ على ظهر وظم^(١) باتوا نياماً وابن هند لم ينم

بات يقاسيها غلام كالزلم^(٢) خدلج الساقين^(٣) ممسوح القدم

ثم أقبل من عام قابل حاجاً قد قلّد هدياً فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه فنزلت هذه الآية « ولا آمين البيت الحرام » . وهو قول عكرمة وابن جريج .

وقال ابن زيد : نزلت يوم الفتح في ناسٍ يأمون البيت من المشر كين يهلون بعمرة . فقال المسلمون : يا رسول الله إن هؤلاء مشر كون مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم ، فأنزل الله تعالى الآية « لا تحلوا شعائر الله »^(٤) .

وحيث إن المفسرين قد ذكروا أقوالاً كثيرة في تفسير لفظة الشعائر وأن أقوى الأقوال وأقربها هو : أن المراد منها المعالم - أي معالم حدود الله وأمره ونهيه وفرائضه -^(٥) .

فيكون المستفاد من قوله : « لا تحلوا شعائر الله » بمعنى : إنكم لا تسامحون فيها ولا يحل لكم أن تتصرفوا في حكم من الأحكام واجباً كان أو محرماً حتى تلتزموا به كما أمركم الله . وكما دلت عليه العلامة التي جعلت له ، فهو يفيد الشدة والتأكد في جميع الأوامر والنواهي .

(١) الوضم : خشبة يقطع عليها الجزارون اللحم .

(٢) الزلم : واحد الازلام ، قдах الميسر ، شبه حافظ الماشية به .

(٣) خدلج الساقين : ممينها .

(٤) مجمع البيان : ج ٢ ص ١٥٣ .

(٥) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٥٤ .

ثم أمرنا بالتعاون على البر والتقوى وعقبه بالنهي عن التعاون على الاتم والعدوان .

ثم قال تعالى : «واتقوا الله ان الله شديد العقاب» .

قال في مجمع البيان: هذا أمر منه تعالى بالتقوى ووعيد وتهديد لمن تعدى حدوده وتجاوز أمره . يقول: احذروا . معصية الله فيما أمركم الله به ونهاكم عنه فتستوجبوا عذابه ، ثم وصف تعالى عقابه بالشدّة لأنه نار لا يطفأ حرها ولا يخمّد جمرها ، نعوذ بالله تعالى منها^(١) .

ارشاد من الله للمؤمنين :

إن الله تعالى وجه الخطاب لعباده المؤمنين وأمرهم بهاتين الجملتين، فلو أنهم عملوا بهما جميعاً أو الأغلب من المؤمنين لأصبحوا في راحة وهناء ولكانت حياتهم سعيدة غير مشوبة بكدر .

الجملة الاولى : في قوله: «وتعاونوا على البر والتقوى» وقد فسر «البر»

بأمور عديدة :

قال الراغب الاصفهاني: البر "خلاف البحر وتصور منه التوسع فاشتق منه البر، أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك الى الله تارة نحو: «إنه هو البر الرحيم»^(٢) والى العبد تارة فيقال: بر العبد ربه، أي: توسع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعة، وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد وضرب في الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله تعالى: «ليس البر أن تولكوا وجوهكم... الآية»^(٣). وعلى هذا ما روي أنه سئل عليه الصلاة والسلام عن البر فتلا هذه الآية، وأن الآية متضمنة للاعتقاد والأعمال - الفرائض والنوافل - وبر الوالدين التوسع

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٥٥ .

(٢) الطور : ٢٨ .

(٣) البقرة : ١٧٧ .

في الاحسان إليهما وضده العقوق .

ثم قال : ويستعمل البر في الصدق لكونه بعض الخير المتوسع فيه ، يقال : بر في قوله وبر في يمينه^(١) انتهى .

أخرج أحمد وعبد بن حميد في هذه الآية والبخاري في تاريخه عن وابصة قال : أتيت رسول الله وأنا لا أريد أن أدع شيئاً من البر والائتم إلا سألته عنه ، فقال لي : يا وابصة أخبرك بما جئت تسأل عنه أم تسأل ؟

قلت : يا رسول الله أخبرني ، قال : جئت لتسأل عن البر والائتم . ثم جمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول : يا وابصة استفت قلبك استفت نفسك البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والائتم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك^(٢) .

فإنه تعالى يأمر عباده المؤمنين أن يتعاونوا على التوسع في الاحسان والخير فاذا رأى المؤمن أخاه المؤمن متوسعاً في الخير والاحسان ينبغي له أن يعاونه ويعاضده ولا يقاطعه ولا يبعد عنه ولا يباينه في فعل الخير ، هذا هو شأن المؤمن المطيع لله العامل بإرشاداته .

أما الذي يرى من المؤمن توسعاً في الخير ثم يقاطعه ويباينه أو يعمل ضده ويفسد عمل المؤمن فينبغي له أن يعرف نفسه بأنه ليس من المؤمنين ، حيث إنه خالف أمر الله ، فإنه إذا استفتى قلبه واستفتى نفسه لا يطمئن قلبه ولا تفتيه نفسه بأن فعله من البر ، ولكن فعله مما يحوك في القلب ويتردد في الصدر ولا يحب أن يطلع عليه الناس .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب عن النواس بن سميان قال : سئل رسول الله ﷺ عن البر

(١) الفردات : ص ٤٠ مادة « بر » .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٥ .

والائتم ، فقال: البر حسن الخلق والائتم ماحاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس^(١).

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب أي عبادك أحب إليك احبه بحبك؟ قال: يا داود أحب عبادي إليّ تقي القلب نقي الكفين لا يأتي إلى أحد سوء ولا يمشي بالنميمة، نزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني وحبيبي إلى عبادي .

قال: يا رب إنك لتعلم أنني احبك واحب من يحبك فكيف احبك إلى عبادك؟

قال: ذكرهم بآلاني وبلائي ونعمائي يا داود . إنه ليس من عبد يعين مظلوماً أو يمشي معه في مظلمته إلا اثبت قدميه يوم تزل الأقدام^(٢).

وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: من أعان ظالماً بباطل ليدحض به حقاً فقد برىء من ذمة الله ورسوله^(٣). وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من أعان على خصومة بغير حق كان في سخط الله حتى ينزع^(٤).

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن أوس بن شرحبيل قال: قال رسول الله ﷺ: من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام^(٥).

وأما «التقوى» قال في المفردات في مادة «وقى»: الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره .

(١) و(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٣) و(٤) و(٥) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٦ .

والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور. ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روي: الحلال بين والحرام بين ومن رجع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه. قال الله تعالى: «فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(١).

فقد اوضح لك أيها العبد المسلم أن التقوى عبارة عن الاجتناب والابتعاد عن كل ما يوجب العذاب.

فإن كنت تخاف الله وتخشى من عقابه وتشفق على نفسك فتعاون على البر مع أهل البر واتق من الاثم والعدوان، فإنك إذا خالفت أمر الله وعاديت أهل البر وابتعدت عنهم خرجت بذلك عن جماعة المؤمنين ودخلت في زمرة الكافرين.

ولا تعاون مع أهل الاثم والباطل فتكون من المعتدين، وتأمل في قوله تعالى: «ولا يجرمكم شئتان قوم، فإن المسلم الذي يكون صحيح النية والسريرة يسره في فعل الخير من كل أحد، ولا ينبغي أن يكون مانعاً له عن فعله، أما إذا أراد أن يمنع عن فعل الخير ويصد عنه ولو بأن يتهمه بما يسبب له الأذى والسجن فإن مثل هذا لا يسمى مسلماً وإن أدخل نفسه في عداد المسلمين، فإنه لم يفهم كلام الله ولم يعه حيث يقول تعالى: «ولا يجرمكم شئتان قوم أن صدكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا»، فهذا الذي يعامل الناس بهذا الشكل من المعاملة لا ينبغي له أن يعد نفسه من المسلمين فليستعد غداً للعذاب الأليم من الله، فإنه يقول: «إن الله شديد العقاب».

هذا ما كان من أمر الجملة الاولى التي أمرنا الله فيها.

وأما الجملة الثانية التي نهانا الله عنها فهي قوله تعالى:

« ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

الاثم : هو كل فعل نهى الله عنه بحيث يعدّ فاعله آثماً وكل فعل يحكم عليه العقل بقبحه ، فإذا فعله المرء يعدّ بحكم العقل والهرف آثماً .
يروي أن أمير المؤمنين عليه السلام لقي إبليس يوماً بصورة شيخ فعرفه فقال له : من أين أقبلت يا لعين ؟ قال : من الآثام ، قال : وأين تريد ؟ قال : الآثام ، قال : بشئ الشيخ أثمت ، فقال : لم تقول هذا يا أمير المؤمنين ؟ ثم حدثه بما رأى في النار من تعذيب مبغضيه ^(١) .

وفي القاموس : آثام - كسحاب - وادٍ في جهنم والعقوبة ^(٢) .
وقد عرفه بعضهم بقوله : الاثم كل ذنب ومعصية ^(٣) .
وقد سمعت قول النبي صلى الله عليه وآله في تعريفه الاثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس ^(٤) .

وقال صلى الله عليه وآله لو اصبته : الاثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر ^(٥) .
وأما **العدوان** : فهو التعدي على الناس بسلب الحق والأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم ، فإن الضغط على الناس في كل واحد من هذه الأمور يسمى عدواناً .

قال المراهي في تفسيره : العدوان تجاوز حدود الشرع والعرف في المعاملة والخروج عن العدل فيها ^(٦) .

وقال أيضاً : والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضاً على كل ما ينفع الناس أفراداً

(١) سفينة البحار : ج ١ ص ١١ مادة « اثم » .

(٢) القاموس : ج ٤ ص ٧٢ مادة « اثم » .

(٣) تفسير المراهي : ج ٦ ص ٤٥ .

(٤) و(٥) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٦) تفسير المراهي : ج ٦ ص ٤٥ .

وجاعات في دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها
المفاسد والمضار^(١) عن أنفسهم .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة
إلى ارتباط بمهد كما تفعله الجماعات اليوم ، فإن عهد الله وميثاقه كان مفضيلاً لهم
عن غيره ، ولكن لما كثروا ذلك العهد صاروا في حاجة إلى تأليف هذه الجماعات
لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب - التعاون على البر
والتقوى - ولما ترى أحداً الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطاً
بعهد معك لغرض معين ، ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا
الواجب غالباً^(٢) انتهى .

أقول : يا حبيبنا لو حصلت جماعة من المسلمين يتعاقدون على التعاون على
البر والتقوى أو يتعاقدون على مقاطعة الاثم والعدوان ، ولكن نرى جماعات كثيرة
عملها على عكس الأمر يتعاقدون في التعاون على الاثم والعدوان ويتفقون على
امور مخالفة للقرآن والدين ويتعاقدون على نكث ما أمر الله به من البر والاجسان .
فاذا كنت من أرباب الحكم واطلعت على أحد من أصحابك من ذوي الأمر
يريد القيام بشيء من البر فإن الله يأمرك أن تعاونه وتسانده حتى يتقوى على
عمل البر ، أما إذا رأيته يهم بعمل شيء من الاثم والعدوان فإن الله يأمرك أن
تقاطعه وتزجره وتذكره بعقاب الله وتجهد نفسك في عذله حتى يرتد عما يهم
به من الاثم ، وأن الله سيجازيك الجزاء الأول في عملك هذا ، فلا تقصر في نفع
نفسك وإيصالها إلى الجراتب العالية .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : انصروا أخاك ظالماً ومظلوماً ، فقليل يارسول
الله قد عرفنا نصرته مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ فقال : تكفه عن الظلم^(٣) . وفي

(١) تفسير المراغي : ج ٦ ص ٤٦ .

(٢) سنن الترمذي : ج ٤ ص ٢٣٥ ب ٦٨ ح ٢٢٥٥ .

تفسير ابن كثير : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه^(١).

مقاله المراغى :

قال في تفسير قوله تعالى « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » : أي اتقوا الله بالسيرة على سنته التي بيّنها لكم في كتابه وفي نظم خلقه حتى لا يصيبكم عقابه بالأعراض عن هدايته ، فهو شديد العقاب لمن لم يتقه باتباع شرعه وسنته في خلقه إذ لا محاباة ولا هوادة في عقابه ، فهو لم يأمر بشيء إلا إذا كان نافعاً ولم ينه عن شيء إلا إذا كان ضاراً ، وكذلك بعدم مراعاة السنن لأنّ لذلك تأثيراً في خلق الانسان وعقائده وأعماله ، وكل ذلك مما يوقعه في الغواية وينتهي به الى سوء العاقبة .

وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة كما جاء في بعض الآيات التصريح بذلك وفي بعضها التصريح بأحدهما كقوله في عذاب الامم في الدنيا « وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد »^(٢).

وبعد هذا نقول : إنّ أهل الباطل من يوم خلق الله الدنيا حتى يومنا هذا متعاهدون ومتعاقدون على معارضة أهل الحق والإيمان ، فكلما اتفق أهل الحق على أن يتعاونوا على البر والتقوى اتفق أهل الباطل على خلافهم وتعاقدوا على القيام والتعاون على الاثم والعدوان ، ولا يخلو زمان من هؤلاء الأشرار الذين يريدون إفشاء الشر وإخفاء الخير والقضاء على أهله كي لا يبقى منهم أحد ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيننا عليهم ويكفيننا شرهم وأن يهديهم وإيانا الى سواء السبيل .

وبعدما بيّن لنا الله ما أحله لنا من بهيمة الأنعام وعرفنا أنه لا يجوز لنا معاقبة أحد بمنعه عن أداء واجب ديني وأرشدنا الى ما ينفعنا في الدنيا والآخرة

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤٧٦ .

(٢) تفسير المراغى : ج ٦ ص ٦٦ والاية ٢ : ١ من سورة هود .

وهو التعاون على البر والتقوى وحذرنا عما يضر في ديننا ودنيانا وهو التعاون على الاثم والعدوان ذكر لنا بعد ذلك ما استثناه من آية الحل في قوله تعالى : « إلا ما يتلى عليكم » وهو الذي حرمه علينا بقوله سبحانه :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيغَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ فَلَكُمْ فُسْقٌ يَوْمَ يَمُشُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) .

كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ كَانَتْ أَعْرَبَ وَغَيْرَهَا يَسْتَحِلُّونَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَكُلُّ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَصَدَّقَ النَّبِيَّ ﷺ يَلْزَمُهُ تَرَكُّهَا وَالْإِتِمَامُ بِحُرْمَتِهَا .

وَأَنَّ الَّذِي يَسْتَحِلُّهَا كُلُّهَا أَوْ بَعْضَهَا فَقَدْ أَخْرَجَ نَفْسَهُ عَنْ زِمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْسَلَخَ عَنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِي ، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ حُظِّهِ مِنَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ الرُّسُولِ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا تَعَاهَدَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ اللَّهِ لِمَنْ يَسْلَمُ ، فَرَأَيْتَ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ .

وهذه الأمور أغلبها معروفة واضحة المعنى ومع ذلك أذكر لكم ما فسرته به ليتضح المعنى لمن يجهلها .

الأول : الميتة ، وهي باسقاط الشراع الحيوان الذي يموت حتف أنفه لا

بالتذكية . هذا بالنسبة الى الحيوان الذي يحل أكله بالتذكية ، أما الذي لا يحل بالتذكية فالحرمة فيه أشد .

الثاني : الدم ، وهو كل دم ينفصل عن الحيوان سواء كان بالذبح أو بغير ذبح وسواء كان الحيوان حلالاً أو حراماً . وكانوا قبل الإسلام يجعلونه في المهي ويشوونه ويأكلونه .

عن محمد بن عبد الله عن بعض أصحابه قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك لم حرم الله الميتة والدم ولحم الخنزير ؟

فقال : إن الله تبارك وتعالى لم يحرم ذلك على عباده وأحل لهم ما سواه من رغبة منه تبارك وتعالى فيما حرم عليهم ولا زهد فيما أحل لهم ، ولكنه خلق الخلق وعلم ما يقوم به أبدانهم وما يصلحهم فأحلّه وأباحه تفضلاً منه عليهم لمصلحتهم ، وعلم ما يضرهم فنهاهم عنه وحرّمه عليهم ، ثم أباحه للمضطر وأباحه لهم في الوقت الذي لا يقوم بدنه إلا به ، فأمره أن ينال منه بقدر البلغة لا غير ذلك . ثم قال : أما الميتة فإنه لا يدنو منها أحد ولا يأكلها إلا ضعف بدنه ونحل جسمه ووهنت قوته وانقطع نسله ولا يموت آكل الميتة إلا فجأة .

وأما الدم فإنه يورث الكلب ^(١) وقسوة القلب وقلة الرأفة والرحمة ، لا يؤمن أن يقتل ولده ووالديه ، ولا يؤمن على حميمه ، ولا يؤمن على من صحبه .

وأما لحم الخنزير فإن الله مسح قوماً في صور شتى شبه الخنزير والفرد والدب وما كان من الأمساخ ، ثم نهى عن أكل مثله لكي لا ينتفع بها ولا يستخف بعقوبته .

وأما الخمر فإنه حرمها لفعلها وفسادها . وقال : إن مدمن الخمر كعابد وثن ويورثه ارتعاشاً ويذهب بنوره ويهدم مروته ، ويحمله على أن يكسب على المحارم من سفك الدماء وركوب الزنا ، ولا يؤمن إذا سكر أن يشب على حرمه وهو لا

يعقل ذلك ، والخمر لم يرد شاربها إلا الى كل شر^(١) .

مقاله الفخر الرازي :

اعلم أن تحريم الميتة موافق لما في العقول لأن الدم جوهر لطيف جداً فاذا مات الحيوان حثف أنفه اختبس الدم في عروقه وتعفن وفسد ، وحصل من أكله مضار عظيمة .

والثاني: الدم ، قال صاحب الكشف : كانوا يملأون المعى من الدم ويشودونه ويطعمونه الضيف ، فالله تعالى حرم ذلك عليهم .

والثالث : لحم الخنزير ، قال أهل العلم : الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذي ، فلا بد أن يحصل للمغتذي أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصله في الغذاء ، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتبهات، فحرم أكله على الانسان لئلا يتكيف بملك الكيفية .

وأما الشاة فإنها حيوان في غاية السلامة فكأنها ذات عارية عن جميع الأخلاق فلذلك لا يحصل الانسان بسبب أكل لحمها كيفية أجنبية عن أحوال الانسان^(٢) انتهى .

مقاله الطنطاوى :

ثانيها: الدم، كانوا يملأون المعى من الدم ويشودونه ويطعمونه الضيف فحرم ذلك عليهم .

وقال الأعشى :

فإياك و الميتات لا تقربنهما ولا تأخذن نصلاً حديداً لتفصدا

يقول مفسر هذه الأبيات: إن العرب كان اذا أجذبوا جرحوا إبلهم بالنصال

(١) تفسير العياشى : ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير الرازي : ج ١١ ص ١٣٢ .

فنزول الدم فشر به .

الثالث: لحم الخنزير، لأن الخنزير أضرى الحيوان على الطعام والشهوات وأضره، فأكل لحمه يورث الأخلاق التي عليها ذلك الحيوان كما أن الحيوان المريض يورث أكله مرضاً .

ولقد ثبت في العصر العاشر أن الدودة الوحيدة لا تكون إلا من أكل لحم الخنزير ، فلاحوم الناس وعظامهم تابعة لأغذيتهم ، وهذا باب واسع من العلم يجب النظر فيه طويلاً والبحث في الحكمة والعالم المشاهد^(١) انتهى .

ولا يخفى أن الدم المحرم هو الدم المسفوح ، فإنه وردت حرمة في القرآن في أربعة مواضع :

١ - في سورة البقرة : آية ١٧٣ .

٢ - في سورة المائدة : آية ٣ (وهي مائتة فيها الآن) .

٣ - في سورة الأنعام : آية ١٤٥ .

٤ - في سورة النحل : آية ١١٥ .

وفي ثلاثة مواضع الحكم غير مقيّد ، ولكنه في سورة الأنعام مقيّد حيث يقول تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ... الخ الآية » .

وحيث إن المطلق يرجع إلى المقيّد يكون المحكوم بالحرمة هو المسفوح أما المطلّخ باللحم فلا يحرم . وكل ما كان منه كاللحم مثل الكبّد فهو حلال ، أما الذي لم يكن مثل اللحم كالطحال فإنه محرم عند الإمامية ، وأما عند بقية الفقهاء من المذاهب الأربعة فهو مباح . وإنما حرّمه الإمامية للأخبار الواردة في حرّمه ورأينا من الضروري ذكر جملة منها كما نقلها صاحب البحار .

عن حماد بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام

عن النبي ﷺ أنه قال في وصيته له :

يا علي حرم من الشاة سبعة أشياء : الدم ، والمذاكير ، والمثانة ، والنخاع ، والغدد ، والطحال ، والمرارة^(١) .

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا يؤكل من الشاة عشرة أشياء : الفرس ، والدم ، والطحال ، والنخاع ، والغدد ، والقضيب ، والاثنيان ، والرحم ، والحياء ، والأوداج أو قال العروق^(٢) .

وفيه أيضاً عن الأعمش عن الصادق عليه السلام قال : الطحال حرام لأنه دم^(٣) .

وفيه أيضاً عن أبي بصير وعبد بن مسلم عن أبي عبد الله عن آبائه عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا تأكلوا الطحال فإنه بيت الدم الفاسد ، واتقوا الغدد من اللحم فإنه يحرك عرق الجذام^(٤) .

وفيه أيضاً عن عبد الواحد بن محمد بن عبدوس عن علي بن محمد بن قتيبة عن الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام فيما كتب للمؤمنين : يحرم الطحال فإنه دم^(٥) .
وفيه أيضاً عن الرضا عليه السلام : حرم الطحال لما فيه من الدم^(٦) .

وفيه أيضاً عن أبان بن عثمان قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كيف صار الطحال حراماً وهو من الذبيحة ؟ فقال : إن إبراهيم هبط عليه الكباش من ثبير وهو جبل بمكة ليذبحه ، فأتاه إبليس فقال : أعطني نصيبي من هذا الكباش ، قال : وأي نصيب لك وهو قربان لربي وفداء لابني ؟ فأوحى الله عز وجل إليه أن له

(١) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٣٣ ب ٤ ح ١ .

(٢) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٢٥ ب ٤ ح ٤ .

(٣) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٣٥ ب ٤ ح ٥ .

(٤) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٢٥ ب ٤ ح ٦ .

(٥) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٣٦ ب ٤ ح ٧ .

(٦) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٢٦ ب ٤ ح ١٠ .

فيه نصيباً وهو الطحال لأنه مجمع الدم ، وحرم الخصيتان لأنهما موضع للنكاح ومجرى للمنطقة ، فأعطاه إبراهيم الطحال والاثني عشر وهما الخصيتان .

قال : قلت : فكيف حرم النخاع ؟ قال : لأنه موضع الماء الدافق من كل ذكر وانثى وهو المنخ* الطويل الذي يكون في فقار الظهر^(١) الخبر .

فهذه الأخبار وغيرها مما ذكرها المجلسي في البحار تدل على كون الطحال دم ولهذا حرمه الإمامية . وأما من أحله من غير الإمامية فيعتبر هذه الأخبار ضعيفة فلذا لا يحرمه .

ولكن ذكر في البحار رواية فيها عملية استدل الإمام علي بن أبي طالب بهذه العملية على كونه دماً خالصاً ، ويمكن لمن لا يعتمد على الأخبار أن يختبر الطحال بإجراء العملية فيتحقق عنده أحد الأمرين ، والرواية منقولة عن أبي يحيى الواسطي بإسناده رفعه لي أمير المؤمنين أنه مر بالقصّابين فنهاهم عن بيع سبعة أشياء من الشاة ، نهاهم عن بيع الدم ، والغدد ، وآذان الفؤاد ، والطحال ، والنخاع ، والخصى ، والقضيب .

فقال له رجل من القصّابين: يا أمير المؤمنين ما الكبدة والطحال إلا سواء . فقال له : كذبت بالكعب آتني بتورين من ماء آتاك بخلاف ما بينهما . فأتني بكبد وطحال وقليل من ماء فقال : امرس كل واحد منهما في إناء على حدة . فمرسا جميعاً كما أمر به ، فانقبضت الكبدة ولم يخرج منها شيء ولم ينقبض الطحال وخارج ما فيه كله ، وكان دماً كله ، وبقي جلده وعروقه ، فقال : هذا خلاف ما بينهما ، هذا لحم وهذا دم^(٢) .

وبهذه العملية يتمكن كل أحد أن يعرف الطحال هل هو لحم أو دم ، وحكم الدم الحرمة وحكم اللحم الإباحة .

(١) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٣٧ ب ٤ ح ١٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ٦٦ ص ٣٤ ب ٤ ح ٢ .

الثالث مما حرمته الآية: لحم الخنزير، فإنه محرم عند كل مسلم لتصريح الآية بحرمته، ولقد سمعت كلمات المفسرين التي مرت عليك فيما يسبب أكله من المضار والأضرار الكثيرة.

مقاله المراغى فى لحم الخنزير :

الثالث : لحم الخنزير ، لما فيه من الضرر والاستفذار لملازمته للمقاذورات ورغبته فيها . أما ضرره فقد أثبتته الطب الحديث ، أثبت أن له ضرراً يأتي من أكله المقاذورات ، فإن أكله يولد الديدان الشريطية كالديدان الوحيدة ودودة اخرى تسمى الشعرة الحلزونية ، وهي تنشأ من أكله الفيران الميتة . كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم هضماً لكثرة الشحم في أليافه العضلية ، وأن المواد الدهنية التي فيه تمنع وصول عصير المعدة الى الطعام ، فيعسر هضم المواد الزلالية وتتعب معدة أكله ويشعر بثقل في بطنه واضطراب في قلبه ، فإن دهمه القيء ففقد هذه المواد الخبيثة خف ضرره وإلا تهيجت المعدة واصيب بالاسهال ، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلاً وشراباً وتدخيناً ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن الناس أن يأكلوه ولا سيما أهل البلاد الحارة^(١).

مقاله سيد قطب فى لحم الخنزير :

وأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم ، والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم ، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة) . ويقول الآن قوم : إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر لأن إبادة مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة . وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج الى قرون

طويلة ليكشف آفة واحدة فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لها ونحرم ما حرمت ونحل ما حلّلت ، وهي من لدن حكيم خبير^(١) انتهى .

ماقاله ابن كثير :

قال بعد ذكر الآية الشريفة « حرمت عليكم الميتة والدم ... الآية » : يخبر تعالى عباده خبيراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة وهي مامات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، وما ذاك إلا لما فيه من المضرة لما فيها من الدم المحتقن فهي ضارة للمدين والبدن ، فلهذا حرّمها الله عز وجل .
ثم ذكر حرمة الدم المسفوح وذكر حديثاً عن أبي امامة وهو صدي بن عجلان قال : بعثني رسول الله ﷺ الى قومي أدعوهم الى الله ورسوله وأعرض عليهم شرائع الاسلام ، فأتيتهم ، فبينما نحن كذلك إذ جاؤوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها فقالوا : هلم يا صدي فكل . قال : قلت : ويحكم إنما أنيتكم من عند من يحرم هذا عليكم . فأقبلوا عليه قالوا : وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية « حرمت عليكم الميتة والدم ... الآية » .

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث ابن أبي الشوارب بإسناده مثله ، وزاد بعده هذا السياق قال : فجعلت أدعوهم الى الاسلام ويأبون عليّ فقلت : ويحكم اسقوني شربة من ماء فأني شديد العطش ، قال : وعليّ عباءتي فقالوا : لا ، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً ، قال : فاغتممت وضربت برأسي في العباء ونمت على الرمضاء في حرّ شديد ، قال : فأتاني آت في منامي بقدر من زجاج لم ير الناس أحسن منه وفيه شراب لم ير الناس ألذّ منه ، فأمكنني منه فشربته فلما فرغت من شرابي استيقظت ، فلا والله ما عطشت ولا عريت بعد تيك الشربة .

ورواه الحاكم في مستدر كه عن علي بن حماد عن عبدالله بن أحمد بن حنبل
حدثني عبدالله بن سلمة بن عياش العامري حدثنا صدقة بن هرم عن أبي غالب عن
أبي أمامة ، وذكر نحوه وزاد بعد قوله « بعد تيك الشربة » : فسمعتهم يقولون :
أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تمجعوهم بمذقة فانتوني بمذقة فقلت : لا حاجة
إلي فيها ، إن الله أطعمني وسقاني ، وأريتهم بطني فأسلموا عن آخرهم . وما أحسن
ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

وإياك والميتات لا تقربننها ولا تأخذن عظماً حديداً فتصفدا

أي لا تفعل فعل الجاهلية ، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من
عظم ونحوه فيفصد به بغيره أو حيواناً من أي صنف كان فيجمع ما يخرج منه
من الدم فيشربه ، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة ، ثم قال الأعشى :

وذا النصب المنسوب لا تأتينه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

قوله : « ولحم الخنزير » يعني إنسية ووحشية . ثم قال بعد أسطر : والأظهر
أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطرد .
وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الخصيب الأسلمي رضي الله عنه قال : قال
رسول الله ﷺ : من لعب بالتردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه .
فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد والوعيد . الأكد على أكله
والتغذي به ، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره^(١) انتهى .

ما قاله الفاضل البيرودي :

وفي الموازنة بين الديانة الإسلامية والطب الحديث قال الفاضل يوسف أفندي

بيرودي حول « الجيفة » :

إن الديانة الإسلامية تحرم أكل الجيفة ولمسها كذلك الطب الحديث ،

وذلك لكون الجيفة تحتوي على ميكروبات وأمراض قتالة التي فتكت بها، فخوفاً من العدوى يمتنع لمسها وأكلها لأنها سمٌ زعاق، إن في العالم الجديد شيء يقرب من الجيفة ألا وهو حفظ اللحم والجبن والبيض وبقية المأكولات ضمن الثلج لسنين وأخيراً أخذ المجلس الصحي يحارب هذه المأكولات وأصحابها ويأبى ما وجد منها في البحر، وذلك لوجود الفساد فيها، حتى أنه لقد وجد في محلات الثلج بيض لم ينزل بحالته الطبيعية منذ عشرين سنة.

وقال حول « الدم » :

من الأشياء المحرمة هو الدم، إنما الطب الحديث يجيز استعمال الدم إذا كان مأخوذاً من حيوان وإنسان صحيح الجسم خالٍ من الأمراض، أما تحريمه في الديانة الإسلامية فهو لكونه لا يخلو من الأقدار والنجاسة، أي الميكروبات التي تسري مع الدم وعند خروجها واتحادها بدم أو جسم آخر ينقل العدوى أو الميكروب إلى الجسم الثاني وتمرضه أي تنجسه.

وقال حول « لحم الخنزير » :

إن لحم الخنزير ليس بمحرم فقط في الديانة الإسلامية لابل نجس أيضاً. إن الطب الحديث يمنع أكله وذلك لوجود ميكروب الأمراض الفقدية المعروفة بالخنزيري، والديانة الإسلامية تحرمه لكونه يأكل من الأوساخ والنجاسة، وهذه تربي ميكروبات مختلفة بجسمه تنتقل لمن يأكل لحمه ... الخ^(١).

ماقاله الدكتور عبدالعزيز اسماعيل :

قال في كتاب « الاسلام والطب الحديث » بعد ذكره الآية الكريمة: هذه الآية تنص على أن لا تؤكل الميتة ولا الدم، فالحيوان الميت لا يموت إلا لسبب مثل المرض أو الشيخوخة، فإن كان لمرض فمما لا شك فيه أنه لا يزال في الجسم

نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للإنسان حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم المبيت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لا يزال مضرًا بالإنسان وربما أدى الأكل منه الى الوفاة .

و كذلك الدم فإنه نسيج أغلبه وأهم عنصر فيه وهو الكريات الحمر خلايا حية ، وفيه من إفرازات الجسم ما هو معد للافراز بواسطة البول والعرق... الخ . فالدم في الحقيقة مزيج من مواد قليلة مفيدة للجسم ولكن أغلبه مواد مضره ويجب أن تفرز ، واذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضاً كان أكل الدم أشد ضرراً وكان بقاؤه في أنسجة الحيوان قبل أكله مضرًا جداً لما فيه من مواد مضره تحدث تخمرًا بسرعة في أنسجة الحيوان مثل العضلات فيكون لحمه غير صالح للأكل .

وأما اذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة قبل الأنسجة الاخرى فتؤدي الى انحلال الكل وانحلال أحد الأنسجة لا يأتي إلا لضعف طبيعي فيها أو بمرض تدريجي غير متطور يحدث تغييرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .
ثم قال بعد كلام في الميتة :

ولحم الخنزير اذا كان سليماً من الأمراض لا يضر منه - على ما نعلم الآن - لكن كثيراً ما يصاب بأمراض تضر الإنسان اذا أكله، فضرره أكثر من نفعه، فمثلاً نحو خمسة في المائة من الخنازير في بعض جهات أمريكا مصاب بمرض (تر كيتا) وهو نوع من الديدان خطر لأنه اذا أصاب إنساناً يحدث به سمماً هومياً وإسهالاً مثل الكوليرا وقد يؤدي الى الوفاة .

وأهم من ذلك أن لحم الخنزير المصاب لا يمكن تطهيره من هذا المرض بسهولة .

فعملية السلق البسيطة أو الشي لا تكفي ، ويجب على اللحوم مرور مدة لا تقل عن نصف ساعة على الأقل لتطهيرها ، وإذا كانت الإصابة شديدة كانت اللحوم غير صالحة للتغذية حتى بعد تطهيرها لأن الحيوان يكون في حالة تسمم محووم قبل الوفاة .

وهنا كانت حكمة الدين الاسلامي في اجتناب الضرر الذي لا يمكن الوقاية منه إلا بطرق ليست سهلة التناول ، وأحسن الوقاية العملية هي الامتناع عن أكله ، ولهذا لم يشاهد من هذا المرض حالة بين المسلمين مع أنه ليس نادراً في أوروبا وأمريكا .

ثم إن الخنزير سبب عدوى ديدان أخرى أقل ضرراً مثل (الاسكاريس) وأنواع من (التيانيا) ^(١) انتهى .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن قتادة قال : إذا أكل لحم الخنزير عرضت عليه التوبة ، فإن تاب وإلا قتل ^(٢) انتهى .

لقد سمعت أيها المسلم ما ذكره لك القرآن من حرمة لحم الخنزير وعرفت بما يمينه لك العلماء الذين فسروا لك القرآن وعرفت ما قاله الأطباء من الأضرار التي يسببها أكل لحم الخنزير ، ومع هذا كله نرى بعض الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين تراهم يعاشررون الأجانب الكفرة ويأكلون معهم لحم الخنزير ويطرحون حكم القرآن وأقوال النبي ﷺ وهم ينتسبون الى الاسلام والمسلمين . وكذا يأكلون الميتة حيث إنهم يصطادون الطير مع الأجانب فيسحقون رأسه بأرجلهم مدعين لقول هذا الأجنبي بأن هذا الذئ من المذكي لأن دمه يبقى فيه فيأكلونه غير مباليين بتحريم القرآن .

(١) الاسلام والطب الحديث: ص ٢٩ - ٣٢ نشر الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة الطبعة الثانية .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٦ .

الرابع : مما حرمت أكله الآية : «ما اهل لغير الله به» أي ما ذكر عليه اسم غير الله كما يذبح للأصنام والأوثان، فإن الإهلال هو الأجهار بالاسم، والمسلم يرفع صوته باسم الله، وغير المسلم يرفع صوته لغير الله، فتكون ذبائح الكفار والمشركين كلها محرمة .

وأما ذبائح أهل الكتاب فإنهم إن لم يذكروا اسم الله عليها فهي محرمة كذبائح غيرهم. وأما إن ذكر اسم الله فقد قال العلماء بحرمتها أيضاً كما في التبيان^(١) والمجمع^(٢) لأنهم يقصدون بمن يذكرون ذلك الذي أبدى شرع موسى أو واتخذ عيسى ابناً والله منزّه عن ذلك لأنه لم يؤبد شرع موسى بل قطعه بإرسال عيسى، وكذا لم يتخذ عيسى ابناً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فلا يجوز أكل ذبائحهما .

قال الشيخ في التبيان :

فأما من أظهر الاسلام ودان بالتجسيم والصورة وقال بالجبر والتشبيه أو خالف الحق فعندنا لا يجوز أكل ذبيحته، فأما الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وموارثته فإنه يجري عليه لأن هذه الأحكام تابعة في الشرع لأظهار الشهادتين، وأما من أكل ذبيحته فلا تجوز عندنا .

وقال البلخي حاكياً عن قوم : إنه لا يجوز إجراء شيء من ذلك عليهم . وحكي عن آخرين أنه يجري جميع ذلك عليهم لأنها تجري على من أظهر الشهادتين دون المؤمنين على الحقيقة ، وكذلك أجريت على المجانين والأطفال .

فأما التسمية على الذبيحة فعندنا واجبة، من تركها متعمداً لا يجوز أكل ذبيحته وإن تركها ناسياً لم يكن به بأس ، وكذلك إن ترك استقبال القبلة متعمداً لم يحل أكل ذبيحته وإن تركها ناسياً لم يحرم ، وفي ذلك خلاف بين

(١) التبيان : ج ٣ ص ٤٢٩ .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٥٧ .

الفقهاء ذكرناه في الخلاف^(١) انتهى .

الخامس مما حرمت أكله الآية: «المنخنقة» .

وقد ذكرنا للمنخنقة ثلاثة أنواع :

الأول : أن تدخل رأسها بين غصنين من الشجرة ولا يمكنها التخلص منها

فتخنق بهما وتموت .

الثاني : أن تربط بحبل فتخنق برباطها حتى تموت .

الثالث : أن يخنقها إنسان بيده فتموت بذلك .

وهذه الأقسام الثلاثة كلها مشمولة لكلمة «المنخنقة» فلا يحل أكلها .

السادس : قوله «والموقوذة» وهي التي تضرب حتى تموت .

السابع : قوله «والمتردية» وهي التي تقع من جبل أو من سطح أو مكان

عالٍ آخر أو تقع في بئر فتموت فلا يحل أكلها . أما إذا وقعت في بئر وأدر كوها

حيةً وما قدروا على تذكيتهما قال الشيخ في التبيان : جاز أن يطعن ويضرب

بالسكين في غير المذبح حتى يبرد ثم يؤكل .

الثامن : قوله «والنطيحة» وهي البهيمة تموت بسبب النطح سواء كانت

هي الناطحة أو المنطوحة .

التاسع : قوله «وما اكل الصبع» أي البهيمة التي قتلها الصبع فأكل بعضها

وترك البعض قال ذلك المتروك أو كثر حتى ولو كانت كلها متروكة بعد القتل

فإنها محرمة لا يجوز أكلها .

وأما قوله تعالى : «إلا ما ذكيتم» : فإنه استثناء ، وقد اختلف فيه أنه من

أي شيء هذا الاستثناء فهل هو من الحرمة ؟ أي حرمت عليكم هذه الأشياء ولا

تأكلوها إلا ما ذكيتم ، أو أنه استثناء من المحرمات بمعنى حرمت عليكم الميتة

إلا ما ذكيتم ، أي إذا أدر كتموها وفيها بقية من الحياة فذكيتموها فكلوها فإنها

مباحة لكم ، و كذا فيما هو معطوف على الميتة إلا فيما لا يمكن ولا يتصور فيه هذا الأمر وهو الدم والخنزير .

وقد قوى الشيخ في التبيان هذا القول حيث قال بعد قوله تعالى « إلا ما ذكيتم » : « واختلفوا في الاستثناء الى ماذا يرجع ؟ فقال قوم : يرجع الى جميع ما تقدم ذكره في قوله : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع » إلا ما لا يقبل الذكاة من الخنزير والدم - وهو الأقوى - .

وقد ذهب إليه علي عليه السلام وابن عباس قال : وهو أن تدركه تتحرك اذنه أو ذنبه أو تطرف عينه ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام . وبه قال الحسن وقتادة وإبراهيم وطاووس وعبيد بن عمير والضحاك وابن زيد ^(١) .

ثم ذكر الشيخ رحمه الله بقية الأقوال في الاستثناء ، ثم قال بعد ذلك : فإن قيل : فما وجه تكرير قوله « وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة » وجميع ما عدد تحريمه في هذه الآية ، وقد افتح الآية بقوله : « حرمت عليكم الميتة » والميتة تعم جميع ذلك وإن اختلفت أسباب موته من خنق أو ترد أو نطح أو إهلاك لغير الله به أو أكيل سبع ، وإنما يكون لذلك معنى على قول من يقول إنها وإن كانت فيها حياة إذا كانت غير مستقرة فلا يجوز أكلها ؟ قيل : الفائدة في ذلك أن الذين خوطبوا بذلك لم يكونوا يعدون الميت إلا مامات حتف أنفه من دون شيء من هذه الأسباب فأعلمهم الله أن حكم الجميع واحد وأن وجه الاستباحة هو التذكية المشروعة .

وقال السدي : إن ناساً من العرب كانوا يأكلون جميع ذلك ولا يعدونه ميتاً إنما يعدون الميت الذي يموت من الوجع .

ثم قال الشيخ رحمه الله : والتذكية هي فري الأوداج والحلقوم اذا كانت فيه

حياة ولا يكون بحكم الميت^(١) انتهى كلام الشيخ .

وهذا الأمر - وهو قطع الأوداج - شرط لازم في التذكية ، وقد ذكره جميع الفقهاء عند تعرضهم للذباحة .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : لا تأكل الشريعة فإنها ذبيحة الشيطان . قال ابن المبارك : هي أن تخرج الروح منه بشرط من غير قطع حلقوم^(٢) .

وقال في ملتقى الأبحر : والذبح قطع الأوداج ، وهو جمع ودج والودج اثنتان فقط ، والمراد الودجان والحلقوم والمري ، وإنما قال الأوداج بطريق التخليب .
ثم قال : ولا تحل ذبيحة وثني أو مجوسي أو مرتد أو تارك التسمية عمداً^(٣) انتهى .

هذا هو الحكم في الشريعة الإسلامية وهو أن الحيوان إذا أرادوا أكله يلزم تذكيته بقطع الأوداج والحلقوم ، فمات فعله بعض الحكومات الإسلامية من استعمال آلة قاطعة الرأس من غير إحراز لقطع الأوداج فهذا غير موافق للشريعة ولا يجوز أكله وهو أيضاً لا يذكر عليه اسم الله ، فينبغي لمن هو متصل بأرباب الدولة أن ينبه المسؤولين على حرمة هذا العمل وأنه منافٍ للدين الإسلامي ، وهذا أيضاً موجب للعسر والحرج لأن الذي يطلع على هذه الكيفية لا يحل له الأكل من هذه اللحوم ، فيبقى في حيرة وحاجة ماسة إلى اللحم .

العاشر : قوله « وما ذبح على المنصب » قيل : هي الحجارة التي كانوا يعبدونها وهي الأوثان . عن مجاهد وقتادة وابن جريح . يعني : حرم عليكم ما ذبح على

(١) التبيان ، ج ٣ ص ٤٣٢ .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٣) ملتقى الأبحر : ص ١٨٥ .

على النصب أي على اسم الأوثان ، وقيل: معناه وماذبح للأوثان تقرباً إليها^(١) هذه عبارة المجمع .

وعن الامام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى : « وماذبح على النصب » قال : كانوا يذبحون لبيوت النيران وقريش كانوا يعبدون الشجر والصخر فيذبحون لهما^(٢) . وقال المرحوم جدنا السيد عبدالله شبر في تفسيره الوسيط المسمى بـ «الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين » في بيان معنى النصب : جمع نصاب أو واحد النصاب وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها تقرباً إليها . وقيل : هي الأصنام و « على » بمعنى اللام أو على أصلها أي على اسم الأصنام^(٣) .

الحادي عشر: قوله « وأن تستقسموا بالازلام » قال في التفسير السابق الذكر « وأن تستقسموا » تطلبوا معرفة ما قسم معالم يقسم . « بالازلام » جمع زلم كحمل وصرده : قدح لاريش فيه ولائصل كانوا اذا قصدوا أمراً ضربوا ثلاثة قداح كتب على إحداها : أمرني ربي ، وعلى الآخر منها : نهاني ربي ، والثالث: غفل ، فإن خرج الأمر فعلوا وإن خرج النهي تركوا وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً .

وعن الرضا عليه السلام : « وما اهل لغير الله به » يعني ماذبح للأصنام ، وأما « المنخنقة » فإن المجوس كانوا لا يأكلون الذبائح ولا يأكلون الميتة وكانوا يخنقون البقر والغنم فاذا انخنقت وماتت أكلوها ، و « الموقوذة » كانوا يشدون أرجلها ويضربونها حتى تموت فاذا ماتت أكلوها ، و « النطيحة » كانوا يناطحون بالكباش فاذا مات أحدها أكلوه ، و « ما أكل السبع إلا ما ذكيت » فكانوا يأكلون ما يقتله الذئب والأسد فحرم الله عز وجل ذلك ، و « ماذبح على النصب » كانوا يذبحون لبيوت النيران ، وقريش كانوا يعبدون الشجر والصخر فيذبحون لهما ، و « أن

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٥٨ .

(٢) تفسير الصافي : ج ٢ ص ٨ .

(٣) الجوهر الثمين : (مخطوط) .

تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ، قال: كانوا يعمدون الى الجزور^(١) فيجزئونه عشرة أجزاء ثم يجتمعون عليه فيخرجون السهام فيدفعونها الى رجل وهي عشرة، سبعة لها انصباء وثلاثة لانبصاء لها فالتى لها انصباء : الفذ والتوأم والمسبل والنافس والجلس والزقيب والمعلّى ، فالفذ له سهم ، والتوأم له سهمان ، والمسبل له ثلاثة أسهم، والنافس له أربعة أسهم ، والجلس له خمسة أسهم، والزقيب له ستة أسهم ، والمعلّى له سبعة أسهم . والتى لانبصاء لها : السفيح ، والمنيح ، والوغد ، وثمن الجزور على من لم يخرج له من الانصباء شيء وهو القمار فحرمه الله تعالى . «ذلكم فسق» أي تناول هذه المحرمات خروج عن الطاعة أو إشارة الى الاستقسام^(٢) انتهى ، أي أن الإشارة إما أن تكون الى جميع المحرمات وإما أن تكون الى الاستقسام فقط .

وعلى كل حال فإن هذه الامور قد حرمها الله على العباد ، فاذا ارتكبتها أحد فقد خالف قول الله وعصاه ويسمى فاسقاً، وقد سماه الله فاسقاً فلا مجال عن وصفه بغير هذا الوصف .

وحيث قد جرى ذكر هذا الوصف الذي يبغضه الله ويبغضه الرسول ويبغضه المؤمنون فلا بأس بذكر تعريف هذا الوصف، وأنه بأي شيء يتحقق، وذكر حكم الفاسق وما ينبغى للناس أن يعاملوه به ليتضح للمقارئ جلياً حتى يختار لنفسه ما يجب الاتصاف به من هذا الوصف وعدمه .

تعريف الفسق :

قال الراغب في المفردات : فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، وذلك

(١) الجزور - بالفتح - : وهي من الابل خاصة ماكمل خمس سنين ودخل في السادسة يقع على الذكر والانثى ، والجمع جزر كرسول ورسول .

(٢) الجوهر الثمين : (مخطوط) ونقل الحديث أيضاً الفيض الكاشاني في تفسيره (راجع الصافي : ج ٢ ص ٧ - ٨) ولكن عن الامام الباقر عليه السلام مع اختلاف يسير .

من قواهم فسق الرطب اذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر. قال في المنجد:... والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيراً. وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخذ بجميع أحكامه أو ببعضه^(١) انتهى .

قال في المنجد: فسق فسقاً وفسوقاً: خرج عن طريق الحق والصلاح، فجر^(٢) فهو فاسق، جمعه: فسقة وفساق وفساقون مؤنثه فاسقة جمعها فاسقات وفواسق، وفسق وانفسق الرطب عن قشره أي خرج.

فتمحصل مما ذكر أن معنى الفسوق هو خروج الشيء عن المحل أو المكان الذي لا ينبغي أن يخرج منه، وأن خروجه خلاف الأصل، وهنا أمر ينبغي ذكره لتقرأ النساء ويقرأ الرجال القوامون على النساء .

قال في المفردات : سميت الفأرة فويسقة لما اعتقد فيها من الخبث والفسق، وقيل لخروجها من بيتها مرة بعد أخرى. وقال عليه الصلاة والسلام: اقتلوا الفويسقة فإنها توهي السقاء وتضرم البيت على أهله^(٣).

أقول: ينبغي للمرأة التي تخرج في هذه الأيام وهي متبرجة بل مجردة تخرج مرة بعد أخرى أن تقرأ هذه الجملة وهذا الأمر من النبي لتعرف الوصف الذي ينطبق عليها، والظاهر أن هذا التصغير ليس للتقليل بل هو للمبالغة والشدة مثل قول الشاعر :

دويهة تصفر منها الأنامل

كيفية معاملة الفاسق :

وأما كيفية معاملته فقد قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ

(١) المفردات : ص ٣٨٠ مادة « فسق » .

(٢) المنجد : ص ٥٨٣ .

(٣) المفردات : ص ٣٨٠ مادة « فسق » .

فاسق نبياً فتبينوا^(١) فالفاسق لا يصدق ولا يعتمد على قوله، وقال تعالى: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً»^(٢).

هذا سؤال تقريرى ألقاه الله تعالى على العباد مؤمنهم وفاسقهم، ثم أجاب تعالى بجواب إجمالى فقال: «لا يستوون»، وهذا الجواب المجمع يجعل بين القسمين فرقاً بعيداً لا يقترب أحدهما عن الآخر في كل وقت وفي كل زمان وعند كل أحد وفي كل شيء، فهم لا يستوون عند الرسول ولا يستوون عند المؤمنين ولا يستوون عند الفاسقين ولا يستوون حتى عند الكافرين، فإننا قد رأينا مراراً عديدة أن الكافر إذا أراد أن يودع شيئاً من المال عند أحد يفحص عن المؤمن التقى فيودع عنده ولا يودعها عند الفاسق، وإذا أراد الكافر أن يوكل أحداً على الظلم والنهب والقتل يوكل الفاسق المعلن بالفسق، وإذا نرى أن الحكومة المستعمرة للكافر أغلب رجالها وموظفيها فسقة فجرة يفعلون كل ما يأمرهم به المستعمر فينهبون الأمة نهكاً ولا يدعون عندها شيئاً.

ثم إن الله سبحانه بعد ما ذكر لنا هذا الجواب المفرق بين القسمين بيننا لنا الغاية والنهاية والعاقبة لكل واحد من القسمين ليأخذ الإنسان ما يختاره لنفسه من العاقبة، فقال تعالى: «أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون»^(٣) هذا مكان المؤمن وهذه عاقبته.

أما الفاسق فقد قال سبحانه: «وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون»^(٤).

(١) الحجرات : ٦ .

(٢) السجدة : ١٨ .

(٣) السجدة : ١٩ .

(٤) السجدة : ٢٠ .

ثم ذكر الله عز وجل أن الفاسقين لهم عذاب غير العذاب الذي يكون في جهنم هو دون عذاب النار وهو قوله سبحانه : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون »^(١).

إن الله عز وجل من لطفه بعباده ورحمته لهم وشفقته عليهم يريد أن يخلصهم من عذاب النار فيبتلي لنا في هذه الآية أن هؤلاء الذين يأكلون هذه المحرمات التي حرمت عليهم حيث إنهم قد فسقوا فصار مأواهم النار فإن الله يذيقهم عذاباً دون عذاب النار ، فإنهم إذا رأوا أنهم لا طاقة لهم على تحمل هذا العذاب سوف يرددعون عن عصيانهم ويرجعون عن غيبتهم ويتوبون إلى الله من ذنوبهم ، فإذا تابوا يتوب الله عليهم وينجيهم من النار ، وهذا العذاب الأدنى يكون في الدنيا ، وهي المصائب التي تجري على الإنسان من قتل أو أسر أو قحط أو مرض أو تسلط عدو عليه ، فهذا الفاسق إذا كان عاقلاً وتنبه أن ما أصابه من العذاب إنما هو بسبب عصيانه وفسقه يرجع عن فسقه ويتوب إلى الله ويكون مؤمناً صالحاً . ونحن الآن في عصر قد ابتلى أكثر الناس بنوع من البلاء ولكنهم لم يلتفتوا ولم ينتبهوا ، فإن هذا الابتلاء بسبب عصيانهم وقد بقوا مصرين على أعمالهم المحرمة وهم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بقوله : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون »^(٢).

ومما يعامل به الفاسق المتجاهر بفسقه أنه لا حرمة له عند المؤمنين لما روي عن الصادق عليه السلام قال : إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة^(٣).

وفي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فإظهار البراءة منهم وأكثر من سبهم والقول فيهم

(١) السجدة : ٢١ .

(٢) السجدة : ٢٢ .

(٣) بحار الانوار : ج ٧٥ ص ٢٥٣ ب ٦٦ ح ٣٢ .

والوقية وباهتوهم كي لا يطعموا في الفساد في الاسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة^(١). وروى الديلمي صاحب إرشاد القلوب عن رسول الله ﷺ قال : من زوج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم ألف لعنة ، ولا يصعد له عمل الى السماء ولا يستجاب له دعاؤه ولا يقبل منه صرف ولا عدل^(٢).

هذا آخر الكلام على المحرمات التي ذكرت في الآية ، فمن كان يعتبر نفسه مسلماً فعليه أن يتجنب جميع هذه المحرمات ولا يفعل منها شيئاً ، فإن فعل شيئاً منها فلا يخفى عليه أنه معدود عند الله من الفاسقين ، فقد سمعت الفرق بين المؤمن والفاسق ، وعرفت مكان كل واحد منهما ، فإن الفاسق مأواه جهنم ، وقد عرفت الفويسقة أيضاً فلا تكن فاسقاً واحفظ زوجتك وبقية نسائك أن يكن من الفويسقات .

ومن جملة هذه الآية قوله تعالى : «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون» فيما يتعلق ببشارة الله للمؤمنين فيما لو ثبتوا على مبدئهم. إن هذه المحرمات التي ذكرت في هذه السورة كان بعضها مذكوراً في غيرها مما نزلت قبلها ، فقد نزل في سورة الانعام^(٣) والنحل^(٤) والبقرة^(٥) تحريم الأربعة الاول من هذه الآية ، فاجتنبها المسلمون وبقوا مساوين للكافرين في بقية المحرمات حيث لم ينزل تحريمها ، وقد كان الكافرون يأملون من المسلمين أن يفعلوا هذه الامور الأربعة أيضاً وأن يرجعوا الى ما كانوا عليه قبل البعثة لما يرون من المسلمين في تكتمهم في الاسلام والانقاء من المشركين وعدم التجاهر أمامهم في

(١) الوسائل : ج ١١ ص ٥٠٨ ب ٣٩ ح ١ .

(٢) سفينة البحار : ج ٢ ص ٣٦١ مادة « فسق » نقل عن إرشاد القلوب .

(٣) الانعام : ١٤٥ .

(٤) النحل : ١١٥ .

(٥) البقرة : ١٧٣ .

المحرمات ، ويرى المشركون أنهم يشاركون المسلمين في الطواف بالبيت على ما يشتهون من الطواف عراة .

وبعد ما منع الله المشركين عما منعهم وتليت عليهم آيات من سورة براءة نزلت هذه الآية التي تبين المحرمات على المسلمين تفصيلاً ، وتضيف إلى الأربعة المتقدمة الذكر بقية المحرمات ، وقد التزم بها المسلمون وعملوا متجاهرين بالالتزام بها ، والتزموا بالحكم تبعاً لحكم الله بأن من فعل شيئاً من هذه المحرمات فهو فاسق قد خرج من جماعة المؤمنين .

وقد رأى وشاهد المشركون هذا العمل وهذه العقيدة من المسلمين حينئذٍ فانقطع أمل المشركين من المسلمين بأن يتركوا دينهم ويرجعوا كفاراً ، فأخبر الله المسلمين بذلك بقوله « اليوم ينشرون الذين كفروا من دينكم ، ورضاهم بأن يتركوا التقية ولا يخشوا من الكافرين في شيء من أحكام الدين بل عليهم أن يظهروها ويتجاهروا بها في كل مكان فقال لهم « فلا تخشوهم ، ولا يخصن أن المسلمين في ذلك العصر كانوا في غاية القلة بالنسبة إلى عصرنا الحاضر ولكنهم كانوا ملتزمين بقواعد الدين التزاماً دقيقاً في كل شيء بحيث لا يخالفون في شيء منه وإن كان يسيراً ، وكان الرجل منهم يترك أباه وأخاه إذا كان على خلاف دينه ، ولو أمره النبي ﷺ بقتله ما كان يتوقف في ذلك .

ولما كان في علم الله أن هذا العصر سيكون الدين ضعيفاً ، وأنه سيخرج أكثر المسلمين عن دينهم ، وأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين على خلاف أمر الله تعالى ، فإنه خاطبهم بقوله : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،^(١) وغيرها من الآيات كما سيأتي قريباً ، ولكن بعض الناس لضعف إيمانهم تركوا موالاة المؤمنين واتخذوا الكافرين أولياء .

ويرشدنا ويدلنا على هؤلاء أنهم يتركون الواجبات كالصلاة التي قال النبي

عَلَيْهِ السَّلَامُ عنها أنها عماد الدين ^(١) ، وكالصوم الذي قال عنه ﷺ أنه جنة من النار ^(٢) وكالزكاة التي قرنها الله بالصلاة في أغلب الآيات ، وكالاخوة التي جعلها الله بين المسلمين من لوازم الاسلام كما في قوله: « فأصبحتم بنعمته إخواناً » ^(٣) وأن ترك هذه الامور الواجبة كله من أفعال غير المسلمين .

وبدلنا أيضاً على ضعف إيمان بعض الناس ارتكابهم للمحرمات التي نهى الله عنها كشرب الخمر الذي يرشد العقل الى تركه تأييداً لنهى الشريعة عنه، وكالربا الذي شدد القرآن والسنة في النهي عنه .

ومن المحرمات المتفق على حرمتها عند جميع فرق المسلمين المعاملة بالربا ، نرى أن كثيراً من المسلمين يتعاملون به وهم يعلمون حرمة . ومن المحرمات القبيحة تبرج النساء الذي نهى الله عنه مخاطباً بقوله : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » ^(٤) وأن التبرج في هذا الزمان أعظم إنمأ من ذلك التبرج لأن الملابس تقسم فيها جاذبية المنظر حيث إنها براقعة لامعة لاتستر ، أضف الى هذا ما تصنعه المرأة من أنواع المساحيق تجمل به بشرة وجهها وشفتيها وتفوح منها الروائح العطرة خلافاً لما كان في ذلك العصر ، وهناك مجرمات اخر يفعلها الناس كلها مماثلة لأفعال الكافرين وقد نهى الله عن موالاتهم .

ومما لا ريب فيه أن رجال هذا العصر ونساءه أكثر علماً وأوسع إطلاعا من العصور السابقة ، ومع كثرة العام ينبغي كثرة العمل وفاقاً للعلم ، أما اذا خالف العالم علمه فسيكون عقابه أشد وأكثر ، ولا ريب أن أكثر المسلمين قد انكشف لهم فتيقنوا أن الدول الكافرة الكبرى لا يطيب لهم أن يكون في الدول الاسلامية ما تساويهم أو تقاربهم في القوة ، وعلى هذا فالأحرى بالدول الاسلامية والشعوب

(١) بحار الانوار : ج ٨٢ ص ٢٠٢ ب ١ ح ١ .

(٢) بحار الانوار : ج ٩٦ ص ٢٥٨ ب ٣٠ ح ٤١ .

(٣) آل عمران : ١٠٣ .

(٤) الاحزاب : ٣٣ .

الاسلامية أن تتآخى وتتآلف وتوحد كلمتها ويتولى بعضها بعضاً ولا توالي الكافرين فإن الذين يتولاهم يحسبه الله منهم لأنه تعالى يقول في كتابه : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم »^(١).

ولا ينبغي لكم أن تخافوا من الكافرين فإن الله سبحانه خاطبكم بقوله : « فلا تخشوهم واخشون » فقد أشار لنا بهذه الكلمة « واخشون » الى الآيات التي نهانا بها عن موالاة الكافرين ، وإني اعدد لك ما يحضرني منها وأذكرك واحدة واحدة لتعتبر بها ولا تنغل عما فيها :

١- « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير »^(٢).

٢- « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء »^(٣).

٣- « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين »^(٤).

٤- « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبائلاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر »^(٥).

٥- « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم »^(٦).

(١) المائدة : ٥١ .

(٢) البقرة : ١٢٠ .

(٣) آل عمران : ٢٨ .

(٤) آل عمران : ١٠٠ .

(٥) آل عمران : ١٨٠ .

(٦) آل عمران : ١٤٩ و ١٥٠ .

في ذكر الآيات التي نهانا الله بها عن موالاة الكافرين ————— ٣٤٩

٦ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا »^(١).

٧ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »^(٢).

٨ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »^(٣).

٩ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَإِنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »^(٤).

١٠ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »^(٥).

١١ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبَّوْا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاوْلَاكُمْ هُمْ الظَّالِمُونَ »^(٦).

١٢ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ »^(٧).

١٣ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ »^(٨).

١٤ - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *

(١) النساء : ١٤٤ .

(٢) المائدة : ٥١ .

(٣) المائدة : ٥٧ .

(٤) الانفال : ٢٤ .

(٥) الانفال : ٢٧ .

(٦) التوبة : ٢٣ .

(٧) التوبة : ٢٨ .

(٨) التوبة : ١٢٣ .

والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم»^(١).

١٥ - «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم»^(٢).

هذه الآية هي بعد قوله : «والذين كفروا فتعساً» بالله عليك أيها القاريء العزيز تأمل قليلاً في هذه الآيات الثلاث (٧ و ٨ و ٩) من سورة محمد ﷺ حتى تعرف ما يكلمك الله به ، فإنه يقول لك أولاً اذا نصرت الله بحفظ آياته والعمل بأحكامه فإن الله سينصرك على الصهاينة وأعوانهم وعلى غيرهم من أعدائك ، فاذا أردت أن ينصرك الله فانصره . ثم قال : «والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم» ثم ذكرنا لك الذين كفروا من هم وأي فرقة هم ، فقال تعالى : «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم» .

فقد تبين أن كل من كره ما أنزل الله من الأحكام فهو كافر ، فالذي يبدل حكم القرآن بحكم آخر فقد كره حكم القرآن . وهذا ليس فيه خفاء ولا مجال لأحد أن ينكره كما صرح القرآن بهذا «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»^(٣) فإن الذي يكره ما أنزل الله على رسوله من النور والحكمة والعلم فهو أسود القلب جاهل بكل معنى الكلمة ، فهو مطموس على قلبه لا يعقل ما ينفعه وما يعزه ، فاذا كان جاهلاً بالله فهو الكافر الحقيقي .

فلو كان مثل هذا الرجل قد عبد الله دهرأ طويلاً بحسن نية وإخلاص يبطل جميع عمله وليس عليه ثواب في الآخرة لأن الله يقول : «ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم» فإن الجملة الثانية صريحة بأن أعمالهم تحبط بمجرد كراهتهم لما أنزل الله .

١٦ - «محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم»^(٤).

(١) محمد : ٨ و ٧ .

(٢) محمد : ٩ .

(٣) المائدة : ٤٤ .

(٤) الفتح : ٢٩ .

في ذكر الآيات التي نهانا الله بها عن موالاة الكافرين ————— ٣٥١

أما الذين ينتمون الى الأحزاب الضالة فهم أشداء على المسلمين عبيداً للكافرين ودعاة وأذناً إلى أسيادهم المستعمرين .

١٧ - ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ،^(١)

١٨ - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربكم ،^(٢)

١٩ - يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ،^(٣)

٢٠ - يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ،^(٤)

أيها الانسان الذي تسمى نفسك مسلماً أعرفت معنى قوله تعالى : «واخشون» إن هذه الآيات التي سمعتها أو قرأتها كلها تنهاك عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فهل يمكن للمسلم إذا سمع هذه الآيات أن يكون عميلاً للكافر ينفذ أوامره ولو بإضرار المسلمين ؟

كلّا ثم كلّا ، لا يكون المسلم هكذا اذا كان يعتقد بيوم الحشر ويوم البعث من القبور فاذا كر قوله تعالى : «وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون»^(٥) .

تأمل أيها الرجل في قوله تعالى : «واخشون» واعرف الله واعرف ما يقوله لك ، أيها المسلم اخش الله في كل محرم تفعله ، واخش الله في كل واجب تتركه

(١) المجادلة : ١٤ .

(٢) الممتحنة : ١ .

(٣) الممتحنة : ١٣ .

(٤) الصف : ١٤ .

(٥) الجاثية : ٢٨ .

واخش الله في كل مسلم تظلمه ، واخش الله في كل أمر تطيع فيه الكافر ، واخش الله في كل شيء يخالف فيه أمر الله .

تكملة

إن الأحكام الالهية الموجهة الى العباد في الشريعة الاسلامية حيث إن الله لم يجعل فيها شدة ولا عسراً ولا حرجاً وأن لا يخشى المكلف من الاتيان بها الأذى والضرر على النفس والمال أو الأهل أو على نفس مسلمة اخرى غير المؤدي للتكليف ففي هذه الظروف التي لا تكون فيها هذه الموانع يكون التكليف محتملاً ويكون المكلف حراً في تأدية واجباته .

وحيث إن المسلمين كانت تعترضهم بعض هذه الموانع في ابتداء البعثة ولم يكونوا في حرية تامة في إتيان الواجبات كان الحكم مقيداً بعدم الخوف .

وحين إزالة هذه الكوارث عن طريقهم وإزاحتها عنهم أعلمهم الله بذلك وأفهمهم بأنهم قد منحوا الحرية التامة في تأدية واجباتهم ، وعلى هذا تكون هذه الجملة وهي قوله تعالى: « اليوم يئس ... الخ » مما له الدخول في التكليف ، وليست جملة معترضة بين الآية الواحدة كما قال بعض المفسرين لاربط لها أصلاً بالحكم ، بل هي مما لها الدخول في التكليف السهل الذي لا حرج فيه ولا عسر كما هو الشأن في الشريعة المحمدية .

واذا كانت مما لها الدخول في التكليف تكون من مقدمات الآية التي بعدها المعلنة لا كمال الدين ، حيث إن الاكمال لا يتحقق إلا مع تحقق جميع مقدماته . ولا يخفى أن إزاحة الموانع وتخفيف السرب من جملة المقدمات بحيث لا يبقى المكلف في حيرة وارتباك عند عرض بعض المسائل ، ولا يقع في ورطة وابتلاء عند أداء الفعل المأمور به ، إذ الشيء لا يكون كاملاً إلا في هذه الحالة . وكما أن هذه المسألة يتوقف عليها الاكمال فكذا يتوقف على بيان جميع الاصول التي تنطبق

عليها الجزئيات ، فإن الله بعدما أخبرنا أنه أكمل لنا الدين لا يمكن لأحد أن يقول إن بعض المسائل غير موجودة في القرآن ولا في السنة .

ومن جملة الامور التي يتوقف عليها الاكمال تعيين الشخص الذي يستخرج الجزئيات من اصولها الكلية ، أي يلزم أن يكون في الامة أحد الراسخين في العلم بعد رحلة النبي ﷺ من عالم الدنيا، حيث أوضح الله لنا أن تأويل القرآن عندهم بقوله : « لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » ^(١) وأوضح لنا هنا أنه قد أكمل الدين بقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم » فإذا أراد العبد المسلم أن يعرف أحكام دينه الحقيقية التي يرضى بها الله كان اللازم عليه أن يتلقاها من أحد الراسخين في العلم، وهذا أمر واضح لا ريب فيه ، فإنه لما أنزل الله « اليوم أكملت لكم دينكم » تحقق لنا منه :

١- أن أحكام الدين موجودة في القرآن الكلية والجزئية ، فيلزم على كل مسلم أن يجزم بوجود الأحكام في القرآن .

٢- أن هذا الكمال الذي ذكره الله في الآية يلزم أن يكون شاملاً لكل مسلم ولا يجوز بحكم العقل أن ننسب الى العدل الالهي أن يجعل الاكمال للنبي وحده ، أي هو العالم بجميع الأحكام وحده ولا يعلم بها غيره من الامة ، مع أن الله يخاطب الجميع ويقول لهم : « اليوم أكملت لكم » .

٣- أن في الامة بل أغلب الامة أميين لا يعرفون القراءة والكتابة ، ولو عرفوا القراءة لا يمكنهم معرفة الأحكام واستخراجها من الآيات إلا بالتعلم من النبي ﷺ .

٤- أن جميع الامة لا تعرف تأويل الآيات المتشابهات إلا من استثناهم الله بقوله : « لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » .

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) المائدة : ٣ .

٥ - أن هذا الدين الذي أكمله الله لامة محمد قد بلغه الرسول لامة ولم يخف عنهم شيئاً منه وذلك بقوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك »^(١) حيث إن الله قد أكمل الدين بواسطة النبي ﷺ وأمره بأن يبلغ الامة بما أنزله عليه .

واذا عرفنا ما تقدم من الامور الخمسة نقول : إما أن يكون النبي ﷺ قد بلغ ما أنزل إليه أو لم يبلغ . والثاني باطل ، أي القول بعدم التبليغ باطل ، لأن الله يقول : « وإن لم تفعل فما بلغت »^(٢) فلا بد من المصير الى القول بالتبليغ .
فاذا اتفقنا على القول بالتبليغ فإما أن نقول إنه بلغ كل فرد من أصحابه الموحدين في زمانه بكل حكم من الأحكام ، فهذا لا يمكن القول به لأن في الكثير ممن لا يمكنه حفظ المسائل وفيهم أيضاً المنافقون الذين يتعمدون تغييرها وقلبها .

فلا بد من القول بأن التبليغ إنما هو لبعض الأصحاب الذين يمكنهم استخراج الجزئيات من الكلليات ويعلمون تأويل المتشابه من الآيات ، وهؤلاء في القلة وهم الذين ذكرهم الله بقوله : « والراسخون في العلم » ولا يعرفهم من أصحاب النبي ﷺ إلا القليل .

ولقد عرفنا بهم النبي بقوله : إني تارك فيكم ما لو تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي^(٣) فإنه لما جعل قرين الكتاب وعدله العترة عرفنا أنهم هم الذين يفسرونه وهم الذين يستخرجون منه الأحكام ويطبقون الفروع على الأصول . ولا يخفى أن الأكمال الذي يمكننا القول به والذي نفسر به الآية إنما هو القواعد الكلية لا المسائل الجزئية التي يبتلى بها الأفراد ، فإن هذه المسائل لا تكمل ولا تنتهي ، فلا بد من القول بأنها الأصول الكلية التي تنطبق على جزئياتها وعلى

(١) و (٢) المائدة : ٦٧ .

(٣) بحار الانوار : ج ٢٣ ص ١٠٤ ب ٧ .

هذا لا بد من وجود عالم عارف بمعاني جميع الآيات القرآنية حتى يستخرج الجزئيات من الاصول، ويلزم أن يكون من الراسخين في العلم، فاذا انقضى أمره جاء بعده واحد آخر، ومن بعدهم الفقهاء الذين يمكنهم الاستنباط من كلام الراسخين، لأن الراسخين هم العارفون بما يراد من المتشابه لا غيرهم.

ثم إن الاكمال معناه الاتمام الذي لانقص فيه ولا عيب من جميع الجهات، فاذا قال أحد من الخلق إني أكملت الأمر الفلاني يمكن أن يوجد فيه نقص أو عيب من جهة أو من جهات كثيرة، وهذا أمر بديهي يعرفه كل أحد، ولذا نرى أن جميع الحكومات اذا أسست المناهج والمواد القانونية التي يصنعها أكابر رجال الفكر والسياسة يظهر فيها بعد ذلك فساد بعض المواد فتغيّر وتبدل.

أما هذا الكلام الصادر من الله - خالق العالم وعالم السرائر والضمائر والعالم بالحقائق والدقائق والعالم بما كان وما يكون - فلا يحتمل أن يكون فيه نقص أو خطأ أو يحدث فيه عيب، فقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم» يدل على أن كل شيء يتعلق بالدين ويحتاج إليه المسلمون هو موجود في القرآن، وهذا لا يمكن أن يكون بالنسبة الى الجزئيات التي تحدث في كل يوم أو في كل ساعة أو حين وإنما يكون الاكمال بالنسبة الى كليات الامور وهي القواعد الكلية التي تنطبق على الجزئيات، والنبي ﷺ هو الذي يفسرها لأمته، وحيث إن الاكمال لم يكن مختصاً بزمن وجود النبي ﷺ فلا بد أن يكون بعد رحلة النبي ﷺ من يقوم مقامه ممن يبين لأمته ما يحتاجون إليه من امور الدين، وهذا الذي يقوم مقام النبي ﷺ يلزم أن يكون عالماً بتفسير القرآن، ويلزم أن يكون النبي ﷺ قد نوه عنه وبينه لأمته باسمه الصريح، ويلزم على كل فرد من المسلمين أن يفحص عنه ويعرفه باسمه ويعرفه للناس.

قال الراغب في المفردات: كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه، فاذا قيل

كامل ذلك فمعناه حصول ما هو الغرض منه^(١).

وقال في القاموس المحيط: الكمال التمام، وأكمله واستكمله وكمّله أتمّه وجمله^(٢).

وقال في المنجد: كمل وأكمل واستكمل الشيء أتمّه، كمل وأكمل الشيء جملة أو جعله جملة^(٣).

فقد انضح من قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم»، أنه تعالى ذكر أحكام الدين كلها في القرآن بطريقة قواعد كلية يفسرها الامة الراسخون في العلم العارفون بتأويله المطلعون على حقائقه وغوامضه، ويرشد الى هذا تفسير كلمة أكمل بأجل كما فسر معنى أجهل في المنجد بقوله أو جعله جملة.

ماقاله سيد قطب :

قال في تفسير قوله تبارك وتعالى «اليوم أكملت لكم دينكم»: فما عادت زيادة لمستزيد، ففي مبادئه وكلياته وتوجيهاته الكفاية لبناء الضمائر وبناء المجتمعات^(٤) انتهى.

تنبيه

لا يخفى أن إكمال الدين وإتمام النعمة ليس مختصاً بالامور المرتبطة بالفقه من عبادات ومعاملات بل تشمل كل شيء من الصناعات والحرف وغيرها مما يحتاجه الناس.

ويرشد الى هذا كلام الامام الباقر عليه السلام مع هشام بن عبد الملك وذلك لما رمى الامام البرجاس وأصابه، ثم رماه ثانياً فشق فواف سهمه الى نصله، ثم تابع

(١) المفردات: ص ٤٤١ مادة «كمل».

(٢) القاموس المحيط: ج ٤ ص ٤٧ فصل الكاف باب اللام.

(٣) المنجد: ص ٦٩٨.

(٤) في ظلال القرآن: ج ٢ ص ٨٤٢.

الرمي حتى شقّ تسعة أسهم بعضها في جوف بعض ، وعند ذلك سأله هشام وقال :
أيرمي جعفر مثل رميك؟ فقال الامام الباقر عليه السلام : إنا نحن نتوارث الكمال والتعالم
اللذين أنزلهما الله على نبيه في قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم
نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الامور التي
يقصر غيرنا عنها... الخ ، وقد ذكرنا كلام الامام في الجزء الأول من هذا الكتاب^(١)
فقد علمنا من كلام الامام أن قول الله سبحانه « أكملت وأتممت » هو بالنسبة
الى جميع العلوم التي أعطاها الأنبياء وكذا العلوم التي لم يعطها لأحد .

وقد تحصل مما ذكرنا في هذه الآية أمران :

الأمر الأول: هو أن الله سبحانه أنزل في القرآن جميع العلوم المتعلقة بامور
الدنيا والآخرة وجعلها قواعد كلية تنطبق على ما يحدث من المسائل الفردية بحيث
لا يمكن أن يعرض للبشر أمر من الامور ليس حكمه أو حله في القرآن .

الأمر الثاني: أن هذه العلوم التي لا تحصى ولا تعد قد علمها الله النبي صلى الله عليه وآله
والنبي قد أودعها عند رجال معدودين ليعلّموها لمن يطلبها منهم إن كان أهلاً
لذلك ، وأن هؤلاء الرجال لا يمنعونها عن أحد ولا يمنعون أحداً عنها ، أما ذاك
الذي يتكبر عن الأخذ منهم أو أنه يعمل برأيه ولا يحتاج الى الحكم المنزل من
الله فلا يرضونه عليه فرضاً ، فإن مثل هذا غير ملتزم بأحكام المسلمين ومن لا يلتزم
بأحكام المسلمين فليس منهم .

بقي على المسلم المكلف أن يعرف أول رجل من هؤلاء الرجال وهو يدله
ويرشده الى من بعده ، فإن كل واحد اذا حضره الموت يلزمه أن يسلم هذه العلوم
الى من بعده ويدلّ الناس عليه ، ولا يمكننا أن نعرف أول رجل منهم إلا بدلالة
النبي صلى الله عليه وآله فإنه هو الذي يعرفه ولا يعرفه غيره .

أخي المسلم، هلمّ معي حتى نفحص الكلمات الصادرة من النبي صلى الله عليه وآله مخاطباً

بها عموم أمة التي تدلنا على أول رجل من رجال العلم ، فإذا عرفناه عرفنا غيره ممن يأتي بعده .

فمن الكلمات التي يروى عنها أصحابه هي « حديث الثقلين » المشهور عند جميع فرق المسلمين ، وقد ذكره النبي ﷺ في مقامات عديدة بعبارات متقاربة الألفاظ متحدة المعنى ، فمنها قوله كما في كنز العمال : إني تارك فيكم ما إن تمسكتم لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ، ولن يتفرضا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما^(١) .

فإن هذا الحديث المعتبر عن اجتماع العترة مع الكتاب وعدم افتراقهما حتى يردا الحوض يدل على علم العترة بتأويل الكتاب ، وأن أول العترة وسيدها هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو عنده علم الكتاب فإن اكتفيت بهذا فخذ بما يخبرك به علي من أحكام الدين ، وإن لم تكف بهذا فإن عندنا أحاديث كثيرة تدل على أن علم الكتاب عند علي عليه السلام نذكر منها :

١ - عن ابن أبي ليلى عن الحسن بن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : ادعوا لي سيد العرب - يعني علي بن أبي طالب - فقالت عائشة : ألسنت سيد العرب ؟ فقال : أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب ، فلما جاء أرسل إلى الأنصار فأنوهم فقال لهم : يا معشر الأنصار ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبداً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : هذا علي فأحبوه بحبي وأكرموا بكرامتي فإن جبرئيل أمرني بالذي قالت لكم من الله عز وجل^(٢) .

٢ - عن أبي صالح الحنفي عن علي عليه السلام قال : قلت : يا رسول الله أوصني ، قال : قل ربي الله ثم استقم ، قال : قلت : الله ربي وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت

(١) كنز العمال : ج ١ ص ١٧٣ ح ٨٧٣ .

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٢ ص ٦٣ .

وإليه انيب ، فقال : ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلتها نهلاً^(١).

٣ - عن عبدالله بن مسعود قال : إن القرآن انزل على سبعة أحرف ما منها

حرف إلا له ظهر وبطن ، وإن علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن^(٢).

٤ - عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : يا علي إن الله أمرني أن أدنك

واعلمك لتعي ، وانزلت هذه الآية وتعيها اذن واعية ، فأنت اذن واعية لعلمي^(٣).

٥ - عن سليمان الأحسي عن أبيه عن علي بن أبي طالب قال : والله ما نزلت آية إلا وقد

علمت فيم انزلت وأين انزلت ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً^(٤).

٦ - عن حبشي بن جنادة قال : قال رسول الله ﷺ : علي مني وأنا من

علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي^(٥).

٧ - عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : علي مني بمنزلة راسي من بدني^(٦).

٨ - روي أن النبي ﷺ قال في مرض موته : أيها الناس ! يوشك أن أقبض

قبضاً سريماً فينطلق بي وقد قدمت اليكم القول معذرة إليكم ، إلا أنني مخلف

فيكم : كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي . ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال :

هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردها علي الحوض فأسألهما

ما خلفت فيهما^(٧).

٩ - قال الغزالي : قد علم الأولون والآخر أن فهم كتاب الله منحصرون

إلى علم علي ، ومن جهل ذلك فقد ضل عن الباب الذي من وراءه يرفع الله عن

القلوب الحجاب حتى يتحقق اليقين الذي لا يتغير بكشف الغطاء^(٨).

(١) و (٢) حلية الأولياء : ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) حلية الأولياء : ج ٢ ص ٦٧ والآية ١٢ من سورة الحاقة .

(٤) حلية الأولياء : ج ٢ ص ٦٧ .

(٥) الصواعق المحرقة : ص ١٢٢ .

(٦) الصواعق المحرقة : ص ١٢٥ .

(٧) الصواعق المحرقة : ص ١٢٦ .

(٨) فيض القدير : ج ٣ ص ٤٦ .

أقول : يشير الامام الغزالي بقوله : « فقد ضلّ عن الباب » الى كلمة النبي ﷺ المشهورة : أنا مدينة العلم وعلي بابها^(١). ويشير الغزالي بقوله : « الذي من ورائه يرفع الله عن القلوب » الى كلمة علي عليه السلام المشهورة : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً^(٢).

إن كلمة الامام الغزالي كلمة بديعة ، وهي تشبه كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ولا بد من توضيح عبارته لمن خفيت عليه .

يقصد الغزالي بكلمته أن انحصار فهم الكتاب بعلي ، حيث إنه متفق لدى الأولين والآخرين ، فالذي يجهل هذا الاتفاق لدى الأولين والآخرين فإنه ضالّ عن الباب الذي يشير الله إليه بقوله : « ليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى زائتوا البيوت من أبوابها »^(٣) ولما قال النبي ﷺ : أنا مدينة العلم وعلي بابها نبّه جميع الأمة من أن من أراد شيئاً من العلم - أي علم كان - يلزمه أن يأخذه من علي لأنه هو الباب للنبي والنبي هو مدينة العلم ، فمن أخذ شيئاً من العلم من غير علي كان كمن أتى البيت من ظهره ، فهو مخالف لأرشاد الله ومخالف لتعاليم النبي ، ومهما أخذ من العلم فهو بعد علي جهله وضلاله .

هذا هو محصل كلمة الغزالي القصيرة الألفاظ الكثيرة المعاني حيث أشارت الى : آية شريفة ، والى كلمة نبوية ، والى كلمة علوية ، والى معرفة مقام علي بن أبي طالب عليه السلام ، والى بيان أن الجاهل بهذا المقام هو جاهل مطلقاً وهو ضالّ عن الطريق حيث لم يهتد الى الباب .

إن هذه الأحاديث التي نقلتها لك من كتب الأعلام كلها تدلّ على أن علوم القرآن عند علي عليه السلام ، وأن الأمة الإسلامية ملزمة بالعمل بالقرآن ، وأن

(١) كنز العمال : ج ١١ ص ٦٠٠ ح ٣٢٨٩٠ .

(٢) شرح مائة كلمة : ص ٥٢ .

(٣) البقرة : ١٨٩ .

من أراد التمسك بالدين وخشي من الضلال فعليه التمسك بهما - أي بالكتاب والعترة - فإن كنت تقنع بما ذكر فهو المطلوب وإن أردت زيادة من الأخبار تأكيذاً للأمر فاستمع لما نذكره من كتاب «بنابيع المودة» للمحافظ سليمان بن إبراهيم الحنفي:

١٠ - عن علي عليه السلام قال: سلوني عن أسرار الغيوب فأني وارث علوم الأنبياء والمرسلين ^(١).

١١ - عن ابن عباس قال: أخذ بيدي الإمام علي عليه السلام ليلة مقمرة فخرج بي إلى البقيع بعد العشاء وقال: اقرأ يا عبدالله، فقرأت: بسم الله الرحمن الرحيم، فتكلم لي في أسرار الباء إلى بزوغ الفجر ^(٢).

١٢ - عن أبي الصباح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني، فما علمت شيئاً إلا علمته علياً، فهو باب علمي ^(٣).

١٣ - عن الكاظمي قال: قال ابن عباس: علم النبي صلى الله عليه وآله من علم الله، وعلم علي من علم النبي صلى الله عليه وآله، وعلمي من علم علي، وما علمي وعلم الصحابة في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر ^(٤).

١٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله فسئل عن علم علي فقال: قسمت الحكمة عشرة أجزاء فاعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً، وهو أعلم بالعشر الباقي أيضاً ^(٥).

١٥ - وفيه أيضاً أنه سئل علي كرم الله وجهه أن عيسى بن مريم كان يحيي الموتى وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير هل لكم هذه المنزلة؟ قال: إن سليمان بن داود عليه السلام غضب على الهدد لفقده لأنه يعرف الماء ويدل على الماء ولا يعرف سليمان الماء تحت الهواء مع أن الريح والنمل والانس والجن والشياطين

(١) و (٢) و (٣) بنابيع المودة : ج ١ ص ٦٨ .

(٤) و (٥) بنابيع المودة : ج ١ ص ٦٩ .

والمرتدة كانوا له طائعين وإن الله يقول في كتابه : « ولو أن قرآناً سیرت به
الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى »^(١) ويقول تعالى : « وما من غائبة
في السماء والأرض إلا في كتاب مبين »^(٢) ويقول تعالى : « ثم أورثنا الكتاب
الذين اصطفينا من عبادنا »^(٣) فنحن أورثنا هذا القرآن الذي فيه ما يسير به الجبال
وقطعت به البلدان ويحيى به الموتى نعرف به الماء وأورثنا هذا الكتاب، فيه تبيان
كل شيء^(٤).

١٦ - وفيه أيضاً عن الأصمغ بن نباتة كاتب أمير المؤمنين علي عليه السلام قال : أمرنا
مولانا بالمسير معه الى المدائن من الكوفة فسرنا يوم الأحد ، فتخلف عمرو بن
حريث مع سبعة نفر فخرجوا يوم الأحد الى مكان بالحيرة يسمى الخورنق فقالوا :
ننزه هناك ثم نخرج يوم الأربعاء فنلحق علياً قبل صلاة الجمعة ، فبينما هم يتغدون
إذ خرج عليهم ضب فصادوه فأخذوه عمرو بن حريث فنصب في كفه فقل لهم :
بايعوا لهذا ، هذا أمير المؤمنين . فبايعه السبعة وعمرو ثمانهم وارتحلوا ليلة الأربعاء
فقدموا المدائن يوم الجمعة وأمير المؤمنين عليه السلام يخطب وهم نزلوا على المسجد
فنظر إليهم فقال : أيها الناس إن رسول الله ﷺ أسر إلي ألف حديث ، في كل
حديث ألف باب ، وفي كل باب ألف مفتاح ، وإني أعلم بهذا العلم . وأيضاً سمعت
رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » ، وإني
اقسم لكم بالله لبيعثن يوم القيامة ثمانية نفر بإمامهم وهو ضب ، ولو شئت اسميهم
قال الأصمغ : لقد رأيت عمرو بن حريث سقط رعباً وخجالة^(٥).

وقد أكرت من ذكر الأحاديث الدالة على علم علي عليه السلام ليقنع الفاري.

(١) الرعد : ٣١ .

(٢) النمل : ٧٥ .

(٣) فاطر : ٣٢ .

(٤) ينابيع المودة : ج ١ ص ٦٩ .

(٥) ينابيع المودة : ج ١ ص ٧٠ ، والاية ٧١ من سورة الاسراء .

أنه هو الوحيد الذي عنده علم ما في القرآن، وهو الوحيد الذي يتمكن من الاجابة عن كل سؤال، وإني سأذكر لك حديثاً واحداً هو صريح في المعنى المذكور .

١٧ - عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : علي باب

علمي ومبين لآمتي ما ارسلت به من بعدي ، حبه إيمان وبغضه نفاق ، والنظر إليه رافة ومودته عبادة . رواه صاحب الفردوس^(١) .

بعد ما عرفنا أن القرآن لا يجمعها أحد غير علي بن أبي طالب عليه السلام وأنها منحصرة به وأنه هو المكاف في بيانها لآمة النبي كما صرح النبي ﷺ في هذا الحديث بقوله : « ومبين لآمتي ما ارسلت به من بعدي » نرجع الى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » فنقول : لا بد وأن تكون جميع الامور - دينية ودنيوية - مهياة سهلة التناول لجميع الآمة، غاية الأمر أن بعضها معلوم مبين وهو ما يشترك فيه الجميع كوجوب الصلاة والصوم وأمثالهما، والبعض الآخر يحتاج الى مراجعة العالم وهو أحد الراسخين في العلم . وهذا كله مستفاد من قوله تعالى : « أكملت » إذ لا يمكننا أن نقول بعد هذه الكلمة ببقاء أمر أو حكم غير موجود في القرآن سواء كان متعلقاً بالدين أو بالدنيا، ولا يمكن أن نقول إن بعض الامور لا يمكن التوصل إليها فإن رجال العلم عندهم جميع ذلك .

وبعد هذه المقدمة المطولة يترجح بل يتعين أن يكون نزول الآية وهي قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم » بعد نصب النبي ﷺ علياً عليه السلام أميراً للمؤمنين وخليفة من بعده بأمر من الله - كما ذكر هذا جماعة من المفسرين سنذكر أسماءهم - وحينئذ لا يبقى اشكال في فهم الآية ولا اعتراض لمعارض، أما الذين ذكروا ذلك فهم :

١ - الشيخ أبو الحسن الطبرسي في تفسيره مجمع البيان، فإنه ذكر الأقوال

فيها ثم قال : والمروي عن الامامين أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنه إنما أنزل بعد أن نصب النبي ﷺ علياً عليه السلام علماً الأنام يوم غدیر خم عند منصرفه عن حجة الوداع .

قالا : وهو آخر فريضة أنزلها الله تعالى ثم لم ينزل بعدها فريضة . وقد حدثنا السيد العالم أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني قال : حدثنا أبو القاسم عبيد الله ابن عبد الله الحسكاني قال : أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي قال : أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال : حدثنا أبو أحمد البصري قال : حدثنا أحمد بن عمار بن خالد قال : حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني قال : حدثنا قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال : الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ، ورضا الرب برسالتي وولاية علي بن أبي طالب من بعدي ، وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله^(١) .

لا يخفى على الأديب ما في لطف التعبير ودقة المعنى الذي أفاده النبي بكلمته هذه ، فإن الله قال : « ورضيت لكم الاسلام ديناً » والنبي ﷺ قال : ورضا الرب برسالتي وولاية علي بن أبي طالب . فإنه فسر لنا معنى الاسلام بأجل تفسير يعني أن الاسلام الذي ارتضاه لنا الله حقيقته ومعناه هو الاعتراف برسالة النبي وولاية علي بن أبي طالب ، وأن العبد إذا أخل بأحد هذين الأمرين فهو ليس بمسلم ، وإذا اعترف العبد بالرسالة والولاية فقد كمل له الدين وتمت عليه النعمة ورضي عليه الرب ، فهذه عبارة هي غاية في البلاغة والاجمال والرشاقة واللفظ ، فتأمل أيها المسلم المبتغي رضا الرب ، سوف ترتاح بها وتلتذ بمفادها .

٢ - ممن ذكر نزول الآية بعد نصب النبي ﷺ علياً ﷺ علي بن ابراهيم القمي في تفسيره ، قال بعد ذكر الآية : حدثني أبي عن صفوان بن يحيى عن العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر ﷺ قال : آخر فريضة أنزلها الله الولاية ثم لم ينزل بعدها فريضة ثم أنزل واليوم أكملت لكم دينكم ، بكراخ الغميم ، فأقامها رسول

اللَّهُ ﷻ بالجحفة فلم ينزل بعدها فريضة^(١).

٣ - ما نقله الفيض الكاشاني في تفسيره عن الباقر ﷻ أنه قال: الفريضة تنزل بعد الفريضة الاخرى، وكانت الولاية آخر الفرائض، فأنزل الله: «اليوم أكملت لكم دينكم»، قال: لأنزل بعد هذه فريضة، قد اكملت لكم الفرائض.

ثم قال بعد نقله الرواية: وإنما اكملت الفرائض بالولاية لأن النبي ﷻ أنهى جميع ما استودعه الله من العلم الى علي ﷻ ثم الى ذريته الأوصياء واحداً بعد واحد، فلما أقامهم مقامه تمكن الناس من الرجوع إليهم في حلالهم وحرامهم واستمر ذلك بقيام واحد به بعد واحد، كمل الدين ونمت النعمة والحمد لله، وقد ورد هذا المعنى بعينه عنهم ﷻ، ويأتي ما يقرب منه في خطبة الغدير^(٢).

٤ - ما نقله محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن زرارة عن أبي جعفر ﷻ قال: آخر فريضة أنزلها الله الولاية «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً»، فلم ينزل من الفرائض شيء بعدها حتى قبض الله رسوله^(٣).

وفيه أيضاً عن جعفر بن محمد الخزاعي عن أبيه قال: سمعت أبا عبد الله ﷻ يقول: لما نزل رسول الله ﷻ عرفات يوم الجمعة أتاه جبرائيل فقال له: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: قل لا إله إلا الله «اليوم أكملت لكم دينكم»، بولاية علي بن أبي طالب «وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً»، ولست أنزل عليكم بعد هذا، قد أنزلت عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج وهي الخامسة، ولست أقبل هذه الأربعة إلا بها^(٤).

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ١٦٢.

(٢) تفسير الصافي: ج ٢ ص ١٠ وقد نقل الرواية عن الكافي: ج ١ ص ٢٨٩ ضمن حديث ٤.

(٣) تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٩٢ ح ٢٠.

(٤) تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٩٣ ح ٢١.

وفيه عن ابن اذينة قال: سمعت زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: أن الفريضة كانت تنزل ثم تنزل الفريضة الاخرى فكانت الولاية آخر الفرائض وأنزل الله: «اليوم أكملت لكم دينكم وأنممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» فقال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله: لا انزل عليكم بعد هذه الفريضة فريضة ^(١).

٥ - ما نقله العروسي في تفسيره عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن أبي عمير عن عمر بن اذينة عن زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية جميعاً قال أبو جعفر عليه السلام: وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الاخرى وكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عز وجل: «اليوم أكملت لكم دينكم وأنممت عليكم نعمتي» قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عز وجل: لا انزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض ^(٢).

وفيه أيضاً عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد ومحمد بن الحسين جميعاً عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن منصور بن يونس عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: فرض الله عز وجل على العباد خمساً - الى قوله: - ثم نزلت الولاية وإنما أتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة أنزل الله عز وجل: «اليوم أكملت لكم دينكم وأنممت عليكم نعمتي» وكان كمال الدين بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام فقال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله: امتي حديثو عهد بالجاهلية وامتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي يقول قائل ويقول قائل، فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني، فأتنتي عزيمة من الله عز وجل بتملة ^(٣) أوعدني إن لم ابلغ أن يعذبني فنزلت: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين» ^(٤) فأخذ رسول

(١) تفسير العباسي: ج ١ ص ٢٩٣ ح ٢٢.

(٢) نور الثقلين: ج ١ ص ٥٨٧ ح ٢٥ وقد نقل الرواية عن الكافي: ج ١ ص ٢٨٩ ح ٤.

(٣) أي مقطوعة.

(٤) المائدة: ٦٧.

الله ﷺ بيد علي عليه السلام فقال :

أيها الناس إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي إلا وقد عمره الله ثم دعاه فأجابه ، فأوشك أن ادعى فاجيب وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟ فقالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأدبت ما عليك فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين ، فقال : اللهم اشهد - ثلاث مرات - ثم قال : يا معشر المسلمين هذا وليكم من بعدي فليبلغ الشاهد منكم الغائب^(١).

ونقل العروسي أيضاً خطبة لأмир المؤمنين عليه السلام وهي خطبة الوسيلة يقول فيها بعد أن ذكر النبي ﷺ: وقوله ﷺ حين تكلمت طائفة فقالت : نحن موالى رسول الله ، فخرج رسول الله ﷺ الى حجة الوداع ثم صار الى غدير خم فأمر فأصلح له شبه المنبر ثم علاه وأخذ بعضدي حتى رثي بياض إبطيه دافعاً صوته قائلاً في محفله: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. فكانت على ولايتي ولاية الله وعلى عداوتي عداوة الله وأنزل الله عز وجل في ذلك اليوم « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » فكانت ولايتي كمال الدين ورضا الرب جل ذكره^(٢).

وفيه أيضاً - كما في أمالي الصدوق - بإسناده الى الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : يوم غدير خم أفضل أعياد امتي وهو اليوم الذي أمرني الله تعالى ذكره فيه بنصب أخى علي بن أبي طالب علماً لامتى يهتدون به من بعدي ، وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين وأتم على امتي فيه النعمة ورضي لهم الاسلام ديناً^(٣) والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة. وفيه أيضاً - كما في كتاب الخصال - عن يزداد بن ابراهيم عن حدثه من

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٥٨٧ ح ٢٥ وقد نقل الرواية من الكافي: ج ١ ص ٢٩٠ ح ٦.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٥٨٨ ح ٢٨ وقد نقل الرواية من الكافي: ج ٨ ص ٢٣ ح ٤.

(٣) نور الثقلين : ج ١ ص ٥٨٨ ح ٢٩.

أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام عن علي عليه السلام حديث طويل يقول في آخره : وأن بولايتي أكمل الله لهذه الأمة دينهم وأتم عليهم النعمة ورضي إسلامهم إذ يقول يوم الولاية لمحمد ﷺ : يا محمد أخبرهم أنني أكملت لهم دينهم ورضيت لهم الإسلام ديناً وأتممت عليهم نعمتي كل ذلك من من الله به علي فله الحمد^(١).

وفيه أيضاً - كما في كتاب علم الشرايع - بإسناده إلى اسحاق بن اسماعيل النيسابوري أن العالم - يعني الحسن بن علي عليه السلام - كتب إليه : إن الله عز وجل بمنته ورحمته لما فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لاجابة منه إليه بل رحمة منه إليكم لإلإله إلا هو ليميز الخبيث من الطيب وليبتلي ما في صدوركم وليمحس ما في قلوبكم ولتتسابقوا إلى رحمته ولتتفاضل منازلكم في جنته، ففرض عليكم الحج والعمرة وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والولاية ، وجعل لكم باباً لتفتحوا به أبواب الفرائض ومفتاحاً إلى سبيله، ولولا محمد ﷺ والأوصياء من ولده كنتم حيارى كالبهائم لاتعرفون فرضاً من الفرائض ، وهل تدخل القرية إلا من بابها ؟ فلما من الله عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيكم ﷺ قال الله عز وجل : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »^(٢) ، والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة .

٦ - الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسيره، فإنه بعد ما ذكر الأقوال فيها قال : وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام : أن الآية نزلت بعد أن نصب النبي ﷺ علياً عليه السلام علماً للأمة يوم غدير خم عند منصرفه عن حجة الوداع فأنزل الله يومئذ : « اليوم أكملت لكم دينكم »^(٣).

٧ - ابن كثير في تفسيره قال - بعدما ذكر الأقوال في تفسيرها ما هذا اللفظ :-

(١) نور الثقلين : ج ١ ص ٥٩٠ ح ٣٤٠ .

(٢) نور الثقلين : ج ١ ص ٥٩ ح ٣٥٠ .

(٣) النبيان : ج ٣ ص ٤٣٥ .

قلت : وقد روى ابن مردويه من طريق أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدرى أنها نزلت على رسول الله ﷺ يوم غدیر خم حين قال لعلي : من كنت مولاه فعليّ مولاه . ثم رواه عن أبي هريرة ^(١) .

٨ - السيوطي في الدر المنثور قال : وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدرى قال : لما نصب رسول الله ﷺ علياً يوم غدیر خم فنادى له بالولاية هبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآية : «اليوم أكملت لكم دينكم» . وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أبي هريرة قال : لما كان يوم غدیر خم وهو يوم ثمانى عشرة من ذى الحجة قال النبي ﷺ : من كنت مولاه فعليّ مولاه . فأنزل الله : «اليوم أكملت لكم دينكم» ^(٢) .

٩ - الخطيب البغدادي في تاريخه روى بسنده عن أبي هريرة قال : من صام يوم ثمانى عشرة من ذى الحجة كتب له صيام ستين شهراً وهو يوم غدیر خم لما أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال : أأنت وليّ المؤمنين ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، فقال عمر بن الخطاب : بخ بخ لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم . فأنزل الله : «اليوم أكملت لكم دينكم» . ثم رواه الخطيب بطريق آخر عن أبي هريرة أيضاً ^(٣) .

١٠ - نقل العلامة الطباطبائي في تفسيره عن «غاية المرام» قال : عن أبي المؤيد موفق ابن أحمد في كتاب فضائل علي قال : أخبرني سيد الحفاظ شهر دار بن شيرويه بن شهر دار الديلمي فيما كتب اليّ من همدان أخبرنا أبو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمداني كتابة حدثنا عبد الله بن اسحاق البغوي حدثنا الحسين بن عليل الغنوي حدثنا محمد بن عبد الرحمن الزارع حدثنا قيس بن حفص حدثنا علي بن الحسين حدثنا

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٤٩١ .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٣) تاريخ بغداد : ج ٨ ص ٢٩٠ .

أبو هريرة عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ يوم دعا الناس الى غدير خم أمر بما تحت الشجرة من شوك فقم ، وذلك يوم الخميس يوم دعا الناس الى علي وأخذ بضبعه ثم رفعها حتى نظر الناس الى بياض إبطيه ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآية « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي والولاية لعلي ، ثم قال : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله .

وقال حسان بن ثابت : أنأذن لي يا رسول الله أن أقول أبياتاً ؟ قال : قل ينزله الله تعالى ، فقال حسان بن ثابت :

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخم وأسمع بالنبى منادياً
بأنى مولاكم نعم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعامياً
إلهك مولانا وأنت ولىنا	ولا تجدن في الخلق للأمر عاصياً
فقال له قم يا علي فإني	رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

ونقل العلامة الطباطبائي في تفسيره عن كتاب نزول القرآن في أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب» للحافظ أبي نعيم رفعه الى قيس بن الربيع عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري مثله وقال في آخر الأبيات :

فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه	وكن للمذى عادى علياً معادياً ^(١)

تأمل وتنبيه

هذه كلمة النبي ﷺ ينبغي لذي اللب أن يتأمل فيها جيداً ليعرف معناها ومعناها ، فإن الله قال في الجملة الاولى : « اليوم أكملت لكم دينكم » وقال في

الجملة الثالثة : « رضيت لكم الاسلام ديناً » فالدين الذي يسن لنا إكماله في الجملة الاولى هو بعينه الذي ارتضاه لنا في الجملة الثالثة ، أي أن الله عز وجل رضي منا بأن نسلّم تسليماً ونخضع خضوعاً بهذا الذي أكمله لنا ، وقد فسر لنا النبي ﷺ الدين الكامل الذي ارتضاه لنا الرب ، فحذف النبي لفظ الدين وأبدلها بمعناها الحقيقي الذي يريد الله منا تطبيقه في الخارج فقال ﷺ : الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتى والولاية لعلي .

ثم تنبه جيداً أيها اللبيب ، فإن النبي ﷺ فسر لنا الدين الذي أكمله الله لنا ورضيه لنا ورضي عنا إن سلّمنا وأخذنا به وهو عبارة عن رسالة النبي وولاية علي لا غير .

فإن الناس لو أخذوا بهذين الأمرين واتبعوا أمر النبي والولي لأوصلاهم الى كل فضيلة ومكرمة ولأبعداهم عن كل رذيلة خسيّة ولسادوا العالم وكانوا ملوكاً في الآخرة ، ولكنهم حظهم ضيعوا ونصيبهم أخطأوا ، ولذا نرى المسلمين قد استولى الصهاينة وأعوانهم على أراضيهم وأخرجوهم من ديارهم ونفوهم عن أوطانهم على قتلهم وكثرة المسلمين كل ذلك لضعف إيمانهم وعدم تمسكهم بعقيدتهم السامية ومخالفتهم لأوامر النبي ﷺ والولي ، فليتنبه من أراد التنبيه ، وأما من أراد العمى فالذل حليفه في الدنيا والنار في الآخرة .

فإذا عرفت معنى الجملة الاولى والجملة الثالثة يتضح لك معنى الجملة الثانية وهي إتمام النعمة والتي تتم بإكمال الدين ورضا الرب ، فإن بإكمال الدين ينتمى أمر الدنيا والآخرة ورضا الرب تتم لنا نعم الدنيا والآخرة .

ثم نقل العلامة الطباطبائي عن كتاب « نزول القرآن » أيضاً يرفعه الى علي بن عامر عن أبي الحجاج عن الأعمش عن عضة قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في علي بن أبي طالب عليه السلام « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك » وقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

ثم ذكر رحمه الله بعد ذلك حديثين آخرين عن الحموي بني عن أبي سعيد الخدري مثل الحديث الأول ثم قال : وعن المناقب الفاخرة للسيد الرضي رحمه الله عن محمد بن اسحاق عن أبي جعفر عن أبيه عن جده عليه السلام قال : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من حجة الوداع نزل أرضاً يقال لها ضوجان ، فنزلت هذه الآية « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ، فلما نزلت عصمته من الناس نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه ، وقال : من أولى منكم بأنفسكم ؟ فضعوا بأجمعهم فقالوا : الله ورسوله ، فأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله لأنه مني وأنا منه ، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي . وكانت آخر فريضة فرضها الله تعالى على أمة محمد ، ثم أنزل الله تعالى على نبيه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

قال أبو جعفر عليه السلام : فقبلوا من رسول الله صلى الله عليه وآله كلما أمرهم الله من الفرائض في الصلاة والصوم والزكاة والحج وصدقوه على ذلك ^(١) .

١١ - وممن ذكر نزول الآية بعد نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام جدنا السيد عبد الله شبر في تفسيره المسمى بـ « الجواهر الثمين في تفسير الكتاب المبين » قال عند وصوله الى هذه الآية - « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » - : نزلت بعد أن نصب النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام علماً للأنام يوم غدیر خم عند منصرفه عن حجة الوداع ^(٢) .

والأخبار في ذلك من طرق العامة والخاصة متظافرة .

وبعد هذا كله فإن تيقن الانسان الذي يبتغي الرشداً أن علي بن أبي طالب

(١) الميزان : ج ٥ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) الجواهر الثمين : (مخطوط) .

هو الوحيد الذي عنده علم الكتاب وأنه هو الوحيد الذي يحق له الجلوس في مجلس النبي ويبين لأمته كما صرح هو ﷺ بذلك فهذا هو المطلوب الذي ينبغي للامة أن تتفق عليه، وإلا إن لم يتيقن بهذا فليرجع الى كلام الغزالي الذي نقله عنه المناوي في فيض القدير^(١).

وقد اتضح لكل أحد بأن العلم هو الذي يوجب التقدم لأهله و كل امة يكون علمها أكثر تكون هي السابقة وهي المقدمة على غيرها، مع أننا نعلم و كل أحد يعلم أن التسابق بين الامم إنما هو في الامور الدنيوية المحضة التي لا ماس لها بالآخرة بل في كثير من الموارد تضر بالآخرة لأن فيها إزهاق النفوس وإعدام البشر، ولكن المسلمين لا يهتمون ولا يجتهدون بالنسبة الى العلوم المستفادة من القرآن التي تجمع خير الدنيا والآخرة والتي تدعو الناس الى الهدى والصالح وتحرز لهم منافع الدنيا والآخرة والتي فيها ما لا يمكن أن يتوصل إليه البشر إلا بواسطة الوحي السماوي المنحصر بالنبي ﷺ وقد أودعه هو عند علي عليه السلام كما عرفت في الأخبار المتقدمة. وقد ذكر الله في القرآن أن من العلوم ما لا يمكن تعلمه إلا بواسطة النبي ﷺ لقوله تعالى: «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»^(٢) فهذه الآية صريحة بأن بعض الامور لا يمكن معرفتها إلا من النبي ﷺ. وقال أمير المؤمنين عليه السلام مراراً عديدة: سلوني قبل أن تفقدوني^(٣).

وأخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال: لم يكن أحد من الصحابة يقول سلوني إلا علي^(٤).

(١) فيض القدير: ج ٣ ص ٤٦ وقد سبق ذكره في ص ٣٥٩ تحت رقم ٩ من هذا الجزء، فراجع.

(٢) البقرة: ٥١.

(٣) الارشاد: ص ١٧٤.

(٤) الصواعق المحرقة: ص ١٢٧.

وأخرج ابن سعد عنه قال : والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت ، وأين نزلت ، وعلى من نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً^(١) .

وأخرج ابن سعد وغيره عن أبي الطفيل قال : قال علي : سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليلى نزلت أم بنهار أم في سهل أم جبل^(٢) . وعن مسلم بن أوس وجارية بن قدامة السعدي أنهما حضرا علي بن أبي طالب عليه السلام يخطب وهو يقول : سلوني قبل أن تفقدوني فإني لا أسأل عن شيء دون العرش إلا أخبرت عنه^(٣) .

وعن كميل بن زياد النخعي قال : أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة فخرجنا حتى انتهينا إلى الجبانة ، فلما أصحرت أنفس الصعداء ثم قال لي : يا كميل بن زياد ، إن هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاها للمعلم ، احفظ عني ما أقول لك ، الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .

يا كميل بن زياد ، العالم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، المال تنقصه النفقة والعالم يزركو على الاتفاق .

يا كميل بن زياد ، محبة العالم دين يدان تكسبه الطاعة في حياته وجميل الاحدثة بعد وفاته ، ومنفعة المال تزول بزواله ، العلم حاكم والمال محكوم عليه . يا كميل ، مات خزائن الأموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ، ألا إن هاهنا - وأشار إلى صدره - لعلماء جماً لو أصبت له حملة ، بل أصبت لقناً غير مأمون يستعمل آلة الدين للدنيا^(٤) .

(١) و (٢) الصواعق المحرقة : ص ١٢٧ .

(٣) فضائل الخمسة : ج ٢ ص ٢٦٠ نقلاً عن كنز العمال .

(٤) تاريخ بغداد : ج ٦ ص ٣٧٩ .

وذكره في حلية الأولياء^(١) باختلاف يسير .

وعن ابن مسعود قال : إن القرآن انزل على سبعة أحرف ، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وإن علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن^(٢) .
فهذا الذي ذكرناه يثبت أن علوم القرآن الظاهرة والباطنة منحصرة عند علي بن أبي طالب عليه السلام كما صرح بذلك الغزالي في كلامه المتقدم^(٣) ، فإذا كانت العلوم كلها عنده يكون إكمال الدين المنوّه عنه في الآية بعد نصبه عالماً للناس وجعله حجة عليهم ودلالة الناس عليه والأمر باتباعه ، وقد تحقق جميع ذلك من قبل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بأمر من الله ، ولم يبق علينا إلا أن نطيع الله ورسوله الأمرين بإطاعة ولي الأمر ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ،^(٤) .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنياً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (٦) .

إن هذه الآية الشريفة نزلت في بيان الطهارات الثلاث وهي : الوضوء ،

(١) حلية الأولياء : ج ١ ص ٧٩ .

(٢) فضائل الخمسة : ج ٢ ص ٢٦٦ نقلاً عن حلية الأولياء .

(٣) راجع ص ٣٥٩ من هذا الجزء تحت رقم ٩ .

(٤) الكهف : ٢٩ .

والغسل ، والتيمم ، وأنها شرط لازم للصلاة ، وأن المسلم الذي يريد الصلاة يلزمه أن يتطهر ، وحيث إن الحدث الذي يعرض للانسان يختلف فيما يوجبه ، فبعضه يوجب الوضوء وبعضه يوجب الغسل ، فقد ذكر في الآية كلا الأمرين .

الوضوء

وقد ذكر أولاً كيفية الوضوء بقوله : « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » . وكيفية الوضوء هي ما اشتملت عليه الجملتان ، الاولى قوله : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق » . والثانية قوله : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » وهاتان الجملتان ليس فيهما إجمال وإنماهما في غاية الوضوح ، فإن الله يقول في وصف القرآن : « نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين » ^(١) .

فالجملتان الأولى تأمرنا بغسل الوجه واليدين .

أما الوجه فهو العضو المواجه لمن يقابله بحيث يكون مكشوفاً له بيناً غير خافٍ عن الناظر إليه ، وهو بحسب الطول من قصاص الشعر الى منتهى الذقن ، وبحسب العرض ما اشتملت عليه الابهام والوسطى فقال بعضهم : من الاذن الى الاذن . وأما اليدين فقد أمر الله بغسلهما بعد الوجه ، وحيث إن اليد لها إطلاقات متعددة فإنها تطلق على الكف فحسب كما في آية التيمم ، وتطلق على الكف مع الذراع كما في آية الوضوء ، وتطلق عليهما مع العضد الى المنكب ، وقد تطلق على اصول الأصابع من دون بقية الكف . وقد أوضحت الآية الحدث الذي يجب غسله في الوضوء ، فقوله تعالى : « الى المرافق » تحديد للمغسول لا تحديد للغسل فهو تحديد لليد التي يجب غسلها لئلا يقول أحد إن ما يجب غسله هي الكف وحدها ، ويقول آخر : إن ما يجب غسله من المنكب الى رؤوس الأصابع ، فقد حدد الله لنا المقدار الواجب غسله ، وهذا لا يقتضي ولا يلزم أن يكون الابتداء من رؤوس الأصابع الى المرفق .

ماقاله الفخر الرازي :

قال في تفسيره: قوله تعالى « الى المرافق » يقتضي تحديد الأمر لا تحديد المأمور به ، يعني أن قوله : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق » أمر بغسل اليدين الى المرفقين ، فإيجاب الغسل محدود بهذا الحد ، فبقي الواجب هو هذا القدر فقط ، أما نفس الغسل فغير محدود بهذا الحد^(١) انتهى .

وهذا المعنى متداول بين الناس يفهمونه عند التكلم به كما يقال لأحد : اخضب يدك الى الزند ، ويقال للصيقل : صقل السيف الى القبضة . فلا يلزم في الخضاب أن يكون من رؤوس الأصابع الى الزند ، ولا في الصقل يلزم أن يبدأ من رأس السيف وينتهي في القبضة ، بل يتحقق الغسل وامتنال الأمر سواء كان الابتداء من رؤوس الأصابع أو من المرفق .

هذا ما يستفاد من نفس الآية ولكن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين قرئهم النبي ﷺ بالكتاب قد عيّنوا لما الابتداء من المرفق وهم أدرى وأعلم بالأحكام من غيرهم .

أما العكس - أي الابتداء برؤوس الأصابع والانتهاء بالمرفق - فهو وإن كان مشمولاً لاطلاق الآية ولكنه خلاف الاحتياط لأن من عندهم علم القرآن نهوا عنه ، مع أن جمهور الفقهاء يقول بصحة الوضوء على هذا النحو ، أي إذا ابتداء بالمرفق وانتهى بالكف .

وقد ذكر الرازي قول الجمهور بالصحة كما في تفسيره حيث قال : السنة أن يصب الماء من الكف بحيث يسيل الماء من الكف الى المرفق ، فإن صب الماء على المرفق حتى سال الماء الى الكف ، فقال بعضهم : هذا لا يجوز لأنه تعالى قال : « أيدىكم الى المرافق » فجعل المرافق غاية الغسل ، فجعله مبدأ الغسل خلاف الآية

فوجب أن لا يجوز . هذا كلام القائلين بعدم الجواز .

ثم قال الرازي : وقال جمهور الفقهاء : إنه لا يخل بصحة الوضوء إلا أنه يكون تركاً للسنة^(١).

عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه^(٢).

أقول : إن القول بعدم الجواز الذي حكاه الرازي مبني على كون التحديد في قوله « إلى المرافق » أنه تحديد للغسل ، وقد تقدم أنه تحديد لليد لا للغسل كما اختار الرازي في أن التحديد ليس للغسل وإنما هو للأمر بالغسل فيكون الاحتياط بالنسبة لمن يريد صحة وضوئه هو الابتداء بالمرفق فإن صحة الصلاة موقوفة على صحة الوضوء ، هذا ما كان بالنسبة إلى الجملة الأولى .

وأما الجملة الثانية وهي قوله تعالى : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » فإنها واضحة جلية بلسان عربي مبين ، فهي عبارة عن أربع كلمات ، فالرأس معروف والرجل معروفة والغسل ظاهر معروف والمسح شيء معروف والمتكلم يتكلم بلسان عربي مبين .

وقد أمر بالغسل بالنسبة إلى بعض الأعضاء وأمر بمسح بعض الأعضاء فليس من العربي المبين أن يأمر بالمسح ويريد به الغسل . والقراءة المعروفة بقوله في « أرجلكم » إما بالكسر أو بالنصب ، فعلى الجرح يكون معطوفاً على رؤوسكم ويكون الحكم فيهما واحداً وهو وجوب المسح ، وإما على قراءة النصب فإنه يكون معطوفاً على محل رؤوسكم ، ولا ريب أن محله النصب فيكون حكمه المسح .

وأما جعل « أرجلكم » بالنصب معطوفاً على « وجوهكم » فهو غير صحيح ومخالف للقواعد العربية ، إذ لا يجوز الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة

(١) تفسير الرازي : ج ١١ ص ١٦٠ .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٦٢ .

كاملة اسمية أو فعلية، وقد فصل بينهما هنا بجمللة مركبة من فعل وفاعل ومفعول وإنما العطف إما على لفظ الرأس أو على محلها ، وكلا الأمرين يوجب المسح. فالمسح على بعض الرأس بسبب وجود الباء في قوله « برؤوسكم » ولو قال: امسحوا رؤوسكم لكان اللازم مسح جميع الرأس ، ثم عطف الرجل عليه وحددها إلى الكعب لأن الرجل تطلق على القدم تارة وعاليها وعلى الساق تارة أخرى ، وعليهما وعلى الفخذ مرة ثالثة ، فلذا عيّن اليدين .

هذا هو مذهب الإمامية وهو المستفاد من الآية الشريفة ، واختاره أيضاً أئمة أهل البيت الذين عندهم علوم القرآن .

قول الإمامية بوجوب المسح على لسان الرازي :

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره حجة الإمامية بوجوب مسح الرجل وحررها بأحسن تحرير نذكرها بنصها :

حجة من قال بوجوب المسح مبني على القراءتين المشهورتين في قوله : « وأرجلكم » فقرأ ابن كثير وحزرة وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه بالجاء ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه بالنصب . فنقول : أما القراءة بالجاء فهي تقتضي كون الأرجل معطوفة على الرأس فكما وجب المسح في الرأس فكذلك في الأرجل . فان قيل : لم لا يجوز أن يقال : هذا على الجوار كما في قوله : جحر ضب خرب ، وقوله : كبير اباس في بجاد مزمل ؟ قلنا : هذا باطل من وجوه :

الأول : أن الكسر على الجوار معدود في اللحن الذي قد يتحمل لأجل الضرورة في الشعر ، وكلام الله يجب تنزيهه عنه .

وثانيها : أن الكسر إنما يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس كما في قوله : جحر ضب خرب ، فإن من المعلوم بالضرورة أن الخرب لا يكون نعتاً للضب بل للمجحر ، وفي هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل .

وثالثها : أن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف وأما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب .

وأما القراءة بالنصب فقالوا أيضاً : إنها توجب المسح وذلك لأن قوله : « وامسحوا برؤوسكم » فرؤوسكم في محلّ النصب ولكنها مجرورة بالباء فإذا عطفت الأرجل على الرؤوس جاز في الأرجل النصب عطفاً على محلّ الرؤوس ، والجبر عطفاً على الظاهر ، وهذا مذهب مشهور للمنحاة .

إذا ثبت هذا فنقول : ظهر أنه يجوز أن يكون عامل النصب في قوله : « وأرجلكم » هو قوله : « وامسحوا » ويجوز أن يكون هو قوله : « فاغسلوا » لكن العاملان إذا اجتماعاً على معمول واحد كان إعمال الأقرب أولى ، فوجب أن يكون عامل النصب في قوله « وأرجلكم » هو قوله : « وامسحوا » .

فثبت أن قراءة « وأرجلكم » بنصب اللام توجب المسح أيضاً ، فهذا وجه الاستدلال بهذه الآية على وجوب المسح ، ثم قالوا : ولا يجوز دفع ذلك بالأخبار لأنها بأسرها من باب الآحاد، ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز^(١) انتهى .

مانقله الطبري حول وجوب المسح :

ونقل أبو جعفر الطبري في تفسيره وجوب المسح عن جماعة من أصحاب النبي

ﷺ قال :

عن ابن عباس قال : الوضوء غسلمان ومسحتان .

وقال في نفس الصفحة : لما ذكر أنس أن الحجاج خطب الناس وأمر بغسل القدمين ظهورهما وبطونهما وعراقيبهما فقال أنس : صدق الله وكذب الحجاج قال الله : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » قال : وكان أنس إذا مسح قدميه بلمهما .

عن أنس أنه قال : نزل القرآن بالمسح والسنة الغسل .

عن عكرمة قال : ليس على الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح .
 عن عنبسة عن جابر عن أبي جعفر قال : امسح على رأسك وقدميك .
 عن الشعبي قال : نزل جبرئيل بالمسح ، ثم قال الشعبي : ألا ترى أن التيمم
 أن يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً .

بطريق آخر عن الشعبي أنه قال : إنما هو المسح على الرجلين ، ألا ترى أنه
 ما كان عليه الغسل جعل عليه المسح وما كان عليه المسح أهمل .
 عن عامر أنه قال : أمر أن يمسح في التيمم ما أمر أن يغسل في الوضوء وأبطل
 ما أمر أن يمسح في الوضوء الرأس والرجلان .
 وعن الشعبي أنه قال : أمر أن يمسح بالصعيد في التيمم ما أمر أن يغسل
 بالماء ، وأهمل ما أمر أن يمسح بالماء .

وقال الطبري أيضاً : حدثنا ابن أبي زياد قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا
 اسماعيل قال : قلت لعامر : إن ناساً يقولون إن جبريل صلى الله عليه وسلم نزل
 بغسل الرجلين فقال : نزل جبريل بالمسح
 وقال أيضاً : حدثنا أبو بشر الواسطي إسحاق بن شاهين قال : حدثنا خالد
 ابن عبد الله عن يونس قال : حدثني من صحب عكرمة إلى واسط قال : فما رأيت
 غسل رجله إنما يمسح عليهما حتى خرج منها .

وقال أيضاً : حدثنا بشر قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد عن قتادة قوله :
 « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق
 وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » افترض الله غسليتين ومسحتين^(١) انتهى .
 وقد تبين من الآية الشريفة التي نزلت بلسان عربي مبين ومن هذه الأحاديث
 ومن اختيار هؤلاء الأعلام من أصحاب النبي ﷺ أن الذي يتعين على المسلم
 هو المسح ، وبعضهم يختار الغسل ولا ينتقد من يقول بالمسح ، ولكن ابن كثير مع

اطلاعه على هذه الأحاديث ووقوفه على من اختار المسح مع الأصحاب مع كل هذا وذلك يقول في تفسيره : ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل^(١) انتهى .

ما نقله السيوطي حول وجوب المسح :

ونقل الحافظ السيوطي في تفسيره وجوب المسح عن جماعة من أصحاب الرسول ﷺ قال : عن رفاع بن رافع أن رسول الله ﷺ قال للمسيء صلاته أنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله بغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين .

عن ابن عباس قال : أبى الناس إلا الغسل ولا أجد في كتاب الله إلا المسح^(٢) . فخص ابن كثير الضلال والاضلال ممن يقول بالمسح بالشيعة فحسب ، فهل يناسب من رجل يفسر القرآن ويعد نفسه من العلماء أن يصف جماعة كبيرة من المسلمين يتبعون أهل البيت في أحكامهم بهذا الوصف لأنه يختار هو الغسل ؟ إننا لله وإننا إليه راجعون .

هذا كله بالنسبة إلى تفسير كلمة « وأرجلكم » المعطوفة على « وامسحوا برؤوسكم » وهي جملة عربية صريحة تأمر بمسح الرأس والرجل ، وابن كثير يريد أن تغسل الرجل ويريد أن يصدر حكماً بضلالة جماعة من المسلمين ممن يخالفه في رأيه ولا يحكم بضلال كل من يخالفه في الرأي .

أما قوله تعالى : « إلى الكعبين » فقد اختلف في الكعب أي شيء هو ؟ قال في المنجد : الكعب كل مفصل للعظام ، والعظم الناشئ فوق القدم . والعظامان الناشزان من جنبي القدم^(٣) .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥١٤ .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) المنجد : ص ٦٨٨ .

وقال في القاموس المحيط : كل مفصل للعظام والعظم الناشز فوق القدم والناشزان من جانبيهما^(١).

وقال الراغب في مفرداته: كعب الرجل العظم الذي عند ملتقى القدم والساق^(٢). هذه هي أقوال أهل اللغة، ولا بد أن يكون المقصود من الآية أحد الأمرين إما العظم الناشز فوق القدم، أو الناشزان جانبي القدم، ولا يتمكن أحد أن يعين المقصود منهما إلا من عنده علم الكتاب وهم أهل البيت ﷺ الذين قرنهم النبي ﷺ بالكتاب وأمر أمته بالتمسك بهما، ولكن ابن كثير لما اختار أن الكعب هو العظامان الناشزان جانبي القدم نسب الشيعة إلى الضلال لأنهم اختاروا قول أهل البيت ﷺ.

هذه هي أعضاء الوضوء التي أمر الله بغسل ثلاثة منها ومسح ثلاثة، وقد وردت أحاديث عديدة عن أهل البيت تبين لنا أن الوضوء هو بهذه الكيفية نذكر بعضها هنا.

مانقله العياشي عن الوضوء :

عن زرارة وبكير بن أعين قالا : سألنا أبا جعفر ﷺ عن وضوء رسول الله ﷺ فدعا بطشت أو تور^(٣) فيه ماء، فغمس كفه اليمنى فغرف بها غرفة فصبها على جبهته فغسل وجهه بها، ثم غمس كفه اليسرى فأفرغ على يده اليمنى فغسل بها ذراعه من المرفق إلى الكف لا يردّها إلى المرفق، ثم غمس كفه اليمنى فأفرغ بها على ذراعه الأيسر من المرفق وصنع بها كما صنع باليمنى، ومسح رأسه - بفضله فيه - وقدميه لم يحدث لها ماءً جديداً.

ثم قال : ولا يدخل أصابعه تحت الشراك^(٤) قال : ثم قال : إن الله يقول :

(١) القاموس المحيط : ج ١ ص ١٢٩ فصل الكاف بالباء .

(٢) المفردات : ص ٤٣٢ مادة «كعب» .

(٣) التور : اناء صغير من صفر أو خزف .

(٤) الشراك : سير النعل على ظهر القدم .

ديا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، فليس له أن يدع شيئاً من وجهه إلا غسله، وأمر بغسل اليدين إلى المرافق فليس ينبغي له أن يدع من يديه إلى المرفقين شيئاً إلا غسله لأن الله يقول : «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق» ثم قال : «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين» فإذا مسح بشيء من رأسه أو بشيء من قدميه ما بين أطراف الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزأه .

قالا : قلنا أصلحك الله أين الكعبان ؟ قال : هاهنا يعني المفصل دون عظم الساق ، فقلنا : هذا ماهو ؟ قال : من عظم الساق، والكعب أسفل من ذلك، فقلنا : أصلحك الله فالغرفة الواحدة تجزي الوجه وغرفة للذراع ؟ قال : نعم إذا بالغت فيهما ، والثنتان تأتيان على ذلك كله^(١).

وفيه أيضاً: قال زرارة - بعد أن بين الإمام الباقر عليه السلام له حد الوجه الذي ينبغي أن يوضأ - : فقلت لأبي جعفر عليه السلام : ألا تخبرني من أين علمت وقلت إن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين ؟ فضحك فقال : يا زرارة قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وقد نزل به الكتاب من الله ، لأن الله قال : « اغسلوا وجوهكم » فعرفنا أن الوجه كله ينبغي له أن يغسل، ثم قال : « وأيديكم إلى المرافق » فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه فعرفنا أنهما ينبغي أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال : « وامسحوا برؤوسكم » فعلمنا حين قال : « برؤوسكم » أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء ، ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه فقال : « وأرجلكم إلى الكعبين » فعرفنا - حين فصلهما بالرأس - أن المسح على بعضهما ثم فسر ذلك رسول الله للناس فضيعوه^(٢).

بقي شيء وهو : أن جماعة من علماء السنة قالوا بجواز المسح على الخف

(١) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ح ٥١ .

(٢) تفسير العياشي : ج ١ ص ٢٩٩ ح ٥٢ .

وكفايته في الوضوء^(١) وهذا شيء لا يوجد له ذكر في الآية الشريفة فإنها أمرت بغسل البعض ومسح البعض ولم تشر الى الخف بشيء أصلاً ، ومع ذلك يقول بعض العلماء بكفاية المسح عليه ، وشدد بعضهم النكير على من لم يوافقه على ذلك^(٢) . قال ابن كثير في تفسيره : وقد ثبت بالمتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير مع ما يحتاج الى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه كما هو مبسوط في موضعه . وقد خالفت الروافض في ذلك بلامستند بل بجهل وضلال^(٣) انتهى موضع الحاجة من كلامه .

القائلون ببطلان الوضوء لمن مسح على الخف :

إنني أنقل للمقاريء الكريمة أقوال القائلين ببطلان الوضوء في صورة المسح على الخف وهو يحكم على ابن كثير في حكمه المتقدم .

١ - قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير : أثبت جمهور الفقهاء جواز المسح على الخفين ، وأطبقت الشيعة والخوارج على إنكاره واحتجوا بأن ظاهر قوله تعالى : «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين» يقتضي إما غسل الرجلين أو مسحهما والمسح على الخفين ليس مسحاً للرجلين ولاغسلاً لهما ، فوجب أن لايجوز بحكم نص هذه الآية . ثم قالوا : إن القائلين بجواز المسح على الخفين إنما يعولون على الخبر ، لكن الرجوع الى القرآن أولى من الرجوع الى هذا الخبر ، ويدل عليه وجوه :

الأول : أن نسخ القرآن بخبر الواحد لايجوز .

والثاني : أن هذه الآية في سورة المائدة ، وأجمع المفسرون على أن هذه

السورة لا منسوخ فيها البتة إلا قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر

(١) و (٢) الخلاف : ج ١ ص ٢١٧ طبع مؤسسة النشر الاسلامي بقم .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥١٨ .

الله « فإن » بعضهم قال هذه الآية منسوخة ، وإذا كان كذلك امتنع القول بأن وجوب غسل الرجلين منسوخ .

والثالث : أن خبر المسح على الخفين بتقدير أنه كان متقدماً على نزول الآية كان خبر الواحد منسوخاً بالقرآن ، ولو كان بالعكس كان خبر الواحد ناسخاً للقرآن ، ولا شك أن الأول أولى لوجوه :

الأول : أن ترجيح القرآن المتواتر على خبر الواحد أولى من العكس .
وثانيها : أن العمل بالآية أقرب الى الاحتياط .

وثالثها : أنه قد روي عنه عليه السلام أنه قال : إذا روي لكم عن حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه وإلا فردوه . وذلك يقتضي تقديم القرآن على الخبر .

ورابعها : أن قصة معاد تقتضي تقديم القرآن على الخبر .

الوجه الرابع في بيان ضعف هذا الخبر : أن العلماء اختلفوا فيه ، فمن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لئن تقطع قدماي أحب إلي من أن أمسح على الخفين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لئن أمسح على جلد حمار أحب إلي من أن أمسح على الخفين .

وأما مالك فأحدي الروایتين عنه أنه أنكر جواز المسح على الخفين ، ولا نزاع أنه كان في علم الحديث كالشمس الطالعة ، فلو لا أنه عرف فيه ضعفاً وإلا لما قال ذلك . والرواية الثانية عن مالك أنه ما أباح المسح على الخفين للمقيم وأباحه للمسافر مهما شاء من غير تقدير فيه .

وأما الشافعي وأبو حنيفة وأكثر الفقهاء فإنهم جوزوه للمسافر ثلاثة أيام بلياليها من وقت الحدث بعد اللبس . وقال الحسن البصري : ابتداءه من وقت لبس الخفين . وقال الأوزاعي وأحمد : يعتبر وقت المسح بعد الحدث .

قالوا : فهذا الاختلاف الشديد بين الفقهاء يدل على أن الخبر ما يبلغ مبلغ

الظهور والشهرة . وإذا كان كذلك وجب القول بأن هذه الأقوال لما تعارضت تساقطت . وعند ذلك يجب الرجوع الى كتاب الله تعالى .

الخامس : أن الحاجة الى معرفة جواز المسح على الخفين حاجة عامة في حق كل المكلفين ، فلو كان ذلك مشروعاً لعرفه الكل وبلغ مبلغ التواتر ، ولما لم يكن الأمر كذلك ظهر ضعفه ، فهذا جملة كلام من أنكر المسح على الخفين^(١) انتهى كلام الرازي .

٢ - نقل محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن محمد بن أحمد الخراساني رفع الحديث قال : أنى أمير المؤمنين عليه السلام رجل فسأله عن المسح على الخفين فأطرق في الأرض ملياً ثم رفع رأسه فقال : يا هذا إن الله تبارك وتعالى أمر عباده بالطهارة وقسمها على الجوارح ، فجعل للوجه منه نصيباً ، وجعل لليدين منه نصيباً ، وجعل للرأس منه نصيباً ، وجعل للرجلين منه نصيباً ، فإن كانتا خفك من هذه الأجزاء فامسح عليهما^(٢) .

وفيه أيضاً عن عبدالله بن خليفة أي العريف (أبي العريف ظ) المكراني الهمداني قال : قام ابن الكوا الى علي عليه السلام فسأله عن المسح على الخفين فقال : بعد كتاب الله تسألني ، قال الله : «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا» - الى قوله - : الى الكعبين ، ثم قام اليه ثانية فسأله فقال له مثل ذلك ثلاث مرات ، كل ذلك يتلو عليه هذه الآية^(٣) .

٣ - نقل الفيض الكاشاني في تفسيره عن الباقر عليه السلام أنه قال : الوجه الذي أمر الله بغسله - الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد لأحد عليه ولا ينقص منه ، إن زاد عليه لم يؤجر وإن نقص منه أثم - مآذرات الوسطى والابهام من فصوص شعر

(١) تفسير الرازي : ج ١١ ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) تفسير العياشي : ج ١ ص ٣٠١ ح ٥٩ .

(٣) تفسير العياشي : ج ١ ص ٣٠١ ح ٦١ .

الرأس الى الذقن ، وماسجت عليه الاصبعان من الوجه مستديراً فهو من الوجه وما سوى ذلك فليس من الوجه ، قيل : الصدغ ليس من الوجه ؟ قال : لا ، وأما في سائر الأعضاء فيجب إيصال الماء والبلل الى البشرة وتخليل ما يصنع من الوصول كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح ، فلا يجزي المسح على القلنسوة ولا على الخفين^(١).

وفيه أيضاً عن الباقر عليه السلام : جمع عمر بن الخطاب أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم وفيهم علي عليه السلام فقال : ما تقولون في المسح على الخفين ؟ فقام المغيرة بن شعبه فقال : رأيت رسول الله صلوات الله عليهم يمسح على الخفين ، فقال علي عليه السلام : قبل المائدة أو بعد المائدة ؟ فقال : لا أدري ، فقال علي عليه السلام : سبق الكتاب الخفين ، إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض صلوات الله عليهم بشهرين أو ثلاثة^(٢).

وفيه أيضاً روت عائشة عن النبي صلوات الله عليهم أنه قال : أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره^(٣).

وروي عنها أنها قالت : لئن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إلي من أن أمسح على خفي^(٤).

ثم قال الفيض رحمه الله : والكعب عظم مائل الى الاستدارة واقع في ملتقى الساق والقدم نابت عن ظهره يدخل تنوءه في طرف الساق كالذي في أرجل البقر والغنم وربما يلعب به الأطفال ، وقد يبرر عنه بالمفصل لمجاورته له ، وإنما اختلف

(١) تفسير الصافي : ج ٢ ص ١٥ نقلا عن الفقيه والكافي والعباشي .

(٢) تفسير الصافي : ج ٢ ص ١٥ نقلا عن التهذيب .

(٣) تفسير الصافي : ج ٢ ص ١٥ نقلا عن الفقيه .

(٤) تفسير الصافي : ج ٢ ص ١٦ نقلا عن الفقيه ، وقال الشيخ الصدوق فيه : ولم يعرف

للنبي خف الا خفاً أهدها النجاشي وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقاً ، فمسح النبي

(ص) على رجله وعليه خفاه ، فقال الناس : انه مسح على خفيه ، وعلى أن الحديث

في ذلك غير صحيح الاسناد .

الناس فيها لعدم غورهم في كلام أهل اللغة وأصحاب التشريح وإعراضهم عن التأمل في الأخبار المعصومية .

ولما كانت الرجل تطلق على القدم وعلى ماتحت الركبة وعلى ما يشمل الفخذ بيتن الله سبحانه غاية الممسوح منها . ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس في رابعة النهار وخصوصاً على قراءة الجرح ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالفصل .

في التهذيب عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » على الخفض هي أم على النصب؟ قال: بل هي على الخفض .

أقول : وعلى تقدير القراءة على النصب أيضاً يدل على المسح لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرؤوس كما نقول : مررت بزيد وصهرأ ، إذ عطفها على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة بل عن أسلوب العربية .

روى العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه توضأ ومسح على قدميه ونعليه .

وروا أيضاً عن ابن عباس أنه قال : إن كتاب الله المسح ويأبى الناس إلا الفصل . وأنه قال : الوضوء غسلتان ومسحتان من باهلتني باهلتته ، وأنه وصف رسول الله صلى الله عليه وآله فمسح على رجليه .

وفي التهذيب عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن مسح الرجلين فقال : هو الذي نزل به جبرئيل .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : إنه يأتي على الرجل ستون وسبعون سنة ما قبل الله منه صلاة ، قيل : وكيف ذلك؟ قال : لأنه يغسل ما أمر الله بمسحه .

وفي الفقيه عنه عليه السلام : إن الرجل ليعبد الله أربعين سنة ما يطيعه في الوضوء

لأنه يغسل ما أمر الله بمسحه^(١) انتهى .

٤ - وقال الشيخ الطوسي في تبيانه: ومن قال القراءة تقتضي المسح غير أن المسح على الخفين فقوله باطل لأن الخف لا يسمى رجلاً في لغة ولا شرع، والله تعالى أمر بإيقاع الغرض على ما يسمى رجلاً في الحقيقة .

وأما القراءة بالنصب فقد بينا أنها معطوفة على موضع الرأس لأن موضعها النصب والحكم فيها المسح ، والعطف على الموضع جائز لأنهم يقولون : لست بقائم ولا قاعداً . ويقولون : حسبت ب صدره و صدر زيد . وأن زيدا في الدار وعمره ، فيرفع عمرو بالعطف على الموضع ؛ وقال الشاعر :

معاوي إنا بشر فاسجح فلسنا بالجهال ولا الحديد

وقال آخر :

هل أنت بـاعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق
وإنما نصب عبد رب لأن التقدير باعث ديناراً فحمله على الموضع . وقد
سوغوا العطف المعنى وإن كان اللفظ لا يقتضيه . قال الشاعر :

جئني بمثل بني عمرو لقومهم أو مثل أسرة منظور بن سيار

لما كان معنى « جئني » هات مثلهم أو أعطني مثلهم قال « أو مثل » بالنصب عطفاً على المعنى ، وعطف الأرجل على الأيدي لا يجوز ، لأن الكلام متى حصل فيه عاملان قريب وبعيد لا يجوز إعمال البعيد دون القريب مع صحة حمله عليه ، لا يجوز أن يقول القائل : ضربت زيدا وعمرأ وأكرمته خالداً وبكراً ، ويريد بنصب بكر العطف على زيد أو عمرو والمضروبين لأن ذلك خروج عن فصاحة الكلام ودخول في معنى اللغو .

وبمثل ما قلناه ورد القرآن وأكثر الشعر ، قال الله تعالى : « وإنهم ظنوا

كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً،^(١) ولو أعمل الأول لقال كما ظننتموه ، وقال
« آتوني أفرغ عليه قطراً »،^(٢) ولو أعمل الأول لقال أفرغه ، وقال : « هاؤم اقرأوا
كتابه »،^(٣) ولو أعمل الأول لقال هاؤم اقرأوه . وقال الشاعر :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها
ولو أعمل الأول لقال : فوفاه غريمه . فأما قول امرئ القيس :

فلو انما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
فإنما أعمل الأول للضرورة لأنه لم يجعل القليل مطلوباً وإنما كان المطلوب
عنده الملك ، وجعل القليل كافياً . ولو لم يرد هذا ونصب لفسد المعنى . فأما من
نصب بتقدير « واغسلوا أرجلكم » ، كما قالوا :

متقلداً سيفاً ورمحاً وعلقتها نبناً وماءً بارداً
فقد أخطأ لأن ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على اللفظ . فأما إذا جاز
حمله على ما في اللفظ فلا يجوز هذا التقدير .

ومن قال : يجب غسل الرجلين لأنهما محدودتان كاليدين فقوله ليس بصحيح
لأننا لانسلم أن العلة في كون اليدين مغسولتين كونهما محدودتين ، وإنما وجب
غسلهما لأنهما عطفاً على عضو مغسول وهو الوجه ، فكذلك إذا عطف الرجلين على
ممسوح وهو الرأس وجب أن يكونا ممسوحين .

والكعبان عندنا هما النانقان في وسط القدم ، وبه قال محمد بن الحسن وإن
أوجب الغسل . وقال أكثر المفسرين والفقهاء : الكعبان هما عظام الساقين ، يدل
على ما قلناه أنه لو أراد ما قالوا لقال إلى الكعاب لأن في الرجلين منهما أربعة ،
وأيضاً فكل من قال يجب مسح الرجلين ولا يجوز الغسل قال الكعب هو ما قلناه

(١) الجن : ٧ .

(٢) الكهف : ٩٦ .

(٣) الحاقة : ١٩ .

لأن من خالف في أن الكعب ما قلناه على قولين : قائل يقول بوجوب الغسل ، وآخر يقول بالتخير .

قال الزجاج : كل مفصل للمعظام فهو كعب .

وفي الآية دلالة على وجوب الترتيب في الوضوء من وجهين :

أحدهما : أن الواو يوجب الترتيب لغةً على قول الفراء وأبي عبيد ، وشرعاً على قول كثير من الفقهاء ، ولقوله ﷺ : ابدأوا بما بدأ الله به .

والثاني : إن الله أوجب على من يريد القيام إلى الصلاة إذا كان محدثاً أن يغسل وجهه أولاً لقوله : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا » ، والفاء توجب التعقيب والترتيب بلا خلاف ، فإذا ثبت أن البدء بالوجه هو الواجب ثبت في باقي الأعضاء لأن أحداً لا يفرق ، ويقويه قوله ﷺ للأعرابي حين علمه الوضوء فقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، فإن كان رتب فقد بين أنه الواجب الذي لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وإن لم يرتب لزم أن يكون من رتب لا يجزيه ، وقد اجتمعت الأمة على خلافه . وفي الآية دلالة على أن من مسح على العمامة أو الخفين لا يجزيه لأن العمامة لا تسمى رأساً والخف لا يسمى رجلاً كما لا يسمى البرقع وما يستر اليدين وجهاً ولا يداً . وماروي عن المسح على الخفين أخبار آحاد لا يترك لها ظاهر القرآن ، على أنه روي عن علي ﷺ أنه قال : نسخ ذلك بهذه الآية . وكذلك قال لمن قال : أقبل المائدة أو بعدها؟^(١) انتهى .

وبعد ذكر هذه الأمور كلها التي تمنع من المسح على الخف : نقول : إن الله ذكر في آخر الآية علة الأمر كلها بهذه الطهارات الثلاث فقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم » .

في فضل الطهارة :

لا ريب أن الأمور العبادية التي يفعلها الإنسان في الدنيا إنما ينتفع بها في

الآخرة ، فإذا جاء العبد المتطهر - الذي مسح على الخف - يوم الحشر والنشر وفي ذلك اليوم يرجع كل شيء إلى أصله ورجع الخف الذي مسح عليه إلى البهيمة التي أخذ جلدتها فجعل خفاً فما الذي ينتفع به المتوضيء الذي مسح عليه فتكون رجله غير طاهرة ؟ وحينئذ يتضح من هو الضال هل هو الذي حكم ابن كثير بضالاله أو غيره ؟

هذا كله في تفسير كلمة عربية بيّنة وهي قوله : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » .

ثم إنه قد وردت أخبار في ثواب الوضوء وما ينبغي أن يقال عند الوضوء لا بأس بذكر بعضها :

فمنها ما نقله الشيخ الصدوق رحمه الله في « ثواب الأعمال » عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من توضأ فذكر اسم الله طهر جميع جسده وكان الوضوء إلى الوضوء كفارة لما بينهما من الذنوب ، ومن لم يسم لم يطهر من جسده إلا ما أصابه الماء^(١) .

وفيه أيضاً عن عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من ذكر الله عاى وضوئه فكأنما اغتسل^(٢) .

وفيه أيضاً عن عبد الرحمن بن كثير الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : بينا أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم جالسا مع ابن الحنفية إذ قال : يا محمد ائتمني بإناء فيه ماء أتوضأ للصلاة ، فأتاه محمد بالماء فأكفأ بيده اليمنى على يده اليسرى ثم قال : بسم الله الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً ، قال : ثم استنجى فقال : اللهم حصن فرجي وأعفه واستر عورتى وحرمني على النار . قال : ثم تمضمض فقال : اللهم لقني حجتى يوم ألقاك وأطلق لساني بذكرك وشكرك ثم استنشق فقال : اللهم

(١) ثواب الأعمال : ص ٣١ منشورات مكتبة الصدوق - طهران .

(٢) ثواب الأعمال : ص ٣٢ .

لا تحرم عليّ ريح الجنة واجعلني من يشمّ ريحها وروحها وريحانها وطيبها. قال: ثم غسل وجهه فقال: اللهمّ بيّض وجهي يوم تسودّ فيه الوجوه ولا تسودّ وجهي يوم تبيّض فيه الوجوه. ثم غسل يده اليمنى، فقال: اللهمّ أعطني كتابي بيمينى والخلد في الجنان بيساري وحاسبني حساباً يسيراً. ثم غسل يده اليسرى فقال: اللهمّ لا تعطيني كتابي بشمالى ولا من وراء ظهري ولا تجعلها مغلوطة الى عنقي وأعوذ بك من مقطّعات النيران. ثم مسح رأسه فقال: اللهمّ غشني برحمتك وبركاتك وعفوك. ثم قال: ثم مسح رجليه فقال: اللهمّ ثبت قدمي على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام واجعل سعبي فيما يرضيك عني يا أرحم الراحمين. ثم رفع رأسه فنظر الى محمّد فقال: يا محمّد من توضأ مثل وضوئي وقال مثل قولي خلق الله عزّ وجلّ من كل قطرة ملكاً يقدره ويسبّحه ويكبره ويكتب الله تعالى له ثواب ذلك الى يوم القيامة^(١).

وفيه أيضاً عن سماعة بن مهران قال: قال أبو الحسن موسى عليه السلام: من توضأ للمغرب كان وضوؤه ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه في نهاره ما خلا الكبائر، ومن توضأ لصلاة الصبح كان وضوؤه ذلك كفارة لما مضى من ذنوبه في ليله ما خلا الكبائر^(٢). وفي ثواب فتح العيون عند الوضوء نقل الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال أيضاً حديثاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: افتحوا عيونكم عند الوضوء لعلها لا ترى نار جهنم^(٣).

وفيه أيضاً في ثواب تجديد الوضوء عن أبي قتادة عن الرضا عليه السلام قال: تجديد الوضوء لصلاة العشاء يمحو دلائل الله، ودبلى والله^(٤). وفيه أيضاً عن الفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من جدد وضوءه لغير صلاة جدد الله توبته من غير استغفار^(٥).

(١) و (٢) ثواب الاعمال : ص ٣٢ .

(٣) و (٤) و (٥) ثواب الاعمال : ص ١٧ .

ونقل المجلسي رحمه الله في بحاره عن مجالس الصدوق رواية عن الحسن بن علي عليه السلام قال : جاء نفر من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله : أخبرني لأي شيء تؤضأ هذه الجوارح الأربع وهي أنظف المواضع في الجسد ؟

قال النبي صلى الله عليه وآله : لما أن وسوس الشيطان الى آدم عليه السلام ودنا آدم من الشجرة ونظر إليها ذهب ماء وجهه ، ثم قام وهو أول قدم مشت الى خطيئة ، ثم تناول بيده ، ثم مسحها فأكل منها فطار الحلي والحلل عن جسده ، ثم وضع يده على أم رأسه وبكى . فلما تاب الله عز وجل عليه فرض الله عز وجل عليه وعلى ذريته الوضوء على هذه الجوارح الأربع ، وأمره أن يغسل الوجه لما نظر الى الشجرة وأمره بغسل الساعدين الى المرفقين لما تناول منها ، وأمره بمسح الرأس لما وضع يده على رأسه ، وأمره بمسح القدمين لما مشى الى الخطيئة ، ثم سن على أمتي المضمضة لتنقي القلب من الحرام ، والاستنشاق لتحريم عليه رائحة النار وتنقيها .

قال اليهودي : صدقت يا محمد فما جزاء عاملها ؟

قال النبي صلى الله عليه وآله : أول ما يمسه المصائب يتباعد عنه الشيطان ، وإذا تدمض نور الله قلبه وإنسانيته بالحكمة ، وإذا استنشق أمنه من النار ورزق رائحة الجنة فإذا غسل وجهه بيض الله وجهه يوم تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه ، وإذا غسل ساعديه حرم الله عليه أغلال النار ، وإذا مسح رأسه مسح الله عنه سيئاته ، وإذا مسح قدميه أجاز الله على الصراط يوم تزل فيه الأقدام .

قال : صدقت يا محمد ^(١) .

وفيه عن مجالس الصدوق أيضاً عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال : أتى رجل النبي صلى الله عليه وآله فسأله عن ثواب الوضوء والصلاة فقال صلى الله عليه وآله : أعلم أنك إذا ضربت يدك في الماء وقلت بسم الله تنأثرت الذنوب التي اكتسبتها يداك ، فإذا غسلت

وجهك تنائرت الذنوب التي اكتسبتها عيناك بنظرهما وفوك بلفظه ، فاذا غسلت ذراعيك تنائرت الذنوب عن يمينك وشمالك ، فاذا مسحت رأسك وقدميك تنائرت الذنوب التي مشيت إليها على قدميك ، فهذا لك في وضوئك^(١).

وفيه أيضاً عن عيون الأخبار وعلل الشرايع عن محمد بن سنان عن الرضا عليه السلام فيما كتب إليه من العلل قال : علّة الوضوء التي صار من أجلها غسل الوجه والذراعين ومسح الرأس والرجلين فلقيامه بين يدي الله عز وجل واستقباله إياه بجوارحه الظاهرة ، وملاقاته بها الكرام الكائنين . فغسل الوجه للمسجود والخضوع وغسل اليدين ليقبلهما ويرغب بهما ويرهب ويتبتل ، ومسح الرأس والقدمين لأنهما ظاهران مكشوفان يستقبل بهما في حالته ، وليس فيهما من الخضوع والتبتل ما في الوجه والذراعين .

ثم قال العلامة المجلسي في بيانه للرواية : الرغبة أن تبسط يديك وتظهر باطنهما ، والرغبة أن تبسط يديك وتظهر ظهرهما ، والتبتل تحريك السبابة اليسرى ترفعها في السماء وتضعهما كما روي في الصحيح ، والتقليب يشملها مع تحريك السبابة اليمنى يميناً وشمالاً ويسمى بالتضرع ، ورفع اليدين للتكبير والوضع في مواضعهما في الركوع والسجود وسائر الأحوال^(٢).

ونقل المجلسي أيضاً في بحاره عن مجالس الصدوق رواية عن أبي الحسن العسكري عليه السلام قال : لما كلم الله عز وجل موسى عليه السلام قال : إلهي ما جزاء من أتم الوضوء من خشيتك ؟ قال : أبعثه يوم القيامة وله نور بين عينيه يتلأأ^(٣).

وفيه عن مجالس الصدوق أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أدلكم على شيء يكفر الله به الخطايا ويزيد في الحسنات ؟ قيل : بلى

(١) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٢٣٠ ب ٢ ح ٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٢٣١ ب ٢ ح ٣ .

(٣) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٣٠١ ب ٤ ح ١ .

يارسول الله ، قال إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى الى هذه المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وما منكم أحد يخرج من بيته متطهراً فيصلي الصلاة في الجماعة مع المسلمين ثم يقعد ينتظر الصلاة الاخرى إلا والملائكة تقول: اللهم اغفر له وارحمه ، فاذا قمتم الى الصلاة فاعدلوا صفوفكم وأقيموها وسدوا الفرج واذا قال إمامكم الله أكبر فقولوا الله أكبر ، واذا ركع فاركعوا ، واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا لك الحمد ، إن خير الصفوف صف الرجال المقدم وشرها المؤخر^(١).

وفيه أيضاً عن المحاسن عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : من أسبغ وضوءه وأحسن صلاته وأدى زكاته وكف غضبه وسجن لسانه واستغفر لذنبه وأدى النصيحة لأهل بيت نبيه فقد استكمل حقائق الإيمان وأبواب الجنة مفتحة له^(٢).

وفيه أيضاً عن مجالس الشيخ المفيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : يا أنس أكثر من الطهور يزيد الله في عمرك ، وإن استطعت أن تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل فإنك إذا مت على طهارة تكون شهيداً^(٣).

وفيه أيضاً عن المحاسن عن حفص بن غياث عن الصادق عليه السلام قال : من تطهر ثم أوى الى فراشه بات وفراشه كمسجده ، فإن ذكر أنه ليس على وضوء فتييم من دثاره كائناً ما كان لم يزل في صلاة ما ذكر الله عز وجل^(٤).

وفيه أيضاً عن إرشاد القلوب وأعلام الدين للديلمى قال : قال النبي ﷺ : يقول الله تعالى : من أحدث ولم يتوضأ فقد جفائي ، ومن أحدث وتوضأ وصلى

(١) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٣٠١ ب ٤ ح ٢ .

(٢) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٣٠٤ ب ٤ ح ١٠ .

(٣) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٣٠٤ ب ٤ ح ١٢ .

(٤) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٣٠٨ ب ٤ ح ١٦ .

ر كعتين ودعاني ولم اجبه فيما سألتني عن امور دينه ودنياه فقد جفوتـه ، ولست
برب جاف^(١).

وفيه أيضاً عن جامع الأخبار قال الباقر عليه السلام : من قرأ على ان وضوءه آية
الكرسي مرة أعطاه الله ثواب أربعين عاماً ورفع له أربعين درجة وزوجه الله
أربعين حوراء^(٢).

انتهى الكلام على الوضوء من هذه الآية .

الفصل

ثم ذكر تعالى أمر الغسل في جملة وهي قوله : «وان كنتم جنباً فاطهروا» .
لقد ذكر المفسرون والفقهاء بأن الجنب يجب عليه الغسل ، وهو الذي تأمر
به الجملة المذكورة ، وذكروا أن الجنابة تحصل بعد أمرين :
الأول : نزول المنى سواء كان بيقظة أو نوم ، بجماع أو غير جماع .
والثاني : بغيوبة الحشفة سواء كان معه إنزال أو لم يكن - في الفاعل
والمفعول - . وهناك فروع تتعلق بكيفية الغسل وبعض أحكامه المذكورة في كتب
الفقه .

التييمم

ثم ذكر تعالى حكم التيمم بقوله : « وان كنتم مرضى أو على سفر أو
جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً
طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » .
هذه الجملة بيّنت للناس أن من عسر عليه الغسل أو الوضوء إما لمرض فيه
بحيث يضره استعمال الماء أو لعدم وجود الماء فإنه يكفيه التيمم عن كلا الأمرين
من غسل أو وضوء ، وكيفية التيمم وأحكامه المذكورة في كتب الفقه .

(١) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٣٠٨ ب ٤ ح ١٨ .

(٢) بحار الانوار : ج ٨٠ ص ٣١٧ ب ٥ ح ٩ .

وأما قوله تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » فإنه يبين لطف الله ورأفته بعباده حيث لم يحتم عليهم الوضوء والغسل في جميع الأحوال ، ورخص لهم التيمم وجعله كافياً عن الوضوء والغسل في مقام تعذرهما ، وجعل من تيمم بالتراب كالمطهر بالماء ، فالذي يصلي بالتيمم يكون كالمصلي بالوضوء والغسل لا ينقص منه شيء ، وهذا البذل الذي جعله الله للوضوء والغسل هو نعمة من الله على عباده كما أن تشريع الوضوء والغسل نعمة يحصل العبد بإتيانها على ثواب عظيم ، وقد أراد الله بعباده المؤمنين أن يحصلوا على هذه النعمة في الوقت الذي لم يمكنهم استعمال الماء بسبب ما بهم من المرض أو لعدم وجود الماء أصلاً ، فجعل لهم التراب بدلاً عنه لإتمام النعمة عليهم ، فالذي يحتم على العباد هذه النعمة أن يطيعوا الله في امتثال أوامره ، وهذا هو الذي أشار الله إليه بقوله : « لعلكم تشكرون » أي أن إتمام النعمة عليكم في تهيئة أسباب الطهارة لكم في كل زمان وعلى أي حال يوجب عليكم الشكر للمنعم ، فإذا فهمتم وتعقلتم هذه النعمة لزمكم الشكر حتماً ، هذا مضافاً إلى سائر النعم التي أسداها الله على عباده المؤمنين وأعظمها وأجلها توفيقهم للإيمان .

قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله أن الله عليم بذات الصدور » (٧) .

لما ذكر الله في الآية التي قبل هذه الآية أن تشريع الطهارات من الغسل والوضوء والتيمم إنما هو نعمة من الله وفضل على عباده - حيث إنها تطهر العبد من دنس الخبث والحدث وتقربه إلى الله وتؤهله لمقام المناجاة مع الله وللعروج إلى

المقام الرفيع فيساوي الملائكة في الارتفاع والتعالى . فقد نبه عباده في هذه الآية أنه يلزمهم أن يذكروا دائماً نعمة الله عليهم ، إذ أن نعم الله متتابعة مترادفة متواصلة في كل زمان ومكان ، فإذا كان العبد ذا كراً للنعمة يلزمه أن يكون شاكراً للمنعم ، فهو في كل حين يلزمه .

ولما كان الشكر بالنسبة الى الله يغاير الشكر بالنسبة الى العباد فإن شكر العبد للعبد هو مكافأة بمثل ما أسداه إليك من مال أو جاه أو شكره بالكلام المنبه على ما فعله معك من احسان .

أما بالنسبة الى الله فالشكر عبارة عن إطاعة أوامره والانتهاز عما نهى عنه ، فإذا كان العبد شاكراً لله في كل حين يلزمه أن يكون مطيعاً لله في كل حين . فإذا هم بمعصية وتذكر أن الجارحة التي يريد أن يعصي بها إنما هي من عند الله ومن نعمه وفضله وأنه يلزمه الشكر على ذلك اذا تنبه الى هذا المعنى وكان عاقلاً يرتدع عن المعصية ويكف عنها بمقتضى حكم العقل بوجوب شكر المنعم الذي أرشدنا الله اليه بقوله : « واذكروا نعمة الله » فيكون ذكر النعمة موجباً للكف عن المعصية وسبباً لاطاعة الله في كل حين .

قال في المجمع : إنما قال « نعمة الله » ولم يقل نعم الله للاشعار بعظم النعمة لامن جهة التضعيف ، إذ كل نعمة لله فإنه يستحق عليها أعظم الشكر لكونها أصل النعم ، إذ هي مثل الخلق والحياة والعقل والحواس والقدرة^(١) انتهى .

ومن جملة الامور التي ينبغي إطاعة الله فيها هو الوفاء بالميثاق والعهد الذي واثق العبد ربه وعاهده عليه حين إسلامه ، حيث إن النبي ﷺ كان يشترط على من يدخل في الاسلام أن يطيعه في كل أمر ونهى سواء سره ذلك أو أساءه حبه أو كرهه ، وأكّد ذلك على المسلمين في بيعة الحديبية وبيعة الرضوان واشترط عليهم أن لا يعترضوا عليه في شيء من الامور أبداً .

فيمكن أن يكون قوله : «وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا»
إشارة الى هذا الميثاق الذي أخذه النبي ﷺ على المسلمين حين إسلامهم، فإنهم
لما ألقى عليهم هذه الامور قالوا : سمعنا وأطعنا .

وقال بعض المفسرين : إن الميثاق هو الذي أخذه النبي ﷺ في حجة
الوداع بني غدير خم لما أقام أمير المؤمنين عليه السلام علماً للناس وأمرهم أن يبايعوه وأخذ
عليهم الميثاق فقالوا : سمعنا وأطعنا^(١) .

وذهب الى هذا علي بن ابراهيم القمي حيث قال : لما أخذ رسول الله ﷺ
الميثاق عليهم بالولاية قالوا : سمعنا وأطعنا ، ثم نقضوا ميثاقهم^(٢) .
ويدل على هذا أيضاً قول الامام الصادق عليه السلام : وليكن من قولكم اذا التقيتم
أن تقولوا : الحمد لله الذي أكرمنا بهذا اليوم وجعلنا من الموفين بعهده إلينا
وميثاقه الذي واثقنا به من ولاية ولادة أمره والقوام بقسطه^(٣) .

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تفسيره : والميثاق الذي واثقهم به قال البلخي والجبائي : هو ما أخذ
عليهم رسول الله ﷺ عند إسلامهم وبيعتهم بأن يطيعوا الله في كل ما يفرضه عليهم
مما ساءهم أو سرهم . قال الجبائي : هو مبايعتهم ليلة العقبة وبيعة الرضوان .
وهو قول ابن عباس . وقال آخرون : هو ما أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب
آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم قالوا بلى ،^(٤) . ذهب إليه مجاهد .
والصحيح قول ابن عباس لأمرين :

أحدهما : أن الخبر المردي في أخذ الميثاق على من استخرج من صلب

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٦٨ نقلا بالمعنى .

(٢) تفسير القمي : ج ١ ص ١٦٣ .

(٣) التهذيب : ج ٣ ص ١٤٤ باب ٧ .

(٤) الاعراف : ١٧٢ .

آدم عليه السلام ضعيف تحيله العقول .

والثاني : أن الله تعالى ذكر بعقب تذكيره المؤمنين ميثاقه الذي واثق به أهل التوراة بعدما أنزل كتابه على نبيه موسى عليه السلام فيما أمرهم به ونهاهم عنه فقال : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ، ^(١) الآيات بعدها ، منبهاً بذلك أصحاب رسول الله محمد ﷺ على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وتعريفهم سوء عاقبة أهل الكتاب في تضييعهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه زاجراً لهم عن نكث عهده لئلا يحل بهم ما حل بمن تقدم من الناكثين عهده من أهل الكتاب . وقال أبو الجارود : عن أبي جعفر عليه السلام : الميثاق هو ما يبتن لهم في حجة الوداع من تحريم كل مسكر وكيفية الوضوء على ما ذكره الله وغير ذلك ، ونصب أمير المؤمنين عليه السلام إماماً للمخلق ، وهذا داخل فيما حكيناه عن ابن عباس إذ هو بعض ما أمر الله به ^(٢) انتهى .

مقاله الطبرسي :

قال في تفسير قوله تعالى « وميثاقه الذي واثقكم به » : قيل : فيه أقوال : أحدها : أن معناه ما أخذ عليهم رسول الله ﷺ عند إسلامهم وبيعتهم بأن يطيعوا الله في كل ما يفرضه عليهم مما ساءهم أو سرهم . عن ابن عباس والسدي . وثانيها : أن المراد بالميثاق ما يبتن لهم في حجة الوداع من تحريم المحرمات وكيفية الطهارة وفرض الولاية وغير ذلك . عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ، وهذا داخل في القول الأول إذ هو بعض ما فرض الله تعالى .

وثالثها : أن المراد به متابعتهم للنبي ﷺ يوم بيعة العقبة وبيعة الرضوان .

عن أبي علي الجبائي .

(١) المائدة : ١٢ .

(٢) التبيان : ج ٣ ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

ورابعها : أن معناه ما أخذوا عليهم حين أخرجهم من صلب آدم ﷺ
«وأشهدهم على أنفسهم ألت بربكم قالوا بلى». عن مجاهد، وهذا أضعف الأقوال.
«إذ قلتم سمعنا وأطعنا» يعني : سمعنا ما تقول وأطعناك فيما سمعنا^(١).

ماقاله السيد عبدالله شبر :

قال في تفسيره : «واذكروا نعمة الله عليكم» بالاسلام نتذكر كم المنعم
وترغيبكم في شكره «وميثاقه الذي واثقكم» عاهدكم به من مبايعتكم النبي
ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر. وعن الباقر ﷺ : أن المراد بالميثاق
مايؤمن لهم في حجة الوداع من تحريم المحرمات وكيفية الطهارة وفرض الولاية
وغير ذلك^(٢) انتهى .

ماقاله المراغى :

قال في تفسير قوله تعالى «واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم
به إذ قلتم سمعنا وأطعنا» : أي وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين
فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابين، وتذكروا العهد الذي عاهدكم به حين بايعتم
رسوله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكروه (المحجوب والمكروه)
والعسر واليسر حين قلتم له : سمعنا ما أمرتنا به ونهيتمنا عنه وأطعناك فيه فلا
نعصيك في معروف وكل ما جئتنا به فهو معروف .

وكل نبي بعث في قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة وقبول الدعوة
والدخول في الدين يعد قبولاً لهذا العهد، فعلياً أن نعد هذا التذكير خطاباً كما
عده السلف من الصحابة خطاباً لهم^(٣).

(١) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) الجواهر الثمين : مخطوط .

(٣) تفسير المراغى : ج ٦ ص ٦٦ .

أيتها المسلم ، اذا أردت أن تكون مؤمناً حقيقياً ويحشرك الله مع المؤمنين ينبغي لك أن تفى لله بعهدك وميثاقك، فإن الله قد أخذ عليك العهد حين أخرجك من صلب آدم ﷺ اعترفت له بالربوبية وكذا حين أسلمت وصدقت بنبوته محمد ﷺ فإنك قد عاهدته على السمع والطاعة في كل شيء ، فكل شيء من فعل أو قول يصدر منك مخالفاً لما جاء به محمد ﷺ من عند الله فهو نقض لعهدك ونكث لميثاقك، ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه، وقد سمعت ما قاله المفسرون في قوله تعالى: «واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا» فإن كل معصية تصدر منك لا بد وأن تكون بأحد أعضائك التي أنعم الله بها عليك فكيف تعصيه بنفس النعمة التي ينبغي لك أن تشكره عليها ؟ وتكون أيضاً بهذه المعصية قد نكثت عهدك وميثاقك فتكون قد كفرت النعمة ونكثت الميثاق وخالفت النبي ﷺ .

قوله تعالى : « واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور » .

ختم الله تعالى الآية الشريفة بهذه الجملة المحذرة للعاقل، فإنه - بعدما أمرنا أن نذكر نعمة الله في كل وقت وعلى أية حال ونبهنا بأنه قد أخذ علينا العهد والميثاق الشديد وأن كفران النعمة ونكث العهد ونقض الميثاق مما يوجب العذاب الشديد لفاعله سيثما اذا كان المنعم قادراً على كل شيء لا يعجزه شيء ولا يفوته أحد - وجه سبحانه إلينا جملة إرشادية تنفعنا إن عملنا بها في الدنيا والآخرة وهي قوله : « واتقوا الله » أي اتقوا وتحذروا من عذاب الله الذي يصيب من يكفر النعمة وينقض الميثاق ولا يخدعكم الشيطان فتفعلوا شيئاً من ذلك فإن الله يعلم ما تضررونه بقلوبكم حينما ينعم عليكم بكل نعمة وحينما يأخذ عليكم العهد والميثاق فإن الله عليم بذات الصدور » .

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط

ولا يجرمكم شئتان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون (٨) .

إن الله أمرنا في الآية السابقة بأن نكون دائماً على ذكر لنعمة الله وأن نفى بعهد الله وميثاقه ، وأن الانسان اذا اتصف بهذين الوصفين يكون مؤمناً كاملاً ، واذا كان كذلك لا بد وأن يكون متصفاً بهذه الصفة التي أمرنا الله بالانصاف بها، وهي أن نكون قوامين لله أي قائمين في كل وقت وفي كل أمر من فعل وقول وحركة وسكون لله تعالى في جميع هذه الحالات خالصين له في هذه الامور كلها، لا نخلط معها غيرها بحيث تكون اعمالنا التي نعملها في الدنيا منوطة بما يأمرنا الله به ولانأتي بشيء وإن قل ودق لا يرضى به الله .

امثل لك أيها الانسان بمثال لتعرف معنى قوله: «قوامين لله» فأقول لك: إن بعض الاقطاعيين أو كلهم يعيّن رجلاً واقفاً قريباً من مكانه الذي يحل به وهذا الرجل لا يشتغل بشيء من الامور أبداً سوى أنه ينتظر إشارات ذلك الاقطاعي الجاهل ومما يأمر به فينفذها في الحال ولا يتخلف عنها أبداً، وتكون وظيفة هذا الرجل الوقوف على رجليه لا يحق له الجلوس ولا الابتعاد عن المحل الذي عيّن له. اذا عرفت هذا فاعلم أن العبد الذي يكون قواماً لله ينبغي أن يكون على هذه الحالة بحيث لا يشتغل بشيء لا يرضى به الله أبداً، ويزيد على ذلك القائم بأمر الاقطاعي الجاهل أنه يلزم أن يكون ضميره وباطنه موافقاً لظاهره، فإن الله يريد ذلك من عباده ويعلمه وهو مطلع عليه لا يخفى عليه شيء .

ثم إن هذا الرجل الذي يكون قواماً لله - حيث إن كلامه يلزم أن يكون لله أيضاً - ينبغي أن تكون شهادته شهادة عادل ليس فيها ميل وانحراف عن الحق فإن الله لا يرضى بالشهادة اذا لم تكن بالقسط وإلا فإن شهادته اذا مالت عن الحق طرفه عين فإنه لم يكن قائماً لله، واذا لم يكن قواماً لله لم يكن وفياً بالعهد

والميثاق ، وإذا لم يكن متصفاً بالوفاء لم يكن ذا كراً لنعمة الله . فإذا انتفت عنه هذه الصفات لم يكن داخلاً في زمرة المؤمنين ، وهذا هو الخسران المبين .

فانظر وتأمل أيها المسلم كيف أدبك الله وأرشدك الى الترقى لهذه الدرجات فإنه أرشدك أولاً لتذكر نعمته ثم أمرك بالوفاء بما واثقك عليه ثم أرشدك أن تكون قوياً أمام الله ، فإذا كنت كذلك لا بد لك وأن تكون شهادتك بالقسط غير مائلة عن العدل في كل وقت وفي كل أمر ، فإذا وصل العبد الى هذه الدرجة يكون سيره دائماً في الطريق الذي عينه الله له ولا يخرج عنه يميناً ولا شمالاً ولا يتوقف عن السير لغرض يعود الى نفسه بل يكون دائماً قائماً بأمر الله الذي شخصه له بواسطة النبي وأوصيائه ، وأن هذه الشهادة بالقسط التي وصف الله بهاء عباده المؤمنين - حيث إنها تكون لهم صفة ثابتة - لا تزول عنهم ولا تفارقهم لأنها ملكة ثابتة ، فإذا أرادوا أن يشهدوا لأحد أو على أحد فيجب أن تكون شهادتهم بالقسط والعدل سواء كان المشهود له صديقاً أو عدواً ، وكذا لو أرادوا أن يحكموا على أحد بحكم من الأحكام فينبغي لهم أن يحكموا بالقسط والعدل ولو كان المحكوم عليه عدواً لهم ، ولذا أمرهم الله بهذا في قوله : « ولا يجره نكم شئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

إن الذي يتصف بالصفات المتقدمة ذكرها يأمره الله أن يكون عادلاً في كل شيء ، فإذا أراد أن يقول شيئاً فيمن يبغيه أو يصدر حكماً في حقه يأمره الله أن لا يحمل به هذا البغض على مفارقة العدل في حق ذلك المبغيض المكروه بل يأمره الله أن يقول فيه ما يطابق العدل ويناسبه ويذكر له أن متابعة العدل هو أقرب للتقوى لأن الإنسان إذا اتصف بالصفات المذكورة المتقدمة يكون وبعد من المتقين ، فإذا أراد أن يفرق بين صديقه وعدوه في الحكم يبعده هذا عن المتقين ، ولذا أمره الله أن يقول العدل ويحكم به في كل مقال ومقام ، ولا يفرق بين من يحبه ومن يبغيه . ثم بعدما أمره بما يثبت على التقوى كرر عليه مرة أخرى بأن يكون من

المتقين لأن التقوى تحرز لصاحبها خير الدنيا والآخرة ، وهو قوله تعالى :
« واتقوا » ثم أخبره بأنه يريد مطابقة الباطل للظاهر ، وأن الظاهر وحده
لا يفيد وهو قوله : **« ان الله خبير بما تعملون »** .

إن هذه الجملة تكفي لصاحب العقيدة الحقة والسريرة السليمة ، فإنه اذا
علم وتيقن أن الله مطلع على ما في ضميره وخبير بما تنطوي عليه سريره ، وأن كل
ما يفعله سرّاً أو جهراً هو مسجل في صحيفته لا يفوت منه شيء ، فلا بدّ له إن كان
عاقلاً كاملاً أن لا يسجل على نفسه إلا ما ينفعه ويجتنب كل شيء يكون وبالاً عليه .

قوله تعالى : وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة
وأجر عظيم (٩) .

هذا وعد من الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأن وعد الله لا خلف
فيه قطعاً وأن الله يفى به في مورد الذي عيّنهُ ولا يؤخره عنه لحظة . نعم إنما
يفى به الله في المورد المعيش وللإنسان الذي عيّنهُ وشخصه وهو الذي يؤمن
ويعمل الصالحات ، فلا بدّ لنا أن نعرف من هو المؤمن وما هي الصالحات التي يعيّنهُ
الله عز وجل ؟

أما المؤمن فهو الذي يوحد الله ويصدق بنبوّة محمد بن عبد الله ﷺ ، ولا يخفى
عليك أن التوحيد والتصديق بالنبوّة ليسا أمرين يقولهما بلسانه فحسب بل هما
إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، فمن قال : (لا إله إلا الله) ينبغى
له أن يعرف معنى التوحيد ، أي أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت وهو
على كل شيء قدير فلا يجعل له أنداداً من المخلوقين ، وكذا من صدق بنبوّة
محمد ﷺ ينبغى له أن يكون عمله على القرآن والسنة ولا يخالف النبي فيما قاله
من أحكام الدين الاسلامي . فإن النبي ﷺ قد قال في آخر خطبة خطبها :

أيها الناس من لقي الله عز وجل يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً لم يخلط معها غيرها دخل الجنة . فقام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي كيف يقولها مخلصاً لا يخلط معها غيرها ؟ فسر لنا هذا تعريفيه ، فقال : نعم حرصاً على الدنيا وجمعها من غير حلقها ورضي بها ، وأقوام يقولون أقاويل الأخبار ويعملون عمل الجبابرة والفجار ، فمن لقي الله وليس فيه شيء من هذه الخصال وهو يقول لا إله إلا الله فله الجنة ، فإن أخذ الدنيا وترك الآخرة فله النار ^(١) .

وأما عمل الصالحات فإن هذه السورة - وهي سورة المائدة - مشتملة على كثير من الأوامر والنواهي ، وقد ذكر الله من أول السورة الى هذه الآية جملة منها ولا بأس بذكرها :

١ - قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، فإن هذه الجملة تشمل جميع الأوامر والنواهي ، وهي وحدها تكفي الانسان اذا أراد أن يكون مؤمناً .

٢ - « احلّت لكم بهيمة الانعام إلا ما يتلى عليكم » .

٣ - « غير محلي الصيد وأنتم حرم » .

٤ - « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » .

٥ - « ولا الشهر الحرام » .

٦ - « ولا الهدي » .

٧ - « ولا القلائد » .

٨ - « ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » .

٩ - « واذا حللتم فاصطادوا » .

١٠ - « ولا يجزئكم شتمان قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن

تعمدوا » .

- ١١ - « وتعاونوا على البر والتقوى » .
- ١٢ - « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .
- ١٣ - « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .
- ١٤ - « حرمت عليكم الميتة » .
- ١٥ - « والدم » .
- ١٦ - « ولحم الخنزير » .
- ١٧ - « وما اهل لغير الله به » .
- ١٨ - « والمنخنقة » .
- ١٩ - « والموقوذة » .
- ٢٠ - « والمتردية » .
- ٢١ - « والنطيحة » .
- ٢٢ - « وما اكل السبع إلا ما ذكيتتم » .
- ٢٣ - « وما ذبح على نصب » .
- ٢٤ - « وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق » .
- ٢٥ - « اليوم يشئ الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون » .
- ٢٦ - « اليوم أكملت لكم دينكم » .
- ٢٧ - « وأتممت عليكم نعمتي » .
- ٢٨ - « ورضيت لكم الاسلام ديناً » .
- ٢٩ - « قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله » .
- ٣٠ - « واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب » .
- ٣١ - « اليوم احل لكم الطيبات » .
- ٣٢ - « والمحصنات من المؤمنات » .
- ٣٣ - « والمحصنات من الذين ادنوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتهمهن » .

اجورهن* محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان. ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين .

٣٤ - « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا ... الخ » .

٣٥ - « وإن كنتم جنباً فاطهروا » .

٣٦ - « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو

لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا ... الخ » .

٣٧ - « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » .

٣٨ - « ولكن يريد ليظهركم » .

٣٩ - « وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

٤٠ - « واذكروا نعمة الله عليكم » .

٤١ - « وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » .

٤٢ - « واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » .

٤٣ - « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » .

٤٤ - « ولا يجز منكم شئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

٤٥ - « واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

إن هذه الامور التي ذكرها الله تعالى بعضها أمر كقوله تعالى : « واخشون »

وبعضها نهي كقوله سبحانه : « فلا تخشوهم » وبعضها خبر كقوله جل شأنه :

« اليوم يشئ الذين كفروا من دينكم » . وكل جملة منها تشتمل على حكمة بالغة

وهي كلها مما تخص الانسان وتنفعه في الدنيا والآخرة .

إن هذه الامور اذا عمل بها الانسان على ما أمر الله بحيث أخذ معانيها

وتفسيرها ممن عنده علم الكتاب وعمل بها على الدقة ولم يفسر من معناها شيئاً

يكون هذا الانسان ممن آمن وعمل الصالحات ، فيستحق من الله إنجاز الوعد

الذي وعده به وهو قوله : « مغفرة وأجر عظيم » .

أما المغفرة فهي مطلقة غير مقيدة بكم* أو كيف فتكون عامة لجميع الذنوب وهي غنية عظيمة كبيرة .

وأما الأجر العظيم فهو لا يتصوره عقل البشر فإن الشيء الذي يصفه الله بالعظمة هو أمر فوق فكر البشر وفوق طاقتهم ، فمن حصل من العباد على هذا الأجر فهو من الفائزين فوزاً عظيماً وهو من أحسن العباد منقلباً وأكثرهم ثواباً . ولكن المهم أن يكون عمله مطابقاً لما يريد الله من هذه الأمور بحيث يكون وضوءه وغسله وتيممه وصلاته مطابقاً لأرادة مولاه وأن يكون مأخوذاً من النبي ﷺ وممن علمه النبي جميع الأحكام ، أما إذا كان يعمل بما يوحى إليه فكره بالاستناد إلى الكتاب والسنة فهذا قد يكون في أغلب الموارد غير عامل بما أمر الله كما يقوله بعضهم : إن الله أمر بمسح الرجلين وأراد بالمسح الغسل فإن هذا لا يوافق عليه الكتاب ولا السنة ولا اللغة ولا العرف ، فما أدري من أين جاءه هذا العلم فحكم به ؟

ثم إن الصالحات ليست منحصرة بما تقدم ذكره في هذه السورة بل يعم جميع الواجبات والمندوبات المذكورة في الكتاب والسنة .

قوله تعالى : والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (١٠) .

بعد أن وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم نود الكافرين والكاذبين به سبحانه وبكتابه وأنبيائه وأوصيائه بأن يكونوا من أصحاب الجحيم .

قال في المجمع : معناه أنهم يخلدون في النار لأن المصاحبة تقتضي الملازمة^(١) .

فعلى العاقل أن يفكر ويتأمل الفرق بين هاتين المنزلتين، بين هذا الوعد وهذا الوعيد - وعد بالمغفرة والأجر العظيم ووعيد بالخلود في نار الجحيم - ثم يختار لنفسه أحد الأمرين، فهل يوجد أحد في العالم من الانس أو الجن عاقل أو مجنون يترك هذا النعيم ويختار هذا العذاب الأليم ؟

قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ان هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١١) .

لقد وصلت الى هذه الآية في يوم ٩/٨/١٩٧٠ وقد أعلنت حكومة مصر وحكومة إسرائيل بالموافقة على المشروع الذي أعدته أمريكا والدول الكبرى الثلاث ووافقت مصر وإسرائيل على إيقاف النار لمدة معينة، وإني اخاطب حكومة مصر والحكومات الاسلامية جمعاء ، أذكر لهم سبب نزول الآية أولاً :

مقاله الطبرسى فى سبب النزول :

قال في مجمه : واختلف في من بسط إليهم الأيدي على أقوال : أحدها : أنهم اليهود همّوا بأن يفتكوا بالنبي ﷺ وهم بنو النضير، دخل رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه عليهم وكانوا قد عاهدوه على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات ، فقال ﷺ : رجل من أصحابي أصاب رجلين معهما أمان مني فلزماني ديتهما فاريد أن تعينوني ، فقالوا : نعم اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا. وهمّوا بالفتك بهم، فأذن الله به رسوله فأطلع النبي ﷺ على ذلك وانصرفوا، وكان ذلك إحدى معجزاته. عن مجاهد وقتادة وأكثر المفسرين. وثانيها : أن قريشاً بعثوا رجلاً ليقتل النبي ﷺ فدخل عليه وفي يده سيف مسلول فقال له : أرنيه ، فأعطاه، فلما حصل في يده قال : ما الذي يمنعني من

قتلك؟ قال : الله يمنعك ، فرمى السيف وأسلم ، واسم الرجل عمر بن وهب الجمحي بعنه صفوان بن أمية ليغتاله بعد بدر ، وكان ذلك سبب إسلام عمر بن وهب . عن الحسن . وثالثها : أن المعنى بذلك ما لطف الله للمسلمين من كف أعدائهم عنهم حين هممتوا باستئصالهم بأشياء شغلهم بها من الأمراض والقحط وموت الأكابر وهلاك المواشي وغير ذلك من الأسباب التي انصرفوا عندها عن قتل المؤمنين . عن أبي علي الجبائي . ورابعها : ما قاله الواقدي أن رسول الله ﷺ غزا جمعاً من بني ذبيان ومحارب بذي أمر ، فتحصنوا برؤوس الجبال ، ونزل رسول الله ﷺ بحيث يراهم ، فذهب لحاجته فأصابه مطر قبل ثوبه فنشره على شجرة واضطجع تحته والأعراب ينظرون إليه فجاء سيدهم دعثور بن الحرث حتى وقف على رأسه بالسيف مشهوراً فقال : يا محمد من يمنعك مني اليوم ؟ فقال النبي ﷺ : الله . ودفع جبرائيل في صدره ووقع السيف من يده وأخذ رسول الله ﷺ وقام على رأسه وقال : من يمنعك اليوم مني ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فنزلت الآية . وعلى هذا فيكون تخلص النبي ﷺ مما هممتوا به نعمة على المؤمنين حيث إن مقامه بينهم نعمة عليهم ، فلذلك اعتد به عليهم . وقوله « فكف أيديهم عنكم » أي منعهم عن الفتك بكم « واتقوا الله » ظاهر المعنى « وعلى الله فليتوكل » أي فليثق « المؤمنون » بنصر الله وليتوكلوا عليه فإن الله تعالى كافيهم وناصرهم ^(١) . إن الله عز وجل يأمر المؤمنين بأنهم إذا ذكروا نعمة من نعم الله يلزمهم أن يتقوا الله ويتحرزوا من عذابه ، فإنهم إذا لم يؤدوا شكر النعمة قد يسبب ذلك زوالها ، أما إذا تحقق منهم الاتقاء والتحرز فلا بد وأن يؤدوا شكر النعمة . ثم عرفهم بأن المؤمن المتيقن يلزمه أن يكون متوكلاً على الله في جميع الأمور وفي كل الأحوال والأوقات .

هذا هو شأن المؤمن وما ينبغي أن يكون عليه في أمور دنياه وفي أمور

آخرته وفي حربه مع أعداء الدين ، فينبغي أن تكون نيته خالصة لله تعالى في محاربة أعداء الدين .

وبعد هذا إني اخاطب نفسي و كل مسلم يدين بدين محمد بن عبد الله ﷺ وأقول :

لو أننا اقتدينا بنبيينا وحللنا حلال الله وحررنا حرام الله وأقمنا أحكام الله ومنعنا في بلادنا اللعب بالميسر والربا وشرب الخمر وأقمنا الحدود كما أمر الله في كتابه : « الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة »^(١) و « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »^(٢) و « لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب »^(٣) لو أننا عملنا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ لكف الله أيدي الغزاة الصهاينة ولما تمكن أحد أن يبسط إلينا يده أو يفرض سيطرته ، واعلموا أن الرجوع الى كتاب الله من لوازم الاسلام وبه نتصر على الأعداء .

أما الآن وبعد وقف إطلاق النار ليس علينا إلا أن نرجع الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فنحرم - كما أسلفت - جميع المحرمات التي حرمها الله في كتابه من خمر وفجور وتبرج وقمار وربا ، وليس علينا إلا أن نقيم الحدود التي فرضها الله علينا في كتابه ، الحدود التي تقطع دابر الفساد والتي تقضي على الزنا والسرقة وقتل النفس وسائر أنواع الفسق ، فإذا حللنا نحن وأنتم حلال الله وحررنا حرامه فإن الله سيكف عنا أيدي أعدائنا ولا يسلطهم علينا بل يجعل لنا السلطة عليهم كما وعدنا نبينا ﷺ حين أخذ منا البيعة وكما قال تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »^(٤) فالله تعالى لا يخلف وعده ، فحق على الله تعالى أن ينصرنا إن

(١) النور : ٢ .

(٢) المائدة : ٣٨ .

(٣) البقرة : ١٧٩ .

(٤) الروم : ٤٧ .

أصبحنا مؤمنين .

نعم موضوع النصر هو تحقق الايمان الذي لانشوبه شائبة، وإن بعض أهل أهل البلدان العربية وإن اعتنقوا الاسلام ديناً ولكنهم لم يتصفوا بشروط الاسلام فالمحرمات منتشرة في بلادهم وإن الله تعالى يريد المسلم أن يتكل عليه وعلى الله فليتوكل المؤمنون،^(١) فإن تقدم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر ، يعني: أن المؤمن بمعناه الحقيقي لا يمكن أن يتوكل على غير الله وأن بعض المسلمين يعانون لأعدائهم الصهاينة أنهم معتمدون على غير الله ويستمدون المساعدة ممن نهى الله عن موالاتهم ، قال تعالى : «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين»^(٢) فلو اتكلوا على الله واتحدوا كما أمر الله «إنما المؤمنون إخوة»^(٣) «فأصبحتم بنعمته إخواناً»^(٤) واستعدوا للأعداء «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»^(٥) لكف الله أيديهم ولنصرنا عليهم وسيتحقق النصر إن شاء الله .

أما اذا بقينا على هذه الحالة فإن الله تعالى يقول : «يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم* إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون* ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون»^(٦).

(١) آل عمران : ١٢٢ .

(٢) آل عمران : ٢٨ .

(٣) الحجرات : ١٠ .

(٤) آل عمران : ١٠٣ .

(٥) الانفال : ٦٠ .

(٦) المائدة : ٥٤ - ٥٦ .

قوله تعالى : ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم
اثني عشر نقيباً وقال الله انى معكم لئن أقمتُم الصلاة وآتيتُم
الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتُمهم وأقـرضتم الله قرضاً حسناً
لا كفرن عنكم سيئاً تكـم ولا دخلنكم جنات تجري من تحتها
الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل (١٢) .

إنَّ الله تعالى قد كرر ذلك العهد والميثاق في هذه السورة ثم ذكر بعد هذه
الآية عقوبة نقض العهد والميثاق ليعرف المسلمون الذين نقضوا الميثاق أنهم قد
استحقوا هذه العقوبة ، ولكن الله قد رحمهم وخفف عنهم وأمهـلهم ليتوبوا إليه .
فقال في أول آية من السورة « يا أيُّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال بعد
ذلك : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » .
وقد تقدم قبل هذا ما ذكر في أول السورة أنَّ أهل يثرب - وهم الثلاثة
والسبعون - لما أرادوا أن يبايعوا النبي ﷺ قالوا له : نريد أن نعرفنا يا رسول
الله ما الله علينا وما لك علينا وما لنا على الله ، فقال لهم النبي ﷺ : وأما ما لله عليكم
فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً^(١) .

وقد تكرر في القرآن الكريم بأنَّ الذي يوالى اليهود والنصارى فهو ليس
من المسلمين وإنما هو من اليهود أو النصارى ، وأنَّ الذي يشرب الخمر فهو كعابد
الوثن ، وأنَّ الذي يأكل الربا فهو محارب لله ولرسوله ، وأنَّ الذي يقتل المسلم
فهو كمن قتل الناس جميعاً ، فمن فعل أحد هذه الأشياء فهو ليس ممن عبد الله .
ثم قال النبي ﷺ : وأما ما لي عليكم فتنصروني مثل ما تنصروا نساءكم

وأبناءكم ، وأن تصبروا على عض السيف وأن يقتل خياركم^(١) .

فانظروا أيها المسلمون هل أنكم نصرتم رسول الله مع ما استباحتم من هذه المحرمات كالخمر والميسر والسفور والفجور والربا وقتل النفس وغيرها من المحرمات ؟ فهل يرضى رسول الله بهذه الأفعال وقد حرمها الله في القرآن ؟ وهل تعدون أفعالكم نصرة له أو أنها لمخالفة صريحة لسنة ؟

قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا على الله ؟

قال ﷺ : أما في الدنيا فالظهور على من عاداكم ، وأما في الآخرة رضوانه والجنة^(٢) .

أسمعتكم أيها المسلمون ما لكم على الله ؟ إن النبي الصادق المصدق قد تعهد لكم عن الله عز وجل أنكم إذا عبدتم الله مخلصين ولم تشركوا ونصرتم النبي ولم تخذلوه تعهد لكم بالظهور على من عاداكم ، وأن وعد الله ليس فيه خلف ، فلو أنكم تعدون من المسلمين لكف الله عنكم أيدي أعدائكم ولا تظهركم عليهم في الدنيا وتحضون في الآخرة برضوانه والجنة .

إني أأمل أملاً قريباً عاجلاً من جميع أفراد المسلمين أن يرجعوا إلى الله ورسوله ، وأن يكون عملهم موافقاً لكتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ ، وأن يكافحوا ويحاربوا جميع المنكرات التي نهى الله عنها كالخمر والميسر والربا والتبرج تبرج الجاهلية ، وأعظم الأمور وأشدّها حرمة هو متابعة الكافر من يهود ونصارى ، فإذا رجعتكم إلى الله فإن الله قد تعهد لكم بالنصر بقوله : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »^(٣) .

احذروا أشدّ الحذر أن تكونوا مثل بني إسرائيل فإنهم نقضوا العهد ونكثوا الميثاق فكانت عاقبتهم الهلاك والدمار ، فإن الله يقول : « ولقد أخذنا من ميثاق بني إسرائيل » .

(١) و(٢) بحار الأنوار : ج ١٩ ص ٢٥ ب ٥ ح ٥ .

(٣) الروم : ٤٧ .

المراد بالميثاق اليمين المؤكدة التي يؤديها من يؤخذ منه الميثاق ليكون ملتزماً ومقيداً بإتيان ما يراد منه حتى لا يتخلف عن الوفاء وليكون الحق لمن يأخذ الميثاق في إنزال العقاب به إذا خالف ، فالميثاق إذا أخذ من أحد - واحداً كان أو جماعة أو أمة - كاملة - لا يمكن أن يخالفه أحد ولو بشيء قليل لأنه إذا خالفه تكون الحجة عليه ولا يمكنه أن يدافع عن نفسه أو يحتج لها ويكون مستحقاً للعذاب الذي قرره الله على المخالفة ، وهذا الميثاق أخذه الله منهم على إخلاص العبادة له والإيمان برسائه والائتيان بكل ما يأمرهم به وترك ما ينهاهم عنه .

ثم قال تعالى : « وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » .

النقيب هو الكفيل الذي ينقب عن أفعال القوم فيحصى أفعالهم ليعرف المحسن منهم والمسيء ، فإن أصحاب موسى كانوا اثني عشر أسباطاً ، فأمر الله موسى أن يجعل لكل سبط نقيباً يكون كفيلاً لهم على أن يقيموا حدود الله ويمثلوا أوامره ويحللوا حلاله ويحرموا حرامه ولا يعصونه في شيء من الأحكام .

ثم قال مخاطباً بني إسرائيل بواسطة نبيه موسى عليه السلام : « وقال الله إنني معكم لئن أقمتُم الصلاة وآتيتُم الزكاة وآمنتُم برسالي وعزرتُموهم وأقرضتُم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولادخلتكم جنات تحتها من تحتها الأنهار » . لقد أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذهبوا إلى أرض كنعان فيحاربوا أهلها الكفرة ويفتحوها فيسكنوا فيها ، فقادهم موسى وهارون قاصدين الأرض وهي أريحة ، حتى إذا كانوا قريباً منها أرسل موسى هؤلاء النقباء الاثني عشر إلى الأرض ليفتشوا عن أهلها حتى يعلموا عدتهم وعددهم وما عندهم وأن يتكتموا في مسيرهم . فلما وصلوا إلى الأرض رأهم أحد الرجال فجعلهم في حبرته وأخذهم إلى داره فرماهم في الأرض أمام زوجته وقال لها : إن هؤلاء جاؤوا لحربنا فهل أطحنهم بقدمي ؟ فقالت له زوجته : اتركهم حتى يذهبوا ويخبروا أصحابهم عن أمرنا وعن رجالنا ، وقد رأى هؤلاء النقباء أن عنقود العنب يحمله خمسة رجال

يضعونه على خشبة ويحملونه ، وأن الرمانة اذا قسمت نصفين وأخرج الحب من نصفها تمكن أن يجلس فيها خمسة رجال أو أربعة .

فلما رجع النقباء الى موسى وأخبروه بخبرهم قال لهم موسى : لا تخبروا أصحابكم بذلك فإنهم اذا عرفوا أمرهم امتنعوا من حربهم . فما أطاعوا أمر موسى وجعل الرجل يخبر أباه وأخاه بالأمر حتى شاع الأمر بينهم فامتنعوا عن الذهاب لحربهم خوفاً منهم وجزعاً من الموت ^(١) مع أن الله قد وعدهم وأخبرهم بأنه معهم « وقال الله اني معكم » .

ثم وعدهم الله بعد ما أخبرهم أنه معهم بأنهم اذا فعلوا الامور التي هي مرتبة على الايمان به وعدهم بأشياء اخر من فضله ورحمته فقال تعالى : « لئن أقمتُم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتُم برسلي وعزرتُموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفّرُنْ » عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار » .

إن الانسان الكامل الذي يفهم الكلام ويعرف الله حق معرفته بأنه على كل شيء قدير وأن الامور كلها بيده ينبغي له أن يكتفي بقوله تعالى : « إني معكم » فإنه اذا قال لأحد إني معكم لا ينبغي للانسان حينئذ أن يخشى من دخول النار وخوض البحار والوقوف تحت السيوف ، فهذه الكلمة تكفي للمفوز والنجاح في الدنيا والآخرة .

لكن الله قد أوضح الأمر للانسان الناقص فقال لهم توضيحاً لما يجب عليهم وإيضاحاً لما يوجبهم لهم من الثواب : « لئن أقمتُم الصلاة » هذا هو الشرط الأول من شروط الايمان وهو إقامة الصلاة بحدودها وشروطها ومقدماتها من الطهارة وغير ذلك كما هو مذكور في محله .

ثم قال : « وآتيتم الزكاة » وهذا هو الشرط الثاني من شروط الايمان وهو ايتاء الزكاة ، وأن للزكاة شروطاً مذكورة في محلها .

ثم قال : « وآمنتهم برسلي » وهذا هو الشرط الثالث من شروط الايمان إذ أن الايمان بالله وحده لا يكفي بل يلزم إطاعة الله في الايمان برسله المبعوثين من عنده ، فلو أن الانسان يعبد الله مدة ممره ليلاً ونهاراً ولكنه غير مؤمن بالنبي ولم يأخذ أحكام دينه من نبي زمانه لا يقبل منه ذلك ، وأن الايمان بالله يلزم الايمان برسله وإلا فهو ناقص .

ثم قال تعالى : « وعزرتهم » هذا هو الشرط الرابع من شروط الايمان فاذا لم يتحقق هذا الشرط من الذي يؤمن بالنبي - أي اذا لم ينصره ولم يساعده على تنفيذ أحكامه - فهو غير مؤمن به ، ولا فرق بينه وبين غير المؤمن .

إن المؤمن بالنبي ﷺ ينبغي له أن ينصره في كل ما يأمر به وما يأنى به من قبل الله بحيث يفعل كل ما يأمر به النبي ويحث الناس على فعله ويعلم الجاهل به ويخوف العاصي وينبئه الغافل ، هذا هو المؤمن الحقيقي .

أما الذي يفعل خلاف حكم النبي ﷺ - أي يفعل الحرام الذي نواه عنه النبي ويترك الواجب - فهذا هو في الحقيقة عدو النبي وليس من المؤمنين به لأنه مشاق له ومعاند له .

فاذا أبلغ النبي ﷺ أمته عن الله بحرمة الخمر وحرمة الربا وحرمة الميسر وحرمة السفور وحرمة الزنا وحرمة قتل النفس وحرمة الاعتداء على الغير وحرمة أخذ أموال الناس بغير رضاهم ثم يفعل الانسان جميع هذه الامور أو بعضها وهو يدعي أنه مؤمن بالنبي فهل يصدق في هذه الدعوى ؟ كلاً ثم كلاً ، إن أفعاله تدل على عدم إيمانه .

واذا أبلغ النبي ﷺ أمته عن الله بوجوب الصلاة ووجوب الزكاة ووجوب الحج ووجوب إطاعة الوالدين وصلة الأرحام ثم إن المدعي للايمان بالنبي يترك هذه الامور كلها أو بعضها فهل يصدق عليه أنه مؤمن بالنبي ؟ وعلى تقدير أن يصدق الناس فهل هو يصدق نفسه ؟ واذا خدع نفسه وصدقها فهل يصدق الله

والرسول؟ حيث إن الثمرة والنتيجة إنما تترتب على تصديقهما فقط ولو أن العالم بأجمعه صدقه وقالوا له جميعاً أنت مؤمن ولكن الله والرسول يعرفانه بعدم الإيمان فلا ينفعه ذلك .

ثم قال تعالى : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، هذا هو الشرط الخامس من شروط الإيمان ، أي أن المؤمن بالله وبرسوله ينبغي له أن يحب المؤمنين وأن يحب لهم ما يحب لنفسه وأن يكره لهم ما يكره لها ، فكما يحب لنفسه التوسعة عليها في الرزق ويكره لها الفقر ينبغي له أن يحب لأخيه المؤمن التوسعة أيضاً ، فإذا رأى أخاه المؤمن محتاجاً إلى المال وأمكنه أن يساعده فلا يقصر في ذلك وليعطه من المال ما يسد به حاجته .

إن الله قد عظم هذا العطاء وفخمه ورغب عباده فيه حيث عبّر عنه بهذا التعبير الذي لم يعبر به شيء من أمور البر والعبادات والطاعات ، فعبر عن هذا العطاء وإن كان قليلاً بأنه قرض لله تعالى فقال : « وأقرضتم الله » ولم يكتف بجعله قرضاً له بل قال : « قرضاً حسناً » ، فما أعظمها من كلمة ، فمن يعط درهماً إلى فقير من المسلمين كان كمن أقرض الله درهماً ، ويقول الله بعد أن يقرضه العبد هذا الدرهم : هذا القرض حسن ، فهل يزهد أحد في حيازة هذا الخير العظيم لنفسه ؟ وهل يبخل أحد على نفسه أن يوصلها إلى هذا المحل العظيم ؟ إن الذي يمنع هذا الخير العظيم عن نفسه ويمنعها عن الوصول إليه بإنفاق درهم أو دينار يحق له أن يسمى بخيلاً ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، ^(١) .

وبعد هذه الصفات الخمس التي ذكرها الله تعالى وعرفت معناها يقول تعالى : إن من أنصف بها وأكرم نفسه بالوصول إليها فإن الله سيجعل له هدية سنية على هذا النجاح وهي قوله : « لا كفرن عنكم سيئاتكم ولا دخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

هذه الهدية عبارة عن تكفير السيئات ، أي أن السيئات التي عملها الإنسان قبل اتصافه بهذه الأوصاف يمحوها الله من صحيفة أعماله فكأنه لم يعمل منها شيء .
و كأنه في هذا اليوم ولدته أمه ليس عليه ذنب .

والشطر الثاني من الهدية هو قوله تعالى : « ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

مأظمها من هدية ، إن الله يأمر ملائكته أن يدخلوا عبده - المتصف بهذه الأوصاف الخمسة - الجنة ، والجنة عبارة عن حديقة أوسع من الدنيا فيها من جميع الأشجار التي في الدنيا وجميع الفواكه التي رآها وسمع بها في الدنيا وفيها من الفواكه التي لم يرها ولم يسمع بها ولم يعرف عنها شيئاً ، وهذه الجنة فيها من النسيم الرقيق الذي ينعش الأبدان ويحيي القلوب ، نسيم لم يرمثله في سائر أقطار الأرض يأتيك حاملاً لك من الروائح الطيبة التي تملأ الأنوف فتصل إلى الدماغ فتنعشه ، وهذه الجنة تجري من تحتها الأنهار يسمع الساكن في الجنة خريبر الماء النغم فيلتمذ بسماعه .

إن الآيات والأخبار الواردة في وصف الجنة كثيراً جداً نذكر بعضها هنا ليرغب القارئ فيتصف بما يوصله إليها .

أما الآيات فقوله تعالى : « إلا عباد الله المخلصين * أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * في جنات النعيم * على سرر متقابلين * يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لافيهما غول ولا هم عنها ينزفون * وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهن بيض مكنون » (١) .

وقال تعالى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه

الأنفس وتلذذ الأعين وأنتم فيها خالدون^(١).

أما الوارد من الأخبار فمنها ما عن عبد الله بن علي أنه لقي بلالاً مؤذن رسول الله بمصر فسأله فيما سأله عن وصف بناء الجنة قال : اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطها المسك الأذفر وشرفها الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر . قلت : فما أبوابها ؟ قال : أبوابها مختلفة ، باب الرحمة من ياقوتة حمراء . قلت : فما حلقته ؟ قال : ويحك كف عني فقد كلفتني شططاً . قلت : ما أنا بكاف عنك حتى تؤدي إلي ما سمعت من رسول الله ﷺ .

قال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما باب الصبر فباب صغير له مصراع واحد من ياقوتة حمراء لا خلق له ، وأما باب الشكر فإنه من ياقوتة بيضاء لها مصراعان مسير ما بينهما خمسمائة عام له ضجيج وحنين يقول : اللهم جثني بأهلي قلت : هل يتكلم الباب ؟ قال : نعم ، ينطقه ذو الجلال والاكرام ، وأما باب البلاء قلت : أليس باب البلاء هو باب الصبر ؟ قال : لا . قلت : فما البلاء ؟ قال : المصائب والأسقام والأمراض والجذام وهو باب من ياقوتة صفراء مصراع واحد ما أقل من يدخل منه . قلت : رحمك الله زدني وتفضل علي فإني فقير . قال : يا غلام لقد كلفتني شططاً .

أما الباب الأعظم فيدخل منه العباد الصالحون وهم أهل الزهد والورع والراغبون إلى الله عز وجل المستأنسون به . قلت : رحمك الله فاذا دخلوا الجنة ماذا يصنعون ؟ قال : يسرون على نهرين في مصاف في سفن الياقوت ، مجاذيفها اللؤلؤ ، فيها ملائكة من نور ، عليهم ثياب خضر شديدة خضرتها . قلت : رحمك الله هل يكون من النور أخضر ؟ قال : إن الثياب هي خضر ولكن فيها نور من رب العالمين جل جلاله يسرون على حافتي ذلك النهر . قلت : فما اسم ذلك النهر ؟

قال : جنة المأوى . قلت : هل وسطها غير هذا ؟ قال : نعم جنة عدن وهي في وسط الجنان ، فأما جنة عدن فسورها ياقوت أحمر وحصاؤها اللؤلؤ . قلت : فهل فيها غيرها ؟ قال : نعم جنة الفردوس . قلت : وكيف سورها ؟ قال : سورها نور ، فقلت : والغرف التي فيها ؟ قال : هي من نور رب العالمين . قلت : زدني رحمك الله . قال : ويحك الى هذا انتهى بنا رسول الله ﷺ^(١) .

وفي الحديث القدسي المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : يا أيها الناس كيف رغبتم ورضيتم في الدنيا ، فإنها فانية ونعيمها زائل وحياتها منقطعة ، فإن عندي للمطيعين الجنان بأبوابها الثمانية في كل جنة سبعون ألف روضة من الزعفران وفي كل روضة سبعون ألف مدينة من اللؤلؤ والمرجان ، وفي كل مدينة سبعون ألف قصر من الياقوت ، وفي كل قصر سبعون ألف دار من الزبرجد ، وفي كل دار سبعون ألف بيت من الذهب ، وفي كل بيت سبعون ألف دكان من الفضة ، وفي كل دكان سبعون ألف مائدة ، وعلى كل مائدة سبعون ألف صفحة من الجواهر ، وفي كل صفحة من الجواهر سبعون ألف لون من الطعام ، وعلى حول كل دكان سبعون ألف سرير من الذهب الأحمر ، وعلى كل سرير سبعون ألف فراش من الحرير والديباج والاستبرق ، وحول كل سرير سبعون ألف نهر من ماء الحيوان واللبن والخمر والعسل المصفى ، وفي كل نهر سبعون ألف لون من الثمار ، وكذلك في كل بيت سبعون ألف خيمة من الأرجوان ، وفي كل خيمة سبعون ألف فراش ، وعلى كل فراش سبعون ألف حوراء من الحور العين بين يديها سبعون ألف وصيفة كأنهن بيض مكنون ، وعلى رأس كل قصر من تلك القصور سبعون ألف قبة من الكافور ، وفي كل قبة سبعون ألف هدية من الرحمن التي لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، ولا يموتون ولا يبكون ولا يحزنون ولا

يهرمون ولا يتعبدون ولا يصومون ولا يصلون ولا يمرضون ولا يبولون ولا يتغوطون... لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ، فمن طلب رضائي ودار كرامتي وجواري فليطلبها بالصدقة بالدنيا والقناعة بالقليل، شهدت نفسي لنفسي أن لا إله إلا أنا ، وعيسى وعزير عبدان من عبادي ورسولان من رسل^(١).

ذكرت للمقاريء بعض أوصاف الجنة ليرغب بنفسه لنفسه بالجنة وليشفق بنفسه على نفسه من النار .

واعلم أيها المسلم أن النبي ﷺ أخذ ميثاق المؤمنين يوم بايعوه على أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً عبادة خالصة له ، وأخذ ميثاقهم على أن ينصروه كما ينصرون أنفسهم وأولادهم ، فإذا فعلوا ذلك أخذ لهم ميثاقاً من الله على أن يظهرهم على عدوهم مهما كان عدوهم من القوة والشوكة والعدد .

ولا يخفى على المسلمين أن هذا العهد والميثاق من الله لهم - أي التعهد لهم بأن يظهرهم على عدوهم - هو أعظم من قوله لبني إسرائيل: «إني معكم ، لأن» قوله : «إني معكم ، ليس فيه تعهد على إظهارهم على عدوهم وإنما الحرب يكون على طبيعته وتكون الغلبة لمن يكون أكثر عدة وعدداً ، ولكنه بالنسبة للمسلمين يكون تعهداً لهم بالنصر مهما كان العدو من القوة ومهما كان المسلمون من القلة والضعف ولكن بشرط أن يكونوا مسلمين وافرين لله بالعبودية ورسوله بالسمع والنصرة ، فإذا أنقضوا هذين الشرطين فليس لهم على الله عهد لأنهم خرجوا عن الإسلام .

أما بقية الأعمال التي قال الله لبني إسرائيل إذا فعلوها وأدوها ليكفرن سيئاتهم فهي بالنسبة إلى المسلمين كذلك ، فإن الله قد أمر المسلمين في آيات

(١) هذا هو الحديث المعروف بـ « الحديث القدسي » وقد رواه عدد من محدثينا الكبار

رحمهم الله . وقد نقلناه من كتاب « كلمة الله » للشهيد السيد حسن الشيرازي : ص ٤٧٣ .

عديدة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً ، وقد قال الله سبحانه « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإيتاني فارهبون »^(١).

أيها القاري الكريم إن الله يقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز »^(٢).

إن هذه الآية الشريفة تعلمنا بأن كل فرد مسلم له قوة وسيطرة ونفوذ إذا كان مطيعاً لله ورسوله وكان موفياً للميثاق الذي أخذه النبي ﷺ على المسلمين فعليه - أي على المسلم القوي صاحب النفوذ - أن يمنع المفسدين عن فسادهم وأن يردعهم عن كل أمر نهى الله عنه في كتابه الذي أنزله على رسوله فإن الله أعطاه القوة ليدفع الفساد الذي يريد المفسدون ولم يطعه الله ليمتتع بها في لذاته . فيلزم على ذوي القوة بحسب هذه الآية أن يمنعوا جميع المحرمات الواردة في القرآن كقوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »^(٣) وقوله تعالى : « أحل الله البيع وحرم الربا »^(٤) وأن يردع القوي الظالمين عن ظلمهم وأن يأخذ للمضعيف حقه من القوي فإن المفسدين وأهل اللهو والمنافقين وأهل القلوب المريضة وضعيفي الإيمان إذا تركوا وما هم عليه فسدت الأرض وتغلب علينا أعداؤنا كما نحن فيه الآن ، ولذا لم ينعم الله علينا كما أنعم على المسلمين في القرون السابقة بقوله : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم »^(٥).

ثم إن قوله تعالى : « وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » حيث عرفت معناه فقد

(١) البقرة : ٤٠ .

(٢) الحج : ٤٠ .

(٣) المائدة : ٩٠ .

(٤) البقرة : ٢٧٥ .

(٥) المائدة : ١١ .

وقع مثله في هذه الامة ، فإن الله أمر نبيه محمدًا ﷺ في أول بيعة الأنصار له بأن يجعل من الأنصار اثني عشر نقيباً يأخذون له البيعة من عشائريهم ، وسندكر للمقاريء أسماءهم ، وعيّن النبي ﷺ أيضاً اثني عشر خليفة من بعده يعلمون الناس معالم دينهم ، أما النقباء الذين عيّنهم لأخذ البيعة فقد أنجزوا مهمتهم وأخذوا البيعة من عشائريهم ، وأما الخلفاء الذين عيّنهم لبيان أحكام الدين فلم يرجع إليهم أحد إلا القليل من الناس .

هذا في أول الأمر ، ولكن لما رأى الناس كثرة علومهم ومعاجزهم وكراماتهم علموا أنهم المعنيّون للنبي ﷺ فرجعوا إليهم زرافات وأفراداً حتى تجاوزوا المائة مليون فتعلّموا منهم أنواعاً من العلوم وألقوا فيها الكتب الكثيرة ونفعوا بها غيرهم ممن لا يعرف قدرهم ولا يقدر مقامهم .

أما كيفية اتخاذ النقباء فقد ذكر العلامة المجلسي نقلاً عن المناقب : أنه كان النبي ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب في الموسم فلقي رهطاً من الخزرج فقال : ألا تجلسون فاحدثكم؟ قالوا : بلى . فجلسوا إليه فدعاهم الى الله وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض : يساقون تعلمون والله إنه النبي كان يوعدكم بـ اليهود فلا يسبقنكم إليه أحد ، فأجابوه وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم وعسى أن يجمع الله بينهم بك فسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك ، وكانوا ستة نفر .

قال : فلما قدموا المدينة فأخبروا قومهم بالخبر ، فما دار حول إلا وفيها حديث رسول الله ، حتى إذا كان العام المقبل أتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوا النبي ﷺ فبايعوه على بيعة النساء أن لا يشر كوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا... الى آخره .

ثم انصرفوا وبعث معهم مصعب بن عمير يصلي بهم وكان بينهم بالمدينة يسمى المقريء فام يبق دار في المدينة إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا دار امية

وحطيمة ووائل وهم من الأوس .

ثم عاد مصعب الى مكة وخرج من الأنصار الى الموسم مع حجاج قومه فاجتمعوا في الشعب عند العقبة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان في أيام التشريق في الليل ، وقال : ابايعكم على الاسلام؟ فقال له بعضهم : نريد أن نعرفنا يا رسول الله ما الله علينا وما لك علينا وما لنا على الله؟ فقال : أما ما الله عليكم فأن تعبدوه ولا تشر كوا به شيئاً ، وأما مالي عليكم فتنصروني مثل نسائكم وأبنائكم وأن تصبروا على عض السيف وإن يقتل خياركم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك ما لنا على الله؟ قال : أما في الدنيا فالظهور على من عاداكم وفي الآخرة رضوان الله والجنة . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : والذي بعثك بالحق لنمنعك بما نمنع به أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كباراً عن كبار .

فقال أبو الهيثم : إن بيننا وبين الرجال حبلاً ، وإننا إن قطعناها أو قطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا؟ فابتسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم احارب من حاربتم واسألم من سألتم . ثم قال : أخرجوا الى منكم اثني عشر نقيباً فاختاروا ، ثم قال : ابايعكم كبيعة عيسى ابن مريم للحواريين كفلاء على قومهم بما فيهم ، وعلى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم . فبايعوه على ذلك^(١) .

ونقل البخاري في صحيحه عن أبي إدريس عائذ الله أن عبادة بن الصامت من الذين شهدوا بدرأ مع رسول الله ومن أصحابه ليلة العقبة أخبر أن رسول الله قال وحوله عصابة من أصحابه : تعالوا بايعوني على أن لا تشر كوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتون يهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره الى

الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه . قال : فبايعته على ذلك^(١) .

ونقل العلامة المجاسي عن إمام الوري وتفسير القمي في قوله تعالى : «وإن يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين»^(٢) بأنها نزلت بمكة قبل الهجرة وكان سبب نزولها أنه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة قدمت عليه الأوس والخزرج فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتكونون لي جاراً حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنة؟ فقالوا : نعم خذ لربك ولنفسك ما شئت ، فقال لهم : موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق . فحجوا ورجعوا إلى منى وكان فيهم ممن حج بشرك كثير .

فلما كان اليوم الثاني من أيام التشريق قال لهم رسول الله ﷺ : إذا كان الليل احضروا دار عبدالمطلب على العقبة ولا تنهبوا ثائماً ولينسل واحد فواحد . فجاء سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ﷺ : تمنعوني وتجبروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي وثوابكم على الله الجنة؟ فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبدالله بن حزام : نعم يا رسول الله اشتراط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : أما ما أشتراط لربي فأن تعبدوه ولا تنشركوا به شيئاً ، وأشتراط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون أنفسكم وتمنعون أهلي مما تمنعون أهاليكم وأولادكم ، فقالوا : فمالنا على ذلك؟ فقال : الجنة في الآخرة وتملكون العرب وتدين لكم العجم في الدنيا وتكونون ملوكاً في الجنة ، فقالوا : قد رضينا .

فقال ﷺ : أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونوا شهداء عليكم بذلك كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، فأشار إليهم جبرائيل

(١) صحيح البخاري : ج ٦ ص ١٨٧ .

(٢) الأنفال : ٣٠ .

فقال : هذا نقيب وهذا نقيب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فمن الخزرج أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبدالله بن حزام^(١) أبو جابر بن عبدالله^(٢) ورافع بن مالك وسعد بن عباد والمنذر بن عمر وعبدالله بن رواحة وسعد بن الربيع وعباد بن الصامت ، ومن الأوس أبو الهيثم بن التيهان وهو من اليمن واسيد بن خضير وسعد بن خيثمة .

فلما اجتمعوا وبايعوا لرسول الله ﷺ صاح إبليس : يا معشر قريش والعرب هذا محمد والصبابة من أهل يثرب على جرة العقبة يبايعونه على حربكم ، فأسمع أهل منى وهاجت قريش فأقبلوا بالسلح : وسمع رسول الله ﷺ النداء فقال للأنصار : تفرقوا ، فقالوا : يا رسول الله : إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيا ففعلنا ، فقال رسول الله ﷺ : لم أؤمر بذلك ولم يأذن الله لي في محاربتهم ، قالوا . فتخرج معنا ؟ قال : أنتظر أمر الله .

فجاءت قريش على بكرة أبيها قد أخذوا السلح ، وخرج حمزة وأمير المؤمنين ﷺ ومعهما السيف فوقفا على العقبة ، فلما نظرت قريش إليهما قالوا : ما هذا الذي اجتمعتم له ؟ فقال حمزة : ما اجتمعنا وما هاهنا أحد ، والله لا يجوز هذه العقبة أحد إلا رويت سيفي هذا من دمه .

فرجعوا الى مكة وقالوا : لا تؤمن أن يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشايخ قريش في دين محمد ، فاجتمعوا في دار الندوة وكان لا يدخل دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون سنة .

فدخل أربعون رجلاً من مشايخ قريش . وجاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البواب : من أنت ، قال : أنا شيخ من أهل نجد ، لا يعدمكم مني رأي صائب ، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل فجئت لاشير عليكم ، فقال :

(١) وفي بعض التفاسير «حرام» .

(٢) هكذا في البحار .

ادخل ، فدخل إبليس .

فلما أخذوا مجالسهم قال أبو جهل : يامعشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب أعزّ منّا ، نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرتين ويكرمونا ، ونحن في حرم الله لا يطعم فينا طامع ، فلم تزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله فكنا نسميه الأمين لصلاحه وسكوته وصدق لهجته ، حتى اذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله وأن أخبار السماء تأتيه ، فسفه أحلامنا وسب آلهتنا وأفسد شبائنا وفرق جماعتنا وزعم أنه من مات من أسلافنا ففي النار ، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا ، وقد رأيت فيه رأياً ، قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيت أن ندس إليه رجلاً منا ليقتله ، فإن طلبت بنو هاشم بدمه أعطيناهم عشر ديات ، فقال الخبيث : هذا رأي خبيث ، قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : لأن قاتل محمد مقتول لامحالة ، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم ؟ فإنه اذا قتل محمداً تعصبت بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة ، وأن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الأرض فيقع بينكم الحرب في حرمكم وتتفانونا .

فقال آخر منهم : فعندي رأي آخر ، قال : وما هو ؟ قال : نلقيه في بيت ونلقي إليه قوته حتى يأتيه ريب المنون فيموت كما مات زهير والناطقة وامرؤ القيس ، فقال إبليس : هذا أخبت من الأول ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأن بني هاشم لا ترضى بذلك فاذا جاء موسم من مواسم العرب استعانوا واجتمعوا عليكم وأخرجوه . قال آخر منهم : لا ولكننا نخرجه من بلادنا ونفترغ نحن لعبادة آلهتنا ، قال إبليس : هذا أخبت من الرأيين المتقدمين ، قالوا : وكيف ؟ قال : لأنكم تعمدون الى أصبح الناس وجهاً وأنطق الناس لساناً وأفصحهم لهجة فتحملوه الى بوادي العرب فيخذعهم ويسحرهم بلسانه فلا يفجأكم إلا وقد ملأها عليكم خيلاً ورجلاً .

فبقوا حائرين ثم قالوا لا إبليس : فما الرأي فيه يا شيخ ؟ قال : ما فيه إلا

رأي واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : يجتمع من كل بطن من بطون قريش وقبائل العرب ما أمكن ويكون معهم من بني هاشم رجل فيأخذون سكينه أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتى يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه وقد شاركوهم فيه ، فإن سألوكم أن تعطوهم الدية فاعطوهم ثلاث ديات ، فقالوا : نعم وعشر ديات ، ثم قالوا : الرأي رأي الشيخ المجدي ، فاجتمعوا فيه ودخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي ﷺ ونزل جبرائيل على رسول الله ﷺ وأخبره أن قريشاً قد اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك ، وأنزل عليه في ذلك : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلاً فيقتلوه وخرجوا إلى المسجد يصفرون ويصفقون ولا يطوفون بالبيت فأنزل الله : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديعة »^(١) فالكاء التصفير ، والتصديعة صفق اليدين . وهذه الآية معطوفة على قوله : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » وقد كتبت بعد آيات كثيرة .

فلما أمسى رسول الله ﷺ جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال أبو لهب : إن تدخلوا عليه بالليل فإن في الدار صبياناً ونساءً ولأننا من أن تقع يد خاطئة فنحرسه الليلة ، فإذا أصبحنا دخلنا عليه . فناموا حول حجرة الرسول ، وأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له ، وفرش له ، فقال لعلي بن أبي طالب : أقدني بنفسك . قال : نعم يا رسول الله ، قال : نم على فراشي والتحف ببردي . فنام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببرده ، وجاء جبرائيل فأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون »^(٢) .

وقال له جبرائيل ﷺ : خذ على طريق نور ، وهو جبل على طريق منى

(١) الانفال : ٢٥ .

(٢) يس : ٩ .

له سنام كسنام الثور ، فدخل الغار ، وكان من أمره ما كان ، فلما أصبحت قريش وثبوا الى الحجرة وقصدوا الفراش ، فوثب علي عليه السلام في وجوههم فقال : ماشأانكم؟ قالوا له : أين محمد؟ قال : أجعلتموني عليه رقيباً؟ أستم قلتم فخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم .

فأقبلوا على أبي لهب يضربونه ويقولون أنت تخذعنا منذ الليلة ، فتفرقوا في الجبال وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفو الآثار فقالوا : ياأبا كرز اليوم اليوم ، فوقف بهم على باب حجرة رسول الله فقال : هذه قدم محمد ، والله لأنها لاحت القدم التي في المقام ، وكان أبو بكر استقبل رسول الله فردده معه ، فقال أبو كرز : وهذه قدم أبي قحافة أو ابنه . ثم قال : وهاهنا عير ابن أبي قحافة . فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال : ما جاوزوا هذا المكان ، إما أن يكونوا صعدوا الى السماء أو دخلوا تحت الأرض .

وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار ، وجاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار ثم قال : ما في الغار أحد . فتفرقوا في الشعاب وصر فهم الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أذن لنبيه في الهجرة ^(١) .

أيها المسلم الغيور إني قد ذكرت لك بيعة الرجال للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فإنه اشترط عليهم أولاً أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، ومعنى عبادة الله أن يكون المسلم في كل فعل وقول متابعاً لأمر الله ، فإذا اتبع الشيطان في بعض الأمور فهو غير عابد لله سواء كان هذا الأمر فعلاً أو قولاً أو معاملة أو حكماً على أحد المسلمين ، أما إذا كان هذا المدعى للإسلام مطيعاً للكافر في كل ما يأمر به ولو أمره بقتل المسلمين فهذا لا يسمى مسلماً ، ولا ينبغي له أن يطلب من الله ما جعله الله للمسلمين وتعهدهم به وهو النصر على الأعداء ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله الأنصار فقالوا : إذا أسلمنا مالنا على الله؟ قال لهم : تملكون العرب وتدين لكم العجم في

الدنيا^(١) . هذا إن استقاموا على إسلامهم والله تعالى يخاطبهم بقوله : « ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »^(٢) أرايتم كيف اشترط عليكم الله أن يجعلكم الأعلون إن كنتم مؤمنين .

إن النبي ﷺ لما بايعه الأنصار ونادى إبليس ذلك النداء المشؤوم وجاءت قريش حاملة سلاحها قالت الأنصار: يا رسول الله تأمرنا أن نميل عليهم بأسيا فناء؟ فقال : لا ، لم يأذن الله لي بذلك . قالت الأنصار : يا رسول الله نخرجك معنا حتى لا يصلحك منهم أذى ، قال : أنتظر أمر ربي . فهذا رسول الله ﷺ لا يبارح المكان الذي هو فيه تخلصاً من كيد الأعداء إلا بإذن من الله^(٣) وأنتم أيها المسلمون تخالفون الله في هذه الامور العظام - الخمر والميسر والربا والسفور وغيرها - فكيف ينصركم الله ؟ وإنما تعهد بالنصر للمؤمنين .

أيها المسلمون أما يكفيننا ما تحمّلناه من الذل والهوان من أذل الأمم وأهونها على الله وعلى الناس ؟ أما آ ن لنا أن نرجع الى الله حتى نخضع لنا الصهاينة كما تعهد لنا النبي بذلك .

أيها المسلمون أما يكفيكم أن يلعب وآرائكم شبيه الشيخ النجدي الذي لعب بعقول شيوخ قريش حين اجتمعوا إليه ، أبرموا أمراً يقضون فيه على النبي فكانت عاقبة أمرهم الفشل والذل والهوان .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره بعدما ذكر الآية الشريفة: لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهدهم وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل وذكّرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من

(١) بحار الانوار : ج ١٩ ص ١٢ ب ٥ قطعة من حديث ٥ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ .

(٣) بحار الانوار : ج ١٩ ص ١٣ ب ٥ قطعة من حديث ٥ .

الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ اليهود والموائيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده وموائيقه أعقبهم ذلك لعناهم من لهم وطرداً عن بابه وجنابه وحجاباً لقلوبهم عن الوصول الى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح فقال تعالى : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله وكتابه . وقد ذكر ابن عباس عن ابن اسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب . قال محمد بن اسحاق : فكان من سبط روبيل شامون بن ركون ، ومن سبط شمعون شافاط بن حري ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوسفنا ، ومن سبط اتين ميخائيل بن يوسف ، ومن سبط يوسف - وهو سبط بنيامين - فلطم بن دفون ، ومن سبط زبولون جدي ابن شوري ، ومن سبط منشا بن يوسف جدي بن موسى ، ومن سبط دان خملائيل ابن حمل ، ومن سبط اشار ساطور بن ملكيل ، ومن سبط نفتالي بحر بن وقسي ، ومن سبط يساخر لايل بن مكيد .

وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن اسحاق والله أعلم .

قال فيها: فعلى بني روبيل اليصور بن سادون ، وعلى ابن شمعون رشوال ابن صورشكي ، وعلى ابن يهوذا الحشون بن عمياذاب ، وعلى بني يساخر شال بن صاعون ، وعلى بني زبولون الياب بن حالوب ، وعلى بني افرايم منشا بن عنهور ، وعلى ابن منشا حماياييل بن يرصون ، وعلى بني بنيامين ابیدن بن جدعون ، وعلى بني دان جميدز بن عميشذي ، وعلى بني عشار نحاييل بن عجران ، وعلى بني كان السيف بن ذعواييل ، وعلى بني نفتالي أجزع بن عميان

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً ثلاثة من الأوس وهم : اسيد بن الخضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر (ويقال بدله أبو الهيثم ابن التيهان) رضي الله عنهم ، وتسعة من الخزرج وهم :

أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبدالله بن رواحة ورافع بن مالك ابن العجلان والبراء بن معرور وعبيدة بن الصامت وسعد بن عباد وعبدالله بن عمرو بن حرام [حزام] والمنذر بن عمر بن حنفيش رضي الله عنهم .

وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له كما أورده ابن اسحاق رحمه الله ، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتمذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك وهم الذي ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة^(١) . وأما بيان الخلفاء الاثني عشر - الذين نوه عنهم النبي ﷺ بأنهم يقومون في مقامه في الرئاسة الدينية وتعليم الناس معالم دينهم بحيث يكون الرجوع إليهم في جميع الامور الدنيوية والاخرية وتكون العلوم التي كانت عند الأنبياء مجموعة لديهم كلها - فقد ذكرت فيها الروايات الكثيرة عن النبي ﷺ وقد ذكرنا قسماً منها في الجزء الأول من هذا الكتاب^(٢) ونذكر في هذا الجزء قسماً آخر من الأخبار تبصرة لمن يريد التبصر .

في ينابيع المودة عن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال : جاء يهودي من يهود المدينة الى علي كرم الله وجهه قال : إني أسألك عن ثلاث وثلاث وعن واحدة فقال علي : لم لا تقول أسألك عن سبع ؟ قال : أسألك عن ثلاث فإن أصبت فيهن سألتك عن الثلاث الاخر ، فإن أصبت فيهن سألتك عن الواحدة ، فقال علي : ماتدري اذا سألتني فأجبتك أخطأت أم أصبت ؟ فأخرج اليهودي من كعته كتاباً عتيقاً قال : هذا ورثته عن آبائي وأجدادي عن هارون جدي إملاء موسى بن عمران وخط هارون بن عمران عليه السلام وفيه هذه المسألة التي أسألك عنها ، قال علي : إن أجبتك بالصواب فيهن لتسلم ؟ فقال : والله أسلم الساعة على يدك إن أجبتني بالصواب فيهن ، قال له : سل .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٢) راجع ص ٢٠١ من الجزء الاول .

قال : أخبرني عن أول حجر وضع على وجه الأرض ، وعن أول شجرة نبتت على وجه الأرض ، وعن أول عين نبتت على وجه الأرض .

قال : أما أول حجر وضع على وجه الأرض فإن اليهود يزعمون أنها صخرة بيت المقدس ، وكذبوا ولكن هو الحجر الأسود ، نزل به آدم عليه السلام من الجنة فوضعه في ركن البيت والناس يتمسحون به ويقبلونه ويجددون العهد والميثاق به لأنه كان ملكاً ابتلع كتاب العهد والميثاق ، وكان مع آدم في الجنة ، فلما خرج آدم خرج هو فصار حجراً .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي : وأما أول شجرة نبتت على الأرض فإن اليهود يزعمون أنها الزيتون ، وكذبوا ولكنها نخلة من العجوة نزل بها آدم عليه السلام من الجنة ، فأصل كل النخل العجوة .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي كرم الله وجهه : وأما أول عين نبتت على وجه الأرض فإن اليهود يزعمون أنها العين التي كانت تحت صخرة بيت المقدس ، وكذبوا ولكنها عين الحياة التي نسي عندها صاحب موسى السمكة المألحة ، فلما أصابها ماء العين حييت وعاشت وشربت منه فأتبعها موسى وصاحبه الخضر عليه السلام .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي : سل عن الثلاث الآخر .

قال : أخبرني كم لهذه الأمة بعد نبيها من إمام ؟ وأخبرني عن منزل محمد صلى الله عليه وآله أين هو في الجنة ؟ وأخبرني من يسكن معه في منزله ؟

قال علي : لهذه الأمة بعد نبيها اثنا عشر إماماً لا يضرهم خلاف من خالفهم .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي : ينزل محمد صلى الله عليه وآله في جنة عدن وهي وسط الجنان وأعلاها وأقر بها

من عرش الرحمن جلّ جلاله .

قال اليهودي : صدقت .

قال علي : والذي يسكن معه في الجنة هؤلاء الأئمة الاثنا عشر أولهم أنا وآخرهم

القائم المهدي .

قال : صدقت .

قال علي : سل عن الواحدة .

قال : أخبرني كم تعيش بعد نبيك وهل تموت أو تقتل ؟

قال : أعيش بعده ثلاثين سنة وتخضب هذه - أشار إلى لحيته - من هذا - أشار

إلى رأسه الشريف - .

فقال اليهودي : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وأشهد

أنك وصي رسول الله ﷺ^(١) .

وفي ينابيع المودة أيضاً في تحقيق حديث «بعدي اثنا عشر خليفة» قال :

وفي جمع الفوائد جابر بن سمرة رفعه : لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون

عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة ، فسمعت كلاماً من النبي ﷺ لم

أفهمه فقات لأبي : ما يقول ؟ قال : كلهم من قريش . للشيخين والترمذي وأبي داود

بلفظه .

ذكر يحيى بن الحسن في كتاب العمدة من عشرين طريقاً في أن الخلفاء

بعد النبي ﷺ اثنا عشر خليفة كلهم من قريش ، في البخاري من ثلاثة طرق ،

وفي مسلم من تسعة طرق ، وفي أبي داود من ثلاثة طرق ، وفي الترمذي من طريق

واحد ، وفي الحميدي من ثلاثة طرق .

وفي البخاري عن جابر رفعه : يكون بعدي اثنا عشر أميراً ، فقال كلمة لم

لم أسمعها فسألت أبي ماذا قال ؟ قال : كلهم من قريش .

(١) ينابيع المودة : ج ٣ ص ١٠٢ - ١٠٣ نقله عن المناقب .

وفي مسلم عن عامر بن سعيد قال: كتبت الى ابن سمرة: أخبرني بشيء سمعته من النبي ﷺ، فكتب إلي: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الجمعة عشية رجم الأسلمي يقول: لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش.

وفي المودة العاشرة من كتاب مودة القربى للسيد علي الهمداني قدس الله سره وأفاض علينا بركانه وفتوحه عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال: كنت مع أبي عند النبي ﷺ فسمعت يقول: بعدي اثنا عشر خليفة. ثم أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته؟ قال: قال: كلهم من بني هاشم. وعن سماك بن حرب مثل ذلك.

وعن الشعبي عن مسروق قال: بينما نحن عند ابن مسعود نعرض عليه مصاحفنا عليه إذ قال: هل عهد اليكم نبيكم كم يكون من بعده خليفة؟ قال: إنك لأحدث السن، وإن هذا شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، نعم عهد إلينا نبينا ﷺ أنه يكون بعده اثنا عشر خليفة بعدد نقيب بني إسرائيل.

وعن علي كرم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تذهب الدنيا حتى يقوم بأمتي رجل من ولد الحسين يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً.

وعن عباية بن ربعي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: أنا سيد النبيين وعلي سيد الوصيين، وأن أوصيائي بعدي اثنا عشر أولهم علي وآخرهم القائم المهدي. وعن سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ فإذا الحسين علي فخذه وهو يقبل خديه ويلثم فاه ويقول: أنت سيد ابن سيد أخو سيد، وأنت إمام ابن إمام أخو إمام، وأنت حجة ابن حجة أخو حجة أبو حجة تسعة، تاسعهم قائمهم المهدي. أيضاً أخرجه الحموي في موفق بن أحمد الخوارزمي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا

وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون . أيضاً أخرجه الحموي بني .

وعن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : من أحب أن يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً وليعاد عدوه وليأتم بالأئمة الهداة من ولده فإنهم خلفائي وأوصيائي وحجج الله على خلقه من بعدي وسادات امتي وقواد الأتقياء الى الجنة حزبهم حزبي وحزبي حزب الله وحزب أعدائهم حزب الشيطان .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله فتح هذا الدين بعلي وإذا قتل فسد الدين ولا يصاحبه إلا المهدي .

وعن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : الأئمة من ولدي ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ومن عصاهم فقد عصا الله ، هم العروة الوثقى والوسيلة الى الله جل وعلا . انتهى كتاب مودة القربى .

قال بعض المحققين : إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده ﷺ اثنا عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة ، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان علم أن مراد رسول الله ﷺ من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر ، ولا يمكن أن تحمله على الملوك الاموية لزيادتهم على اثني عشر وظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبدالعزيز ، ولكونهم غير بني هاشم لأن النبي ﷺ قال : « كلهم من بني هاشم » في رواية عبد الملك عن جابر وإخفاء صوته في هذا القول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم ، ولا يمكن أن تحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور وقلّة رعايتهم « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » (١) وحديث الكساء ، فلا بد من أن يحمل هذا الحديث

على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته عليهم السلام لأنهم كانوا أعلم أهل زمانه وأجلهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله ، وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدهم عليهم السلام وبالوراثه والمدنية ، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق .

ويؤيد هذا المعنى - أي أن مراد النبي الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته - ويشهده ويرجحه حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها . أما قوله عليهم السلام : «كلهم يجتمع عليه الأمة» في رواية عن جابر بن سمرة فمراده عليهم السلام أن الأمة تجتمع على الإقرار بإمامة كلهم وقت ظهور قائمهم المهدي رضي الله عنهم ^(١) انتهى ما أوردناه من ينابيع المودة .

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره الخلفاء الاثني عشر بعد ذكر النقباء الاثني عشر الذين عينهم النبي عليه السلام بإشارة من جبرئيل كما تقدم ، وإليك كلام ابن كثير بنصه :

قال الامام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال : كنا جلوساً عند عبدالله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن هل سألت رسول الله كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبدالله : ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، نعم ولقد سألتنا رسول الله عليه السلام فقال : اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل .

هذا حديث طريف من هذا الوجه ، وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت النبي عليه السلام يقول : لا يزال أمر الناس ما ضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً . ثم تكلم النبي عليه السلام بكلمة خفيت علي فسألت أبي : ماذا قال النبي عليه السلام ؟ قال : كلهم من قریش . وهذا لفظ مسلم : ومعنى الحديث

البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم^(١) انتهى كلام ابن كثير. وهذه الأخبار وأقوال المؤرخين والمفسرين كلها تنطبق على ما تقول به الفرقة الامامية الاثنا عشرية ، وإلا فليس في الفرق التي حدثت بعد النبي ﷺ فرقة تقول بوجود اثني عشر خليفة غيرها ، وهؤلاء الخلفاء أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم تسعة من ذرية الحسين ﷺ آخرهم الحجة المهدي عجل الله فرجه ، وسأذكر لك كلام ابن حجر في كتابه الصواعق المحرقة بالنسبة الى هؤلاء الأئمة الاثني عشر والثناء عليهم، وذكر فضائلهم التي ليست لأحد غيرهم . ولكن من الأفضل ذكر كلام ابن كثير قبل ذلك حتى تنظر فيه هل أنه يقبله الذوق السليم ؟ ولكن ابن كثير يريد أن يفسر الأحاديث على ما يشتهي ويوافق رأيه

الأئمة الاثنا عشر في رأى ابن كثير :

قال في تفسيره - بعدما ذكر حديث النبي ﷺ الذي يقول بوجود اثني عشر خليفة كلهم من قریش - : ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلا شك عند الأئمة وبعض بني العباس (ما أدري متى وجد هذا البعض ؟) .

ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لامحالة . والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره، فذكر أنه يواطىء اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه اسم أبيه فيملاً الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً .

ثم يقول ابن كثير : وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهمه الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء ، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية بل هو

من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشر من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم .

وفي التوراة البشارة بإسماعيل عليه السلام وأن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود وجابر بن سمرة، وبعض الجهولة ممن أسلم من اليهود اذا اقترن بهم بعض الشيعة يسوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله ^(١) انتهى .

أرجو من أهل المعرفة والانصاف أن يتأملوا في الحديث النبوي هل أنه ينطبق على غير فرقة الشيعة الامامية؟ فكيف يتمكن ابن كثير أو غيره أن يصرفه عنهم؟!

ما قاله ابن حجر في الأئمة الاثني عشر :

إن هؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين ذكرت للقارىء أسماءهم قبل ذلك قد ذكرهم ابن حجر في كتاب الصواعق ومدحهم ، وإني أذكر لك عبارته بالحرف الواحد ، فإنه - بعدما ذكر الآيات والأحاديث الواردة في عموم أهل البيت عليهم السلام - ذكرهم واحداً بعد واحد بأسمائهم ، فذكر أولاً فاطمة الزهراء وأمير المؤمنين والحسن والحسين ، ثم قال :

وزين العابدين : هذا الذي خلف أباه علماً وزهداً وعبادة ، وكان اذا توجأ للصلاة اصفر^٢ لونه ، ف قيل له في ذلك فقال : ألا تدرون بين يدي من أقف . وحكى أنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة .

وحكى ابن حمدون عن الزهري أن عبد الملك حمله مقيداً من المدينة بأثقله من حديد ووكّل به حفظة ، فدخل عليه الزهري لوداعه فبكى وقال : وددت أني مكانك ، فقال : أنظن أن ذلك يكربني لو شئت لما كان وإنه ليذكرني عذاب الله ،

ثم أخرج رجله من القيد ويديه من الغل" ثم قال : لاجزت معهم على هذا يومين من المدينة ، فما مضى يومان إلا وفقدوه حين طلع الفجر وهم يرصدونه فطلبوه فلم يجدوه .

قال الزهري : فقدمت على عبد الملك فسألني عنه فأخبرته فقال : قد جاء في فقه الأعوان فدخل علي" فقال: ما أنا وأنت ؟ فقلت : أقم عندي ، فقال: لا أحب" ثم خرج ، فوالله لقد أمتلأ قلبي منه خيفة ...

ثم كتب عبد الملك للمحجاج أن يجتنب دماء بني عبد المطلب وأمره بكتم ذلك فكوشف به زين العابدين فكتب إليه : إنك كتبت للمحجاج يوم كذا سرأني حقنا بني عبد المطلب بكذا وكذا وقد شكر الله لك ذلك وأرسل به إليه . فلما وقف عليه وجد تاريخه موافقاً لتاريخ كتابه للمحجاج ووجد مخرج الغلام موافقاً لمخرج رسوله للمحجاج ، فعلم أن زين العابدين كوشف بأمره فسر" به ، وأرسل إليه مع غلامه بوقر راحلته دراهم وكسوة وسأله أن لا يخليه مع صالح دعائه .

وأخرج أبو نعيم والسلفي : لما حج هشام بن عبد الملك في حياة أبيه أو الوليد لم يمكنه أن يصل للحجر من الازدحام فنصب له منبر إلى جانب زمزم وجلس ينظر إلى الناس وحوله جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين ، فلما انتهى إلى الحجر تمنحى له الناس حتى استلم ، فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟ قال : لا أعرفه ، مخافة أن يرغب أهل الشام في زين العابدين ، فقال الفرزدق : أنا أعرفه ، ثم أنشد :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقي الطاهر العلم
إذا رأته قریش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمى إلى ذروة العز التي قصرت	عن نيلها عرب الاسلام والعجم

القصيدة المشهورة ، ومنها :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
فليس قولك من هذا بضائره
بجدة أنبياء الله قد ختموا
والعرب تعرف من أنكرت والمعجم
ثم قال :

من معشر حبّهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
فلما سمع هشام غضب وحبس الفرزدق بعسفان وأمر له زين العابدين باثني
عشر ألف درهم وقال: اعذر لو كان عندنا أكثر لو صلناك به، فقال: إنما امتدحتك
لله لا للمعطاء، فقال زين العابدين رضي الله عنه: إننا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لاستعبدناه،
فقبلها الفرزدق، ثم هجا هشاماً في الحبس فبعث فأخرجه.

وكان زين العابدين عظيم التجاوز والعفو والصفح حتى أنه سبّه رجل فتغافل
عنه، فقال: إياك أعني، فقال: وعنك أعرض، أشار إلى آية دخذ العفو وأمر بالمعروف
وأعرض عن الجاهلين^(١) وكان يقول: ما يسرني بنصيب من الذلّ حمر النعم.

توفي وعمره سبع وخمسون سنة منها سنتان مع جده علي، ثم عشرة مع
عمه الحسن، ثم إحدى عشرة مع أبيه الحسين، وقيل سمّته الوليد بن عبد الملك،
ودفن بالبقيع عند عمه الحسن عن أحد عشر ذكر وأربع اناث.

وإرثه منهم (أي الذي ورثه من أولاده) عبادة وعلماً وزهادة: أبو جعفر
محمد الباقر، سمي بذلك من بقر الأرض أي شقها وآثار مخبأاتها ومكامنها، فلذلك
هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف وحقائق الأحكام والحكم واللطائف ما لا يخفى
إلا على منظمس البصيرة أو فاسد الطوية والسريرة.

ومن ثم قيل فيه: هو بسافر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه، صفا قلبه
وزكا علمه وعمله، وطهرت نفسه وشرف خلقه، وعمرت أوقانه بطاعة الله، وله من
من الرسوم في مقامات العارفين ما تكلّ عنه السنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في

السلوك والمعارف لا تحتملها هذه العجالة .

وكفاه شرفاً أن ابن المديني روى عن جابر أنه قال له وهو صغير: رسول الله يسلم عليك ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت جالساً عنده والحسين في حجره وهو يداعبه فقال: يا جابر يولد له مولود اسمه علي ، اذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقيم سيد العابدین ، فيقوم والده ، ثم يولد له ولد اسمه محمد ، فإن أدركتد يا جابر فأقرئه عني السلام .

توفي سنة مائة وسبعة عشر عن ثمان وخمسين سنة مسموماً كأبيه ، وهو علوي من جهة أبيه وأمه ، ودفن أيضاً في قبة الحسن والعباس بالبقيع ، وخلف ستة أولاد أفضالهم وأكملهم :

جعفر الصادق ، ومن ثم كان خليفته ووصيه ، ونقل للناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الأكابر كيعحي بن سعيد وابن جريح ومالك والسفياين وأبى حنيفة وشعبة وأيوب السخيتاني وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر كما مر .

وسعى به عند المنصور لما حج ، فلما حضر الساعي به يشهد قال له: أتخلف؟ قال : نعم ، فحلف بالله العظيم الى آخره ، فقال : احلفه يا أمير المؤمنين بما أراه ، فقال له : حلفه . فقال له : قل برئت من حول الله وقوته والتجأت الى حولي وقوتي لقد فعل جعفر كذا وكذا وقال كذا وكذا ، فامتنع الرجل ثم حلف فما تم حتى مات مكانه . فقال أمير المؤمنين لجعفر : لا بأس عليك أنت المبرء الساحة المأمون الغائلة ، ثم انصرف ، فلاحقه الربيع بجائزة حسنة وكسوة سنينة ، وللحكاية تمة .

ودفع نظير هذه الحكاية ليعحي بن عبدالله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بأن شخصاً زبيرياً سعى به للرشيد فطلب تحليفه فتلعثم فزبره الرشيد ، فتوكل ليعحي تحليفه بذلك ، فما أتم يمينه حتى اضطرب وسقط لجنبه

فأخذوا ببرجله فهلك . فسأل الرشيد يحيى عن سر ذلك فقال : تمجيد الله في اليمين يمنع المعاجلة في العقوبة .

وذكر المسمودي أن هذه القصة كانت مع أخي يحيى هذا الملقب بموسى الجون، وأن الزيري سعى به الرشيد فطال الكلام بينهما ثم طلب موسى تحليفه فحلفه بنحو مامر ، فلما حلف قال موسى : الله أكبر ، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده علي أن النبي ﷺ قال : ما حلف أحد بهذه اليمين (وهي تقلدت الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولي وقوتي ما فعلت كذا) وهو كاذب إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث . والله ما كذبت ولا كذبت فوكل علي . يا أمير المؤمنين ، فإن مضت ثلاث ولم يحدث بالزيري حادث فدمي لك حلال . فوكل به فلم يمض عصر ذلك اليوم حتى أصاب الزيري جذام فتورم حتى صار كالزق ، فما مضى إلا قليل وقد توفي ، ولما انزل في قبره انخسف قبره وخرجت رائحة مفرطة النتن ، فطرحته فيه أحمال الشوك فانخسف ثانياً . فأخبر الرشيد بذلك فزاد تعجبه ، ثم أمرطوسى بألف دينار وسأله عن سر تلك اليمين فروي له حديثاً عن جده علي عن النبي ﷺ : ما من أحد يحلف بيمين مجتد الله فيها إلا استحيها من عقوبته ، وما من أحد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيها حوله وقوته إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث . وقتل بعض الطغاة مولا (أي مولى الامام الصادق) فلم يزل ليله يصلي ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الأصوات بموته .

ولما بلغه قول الحكم بن عباس الكلبي في عمه زيد :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب
قال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فافترسه الأسد .

ومن مكاشفاته : أن ابن عمه عبدالله المحض كان شيخ بني هاشم ، وهو والد محمد الملقب بالنفس الزكية ، ففي آخر دولة بني امية وضعفهم أراد بنو هاشم مبايعة محمد وأخيه وأرسل لجعفر ليبايعهما فامتنع فاتهم أنه يحسدهما فقال : والله ليست

لي ولأيهما : إنها لصاحب القباء الأصفر ، ليلعبن^(١) بهما صبيانهم وغلماهم . وكان المنصور العباسي يومئذ حاضراً وعليه قباء أصفر ، فما زالت كلمة جعفر تعمل فيه حتى ملكوا . وسبق جعفر إلى ذلك والده الباقر ، فإنه أخبر المنصور بملك الأرض شرقها وغربها وطول مدته فقال : وملكنا قبل ملككم ؟ قال : نعم ، قال : ويملك أحد من ولدي ؟ قال : نعم قال : فمدة بني أمية أطول أم مدتنا ؟ قال : مدتكم ، وليلعبن^(٢) بهذا الملك صبيانكم كما يلعب بالاكورة^(٣) هذا ماعهد إلي أبي . فلما أفضت الخلافة للمنصور بملك الأرض تعجب من قول الباقر .

وأخرج أبو القاسم الطبري من طريق ابن وهب قال : سمعت الليث بن سعد يقول : حججت سنة ثلاثة عشر ومائة فلما صليت العصر في المسجد رقيت أباقيس فإذا رجل جالس يدعو فقال : يارب يارب حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا حي يا حي حتى انقطع نفسه ، ثم قال : إلهي إني اشتهي العنب فأطعمنيه ، اللهم وإن برداي قد خلقا فاكسني .

قال الليث : فوالله ما استقم كلامه حتى نظرت إلى سلّة مملوءة عنباً وليس الأرض يومئذ عنب وإذا بردان موضوعان لم أرمنلهما في الدنيا . فأراد أن يأكل فقلت : أنا شريكك ، فقال : ولم ؟ فقلت : لأنك دعوت و كنت اؤمن ، فقال : تقدم واكل ، فتقدمت وأكملت عنباً لم آكل مثله قط ما كان له عجم^(٤) فأكلنا حتى شبعنا ولم تتغير السلّة فقال : لاتدخر ولا تخبىء منه شيئاً ، ثم أخذ أحد البردين ودفع إلي الآخر فقلت : أنا بغنى عنه فائتزر بأحدهما وارندي بالآخر .

ثم أخذ برديه الخلفين فنزل وهما بيده فلقيه رجل بالمسمى فقال : اكسني يا ابن رسول الله مما كساك الله فإنني عريان ، فدفعهما إليهِ ، فقلت : من هذا ؟ قال : جعفر الصادق ، فطلبته بعد ذلك لأسمع منه شيئاً فلم أقدر عليه ، انتهى .

(١) الاكورة : الحفرة .

(٢) العجم : النوى .

توفي سنة أربع وثمانين ومائة مسموماً أيضاً على ما حكى. عمره ثمان وستون سنة، ودفن بالقبة عند أهله عن ستة ذكور وبنت، منهم :

موسى الكاظم، وهو وارثه علماً ومعرفةً وكمالاً وفضلاً، سمي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم .

وسأله الرشيد : كيف قلمتم إنا ذرية رسول الله ﷺ وأنتم أبناء علي؟ فملا : « ومن ذريته داود وسليمان - الى أن قال : - وعيسى »^(١) وليس له أب . وأيضاً قال تعالى « فمن حاجتك فيه من بعد ما جاوزك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ... الآية »^(٢) ولم يدع النبي ﷺ عند مبايعته النصارى غير علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم ، فكان الحسن والحسين هما الأبناء .

ومن بديع كراماته : ما حكاه ابن الجوزي والرامهرمزي وغيرهما عن شقيق البالخي أنه خرج حاجاً سنة تسع وأربعين ومائة ، فرآه بالقادسية منفرداً عن الناس فقال في نفسه : هذا فتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على الناس لأمضين إليه ولا وبخنه . فمضى إليه فقال : يا شقيق « اجتنبوا كثيراً من الظن » إن بعض الظن « إثم ... الآية »^(٣) فأراد أن يحيا لله فغاب عن عينيه ، فما رآه إلا بواقصة يصلي وأعضاؤه تضطرب ودموعه تتحادر ، فجاء إليه ليعتذر فخفف في صلاته فقال « وإني لغفار لمن تاب وآمن ... الآية »^(٤).

فلما نزلوا زمالة رآه على بشر فسقطت ركونه فيها فدعا فطغى الماء له حتى أخذها فتوضأ وصلى أربع ركعات ، ثم مال الى كتيب رمل فطرح منه فيها

(١) الانعام : ٨٤ و ٨٥ .

(٢) آل عمران : ٦١ .

(٣) الحجرات : ١٢ .

(٤) طه : ٨٢ .

وشرب فقال له: أطعمني من فضل ما رزقك الله تعالى، فقال: يا شقيق لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنك بربك فتناولنيها، فشربت منها فاذا سويق وسكر ما شربت والله الذي منه ولا أطيب ريحاً، فشبع ورويت وأقمت أياماً لا أشتهي شرباً ولا طعاماً. ثم لم أره إلا بمكة وهو بغلمان وغاشية وامر على خلاف ما كان عليه في الطريق.

ولما حجَّ الرشيد سعى به إليه وقيل له: إن الأموال تحمل إليه من كل جانب حتى اشترى ضيعة بثلاثين ألف دينار فقبض عليه وأنفذه لأميته بالبصرة عيسى ابن جعفر ابن المنصور، فحبسه سنة ثم كتب له الرشيد في دمه فاستغفى، وأخبر أنه لم يدع على الرشيد، وأنه إن لم يرسل بتسليمه وإلا خلى سبيله. فبلغ الرشيد كتابه فكتب للسندي بن شاهك بتسليمه، وأمره فيه بأمر فجعل له سمّاً في طعامه وقيل في رطب، فتوَعك ومات بعد ثلاثة أيام وعمره خمس وستون سنة.

وذكر المسمودي أن الرشيد رأى علياً في النوم معه حربة وهو يقول إن لم تخل عن الكاظم وإلا نحرتك بهذه، فاستيقظ فزعاً وأرسل في الحال والي شرطته إليه بإطلاقه وثلاثين ألف درهم، وأنه يخيّره بين المقام فيكرمه أو الذهاب إلى المدينة ولما ذهب إليه قال له: رأيت منك عجيباً، وأخبره أنه رأى النبي ﷺ وعلمه كلمات قالها فما فرغ منها إلا واطلق.

قيل: وكان موسى الهادي حبسه أولاً، ثم أطلقه لأنه رأى علياً رضي الله عنه يقول: «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم»^(١) فانتبه وعرف أنه المراد فأطلقه ليلاً. فقال له الرشيد حين رآه جالساً عند الكعبة: أنت الذي تبايعك الناس سرّاً؟ فقال: أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم.

ولما اجتمعوا أمام الوجه الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قال الرشيد: السلام عليك يا ابن عم، سمعها من حوله فقال الكاظم: السلام عليك يا أباي.

ماقاله ابن حجر في الأئمة الاثني عشر ————— ٤٥١
فلم يتحملها ، وكانت سبباً لامساكه له وحمله معه الى بغداد وحبيه ، فلم يخرج
من حبسه إلا ميتاً .

وظاهر هذه الحكايات التنافي إلا أن يحمل على تعدد الحبس ، وكانت أولاده
حين وفاته سبعة وثلاثين ذكراً وانثى منهم :

علي الرضا ، وهو أبهم ذكراً وأجلهم قدراً ، ومن ثم أحله المأمون محل
مهجته وأنكحه ابنته وأشر كه في مملكته وفوض إليه أمر خلافته ، فإنه
كتب بيده كتاباً سنة إحدى ومائتين بأن علي الرضا ولي عهده وأشهد عليه جمعا
كثيرين ، لكنه توفي قبله فأسف عليه كثيراً ، وأخبر قبل موته بأنه يأكل عنباً
ورماناً مبنوثاً ويموت وأن المأمون يريد دفنه خلف الرشيد فلم يستطع ، فكان
ذلك كله كما أخبر به .

ومن مواليه : معروف الكرخي استاذ السري السقطي لأنه أسلم على يديه
وقال لرجل : يا عبدالله ارض بما يريد واستعد لما لا بد منه ، فمات الرجل بعد ثلاثة
أيام . رواه الحاكم .

وروى الحاكم عن محمد بن عيسى عن أبي حبيب قال : رأيت النبي ﷺ في
المنام في المنزل الذي ينزل الحجاج ببلدنا ، فسلمت عليه فوجدت عنده طبقاً من
خوص المدينة فيه تمر صبحاني فناولني منه ثماني عشرة ، فأولت أن أعيش عدتها .
فلما كان بعد عشرين يوماً قدم أبو الحسن علي الرضا من المدينة ونزل
ذلك المسجد وهرع الناس بالسلام عليه ، فمضيت نحوه فاذا هو جالس في الموضع
الذي رأيت النبي ﷺ جالساً فيه وبين يديه طبق من خوص المدينة فيه تمر
صبحاني ، فسلمت عليه فاستداني وناولني قبضة من ذلك التمر فاذا عدتها بعدد
ما ناولني النبي ﷺ في النوم ، فقال : زدني ، فقال : لو زادك رسول الله ﷺ
لزدناك .

ولما دخل نيسابور - كما في تاريخها - وشق سوقها وعليه مظلة لا يرى من ورائها

تعرض له الحافظان أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى ، فتضرعا إليه أن يريهم وجهه ويروي لهم حديثاً عن آبائهم ، فاستوقف البغلة وأمر غلاماته بكف المظلة وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعتهم المباركة ، فكانت له ذؤابتان مديتان على عاتقه والناس بين صارخ وباك ومتعرج في التراب ومقبل لحافر بغلته ، فصاحت العلماء : معاشر الناس انصتوا ، فأنصتوا واستملى منه الحافظان المذكوران فقال :

حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله ﷺ قال : حدثني جبرئيل قال : سمعت رب العزة يقول : لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي .

ثم أرخى الستر وسار ، فعد أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً .

وفي رواية أن الحديث المروي : الايمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان . ولعلمهما واقعتان . قال أحمد : لو قرأت هذا الاسناد على مجنون لبريء من جنته .

ونقل بعض الحفاظ أن امرأة زعمت أنها شريفة بحضرة المتوكل ، فسأل عن يخبره بذلك فدل على علي الرضا فجاء فأجلسه معه على السرير وسأله فقال : إن الله حرم لحم أولاد الحسنين على السباع فلتلق للسباع ، فعرض عليها بذلك فاعترفت بكذبها ، ثم قيل للمتوكل : ألا تجرب ذلك فيه ، فأمر بثلاثة من السباع فجي بها في صحن قصره ، ثم دعاه ، فلما دخل بابه أغلق عليه والسباع قد أصمت الأسماع من زئيرها ، فلما مشى في الصحن يريد الدرج مشى إليه وقد سكنت وتمسكت به ودارت حوله وهو يمسحها بكفه ثم ربضت ، فصعد وتحدث معه ساعة .

ثم نزل ففعلت معه كفعالها الأول حتى خرج فأتبعه المتوكل بجائزة عظيمة فقيل للمتوكل : افعل كما فعل ابن عمك ، فلم يجسر عليه وقال : أتريدون قتلي ثم أمرهم أن لا يفشوا ذلك .

ونقل المسعودي أن صاحب هذه القصة هو لحفيد علي الرضا وهو علي العسكري ، وصوب لأن الرضا توفي في خلافة المأمون اتفاقاً ولم يدرك المتوكل ، توفي رضي الله عنه وعمره خمس وخمسون سنة عن خمسة ذكور وبنت أجلهم : محمد الجواد ، لكنه لم تطل حياته . ومما اتفق أنه بعد موت أبيه بسنة واقف والصبيان يلعبون في أزقة بغداد إذ مر المأمون ففروا ووقف محمد وعمره تسع سنين فألقى الله محبته في قلبه فقال له : يا غلام ما منعك من الانصراف ؟ فقال له سرعاً : يا أمير المؤمنين لم يكن بالطريق ضيق فأوسعك لك ، وليس لي جرم فأخشاك ، والظن بك حسن إنك لا تضر من لا ذنب له . فأعجبه كلامه وحسن صورته فقال له : ما اسمك واسم أبيك ؟ قال : محمد بن علي الرضا ، فترحم علي أبيه وساق جواده وكان معه بزة للصيد .

فلما بعد عن العمار أرسل بازاً علي دراجة فغاب عنه ثم عاد من الجوف في منقاره سمكة صغيرة وبها بقاء الحياة فتعجب من ذلك غاية العجب ورأى الصبيان على حالهم ومحمد عندهم فدنا منه وقال له : ما في يدي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى خلق في بحر قدرته سمكاً صغيراً يصيدها بزة الملوك والخلفاء فيختبر بها سلامة أهل بيت المصطفى . فقال له : أنت ابن الرضا حقاً .

وأخذه معه وأحسن إليه وبالغ في إكرامه ، فلم ينزل مشفقاً به لما ظهر له بعد ذلك من فضله وعلمه وكمال عظيمته وظهور برهانه مع صغر سنه . وعزم علي تزويجه بابنته أم الفضل وصمم علي ذلك ، فمنعه العباسيون من ذلك خوفاً من أنه يعهد إليه كما عهد إلى أبيه .

فلما ذكر لهم أنه إنما اختاره لتمييزه علي كافة أهل الفضل علماً ومعرفة

وحلماً مع صفر سنّته فنأزعوأ في اتصاف تحمّ بذلك، ثم نواعدوا على أن يرسلوا من يختبره ، فأرسلوا إليه يحيى بن أكتهم ووعدوه بشيء كثير إن قطع لهم تحمّداً ، فحضروا الى الخليفة ومعهم ابن اكنهم وخواصّ الدولة ، فأمر المأمون بفرش حسن لمحمد فجلس عليه ، فسأله يحيى مسائل أجابه عنها بأحسن جواب وأوضحه فقال له الخليفة : أحسنت أبا جعفر فإني أردت أن تسأل يحيى ولو مسألة واحدة. فقال له: ماذا تقول في رجل نظر الى امرأة أول النهار حراماً، ثم حلّت له عند ارتفاعه ، ثم حرمت عليه عند الظهر، ثم حلّت له عند العصر، ثم حرمت عليه المغرب ، ثم حلّت له العشاء ، ثم حرمت عليه نصف الليل ، ثم حلّت له الفجر ؟ فقال يحيى : لأدري .

فقال تحمّداً: هي أمة نظرها أجنبي بشهوة وهي حرام، ثم اشترأها عند ارتفاع النهار، فأعتقها الظهر، وتزوجها العصر، وظاهر منها المغرب، وكفّر العشاء، وطلقها رجعيّاً نصف الليل، وراجعها الفجر .

فعند ذلك قال المأمون للعباسيين : قد عرفتم ما كنتم تنكرون . ثم زوجته في ذلك المجلس ابنته أمّ الفضل ، ثم توجه بها الى المدينة ، فأرسلت تشتكي منه لأبيها أنه تسرى عليها ، فأرسل إليها أبوها: إنا لم نزوّجك له لنحرم عليه حلالاً فلا تعودى لمثله .

ثم قدم بها بطلب من المعتصم لليلتين بقيتا من المحرم سنة عشرين ومائتين وتوفي فيها آخر ذي القعدة ، ودفن في مقابر قريش في ظهر جده الكاظم وعمره خمس وعشرون سنة . ويقال : إنه سمّ أيضاً عن ذكرين وبنيتين ، أجلهم :

علي العسكري، سمى بذلك لأنه لما وجهه لاشخاصه من المدينة النبوية الى سرّ من رأى وأسكنه بها وكانت تسمى العسكر فعرف بالعسكري .

وكان وارث أبيه علماً وسخاءً ومن ثم جاءه أعرابي من أعراب الكوفة وقال: إني من المتمسكين بولاء جدك وقد ركبني دين أثقلني حمله ولم أقصد لقضائه

سواك ، فقال : كم دينك؟ فقال : عشرة آلاف درهم ، فقال : طب نفساً بقضائه إن شاء الله تعالى . ثم كتب له ورقة فيها ذلك المبلغ ديناً عليه وقال له : ائتمني به في المجلس العام وطالبني بها ، وأغلظ في الطلب ففعل فاستمهله ثلاثة أيام ، فبلغ ذلك المتوكل فأمر له بثلاثين ألفاً ، فلما وصلتته أعطاهم الأعرابي فقال : يا ابن رسول الله إن العشرة آلاف أقضي بها أربي^(١) فأبى أن يسترد منه من الثلاثين شيئاً ، فوكل الأعرابي وهو يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

ومر "أن" الصواب في قضية السباع الواقعة من المتوكل كل أنه هو الممتحن بها وأنه لم تقر به بل خضعت واطمأنت لما رآته .

وبوافقه صاحب المسعودي وغيره أن يحيى بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط لما هرب الى الديلم ثم أتى به الرشيد وأمر بقتله القى في بركة فيها سباع قد جوعت ، فأمسكت عن أكله ولازت بجانبه وهابت الدنو منه ، فبنى عليه ركن بالجص والحجر وهو حي .

توفي رضي الله عنه بسر من رأى في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين ، ودفن بداره وعمره أربعون ، وكان المتوكل كل شخصه من المدينة إليها سنة ثلاث وأربعين ، فأقام بها الى أن قضى عن أربعة ذكور واثني ، أجلهم :

أبو محمد الحسن الخالص ، وجعل ابن خلكان هذا هو العسكري ، ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . ووقع لبهلول معه أنه رآه وهو صبي يبكي والصبيان يلعبون فظن أنه ينحسر على ما في أيديهم فقال : أشتري لك ما تلعب به ، فقال : يا قليل العقل ما لك لعب خلقنا ، فقال له : فلماذا خلقنا ؟ قال : المعلم والعبادة ، فقال له : من أين لك ذلك ؟ قال : من قول الله عز وجل : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون " (٢) .

(١) أربي : حاجني .

(٢) المؤمنون : ١١٥ .

ثم سأله أن يعظه فوعظه بأبيات ، ثم خرّ الحسن مغشياً عليه ، فلما أفاق قال له : ما نزل وأنت صغير لا ذنب لك ! فقال : اليك أعني يا بهلول ، إني رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار فلا تنقد إلا بالصغار ، وإني أخشى أن أكون من صغار حطب نار جهنم .

ولما حبس قحط الناس بسرّ من رأى قحطاً شديداً ، فأمر الخليفة الممتوكل المعتمدين بالخروج للاستسقاء ثلاثة أيام فلم يسقوا ، فخرج النصارى ومعهم راهب كلما مدّ يده إلى السماء هطل ، ثم في اليوم الثاني كذلك ، فشكّ بعض الجهالة وارتدّ بعضهم ، فشقّ ذلك على الخليفة فأمر بإحضار الحسن الخالص وقال : أدرك أمة جدك رسول الله قبل أن يهلكوا ، فقال الحسن : يخرجون غداً وأنا أزيل الشك إن شاء الله ، وكلم الخليفة في إطلاق أصحابه من السجن فأطلقهم .

فلما خرج الناس للاستسقاء ورفع الراهب يده مع النصارى غيمت السماء ، فأمر الحسن بالقبض على يده فاذا فيها عظم آدمي فأخذه من يده وقال : استسق ، فرفع يده فزال الغيم وطلعت الشمس ، فعجب الناس من ذلك ، فقال الخليفة للحسن : ما هذا يا أبا محمد ؟ فقال : هذا عظم نبي طفر به هذا الراهب من بعض القبور ، وما كشف عن عظم نبي تحت السماء إلا هطلت المطر . فامتحنوا ذلك العظم فكان كما قال وزالت الشبهة عن الناس ورجع الحسن إلى داره وقام عزيزاً مكرماً وصلات الخليفة تصل إليه كل وقت إلى أن مات بسرّ من رأى ، ودفن عند أبيه وعمه وعمره ثمانين وعشرون سنة . ويقال إنه سمّ أيضاً . ولم يخلف إلا ولده :

أبا القاسم محمد الحجة وعمره عند وفاة أبيه خمس سنين ، لكن آتاه الله فيها الحكمة ، ويسمى القائم المنتظر ، قيل : لأنه ستر بالمدينة وغاب فلم يعرف أين ذهب ، ومرّ في الآية الثانية عشرة قول الرافضة فيه إنه المهدي وأوردت ذلك مبسوطاً فراجعه فإنه مهم ^(١) انتهى ما قاله المحدث أحمد بن حنبل في صواعقه

بالنسبة الى هؤلاء الأئمة الاثني عشر الذين تعتقد الشيعة إمامتهم وأنهم من الراسخين في العلم الذين مدحهم الله في كتابه بقوله : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » ^(١) وقد أعطاهم حقهم ولم يبخس منهم شيئاً، غير أنه لم يقل بإمامتهم التي يعترف بها الشيعة، وحيث أحال قضية الامام المنتظر الى الآية الثانية عشرة من الآيات الواردة فيهم عليهم السلام والتي ذكرها في الفصل الأول من الباب الحادي عشر - فينبغي الاطلاع عليها ليتضح مقصوده ، وإليك ما قاله بنصه :

(الآية الثانية عشرة) قوله تعالى : « وإِنَّهٗ لَعَلِمٌ لِّلسَّاعَةِ » ^(٢) قال مقاتل بن سليمان ومن تبعه من المفسرين : إن هذه الآية نزلت في المهدي، وستأتي الأحاديث المصروفة بأنه من أهل البيت النبوي . وحينئذ في الآية دلالة على البركة في نسل فاطمة وعلي رضي الله عنهما، وأن الله ليخرج منهما طيباً وأن يجعل نسلهما مفاتيح الحكمة ومعادن الرحمة ، وسر ذلك أنه صلى الله عليه وآله أعادها وذريتهما من الشيطان الرجيم، ودعا لعلي بمثل ذلك، وشرح ذلك كله يعلم بسياق الأحاديث الدالة عليه . وأخرج النسائي بسند صحيح : أن نفراً من الأنصار قالوا لعلي رضي الله عنه : لو كانت عندك فاطمة ، فدخل على النبي صلى الله عليه وآله يعني ليخطبها فسلم عليه فقال له : ما حاجة ابن أبي طالب؟ قال : فذكرت فاطمة، فقال صلى الله عليه وآله : مرحباً وأهلاً . فخرج الى الرهط من الأنصار ينتظرونه فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : ما أدري غير أنه قال لي مرحباً وأهلاً، قالوا : بكفيك من رسول الله أحدهما قد أعطاك الأهل وأعطاك الرحب .

فلما كان بعد ما زوجته قال له يا علي : إنه لابد للعرس من وليمة . قال سعد رضي الله عنه : عندي كبش ، وجمع له رهط من الأنصار صاعاً من ذرة ، فلما

(١) آل عمران : ٦ .

(٢) الزخرف : ٦١ .

كان ليلة البناء قال : يا علي لاتحدث شيئاً حتى تلقاني ، فدعا ﷺ بماء فتوضأ به ثم أفرغه على علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما فقال : اللهم بارك لهما في نسلهما ، وفي رواية (في شملهما) وهو بالتحريك : الجماع ، وفي أخرى (شبلهما) قيل : وهو مصحف ، فإن صحت فالشبل ولد الأسد ، فيكون ذلك كشفاً وإطلاعاً منه ﷺ على أنها تلد الحسنين فأطلق عليهما شبلين وهما كذلك .

وأخرج أبو علي الحسن بن شاذان أن جبرئيل جاء الى النبي ﷺ فقال : إن الله يأمرك أن تزوج فاطمة من علي ، فدعا ﷺ جماعة من أصحابه فقال : الحمد لله المحمود بنعمته - الخطبة المشهورة - ثم زوج علياً وكان غائباً . وفي آخرها : فجمع الله شملهما وطيب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة .

فلما حضر علي تسمي ﷺ وقال له : إن الله أمرني أن أزوجه فاطمة على أربعمائة مثقال فضة أرضيت بذلك ؟ فقال : قد رضيته يا رسول الله . ثم خر علي ساجداً لله شكراً . فلما رفع رأسه قال له ﷺ : بارك الله لكما وبارك فيكما وأعز جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب . قال أنس رضي الله عنه : والله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب . وأخرج أكثره أبو الخير القزويني الحا كمي . والعقد له مع غيبته سائغ لأن من خصائصه ﷺ أن ينكح من شاء لمن شاء بلا إذن لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، على أنه يحتمل أنه بحضور وكيله ويحتمل أنه إعلام له بما سيفعله . وقوله «رضيتهما» يحتمل أنه إخبار عن رضاه بوقوع العقد السابق من وكيله ، فهي واقعة حال محتملة .

وأخرج أبو داود السجستاني أن أبا بكر خطبها فأعرض عنه ﷺ ، ثم عمر فأعرض عنه ، فأتيا علياً فنبهاهما الى خطبتها ، فجاء فخطبها فقال رسول الله ﷺ : ما معك ؟ فقال : فرسي وبدني ^(١) ، قال : أما فرسك فلا بد لك منه ، وأما بدنك

فبعها وآتني بها، فباعها بأربع مائة وثمانين ثم وضعها في حجره ، فقبض منها قبضة وأمر بلالاً أن يشتري بها طيباً .

ثم أمرهم أن يجهزوها ، فعمل لها سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ، وملاً البيت كتيباً يعني رملاً، وأمر أم أيمن أن تنطلق إلى ابنته، وقال لعلي: لا تعجل حتى آتيك ، ثم أتاهم عليه السلام فقال لام أيمن : ها هذا أخي ، قالت: أخوك وتزوج ابنتك ؟ قال : نعم .

فدخل علي فاطمة ودعا بماء فأنته بقدر فيه ماء فمج فيه ، ثم نضح علي رأسها وبين تديبها وقال : اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ثم قال لعلي : آتني بماء، فعلمت ما يريد فملأت القعب فأنته به فنضح منه علي رأسها وبين كتفي وقال: اللهم إني أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم. ثم قال: ادخل بأهلك علي اسم الله تعالى وبر كته . وأخرج أحمد وأبو حاتم نحوه .

وقد ظهرت بركة دعائه عليه السلام في نسلهما فكان من مضى ومن يأتي، ولو لم يكن في الآتين إلا الامام المهدي لكفى ، وسيأتي في الفصل الثاني جملة مستكثرة من الأحاديث المبشرة به .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي وآخرون: المهدي من عمرتي من ولد فاطمة .

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه: لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله فيه رجلاً من عمرتي - وفي رواية: رجلاً من أهل بيتي - يملأها عدلاً كما ملئت جوراً .

وفي رواية لمن عدا الأخير : لا تذهب الدنيا ولا تنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي .

وفي أخرى لأبي داود والترمذي: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك حتى يبعث الله فيه رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه

اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً .

وأحمد وغيره : المهدي منّا أهل البيت يصلحه الله في ليلة .

والطبراني : المهدي منّا يختم الدين بنا كما فتح بنا .

والحاكم في صحيحه : يحلّ بأمّتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم

لم يسمع بلاء أشدّ منه حتّى لا يجد الرجل ملجأ ، فيبعث الله رجلاً من عترتي

أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، يحبه ساكن الأرض

وساكن السماء . وترسل السماء قطرها وتخرج الأرض نباتها ، لا تمسك فيها شيئاً

يعيش فيهم سبع سنين أو ثمانياً أو تسعاً ، يتمنى الأحياء الأموات مما صنع الله

بأهل الأرض من خير .

وروى الطبراني والبزاز نحوه وفيه : يملك فيكم سبعاً أو ثمانياً فإن

أكثر فتسعاً .

وفي رواية لأبي داود والحاكم : يملك فيكم سبع سنين .

وفي أخرى للترمذي : إن في أمّتي المهدي يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو

تسعاً فيجيء إليه الرجل فيقول : يا مهدي أعطني أعطني ، فيحني له في ثوبه ما

استطاع أن يحمله .

وفي رواية : فيلبث في ذلك ستاً أو سبعاً أو ثمانياً أو تسع سنين .

وسياتي أن الذي اتفقت عليه الأحاديث سبع سنين من غير شك^(١) .

إلى هنا نقتصر على ما ذكر في كتاب الصواعق ، وقد ذكر بعد هذا أحاديث

كثيرة كلها ثبت أن المهدي المنتظر هو من ذرية النبي ﷺ من نسل علي وفاطمة

عليهما السلام وهو آخر الأئمة الاثني عشر عليهم السلام الذين يقولون بإمامتهم الشيعة . فلامجال

للانكار على الشيعة حيث طبقوا قول النبي ﷺ : يكون بعدي اثنا عشر

خليفة كلهم من قریش ، أو : من بني هاشم ، على هؤلاء الأئمة المنزهين عن كل

عيب المتتصفين بكل صفة جميلة وهم قد أحاطوا بعلوم الأنبياء من آدم حتى خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وقد تواترت بذلك الأخبار عن النبي ﷺ، وأن المسلم يلزمه معرفة هؤلاء الأئمة والاعتراف بإمامتهم وأخذ أحكام دينه منهم، ولا يكفيهم أن يأخذ أحكام دينه من نفسه ولا ممن يساويه وإنما يلزم أن يأخذ أحكامه ممن يتصل بالنبي واحداً عن واحد، وهؤلاء الذين يرجع إليهم يلزم أن يكونوا معصومين من الخطأ والزلل وسائر المعاصي حتى تحصل الثقة بهم من سائر طبقات الناس.

نبذة من خطبة الغدير :

ذكر العلامة المحدث الفقيه النيسابوري في كتابه روضة الواعظين خطبة النبي ﷺ والتي خطبها في يوم غدير خم، فمن جملتها قال :

معاشر الناس إن الله قد أمرني ونهاني، وقد أمرت علياً ونهيته، وعليه الأمر والنهي من ربه عز وجل، فاسمعوا لأمره وانتهوا لنهيته وصيروا إلى مراده ولا تفرق بكم السبل عن سبيله، أنا صراط الله المستقيم الذي أمركم باتباعه، ثم علي من بعدي، ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم قرأ ﷺ الحمد لله ... إلى آخرها وقال : في نزلت وفيهم نزلات، ولهم عمت وإيمانهم خصت وعمت، أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ألا إن حزب الله هم الغالبون، ألا إن أعداءهم أهل الشقاق العادون وإخوان الشياطين الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

ألا إن أولياءهم الذين ذكرهم الله في كتابه المؤمنون فقال : لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ... إلى آخر الآية،^(١) ألا إن أولياءهم الذين وصفهم الله جل وعز ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم

الآمن وهم مهتدون ، ألا إن أولياءهم الذين آمنوا ولم يرتابوا إن أولياءهم الذين يدخلون الجنة آمنين وتلاقهم الملائكة بالتسليم إن طبتهم فادخلوها خالدين ، ألا إن أولياءهم الذين قال الله عز وجل : « يدخلون الجنة [برزقون فيها] بغير غير حساب »^(١) ، ألا إن أعداءهم يصلون سعيراً ، ألا إن أعداءهم الذين يسمعون لجهنم شهيقاً وهي تفور ولها زفير « كلما دخلت أمة لعنت اختها... الآية »^(٢) ، ألا إن أعداءهم الذين قال الله عز وجل : « كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير »^(٣) ، ألا إن أولياءهم « الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير »^(٤) .

معاشر الناس عدونا من ذمه الله ولعنه ، وولينا من مدحه الله وأحبه .

معاشر الناس ألا وإني منذر وعلي هاد .

معاشر الناس إني نبي وعلي وصي ، ألا إن خاتم الأئمة منّا القائم المهدي ألا إنه الظاهر على الدين ، ألا إنه المنتقم من الظالمين ، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها ، ألا إنه فاتح كل قبيلة من الشرك ، ألا إنه مدرك بكل نار لأولياء الله عز وجل ، ألا إنه الناصر لدين الله ، ألا إنه الغراف من بحر عميق ، ألا إنه يسم كل ذي فضل بفضله وكل ذي جهل بجهله ، ألا إنه خيرة الله ومختاره ، ألا إنه وارث كل علم والمحيط بكل فهم ، ألا إنه المخبر عن ربه تعالى والمشبّه لأمر إيمانه ، ألا إنه الرشيد ، ألا إنه المفوض إليه ، ألا إنه الباقي حجة ولا حجة بعده ولا حق معه إلا معه ، ولا نور إلا عنده ، ألا إنه لا غالب له ولا منصور عليه ، ألا إنه ولي الله في أرضه وحكمه في خلقه وأمينه في سره وعلايته^(٥) .

هذا ما أمكن ذكره بالنسبة الى تعيين النقباء الاثني عشر ، وتعيين الخلفاء

(١) غافر : ٤٠ .

(٢) الاعراف : ٣٨ .

(٣) الملك : ٨ .

(٤) الملك : ١٢ .

(٥) روضة الواعظين : ص ٩٦ - ٩٧ منشورات الرضى - قم .

الاثنى عشر الذين جعلهم النبي ﷺ خلفاء من بعده بأمر من الله وأودع عندهم علوم الأنبياء من أولهم الى آخرهم . وقد تبين مما ذكرنا أن من كان طالباً للدين الصحيح الذي يريد الله من عباده يلزمه أن يأخذه من هؤلاء الخلفاء لأنهم أخذوا أحكام الدين من النبي ﷺ . وقد أوضح الله ذلك للعباد وأخذ منهم الميثاق ووعد من أطاع هؤلاء الخلفاء وامتنثل أمره بتكفير السيئات ودخول الجنة .

ثم ذكر في آخر الآية أن من خالف هذا النظام الالهي المنزل من الله فهو كافر يستحق عقاب الكافرين فقال تعالى : «فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل» .

ما قاله ابن كثير :

قال في تفسيره عند وصوله الى هذه الجملة من الآية : أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكله وشده وجحدته وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى الى الضلال^(١) .

قوله تعالى : فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين (١٣) .

ما قاله الشيخ الطوسي :

قال في تبيانه : المعنى بالآية تسليمة النبي ﷺ فقال الله له : لا تعجب من هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم اليك والى أصحابك ونكثوا العهد

الذي بينك وبينهم وغدروا بك ، فإن ذلك من عادتهم وعادات أسلافهم ، لأنني أخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى على طاعتي ، وبعثت منهم اثني عشر نقيباً ، فنقضوا ميثاقني ونكثوا عهدي ، فلعننتهم بنقضهم ميثاقهم .

وفي الكلام محذوف اكتفى بدلالة الظاهر عليه . والمعنى : فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل ، فنقضوه فلعننتهم ، فيما نقضهم ذلك لعناهم . فاكتمى بقوله : « فيما نقضهم » من ذكر : فنقضوا .

(وما) زائدة والتقدير : فبنقضهم (وما) مؤكدة . وهو قول قتادة وجميع المفسرين ومثله قول الشاعر :

لشيء ما يسود من يسود

والهاء والميم كنايةتان عن بني إسرائيل ، واللحن هو الطرد للسخط على العبد وهو الابتعاد من رحمة الله على جهة العقوبة . وقال الحسن : هو المسخ الذي كان فيهم حين صاروا قردة وخنازير .

ومعنى « جعلنا » هاهنا قال البلخي : سميناها بذلك عقوبة على كفرهم ، ونقض ميثاقهم . قال : ويجوز أن يكون المراد أن الله بكفرهم لم يفعل بهم اللطف الذي تشرح به صدورهم كما يفعل بالمؤمن ، وذلك مثل قولهم : أفدت سيفك ، إذا تركت تعاهده حتى صدى . ويقولون : جعلت أظافيرك سلاحك ، إذا لم تقصها . ويشهد الأول قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن »^(١) وأراد بذلك أنهم سمووا لله شركاء . وقال أبو علي : هو البيان عن حالهم ، وجفا قلوبهم عن الإيمان بالله ورسوله ، كما يقال : جعلته فاسقاً مهتوكاً ، إذا أبان عن حالة الناس .

ومعنى « قاسية » أي يابسة ، يقال للرحيم : ليسن القلب ، ولغير الرحيم : قاسي القلب . والقاسي والقاسح - بالحاء - الشديد الصلابة . ويقال : قسا يقسو قسوة ، ومنه « فهي كالبحجارة أو أشد قسوة »^(٢) وقسية أشد مبالغة . وقاسية أعرف

(١) الانعام : ١٠٠ .

(٢) البقرة : ٧٤ .

وأكثر في الاستعمال . وقال أبو عبيدة : قاسية معناه فاسدة من قولهم : درهم قسي أي زائف ، قال أبو زيد :

لها صواهل في صمّ السلام كما صاح القسيات في أيدي الصياريف

يصف وقع المساحي في الحجارة .

وقال أبو عباس : الدرهم انما سمي قسيّاً اذا كان فاسداً لشدة صوته بالقس الذي فيه ، فهو راجع الى الأول .

وقال الراجز : وقد قسوت وقسا لداني .

وقوله : « يحرفون الكلم » فالتحريف يكون بأمرين : بسوء التأويل ،

وبالتغيير والتبديل ، كما قال تعالى : « ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله »^(١) بعد قوله : « وإنّ منهم لفريقاً يلادون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » والكلم جمع كلمة .

وقوله : « ونسوا حظاً مما ذكروا به » معناه تركوا نصيباً مما ذكروا به

يعني مما انزل على موسى . وهو قول الحسين والسدي وابن عباس .

وقوله : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » معناه على خيانة منهم . وفاعله

في أسماء المصادر كثير ، نحو عافاه الله عافية و «المؤتفكات بالخاطئة»^(٢) و «داهلكوا

بالطاغية»^(٣) ويقال : قـائـاة بمعنى القيلولة . كل ذلك بمعنى المصدر ، وراغية

الابل ، وراغية الشاة . ويقال : رجل خائنة . قال الشاعر :

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن للفسدر خائنة مغلّ الاصبع

فخائنة على وجه المبالغة ، كما قالوا : رجل نسابة ، لانه يخاطب رجلاً .

ومعناه لا نخن ، فتغال اصبعك في المتاع أي تدخلها الخيانة ، ومغل بدل من خائنة

(١) آل عمران : ٧٨ .

(٢) الحاقة : ٩ .

(٣) الحاقة : ٥ .

ويجوز أن يكون « على خائنة » معناه على فرقة خائنة .

وقوله : « الا قليلا منهم » نصب على الاستثناء من الهاء والميم في قوله : « على خائنة منهم » .

وقوله : « فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » قال قتادة : هو منسوخ بقوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر »^(١) . وقال أبو علي : بقوله : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء »^(٢) وقال البلخي : يجوز أن يكون أمر بالعفو والصفح بشرط التوبة أو بذل الجزية ، لأنهم إذا بذلوا الجزية لا يؤاخذون بشيء من كفرهم . وهو قول الحسن وجعفر بن مبشر . واختار الطبري هذا . فعلى هذا لا يكون منسوخاً .

وقوله : « يحرّفون الكلم » لا يدلّ على أنه جعل قلوبهم قاسية ، ليحرّفوا بل يحتمل أمرين :

أحدهما . أن يكون كلاماً مستأنفاً ويكون التمام عند قوله : « قاسية » ثم أخبر عنهم بأنهم يحرّفون الكلام عن مواضعه .

الثاني : أن يكون ذلك حالاً ، لقوله : « فيما نقضهم ميثاقهم يحرّفون » أي يحرّفون الكلم ناسين لحظوظهم « لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية »^(٣) .

ماقاله ابن كثير :

قال في تفسيره : ثم أخبر تعالى عما حلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال : « فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم » أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم أي أبعدناهم عن الحق وطردهناهم عن الهدى « وجعلنا قلوبهم قاسية » أي : فلا يتمعظون بموعظة لغلظها وقساوتها « يحرّفون الكلم عن مواضعه »

(١) التوبة : ٢٩ .

(٢) الانفال : ٥٨ .

(٣) التبيان : ج ٢ ص ٤٦٨ - ٤٧١ .

أي فسد فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك ، و نسوا حظاً مما ذكروا به ، أي وتركوا العمل به رغبة عنه .

وقال الحسن : تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل

إلا بها .

وقال غيره : تركوا العمل فصاردوا الى حالة رديئة فلاقلوب سليمة ولا فطر

مستقيمة ولا أعمال قويمه ولا تزال تطالع على خائنة منهم ، يعني مكروهم وغدرهم لك ولأصحابك .

وقال مجاهد وغيره : يعني بذلك تماثلهم على الفتك برسول الله ﷺ^(١) .

ماقاله المراغي :

قال في تفسيره : ثم بين أنهم لم يوفوا بهذا العهد فجازاهم على سوء صنيعهم

فقال : « فيما نقضهم ميثاقهم لعنتاهم وجعلنا قلوبهم قاسية » أي : فبسبب نقضهم

للميثاق الذي أخذ عليهم - ومن ذلك الايمان بمن يرسلون من الرسل ونصرهم

وتبجيلهم وتعظيمهم - استحقوا مقتنا وغضبنا والبعد عن الطافنا، فإن نقض الميثاق

أفسد فطرتهم وودنس نفوسهم وقست قلوبهم، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق وافتروا على

مريم وأهانوا ولدها الذي ارسل إليهم لاصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم ،

وحاولوا قتله وافتخروا بذلك ، فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله ، إذ جرت سنته

أن الأعمال السيئة تؤثر في النفوس آثاراً سيئة فتجعل القلوب قاسية ولا تؤثر فيها

الحجة والموعظة، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد عن فضله ورحمته، ومما مثل

هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ولا يراعي القوانين الصحية، فهو لاشك سيصاب

بالأمراض والأسقام ولا يلو من حينئذ إلا نفسه إذ كان هو السبب في ذلك بإهماله.

« يحرفون الكلم عن مواضعه ، تحريف الكلم عن مواضعه إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان ، وإما بتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ، وكل منهما قد وقع في التوراة وغيرها من كتبهم ، فإن التوراة التي كتبها موسى وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها . كما نص على ذلك في الفصل الحادي والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع - قد فقدت باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى عند سبي البابليين لليهود ، ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ، ولم يكونوا يستظهرونها كما كان المسلمون يستظهرون القرآن في عهد النبي ﷺ .

وهناك أسفار خمسة ينسبونها الى موسى ، فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولا شك أن هذا ليس منها قطعاً ، وفيها خبر موته ، وأنه لم يبق بعده أحد مثله الى ذلك الوقت - أي الوقت الذي كتب فيه سفر تثنية الاشتراع - وفي هذا أكبر دليل على أن الكاتب كان بعد موسى برده طويلاً من الزمن ، كما أن فيها كثيراً من الكلمات البابلية الدالة على أنها كتبت بعد السبي . لكل هذا حقق كثير من مؤرخي الفرنجة أن هذه التوراة التي بين أيديهم كتبت بعد موسى ببضعة قرون ، كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبني إسرائيل بالعودة الى بلادهم .

« ونسوا حظاً مما ذكروا به » ، روي عن ابن عباس أنه قال : نسوا الكتاب . وعن مجاهد أنه قال : نسوا كتاب الله إذ أنزل عليهم ، ومرادهما أنهم نسوا طائفة من أصل الكتاب . وقال بعضهم : نسوا الكتاب بترك العمل به . وفي الحق : أنهم أضاعوا كتبهم وفقدوه عندما أحرق البابليون هيكلهم وخرّبوا عاصمتهم وسبوا من بقي منهم حياً ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة ودعوه وعملوا به .

وهذا من أعظم الأدلة على أن القرآن معجزة محمد ﷺ أثبتتها التاريخ بعد

بعثة النبي بعدة قرون من موت موسى .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم » الخائنة بمعنى الخيانة كالفائلة بمعنى القيلولة والخاطئة بمعنى الخطيئة . أي : إنك أيها النبي لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة اثر خيانة فلا تظنن^١ إنك آمنت كيدهم بتأمينك إيتاهم على أنفسهم ، فهم قوم لا وفاء لهم ولا أمان ، فمن نقض عهد الله وميثاقه فكيف يرجى منه وفاء ؟ وكيف يطمع منه في أمانة^(١) ؟

ماقاله الطبرسي :

قال في تفسير قوله : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » : يعني على خيانة أي معصية . عن ابن عباس .

وقيل : كذب وزور ونقض عهد ومظاهرة للمشركين على رسول الله ﷺ وغير ذلك مما كان يظهر من اليهود من أنواع الخيانات .
وقيل : إن معناه تطلع على فرقة خائنة - أي جماعة خائنة - منهم إذا قالوا قولاً خالفوه وإذا عاهدوا عهداً نقضوه^(٢) .

أيها المسلمون ، إذا تأملتم في الآيات المتقدمة عرفتكم ماحل^٢ باليهود من الامور القاصمة للظهور المسببة للدمار في الدنيا والآخرة ، وكل ذلك إنما كان بسبب نقض الميثاق .

وأما النصارى فإنهم نقضوا الميثاق فعاقبهم الله بما ذكره في قوله :

ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما
ذكرنا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف

(١) تفسير المراغي : ج ٦ ص ٧٤ - ٧٦ .

(٢) تفسير مجمع البيان : ج ٣ ص ١٧٣ .

ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١٤) .

فإن الطائفتين اليهود والنصارى لما نقضوا الميثاق سبب لهم هذا النقص امور سيئة ، ابتلوا بها في الدنيا وتكون عاقبتهم في الآخرة أسوأ وأمر وأدهى ، فإنها النار التي لا طاقة للبشر على تحملها . وإليك الامور التي أصابتهم فاسمعها واعتبر بها .

الأول : لعن الله لهم في قوله : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم » ، واللعن هو الطرد والابعاد عن رحمة الله .

الثاني : جعل قلوبهم قاسية كما ذكره في قوله « وجعلنا قلوبهم قاسية » . وقسوة القلب مأخوذة من قسوة الحجارة ، والقلب القاسي هو الذي لا يخشع لحق ولا يتأثر برحمة ، وبسبب هذه القسوة يقدم الانسان على قتل المرء بلا ذنب ، حتى أنه يقتل النبي والوصي والمؤمن الذي لا يؤذي أحداً أبداً ، وهذه الأفعال إنما تكون من شدة القسوة بحيث يكون القلب أشد وأقسى من الحجارة .

قصة البقرة وذبحها :

لقد انصفت قلوب اليهود بهذه القسوة الشديدة كما أخبر الله عنهم في قصة البقرة لما أمرهم موسى عن الله عز وجل بقوله : « وإن قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة »^(١) .

وحيث إنهم لم يكن لهم إيمان صادق حقيقي وإنما كانوا يظهر دن الإيمان الصوري قالوا لموسى في جواب هذا الأمر : « أتتخذنا هزواً »^(٢) فلو أنهم كانوا يؤمنون بنبوته موسى لما جعلوه من المستهزئين والصدقوا بإخباره عن الله ، فقال لهم موسى : « أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين »^(٣) .

فلم يصدقوا كلامه بل طلبوا أن يميّن الله لهم صفاتها المشخصة لها والمميزة عن غيرها كما حكاها الله عنهم بقوله : « قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون »^(١) فقد أكد عليهم الأمر وأن يمثلوا أمر الله ولا يخالفوه وهم مع ذلك في شك ورب في نبوته وإلا لصدقوا قوله .

ولكنهم طلبوا منه الايضاح أكثر مما يبيّنهم « قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما لو أنها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين »^(٢) فلم يصدقوا بهذا التعريف وهذا الوصف لأن قلوبهم منكرة لنبوة موسى ويريدون أن يشدوا عليه .

فأكثرنا في السؤال وكرروا الطلب في تشخيص البقرة المأمورين بذبحها وقالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون^(٣) . وقد ورد في الأخبار أنهم لما شدوا على أنفسهم بهذا التحقيق والتدقيق شدد الله عليهم فميّن لهم بقرة مخصوصة بعد أن أمرهم ببقرة مطلقة وألهم صاحبها أن يطلبوا منهم ثمناً غالياً كثيراً فأجابهم نبيهم عن الله « قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها »^(٤) .

وبعد هذه الأسئلة وهذا التحقيق وبعد هذا الامتناع عن القبول وبعد ما جاءهم النبي موسى بهذه الأجوبة من الله تعالى أجابوه بما حكى الله عنهم : « قالوا الآن جئت بالحق »^(٥) .

وقولهم هذا يكشف لنا أنهم ما كانوا يعتقدون أنه يقول الحق وإنما اعتقدوا

(١) البقرة : ٦٨ .

(٢) البقرة : ٦٩ .

(٣) البقرة : ٧٠ .

(٤) و (٥) البقرة : ٧١ .

ذلك بعد أن جاءهم بهذا التفصيل الدقيق الذي بين لهم كل ما طلبوه من مقدار السن واللون والعمل ومع ذلك كانوا أقرب الى عدم الامتثال كما أخبر الله عنهم بقوله : « فذبحوها وما كادوا يفعلون »^(١) بحيث كانوا في شك وتردد من الفعل خوفاً من الفضيحة وظهور الأمر ، وذلك لأن الأمر بذبح البقرة كان سببه أن رجلاً كان ثرياً وكان وارثه ينتظر موته ليورث ماله ، فلما تأخر الموت قتله وارثه وحمله وطرحه في طريق الأسباط ليتهمهم بقتله ، وجاء الى موسى وطلبوا منه أن يخبرهم بالقاتل ، فلما أمرهم موسى بذبح البقرة وسألوه تلك الأسئلة فأجابهم بتعليم من الله فلذا كان يصعب عليهم ظهور الحقيقة ، فأنزل الله تعالى : « وإزقلتهم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويرىكم آياته لعلمكم تغفلون »^(٢).

ومن هنا نرجع الى موضوعنا الأصلي وهو قسوة قلوب اليهود ، فإن الله بعدما بين لهم هذه الآيات العظيمة - وأخرها أمرهم بأن يضربوا بجزء من البقرة المذبوحة إنساناً ميتاً فيقوم حياً سوياً ويخبرهم بمن قتله - بعد هذا كله يخبرنا الله عز وجل عن قلوب اليهود فيقول : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون »^(٣).

أسمعت أيها المسلم ؟ أعرفت هذه الشدة من القسوة ؟ إن هذه القسوة إنما نشأت من نقض الميثاق ، فأياك والقرب منه .

(١) البقرة : ٧١ .

(٢) البقرة : ٧٢ و ٧٣ .

(٣) البقرة : ٧٤ .

الأمر الثالث: مما تسبب لهم من نقض الميثاق هو تحريف الكتاب المنزل على نبيهم كما قال تعالى: « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه » .

والتحريف هو إما بنقصان منه أو زيادة فيه أو بتغيير الكلمة أو بتفسيره بما لا يرضى الله عز وجل . أما النقصان والزيادة وتغيير الكلمة فقد حفظ الله القرآن منه ، وأما تفسيره بما لا يرضى الله فإن بعض الجبابرة قد يفسره على ما يقتضيه هواه وتشتهيه نفسه، ولأبأس بذكر مثل واحد. ذكر أن ابن زياد لما بعث إلى شيبث بن ربعي ليرسله إلى حرب الحنين عليه السلام اعتذر شيبث بأنه مريض، فكتب إليه ابن زياد: إني أخاف أن تكون من الذين : « اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم .. الخ » ^(١).

فابن زياد يقصد بقوله هذا أنه هو وأبوه ويزيد وأبوه هم من المؤمنين، هكذا يفسر القرآن من كان في قلبه زيغ « وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ^(٢) ولكن لا يوافق على التأويل والتفسير إلا من كان على شاكلة .

الأمر الرابع : مما تسبب لهم من نقض الميثاق قوله تعالى: « ونسوا حظاً مما ذكروا به » أي : نسوا من الكتاب القسم الذي يفوت بفواته حظهم في الآخرة كالأمور الأصولية مثل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وأمثالها .

وقد روى المراغي في تفسيره عن ابن عباس أنه قال : نسوا الكتاب ... وقال بعضهم : نسوا الكتاب بترك العمل به ^(٣) .

(١) مقتل المقوم: ص ١٩٩، نشر دار الكتاب الاسلامي، نقلا عن الاخبار الطوال: ص ٢٥٣.

والاية ١٤ من سورة البقرة .

(٢) آل عمران : ٧ .

(٣) تفسير المراغي : ج ٦ ص ٧٥ .

الأمر الخامس: مما نسب لهم من نقض الميثاق ملازمتهم للخيانة حتى صارت طبيعة لهم كما قال تعالى: « ولا تزال تطالع على خائنة منهم » فإن الخيانة من أكبر العيوب في الرجل وكذا في الجماعة، فإذا عرفت جماعة بالخيانة يجتنبها الناس ولا يتعاملون معها وهكذا إذا عرفت أمة بالخيانة كلها أو أكثرها كما عرفت اليهود بمقتضى شهادة الله عليها، وكل حكومة تعرف بالخيانة فإن بقية الحكومات لا تعترف بها ولا تتعامل معها.

ثم إن اليهود بعد ما خانوا الله ونقضوا الميثاق فما الذي يمنعه من خيانة النبي؟ وإذا خانوا النبي كما ذكره الله فلا بد من خيانتهم لعموم البشر مهما كان دينهم، فإنهم لا يتوقفون عن كل خيانة، فهذه الجملة من الآية يحذر الله الناس بها عن الدنو إليهم والتعامل معهم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الخيانة منها ما عن النبي ﷺ قال: من خان أمانة في الدنيا ولم يردّها إلى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملأى ويلقى الله وهو عليه غضبان^(١).

وعنه أيضاً قال ﷺ: ليس منا من خان بالأمانة^(٢).

وعن أبي هارون المكفوف قال: قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام: يا أبا هارون إن الله آلى على نفسه أن لا يجاوره خائن، قلت: وما الخائن؟ قال: من ادخر عن مؤمن درهماً أو حبس عنه شيئاً من أمر الدنيا. قال: قلت: أعوذ بالله من غضب الله، فقال: إن الله تبارك وتعالى آلى على نفسه أن لا يسكن جنته أصنافاً ثلاثة: راد على الله عز وجل أو راد على إمام هدى أو من حبس حق امرئ مؤمن، قال: قلت: يعطيه من فضل ما يملك؟ قال: يعطيه من نفسه وروحه

(١) بحار الانوار: ج ٧٥ ص ١٧١ ب ٥٨ ح ٣.

(٢) بحار الانوار: ج ٧٥ ص ١٧٢ ب ٥٨ ح ١٤.

فإن بخل عليه بنفسه فليس منه إنما هو شرك شيطان^(١).

هذا بالنسبة الى الخيانة في الماديات ، أما بالنسبة الى الخيانة في المعنويات كنفق اليهود ومساعدة الأعداء وأمثالها فهو الكفر ، وليس هناك إيمان لمن نقض عهد الله وميثاقه أو نقض ميثاق الرسول أو المؤمنين .

الأمر السادس : مما سببه لهم نقض الميثاق هو وقوع العداوة والبغضاء فيما بينهم ، وهم الذين نقضوا الميثاق فلا تزول العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، وقد نوه الله سبحانه عليه بقوله : « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ».

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تفسير قوله تعالى « فأغرينا بينهم » : قال مجاهد وقتادة وابن زيد والسدي والجبائي : معناه بين اليهود والنصارى .

وقال الربيع والزجاج والطبري : معناه بين النصارى . وهو ما وقع بينهم من الخلاف نحو الملكية ، وهما الروم والنسطورية واليعقوبية من العداوة. وأصل الاغراء تسليط بعضهم على بعض .

وقيل : معناه التحريش .

وأصله اللصوق يقال : غريت بالرجل غري - مقصور ومحدود - ومعناه : لصقت به . قال كثير :

إذا قيل مهلاً قالت العين بالبا غراء ومدتها حوافل تهمل

وأغريت زيداً بكذا حتى غرى به . ومنه الغراء الذي يغرى به للصوص .

والاغراء بالشيء معناه الاصاق به من جهة التسليط . وإنما أغرى بينهم

بالأهواء المختلفة في الدين في قول إبراهيم .

وقيل : بإلقاء البغضاء بينهم . عن الحسن وقتادة .

وقيل : يأمر بعضهم أن يعادي بعضاً في قول أبي علي . فكأنه يذهب الى ما تقدم من الأمر لهم بمعاداة الكفار ، والذي يقوله إن الوجه في إغراء الله فيما بينهم أنه أمر النصارى بمعاداة اليهود فيما يفعله اليهود من القبيح في التكذيب بالمسيح وشتيم أمه والقذف لها والفريسة عليها وإضافتها إليه تعالى ووصفها بما لا يليق . وأمر اليهود بمعاداة النصارى في اعتقادهم التثليث وأن المسيح ابن الله وغير ذلك من اعتقاداتهم الفاسدة نقضوا هذا الميثاق وأعرضوا عنه حتى صار بمنزلة المنسي ، فكأنه في ذلك أمر كل واحد منهما بالطاعة .

فإن قيل : يمنع من ذلك قوله « فانسوا حظاً مما ذكرنا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء » فجعل إغراءهم بالعداوة جواباً لقوله : « فانسوا حظاً مما ذكرنا به » لأن الفاء تدل على الجواب . وإذا كانت جواباً وجب أن يكون تعالى إنما أغرى بينهم لأجل نسيانهم للحظ الذي ذكرنا به ، وأنه عاقبهم بهذا الإغراء ، وليس في الأمر والنهي والعبادات عقوبات بلاخلاف ، فدل جوابه بإلقاء في قوله : « فأغرينا » عقيب قوله : « فانسوا حظاً » على أنه عاقب بالإغراء لاعلى ما قلتموه .

قيل : قوله « فانسوا حظاً مما ذكرنا به » جوابه ، وأنه فعل هذا الإغراء لأجل نسيانهم ، غير أنه ليس بعقوبته وإن كان جواباً ، فكان الإغراء إنما وقع بينهم من أجل نسيانهم لحظهم من قبل أنه نسوا ما ذكرنا به معرفة التوحيد والتدين فصاروا الى القول بالاتحاد والشرك والفريسة عليه تعالى ، فلأجل ذلك أمر الله أضدادهم بمعاداتهم وإغرائه بهم .

فإن قيل : فإن الله تعالى ذكر النصارى في هذه الآية بنسيان حظهم ، ثم أجاب بإلقاء في قوله « فأغرينا بينهم » وليس يصح على هذا أن يكون أغرى بينهم من أجل ما فعله النصارى من الكفر لأنه إذا أمر اليهود بمعاداة النصارى

لأجل نسيان النصارى وكفرهم فإنما هذا عن أمر الله اليهود بهم ، وليس بإغراء بعضهم ببعض ، وقوله : « فأغرينا بينهم » يدل على أن الله بعث كل واحد من الفريقين على صاحبه ، وهذا يوجب خلاف قولكم .

قيل : الأمر على ما قلتم من أن أمر اليهود بمعاداة النصارى هو إغراء لهم بهم ، وليس بإغراء بين النصارى ، لكنه تعالى قد ذكر اليهود فيما تقدم من هذه السورة وتكذيبهم وفريتهم على الله في ذكر النصارى ، فلما جمع بين الفريقين في الذكر في هذه السورة - وإن لم يجمعهم في هذه الآية - جاز أن يذكر أنه أغرى بينهم العداوة بأن أمر كل واحد منهما بمعاداة عدوه فيما عصى فيه وصح الإغراء بينهم وإلقاء العداوة والتباعد والمنافرة ، وصح أن يجعل ذلك جواباً .

وقد قال البلخي جواباً آخر : وهو أن يكون الإغراء بين النصارى خاصة بعضهم لبعض على ظاهر الآية ، وهو أن الله تعالى نصب الأدلة على إبطال قول كل فرقة من فرق النصارى ، فإذا عرفت طائفة منها فساد مذهب الاخرى فيما نصب الله لها من الأدلة - وإن جهلت فساد مقالة نفسها لتفريطها في ذلك وسوء اختيارها - فجاز على هذا أن يضاف الإغراء في ذلك الى الله من حيث إنه أمر كل فرقة بمعاداة الاخرى على ما تعتقده وأن أمرها أيضاً بأن تترك ما هي متمسكة به لفساده ، وهذا واضح بحمد الله .

فإن قيل : أيجوز على هذا أن يقال : إن الله أغرى بين المؤمنين والكفار العداوة ؟

قلنا : أما إغراء المؤمن بالكافر فصحيح ، وأما الكافر بالمؤمن فليس بصحيح لأن ما عليه المؤمنون حق ، وما عليه الكفار باطل . وإنما يقال : إن الله أغرى بين قوم وقوم اذا كان على بطلان قول كل طائفة منهما دليل يدل على فساد قول من يخالفها . فعلى هذا لا يصح إطلاق القول بما قالوه ، ومتى قيد القول على ما

بيّناه جاز ، وان لم يجز مع الاطلاق^(١).

مقاله الطبرسي :

حول قوله سبحانه « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » قال :
اختلف فيه فقيل : المراد بين اليهود والنصارى . عن الحسن وجماعة من المفسرين .
وقيل : المراد بين أصناف النصارى من اليعقوبية والملكانية والنسطورية من
الخلاف والعداوة . عن الربيع واختاره الزجاج والطبري .
وإنما أغرى بينهم العداوة بالأهواء المختلفة في الدين ، وذلك أن النسطورية
قالت : إن عيسى ابن الله هو المسيح بن مريم . والملكانية قالوا : إن الله ثالث ثلاثة :
الله وعيسى ومريم .

وقيل : يأمر بعضهم أن يعادي بعضاً . عن الجبائي . فكأنه يذهب الى الأمر
بمعاداة الكفار ، وأن هؤلاء يكفّر بعضهم بعضاً ، وقوله « الى يوم القيامة » عني
به : أن المعاداة تبقى بينهم الى يوم القيامة ، إمّا بين اليهود والنصارى ، وإمّا بين
فرق النصارى .

وقيل : الوجه في قوله تعالى : « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء » أنه أخبر
أنهم اختلفوا فيما بينهم وكلهم على خطأ وضلال ، وقد جعل الله سبحانه على كل
مقالة من مقالاتهم التي أخطأوا فيها دلائل عرفت بها بعضهم خطأ بعض فتعادوا
على ذلك وتباغضوا ولم يقر كل فرقة منهم خطأ أنفسهم ، فلمّا لم يصل كل منهم
الى المعرفة بخطأ صاحبه إلا من جهة كتاب الله ودلائله والتعادي بينهم كان من
أجل ذلك جاز أن يقول : « فأغرينا بينهم » على هذا الوجه . عن جعفر بن حرث .
وقيل : الوجه في ذلك إنما أخطرنا على بال كل منهم بما يوجب الوحشة
والنفرة عن صاحبه ، وما يهيج العصبية والعداوة عقوبة لهم على تركهم الميثاق^(٢) .

(١) التبيان : ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٧٣ .

ماقاله المراغى :

قال في تفسير قوله تعالى « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » :
 لأنّ نسيان حظّ عظيم من كتابهم كان سبباً في تفرقهم في الدين واتباع أهوائهم ،
 وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى في هذه الحياة ،
 ومن أجل هذا نسبه سبحانه الى نفسه مع أنه من أعمالهم الاختيارية لأنه كان نتيجة
 حتمية لتلك السنن التي وضعت في الخليقة ^(١) انتهى .

الأمر السابع من آثار نقض الميثاق: السيئة ، وهو الذي فيه الهلاك والدمار
 الذي لا يمكن تداركه ولا ينفع فيه الندم ولا تفيد فيه التوبة ، وهو ما نبه عليه
 بقوله : « وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » .

يشير سبحانه وتعالى الى يوم الحشر والنشر ويوم الثواب والعقاب وهو يوم
 القيامة وأنه سيعاقب هؤلاء الذين نقضوا الميثاق عقاباً لأمد له ولا انقطاع ، وهو
 عقاب لا يمكن لهذا الجسم البشري أن يتحمّله آناً واحداً لأنّ الجسم من اللحم
 والعقاب يكون في النار ولا طاقة له على القرب منها فضلاً عن الدخول فيها ، وأنّ
 هذا العذاب سيكون لمن نقض الميثاق من اليهود والنصارى ، ولأزم ذلك أنه
 يكون لمن نقض الميثاق من المسلمين أي العذاب في الآخرة .

أما الامور التي سببها نقض الميثاق في الدنيا فهي من لوازمه أيضاً ، فإنها
 لا تتخلف عنه ، ومن أعظم الامور على المسلمين الذين نقضوا العهد تسلط أعدائهم
 عليهم ، وإن لم تعرفوا أعداءكم فهم الصهاينة ومساعدوهم وأنتم محكومون للكفر .
 أيتها المسلمون ، إنّ الله خاطبكم في الآية السابعة من هذه السورة بعدما
 أمركم بالطهارة في قوله سبحانه وتعالى : « إذا قمتم الى الصلاة... الخ » فقال عز وجل :
 « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا

واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » فإنا أنكم اتقيتم الله حق تقاته لكف
أيدي هؤلاء اليهود عنكم ولنصركم عليهم وعلى غيرهم من الكافرين ولكنكم نقضتم
ميثاق الله ، فإذا بقيتم على هذا الحال سوف تبطلون بهذه الأمور السبعة التي ابتلى
بها اليهود والنصارى .

أيتها المسلمون، ارجعوا الى دينكم وكتابكم وأطيعوا أمر الله وأمر رسوله
ليكف الله عنكم هذه الأيدي البائرة التي تريد محو دين الله وتريد رفع القرآن
من على وجه البسيطة، فإنه قد شاع أن اليهود لما فتحوا بيت المقدس من المسلمين
ودخلوا فيه بقوا بضعة دقائق يجولون وينادون بأعلى أصواتهم : (مات محمد)
يكررون هذه الكلمة فرحاً وسروراً، ومن ذاك اليوم حتى يومنا هذا وهم ينكثون
بالمسلمين وقد ملأوا السجون من الرجال والنساء يعذبونهم بأنواع العذاب .

تنبیه

لا يخفى على كل ذي لب أن الله إنما ذكر في القرآن هذه القضية التي تتعلق بيني إسرائيل وأن بنقضهم الميثاق أصيبوا بهذه المصائب السبع التي هي دمار لهم في الدنيا والآخرة كل ذلك ليعتبر المسلمون فيتمسكوا بالتقوى ويحافظوا على الميثاق الذي واثقوا الله به ولا ينقضوا منه شيئاً فيصابون بما أصيب به بنو إسرائيل هو الدمار والهلاك وخسران الدنيا والآخرة .

أيتها المسلمون، لقد نقضتم الميثاق وخالفتم أوامر الله والرسول، ولقد واليتم الكافر وأطعتم أوامره، ووقع بينكم العداوة والبغضاء، فإن تنبهتم وأردتم أن لا تكون بينكم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة فاتفقوا وأتلفوا وتحابوا، ولا تتفقوا إلا أن ترجعوا الى أحكام القرآن فتتركوا شرب الخمر، وتتركوا الفجور والتبرج والسفور، وتتركوا القمار وأكل الربا، وتتركوا الظلم بجميع أنواعه وأقسامه.

ومن أهم الأمور هو ترك الموالاة للكافر، فإن صريح القرآن يخبرنا بأن الموالى للكافر يعد كافراً : «ومن يتولهم منكم فإنه منهم»^(١) فإذا حشرت كافراً فليس لك على الله حق أبداً .

ماقاله العلامة الطباطبائي :

قال رحمه الله في تفسيره : ولم يذكر القصة إلا ليستشهد بها على المؤمنين ويجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها بأن اليهود والنصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به بنسبائهم ميثاقاً لله سبحانه ولم يكن إلا ميثاقاً بالاسلام لله واثقوه بالسمع والطاعة وكان لازم ذلك أن يتقوا مخالفة ربهم وأن يتوكلوا عليه في أمور دينهم ، أي يتخذوه وكيلاً فيها يختارون ما يختاره لهم ويتركون ما يكرهه لهم ، وطريقه طاعة رسلهم بالإيمان بهم وترك متابعة غير الله ورسوله ممن يدعوا الى نفسه والخضوع لأمره من الجبايرة والطغاة وغيرهم حتى الأحيار والرهبان ، فلا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته .

لكنهم نبذوه وراءهم ظهرياً فابتعدوا من رحمة الله وحرفوا الكلم عن مواضعه وفسروها بغير ما يريد بها ، فأوجب ذلك أن نسوا حظاً من الدين ، ولم يكن إلا حظاً وسهماً يرتحل بارتحاله عنهم كل خير وسعادة ، وأفسد ذلك ما بقي بأيديهم من الدين ، فإن الدين مجموع من معارف وأحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد منه بفساد بعض آخر سيما الأركان والاصول ، وذلك كمن يصلي لكن لاوجه الله أو ينفق لالمرضاة الله أو يقاتل لالاعلاء كلمة الحق ، فلا ما بقي في أيديهم نفعهم - إذ كان محرفاً فاسداً - ولا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه ، ولا غنى عن الدين ولا سيما اصوله وأركانه .

فمن هنا يعلم أن المقام يقتضي أن يحذر المؤمنون عن مخالفة التقوى وترك

التوكل على الله بذكر هذه القصة ودعوتهم الى الاعتبار بها .

ومن هنا يظهر أيضاً أن المراد بالتوكل ما يشمل الامور التشريعية والتكوينية جميعاً ، أو ما يختص بالتشريعات ، بمعنى أن الله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يطيعوا الله ورسوله في أحكامه الدينية وما آتاهم به وبينه لهم رسوله ، ويكفوا أمر الدين والقوانين الالهية الى ربهم ، ويكفوا عن الاستقلال بأنفسهم والتصرف فيما أودعه عندهم من شرائعه ، كما يأمرهم أن يطيعوه فيما سن لهم من سنة الأسباب والمسببات ، فيجروا على هذه السنة من غير اعتماد بها وإعطاء استقلال وربوبية لها وينتظروا ما يريد الله ويختاره لهم من النتائج بتدبيره ومشيئته^(١) انتهى .

وبعد ذلك أرجو من إخواني المؤمنين أن يتأملوا جيداً في هذه الآيات وأن يعملوا بها لكي يتخلص من هذا البلاء الذي حلّ بنا ومن هؤلاء الأعداء الذين أحاطوا بنا .

قوله تعالى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥) .

لقد بين الله عز وجل في الآيات السابقة أن اليهود والنصارى قد أخذ عليهم العهد والميثاق بالطاعة له ولرسوله ، وأن ينصروا رسوله ويعظموه ويكرموه ولا يخالفوا لهم أمراً ، وأن يكون عملهم مطابقاً للكتاب الذي أنزله على الرسول بلا تحريف ولا تصرف فيه .

ثم بين أنهم خالفوا هذه الامور فنقضوا الميثاق وخالفوا الرسول وحرفوا الكتاب وتلبسوا بالخيانة حتى صارت طبيعة لهم وداوموا على العداوة والبغضاء بينهم .

وبعدما فعلوا هذه المنكرات المبعدة لهم عن الله ورسوله فاستحقوا اللعن من الله والطرد لهم عن رحمته لم يقطع عنهم إرشاده ودعوته . فلما بعث خاتم أنبيائه الى خلقه دعا أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - الى الايمان برسوله وعرفهم أن من جملة آيات نبوته التي لا يعترى بها ريب - أي لا يمكنكم أن تجدوا فيها طريقاً للريب والشك - هي أنه : « يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب » . فإن هذا الأمر - وهو بيان ما كانوا يخفونه من الكتاب - شيء مخفي مستور لا يعلمه إلا علماءهم الذين بيدهم الكتاب وهم يظهرون منه الامور للناس فاذا كان فيه كان أمر ينافي سلطة اليهود ويوجب خروج الحكم منهم أو شيء تنفر الناس عن بيده الكتاب أو شيء يوجب العقاب عليهم اذا فعلوه ، يخفون الامور كلها ولا يريدونها لأحد من قومهم فضلاً عن الأجانب ، فإنهم هم القائلون كما حكى الله عنهم : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم »^(١) .

فلما جاء النبي محمد ﷺ بين هذه الامور المخفية في صدورهم وفي كتبهم المخفية في خزائنتهم ، فكان هذا البيان من أكبر الآيات والحجج الدالة على صدق نبوته ، وقد ناداهم الله عز وجل وخاطبهم بأن هذا الرسول الذي جاءكم بهذه الحجة البينة الجليلة التي لا يمكنكم الطعن بها أبداً - وحيث عجزتم عن الاتيان بما يوهدنها ويفندها - فإنكم ملزمون حينئذ بتصديقه واتباعه والعمل بما يأمركم به . ثم إنه يلزمكم تصديقه والاعتراف بنبوته واتباعه لأمر آخر وهو الفضل الذي أسداه إليكم والاحسان الذي من به عليكم ، وهو المشار إليه بقوله تعالى : « ويعفو عن كثير » فإنه كما بين كثير مما كنتم تخفون عفاً أيضاً عن الكثير فلم يبينه .

ولابد أن يكون هذا الذي عفا عنه فيه المساواة القبيحة والفضايح التي تفضحكم أمام العالم البشري . ولكن الله أمره بالعفو والستر والاخفاء ، كذلك

رحمة بكم وشفقة عليكم لعلكم تهتدون وترجعون الى الحق ، ولكنكم أبيتم إلا العمى وسلك سبيل الضلال ودرغبتكم الملمحة الى الفساد في الأرض ، فلا الحكم السماوي يمنعكم عن أذى الناس ولا الحكم الأرضي ولا ضمائر سليمة تصدكم عن ذلك .

ثم إن الأمور التي بيّنها النبي ﷺ هي صفاته وعلامته الموجودة في التوراة والانجيل ، فإنه لما بعث ﷺ ورأوا أن تلك الصفات منطبقة عليه أخفوها ولم يبدوها للناس فبيّنها لهم ، كما ورد هذا الأمر في آيات عديدة كقوله تعالى : «الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجذونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل»^(١) وقوله تعالى : «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»^(٢) وقوله تعالى في وصفه ووصف أصحابه : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً» الى قوله تعالى : «ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل»^(٣).

ومن الأمور التي بيّنها أيضاً حكم الرجم الذي أخفاه ابن صوريا فإنه موجود في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية^(٤).

وأما العفو عن الكثير فإن في التوراة الموجودة بأيديهم أموراً كثيرة منافية للعدل والعقل والدين ، فهذه الأمور وغيرها عفا النبي ﷺ عن بيانها .

ثم قال تعالى : «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين» فإنه سبحانه يخاطب أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ويقول لهم : إنكم بعدما نقضتم الميثاق فصارت قلوبكم قاسية لا ينفع معها الارشاد ولا تؤثر فيها الموعظة ، ثم حرقتم كتاب الله

(١) الاعراف : ١٥٧ .

(٢) البقرة : ١٤٦ .

(٣) الفتح : ٢٩ .

(٤) راجع تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٦٢٩ ح ١٩٢ ، وتفسير المراغي : ج ٦ ص ١٢١ .

وغير تموه ، ونسيتم حظكم من الكتاب ، وهذا القسم الذي نسيتموه هو من اصول الكتاب الذي لا ينفعكم الباقي منه مع نسيانكم له ، ثم تلبستم بالخيانة بحيث صارت طبيعة لكم . بهذه الصفات السيئة وغيرها قد دخلتم في الظلمات فصار وليكم الطاغوت فانغمستم في الظلمات الى رؤوسكم بحيث لا تبصرون بأعينكم شيئاً من النور لتتهتدوا به الى طريق الرشاد .

ويخاطب الله غير أهل الكتاب من أصناف الناس الذين يعبدون الأصنام والأوثان والشجر والحجر والشمس والقمر وهم يدعون الاسلام .
 "إن هؤلاء الفرق كلهم داخلون في الظلمات يعملون على غير هدى وهم يسمون أنفسهم مسلمين .

إن الله يخاطب هؤلاء مع خطابه لأهل الكتاب ويقول لهم : قد جاءكم نور من الله ببعثة النبي محمد ﷺ ، وهذا النور يوضح لكم الطريق ويكشف عنكم الظلمات التي وقعت فيها فاغتمموه ، فإنكم اذا سرتهم وراءه واقتديتم به يمكنكم أن تتخلصوا من هذه الظلمات وتنجوا منها الى سبيل واضح يترضى يوصل الى منهل عذب ومأمن من كل خوف ويجعلكم منعمين في الدنيا بأعلى درجات النعيم حتى يوصل نعيم الدنيا بنعيم الآخرة .

ثم إن هذا النور الذي جاء به خاتم الأنبياء لا ينقطع ولا ينتهي مادامت الدنيا موجودة ، فهو موجود بوجوده في الدنيا وبعد ارتحاله منها ، ويكون الكتاب الذي انزل عليه موجوداً وفيه حكم كل شيء لا يشذ عنه حكم من الأحكام ، ويلزم هذا الكتاب رجال يعرفون تفسيره وتأويله لا يخفى عليهم شيء منه ، قد قرأهم النبي ﷺ بالكتاب وأوصى أمته بالتمسك بهما وأخبر بأنهما لا يفترقان حتى يردا عليه يوم القيامة .

ثم إن المقصود من النور الذي جاء من الله إما أن يكون هو النبي ﷺ أو الأحكام التي جاء بها من الله ، وإما عبث عنه بالنور لأنه يكون سبباً لنور القلب

فكما يكون نور الشمس سبباً لرؤية البصر يكون النبي ﷺ أو الأحكام سبباً لرؤية القلب للامور الباطنية الروحية .

قوله تعالى : يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام
ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط
مستقيم (١٦) .

إن هذا النور الذي يختص بالقلب والبصيرة ويضيء به الباطن ليس كنور
الشمس بحيث ينتفع به كل ذي عينين ، سواء كان مؤمناً أو كافراً ، وإنما ينتفع به
من يطلبه ويريده لأجل رضا الله عز وجل . أي أن الله يهدي بهذا النور الانسان
الذي يطلب رضا الله فهو يهديه الى سبيل السلام .

فقوله تعالى : « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام » أي أن
النور والكتاب الذي جاءكم من الله إنما يهدي به الله الانسان الذي يتبع رضا
الله ويريده . ولا يتمكن الانسان أن يعرف الشيء الذي يرضى به الله إلا بواسطة
النبي أو من يدل عليه النبي أمته ويأمرهم بالرجوع إليه في الحصول على ما يرضى
الله ، أما الذي يريد أن يعمل بما يرضى الله ويأخذ الأحكام ممن أم يدل عليه
النبي أو أنه يميز ما يرضى الله بعقله وفهمه فهذا لا يصيب ، بل يكون خطأ أكثر
من صوابه .

فعلى هذا يكون النور الذي أنزله الله لهداية الخلق لا يصيب إلا من كانت
نيمته من عمله إرضاء الخالق ، ولا يحصل على العمل المرضي للخالق إلا بإصابته
بواسطة النبي ﷺ أو بواسطة من عنده علم القرآن بحيث يعترف له بذلك
المؤلف والمخالف ، وليس في أصحاب النبي أحد عنده هذا العلم غير أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب عليه السلام لأن النبي ﷺ علمه علم القرآن كما تواترت به الروايات

عن جميع أصحابه ، فقد قال **عليه السلام** : علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب^(١).

وبعبارة أخصر : إن الذي يريد أن يهديه الله بالنور الذي جاء من عند الله الى سبيل السلام يلزمه أن يعمل عملاً يقطع بأنه يرضى به الله وبعد ذلك يطلب من الله أن يهديه الى سبيل السلام ، ولا يتحقق ذلك إلا بنية صحيحة وطريق قد دلنا عليه الرسول الأعظم **صلى الله عليه وآله** بأمر من الله تعالى ، فلا يخدع الانسان نفسه ولا يكون لعبة للشيطان .

ماقاله المراغي :

قال في تفسير هذه الآية : قوله « من اتبع رضوانه » أي من كان همه من الدين ابتغاء رضوان الله ، لاتقرب ماألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال .

ود السلام ، بمعنى السلامة ، أي طرق السلامة من كل مخافة .

وقوله : « من الظلمات الى النور » أي من ظلمات الكفر الى نور الايمان .

وقوله : « باذنه » أي بإرادته أو بتوفيقه بالجري على سنن الله تعالى في تأثير

الأعمال الصالحة والعقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها .

وقوله : « الى صراط مستقيم » أي الى الدين الحق لأنه واحد ومتفق من

جميع جهاته ، أما الباطل فمتعدد الطارق وكلها معوجة ملتوية .

وقد ذكر سبحانه للكتاب ثلاث فوائد :

١ - إن المتبع لما يرضى الله بالايمان بهذا الكتاب يهديه الى الطرق التي

يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل مايقرن من الشقاء والهلاك ، فيقوم في الدنيا

بحقوق الله والحقوق الواجبة عليه لنفسه - روحية كانت أو جسدية - وللناس ،

ويكون في الآخرة منعماً نعيماً روحياً وجسدياً . وخلاصة ذلك : أنه يتبع ديناً يجد فيه ما يوصله الى السلامة من الشقاء في الدنيا والآخرة لأنه دين الاخلاص والعدل والمساواة .

٢ - إنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات - التي أفسد بها رؤساء جميع الأديان - الى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه حراً كريماً بين يدي الخلق خاضعاً للمخالق وحده .

٣ - إنه يهدي الى الطريق الموصل الى المقصد والغاية من الدين اذا اعتصم به من اتبعه على الوجه الصحيح الذي انزل لأجله كما عمل بذلك أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان^(١) انتهى .

ما قاله الفخر الرازي :

قال في تفسير هذه الآية المباركة : ثم قال تعالى : « يهدي به الله » أي بالكتاب المبين « من اتبع رضوانه » من كان مطلوبه من طلب الدين اتباع الدين الذي يرضيه الله تعالى ، فأما من كان مطلوبه من دينه تقرير ما ألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال فمن كان كذلك فهو غير متبع رضوان الله تعالى .

ثم قال تعالى : « سبل السلام » أي طرق السلامة ، ويجوز أن يكون على حذفنا المضاف أي سبل دار السلام ، ونظيره قوله : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلل أعمالهم * سيهديهم »^(٢) ومعلوم أنه ليس المراد هداية الاسلام بل الهداية الى طريق الجنة^(٣) .

قوله تعالى : « ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه » لقد جمع الظلمات

(١) تفسير المراغي : ج ٦ ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) محمد : ٤ و ٥ .

(٣) تفسير الرازي : ج ١١ ص ١٩٠ .

لأن طرقه . تكثرة متعددة وطريق النور واحد جلي ، أي يخرج الله الذين يريدون اتباع رضوانه من طرق الكفر والنفاق والشك - فإنها طرق ذوات شعب - الى طريق الحق ، وهو طريق واحد واضح جلي ، اذا دخل الانسان في أوله بنية صادقة وسريرة حسنة صالحة وبقي ملازماً ثابتاً على هذه النية لا يرى فيه اذاً ما يحير . في الطريق ولا يزل فيه ولا يعارضه أحد ولا شيء آخر من حجر أو مدر أو شجر أو دوك ولا تعترضه ظلمة ولا يصده صاد مادام على هذه النية لأن دخوله يكون « بإذنه » أي بإذن الله وإرادة الله وبتوفيق الله ، ويكون دخولهم بهذا الطريق الذي عبّر الله عنه بقوله : « يهديهم الى صراط مستقيم » ، والمقصود منه هو طريق الدين الحق الذي لا التواء فيه ولا عوج ولا ميل ولا انخفاض ولا ارتفاع ، فيكون دخولهم فيه موصلاً لهم الى الجنة ، فيدخلون الجنة في راحة وهدوء بلا اضطراب ولا ارتباك ولا انزعاج ولا مشقة ، وإنما يخرج من حفرة محاط بذلك النور الذي دخل فيه بإذن ربه ويسير سيراً مستقيماً حتى يدخل الجنة .

هذا كله لمن عمل لأجل رضوان الله بالطريقة التي أمر الله بها متبعاً للدليل الذي نصبه الله له في دار الدنيا آخذاً دينه عن الله ، لا من رأيه ولا من رأي بشر لم يجعله الله دليلاً ومرشداً لغيره .

قوله تعالى : لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعاً والله ملك السماوات والارض وما بينهما ما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير (١٧) .

قوله تعالى : «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم» إن

هذا القول سببه نقض الميثاق الذي تقدم ذكره ، فإنه لما صار سبباً للعن والطرود وقسوة القلب فحرفوا الكلم ونسوا حظهم من الدين قالوا بعد ذلك هذا القول ، فحكم الله عليهم بالكفر وصدده بلام القسم ، فلا يمكن أن يقول أحد بعدم كفرهم بعد حكم الله به .

ثم ردّ الله عليهم بقوله : « قل فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعاً » .

فإن الله يقول لنبيه أن يسأل هؤلاء الكافرين الذين كفروا بقولهم المسيح هو الله فيقول لهم : لو أراد الله أن يهلك المسيح وامه وجميع من في الأرض فهل يتمكن أحد من أهل السماوات والأرض أن يردّ حكم الله؟ فسوف يكون الجواب من كل أحد : لا يتمكن أحد من ردّ الحكم الصادر من الله . وعلى هذا فإذا أراد الله أن يهلك من في الأرض جميعاً أو يملك أحد رده والمسيح هو أحد من في الأرض فكيف يكون هو الله؟

ثم قال تعالى : « ولله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير » ليعرف هؤلاء الذين كفروا وغيرهم حقيقة الأمر .

مآله المراعى :

قال في تفسير قوله تعالى : « قل فمن يملك من ... » : أي فمن يملك من الله شيئاً إن أراد إهلاك المسيح وامه وأهل الأرض قاطبة؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف في السماوات والأرض وما بينهما ، أي وما بين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تحوّل في صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : « يخلق ما يشاء » أي أن تلك الشبهة التي عرضت لكم وجعلتم تزعمون أن المسيح بشر وإله هو أنه خلق على غير السنّة العامة ، وأنه عمل أعمالاً عجيبه لاتصدر من عامة البشر فالله له ملك السماوات والأرض ، ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق

بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كاصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ، ولا على الوهية لبعضها ، ولا حلول الاله الخالق فيها ، فسنة الله في خلق لمسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلهاً ورباً ، لأن هذه المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج المخلوق عن كونه مخلوقاً .

« والله على كل شيء قدير ، وبقدرته يخلق ما يشاء ، فتارة يخلق الانسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم » كما في آدم عليه السلام ، وأخرى من أم ولا أب له كما في عيسى عليه السلام .

والخلاصة : إن كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته ، وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة الى علم البشر الناقص لا بالنسبة الى يد تعالى . وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبي يجهله غيرهم ، أو عن تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير^(١) .

قوله تعالى : وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير (١٨) .

مقاله المراغى :

قال في تفسيره لهذه الآية : روى ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي

في الدلائل عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ ابن أبي وبجرى بن عمرو وشاس ابن عدي من اليهود فكلمهم و كلموه ودعاهم الى الله وحذرهم نقمته فقالوا: ما نخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه. كما قالت النصارى ذلك، فأنزل الله فيهم: **«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه»** الى آخر الآية.

وقد جاء إطلاق هذا اللفظ «أبناء الله» في الانجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين كما حكاه (متى) في وعظ المسيح على الجبل من قوله: طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون. وكنول بولس في رسالته الى أهل رومية: لأن كل الذين ينقادون بروح الله فاولئك هم أبناء الله.

ومن هذا يعلم أن «ابن الله» يستعمل في كتبهم بمعنى حبيب الله الذي يعامله معاملة الأب لابنه من الرحمة والاحسان والتكريم، ولكن النصارى تحكّموا في هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقي للمسيح، وبالمعنى المجازي بالنسبة الى غيره من الصالحين.

وقد ردّ الله عليهم بقوله: «قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» أي قل لهم أيها النبي: إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم في الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر وبلدكم المرة بعد المرة ومن إزالة ملككم من الأرض؟ والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه، فلستم إذناً أبناء الله ولا أحباؤه، بل أنتم بشر من جملة ما خلق، والله سبحانه لا يحابي أحداً، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، وكل هذا لا يجزيكم قليلاً ولا قطميراً، وإنما الذي ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال، فالجزاء إنما يكون عليها لأعلى الأسماء والألقاب.

«ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير» أي أنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق في كل شيء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله،

وجميع المخلوقات عبيد له لأبناء ولابنات « إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً »^(١).

وفي ختمها بقوله « واليه المصير » إشارة إلى أنه سيعذبهم في الآخرة على هذا الكفر والعداوة الباطلة ، وأنهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد آبقون بجازون ، لأبناء ولاأحياء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص مبرزهم عن سائر البشر ، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم وإن كان أصح منهم إيماناً وأصح أعمالاً ، ولا ينبغي أن يتبعوا محمداً ﷺ لأنه عربي لإسرائيليين ، والفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء .

والنصارى قد زادوا عليهم غروراً ، فهم قد ادعوا أن المسيح قد فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح والمسيح ابنه الحقيقي ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب . وقد جاهد النبي ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً ولم يجد ذلك فيهم شيئاً فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به من أن العمل مرضاة الله وبه تنال ترقية النفس وإصلاحها كما جاهد صلف النصارى وكبرهم ، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وظلماً وعدواناً بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحبائه ، وأنهم ليسوا في حاجة إلى إصلاح دينهم ولادنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة : إن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر ، وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب^(٢).

قوله تعالى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على

(١) مريم : ٩٣ .

(٢) تفسير المراغي : ج ٦ ص ٨٤ - ٨٦ .

فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (١٩) .

مقاله المراعى :

قال في تفسيره للآية: قد جاءكم رسولنا الذي بشرتم به في كتبكم وأخبركم به أنبياءكم، فقد جاء على لسان موسى: أنه سيقم نبياً من بني إسماعيل إخوتكم وعلى لسان عيسى: أنه سيجيء البارقليط روح الحق الذي يعلمكم كل شيء، وفي الانجيل الرابع: أن اليهود أرسلوا كهنة ولاويين (أخباراً) فسألوا يوحنا ^{عليه السلام}: أنت المسيح؟ قال: لا أنت إيليا؟ قال: لا، أنت النبي؟ قال: لا .

هذا الرسول هو محمد بن عبدالله الأمي يبين لكم على فترة من الرسل - أي على انقطاع منهم وطول عهد بالوحي - جميع ما أنتم في حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدها عليكم نزغات الوثنية وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم في الأمور المادية والروحية وعبادات وأحكام تصالح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل في ذلك ما بيّنه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب لإقامة الحجة عليكم، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئاً مما جاء به، وقد أرسل صلوات الله عليه وقد فشا التغيير والتحريف في الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها، فاختمت فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات، إذ لهم أن يقولوا: يا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكن كيف نعبدك؟

فبعث الله محمداً ^{عليه السلام} في ذلك الحين لازالة هذا العذر الذي بيّنه سبحانه بقوله: «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، أي إننا إنما بعثنا إليكم كراهة

أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين ، وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين .

ثم بيّن أنه أزال هذا العذر فقال : « فقد جاءكم بشير ونذير » بيّن لكم أمر النجاة والخلّاص والسعادة الأبدية وأنها منوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يحبّ أحداً .

« والله على كل شيء قدير » ومن دلائل قدرته نصر نبيه محمداً ﷺ وإعلاء كلمته في الدنيا ، وفي ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوي الأحلام الى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة .

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : دعا رسول الله ﷺ يهوداً الى الاسلام فرغّبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب : يامعشر يهود اتقوا الله ، فوالله لتعلمن أنه رسول الله ، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعته وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة وهب بن يهودا : إننا ما قلنا لكم هذا ، وما انزل من الكتاب من بعد موسى ولا أرسل الله بشيراً ولا نذيراً بعده فأنزل الله الآية ^(١) انتهى .

أيها المسلمون تأملوا في هذه الآيات التي نزلت في حق اليهود والنصارى فإنها صريحة في كفرهم وأنهم خرجوا عن دين الله وعن أمة نبيه ، فأنزل الله على خاتم الأنبياء كتاباً وفيه آيات تعلن كفرهم للملأ أجمع ، وهذه الآيات لا يمكن أن تأتي عليها نسخ ولا يمكنهم التلاعب بها وتحريفها كما فعلوا في التوراة والإنجيل فهم ملعونون على لسان النبي الأمي وعلى لسان أمته التابعين له الى يوم القيامة .

أيها المسلمون إن هؤلاء الفرق إنما استحقوا اللعن لأنهم نقضوا الميثاق ونكثوا العهد ، فعلى كل مؤمن مصدق بالنبي محمد ﷺ أن ينبذهم ويلعنهم ولا

يواليهم ولا يقر بهم .

أيها المسلمون إن من يتولاهم منكم يكون ممن نقض الميثاق وخان الله ورسوله، فهو مستحق للمطرد واللعن ومحكوم بالكفر وخارج عن أمة محمد ﷺ .
وحيث إنه يوجد في المسلمين من يخون المسلمين ويوالي أعداء الله ويمكنهم من التسلط على المسلمين ولا ينهاء بقية المسلمين عن فعله هذا إما لعدم علمهم أو يظنون أن هذه الخيانة إنما تضر الخائن وحده ، ولكنهم إذا سكتوا عنه يعمهم العذاب ولذا تضر جميع المسلمين بسلب أراضيهم وقتل الرجال وسبي النساء، وفي الوقت نفسه يحاول العدو الصهيوني تهويد هذه المناطق، فإذا لا يمكنهم والحالة هذه تدارك ذلك ما لم يرجعوا إلى الله ويعملوا بأحكامه ويقاطعوا عملاء الكفر الذين يكيدون المسلمين .

أيها المسلمون يمكنكم في التفاتة قصيرة أن تتداركوا جميع هذه الأمور وتخلصوا من جميع هذه المصائب وترجعوا إلى عزكم وشرفكم .

إن هذه الالتفاتة هي : أن تعرفوا أنفسكم أنكم نقضتم الميثاق ، فتوانقوا الله من جديد ، توائقوه ميثاقاً صادقاً صادقاً عن نية صحيحة وسريرة طاهرة فإنه تعالى يقول : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »^(١) ومعنى نصره الله نصره دينه ونصرة شريعته ونصرة نبيه ﷺ .

ثم ذكر الله بعد ذلك ما قاله لهم موسى حيث ذكرهم بنعمة الله عليهم وأمرهم بحرب عدوهم ، فخالفوا وعصوا ، فابتلاهم الله بما ابتلاهم به ، فقال عز وجل :

واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ان

جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين (٢٠) يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون (٢٢) قال رجالان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهما الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون (٢٤) قال رب انى لأهلك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥) قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٦) .

ماقاله الطنطاوى :

قال فى تفسيره لهذه الآيات السبع : « واذا قال موسى لقومه » شرع بكل قصص بنى إسرائيل إذ خرجوا من أرض مصر » يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء « فأرشدكم وشرفكم ، وقد تقدم ملخصه من التوراة منقولا من سفر التثنية « وجعلكم ملوكاً » أي جعل منكم ملوكاً « وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » كما قال فى سفر التثنية المتقدم : إن اليوم الذي خلق الله فيه الانسان على الأرض ومن أقصاء السماء الى أقصائها ، هل جرى مثل هذا الأمر العظيم وهل سمع نظيره . . الخ ؟

وهذا هو معنى الآية هنا « يا قوم ادخلوا الارض المقدسة » ولقد عرفتها وهي مابعد نهر الاردن التي منع موسى من دخولها ووعد بها فتاه « التي كتب الله لكم » قسمها لكم « ولا تردوا على أذباركم » ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة « فتنقلبوا خاسرين » ثواب الدارين .

« قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين » لاتأتاني مقاومتهم ، وقد تقدم إيضاحه في التوراة « وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون » .

« قال رجالان من الذين يخافون » أي يخافون الله تعالى وهما كالب ويوشع « أنعم الله عليهما » بالايمان والثبات « ادخلوا عليهم الباب » باب قريتهم « فاذا دخلتموه فانكم غالبون » كما جاء في الوحي لموسى .

وأما قوله : « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » الى قوله : « انا هاهنا قاعدون » فهو مفهوم ، ويقصدون من قولهم « اذهب أنت وربك » الاستهانة بالله ورسوله .

فبث شكواه الى الله « قال رب انى لأملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » .

« قال فانها » أي الأرض التي وعدوا بها « محرمة عليهم أربعين سنة » لا يدخلونها حتى يفنى هذا الجيل الجاهل الشرير « يتيهون فى الارض » يسيرون فيها متحيرين « فلا تأس على القوم الفاسقين » .

لقد فسرت لك هذه الآيات في هذا المقصد تفسيراً ينطبق على الحياة الاجتماعية الاسلامية وقلت : إن المسلمين عاهدوا الله ، وبنو إسرائيل عاهدوه أيضاً ، فأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا موسى وجبنوا عن محاربة الكنعانيين ، فحرّمهم الله ولم يدخلوا البلاد إلا أبناءهم . وهكذا النصارى تغالوا في الدين وتفاخروا بقرّبهم من الله فجعلهم فرقاً متشاكسين ... الى آخره . وأزيد الآن إيضاحاً للمقام فأقول :

أيها المسلمون في أقطار الأرض ، لم ينزل القرآن لمجرد التلاوة ، احذروا احذروا ، وهذه القصص لا تقصد لغيرنا ، مالنا وللأمم السابقة ، إنما قصصهم عبرة ، والعبرة هنا أن بني إسرائيل قست قلوبهم ، وهكذا المسلمون قست قلوبهم وغلظت نفوسهم فانكبوا على الفقه عما كفين وظنوا أن مذاهبهم هي كل شيء في الدين ، فنسوا جمال الله في الأرض والسموات ، وجهلوا خلق الكائنات ، فأذلتهم الفرنجة لأنهم جاهلون ، وقتلوهم لأنهم نائمون .

ولما طغوا في العقائد وتفرقوا فرقاً أوقع العدواة فيما بينهم كما حصل للنصارى ، ثم زاد المسلمون المتأخرون فتغالوا في الاسلام وجعلوا أن كل من انتسب إليه فهو ناج ، ففعلوا كما فعل اليهود والنصارى وكأنهم أيضاً يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وهذا هو الغرور الباطل كما تقدم في سورة النساء «ليس بأمانيكم ولا أماني» أهل الكتاب ،^(١) فهذه التي هنا وهي آية المسيح يراد بها أن لا يتغالي المسلمون في الاغترار بالدين وإنما لكل امرئ ما كسب وعليه ما اكتسب ، هذا هو القصد من هذه الآيات .

وأيضاً يفيدنا الله قائلاً : أيها المسلمون اذا رأيتم الأعداء حلّوا بساحتكم فاعلموا أن الذي يخرجهم إنما هو الصبر والقوة والجلد والعزيمة ، وأن يظهر جيل جديد يخرجهم ، وأن من يعيشون في نعيم وترف أحكم عليهم بالهلاك والدمار ، أما اولئك الذين يعيشون في شظف العيش فإنهم أقوياء البنية يجدون نشاطهم ويرجعون مجدهم ويرفعون لواءهم .

وكانه يقول : أيها المسلمون اذا رأيتم هذا الجيل خاضعاً للفرنجة فربّوا أولادكم على الشهامة والمروءة كما ربّيت بني إسرائيل في الصحراء تقوية لأبدانهم وتعويداً لهم على الاحتمال والصبر .

وإن شئت فاقرأ هذا المقام في سورة البقرة عند قوله : وأستبدلون الذي

هو أدنى بالكذي هو خير»^(١) ثم ذكر أنهم ضربت عليهم الذلّة والمسكنة ، فافراً هذا الموضوع هناك فإنه مستوفى ، ولكن هنا بعض زيادات نافعة فافهم^(٢) انتهى .
 إن هذه الآيات (من آية ٢١ الى ٢٦) قد ذكر الله فيها صفات اليهود والنصارى المذمومة التي تسببت من نقض الميثاق، فلما ارتكبوا قبل كل شيء هذا الفعل تبعه لعن الله لهم وقست قلوبهم وصاروا يحرقون الكام عن مواضعه وتفرقوا ووقعت بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، وآخر أمرهم صاروا ناهين في الصحراء، وضربت عليهم الذلّة والمسكنة .

وإن المسلمين لما نقضوا الميثاق قد ابتلوا بهذه الخصال كما ابتلى بها غيرهم حتى تفرقوا ووقعت بينهم العداوة والبغضاء ووقع الحرب بينهم وقتل بعضهم بعضاً وخرج بعضهم عن دين الاسلام لموالاة الكافرين وإطاعتهم لهم .

إن هذا العصر هو القرن الرابع عشر الهجري الذي يعتبر عنه بعض المسلمين بالآخرين العشرين ، وذلك أن الانكليز لما فتحوا العراق وأخرجوا منه العثمانيين بداوا التاريخ الهجري وأحلّوا مكانه التاريخ الميلادي ، وكذلك جعلوا الشهور الهجرية شهوراً ميلادية ، وكذلك بالنسبة الى التوقيت استعاض عنه بأن جعلوا مبدأ الساعة من الزوال الى منتصف الليل ، فطاب للناس هذا في عصرنا الحالي وبقوا ملازمين لها ، كما طاب لهم أغلب الأشياء التي يستعملها الغرب المستعمر فلازموها وواظبوا عليها وإن كانت موجبة لنقض الميثاق الذي واثقوا الله عليه من توحيده ونصرة نبيه ﷺ ودينه وغفلوا عما أعطاهم الله بدلاً عن هذه الامور الثلاثة ، والبديل هو ذلك الأمر العظيم المهم الذي يكون فيه نجاح الدنيا والآخرة ألا وهو الظهور على الأعداء في الدنيا ورضوان الله والجنة في الآخرة .

ولما نقضوا الميثاق أصابهم ما أصاب بني إسرائيل من الامور المتقدمة ذكرها

(١) البقرة : ٦١ .

(٢) تفسير الجواهر : ج ٢ ص ١٤٣ - ١٤٤ .

وتغلب عليهم أعداؤهم ، وأخذوا ديارهم وقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم وفعلوا
الأفاعيل الغريبة ولم يلتفت المسلمون .

قوله تعالى : واقتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً
فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلناك قال انما
يتقبل الله المتقين (٢٧) .

إن قصة ابني آدم لا تدخل في موضوع بحثنا ، ولكن لما ذكرها الاستاذ
الطنطاوي في تفسيره ووصل الى قصة الغراب ذكر اعتراضاً من أحد أصدقائه ، ثم
أجاب عنه فأحسبت أن أذكر ما كتبه فإنه لا يخلو من فائدة ، قال :

بينما أكتب هذه الكلمات إذ حضر عندي فاضل من الأذكياء واططلع على
ما كتبه فقال : لم أورد الله هذه القصة وأنت تعلم أن عقول الناس ليس عندها
متسع لمثل هذا ؟ وما المناسبة بين ما تقدم وبين القصة ؟ وما لنا ولآدم وبنيه ونحن
في القرن العشرين ؟ فما فائدتنا والمدنية الحاضرة قد رقت الامم ونحن نرجع الى
أشياء كانت في القرون الاولى ولا ندري ماذا فعل الزمان بها ؟ وما فائدة ذكر الغراب
وحسد ابن آدم ؟ إن الشك والكفر يرفرفان على عقول جميع المتعلمين الأذكياء
في البلاد الاسلامية ، فإن لم تأت بجواب شافٍ فإنني قلت لك الحقيقة ناصعة بيضاء
وأنت تعلم أن ديننا هو آخر الأديان والله يظهره على الدين كله ، أبمثل دفن
الغراب يظهره على الدين كله وهذا عصر الكهرباء والبخار والطيارات والمعجائب
والكشف الحديث ؟ فأين المعلوم وأين المعارف وأين عجائب القرآن ؟

فقلت له : لو لم يكن في القرآن سوى هذه القصة لكفت في الإعجاز والسوق الى
ما فوق المدنية الحاضرة ، إن هذه القصة لا تنفع بالمدنية الحاضرة ، إنها ترمي الى أشياء
لم يعلمها البشر ، هي تشير الى أن الناس نادمون ، وبالفكر في أمثال هذا القول يستيقظون .

هذه الآية فتحت باب السعادة الانسانية والمحبة الأخوية والمودات الآدمية والاخلاص وإشراف القلوب ونزع ما في الصدور وارتقاء سائر نوع الانسان مسلمين وغير مسلمين ، ولكنها في الوقت نفسه توبخ المسلمين أشد توبيخ وتقرعهم أعظم تقرع ، وتطلب من النوع الانساني أن يصل الى منتهاه وأن يرقى الى أقصى مداه . فقال ذلك الفاضل : إنما تقوله لي الآن أشبهه بأقوال الصوفية في هذا العصر الذين يمدحون الدين ولا يأتون سراً من أسرارهم ولا نبأ من أحواله ، وإنما هي كلمات يتلفظونها وأقوال يزخرفونها كبراً عن كبر ، وإذا سألتهم : أين تلك العجائب ؟ ظهر عجزهم وأضلوا سواء السبيل ، فافصح ما قلت .

فقلت : الاجابة عن السؤال :

ألم يتقدم في هذه السورة الصيد حلاله وحرامه وحل النساء ؟

قال : بلى .

قلت : ألم يذكر فيها اليهود والنصارى وكيف تغالوا في الدين وأن الاسلام قد جاء لاصلاح ما أفسده الزمان من العقائد والمغالاة في الدين بالوهمية الأنبياء أو بغفران الذنوب مجاناً لا تتساب الناس الى الدين ؟

قال : بلى .

قلت : أو لم أقل إن المسلمين لم يذكر لهم هذا إلا ليحترسوا من ذلك التفرق ! وقد وقعوا فيه فتفرقوا واقتتلوا كما اقتتل النصارى ورجعوا الى التواكل واعتقاد الغفران لأجل الدين كما فعل أهل الكتاب .

قال : بلى .

قلت له : إن الله جاء بهذه القصة التي هي من جملة القرآن لتكون بلسماً يداوى به جراح الامم الاسلامية في هذا الزمان وفي مستقبل الزمان ، هذه القصة قصتها الله لهذا .

فقال : وكيف ذلك ؟

قلت: أنت تعلم أن الفطرة الانسانية فيها غريزتان لا ينفك الانسان عنهما ولا يعيش إلا بهما .

أحدهما: أنه يحب أن يختصّ وحده بكل مكرمة ونعمة، فهو أبدأ يحب أن يكون له السبق والفضل في كل شيء، في المال، في الجمال، في العلم، في الملك، في الشهرة، في الجنة، في عالم الملائكة، في كل ما يسمعه أو يقرأه. وثانيهما: أنه يحب من حوله ويودّ ليكون معه قوم كثيرون ليساعدوه في اموره .

فهو إذاً بين متناقضين في الغريزة، أولاً الاختصاص، وثانياً الاجتماع، ولا اجتماع إلا حيث يكون الناس لهم حياة، والحياة ذات مزايا كثيرة، فالانسان لما كان روحاً عالية شريفة أحبّ الانفراد بالعلو، ولما كانت تلك الروح تنزلت الى عالمنا الأرضي الضعيف المتأخر وسكنت هذه البنية احتاجت البنية الى المساعدة من الأهل والأقارب وأهل الوطن وسائر أفراد الأمة وجميع الأمم .

وهاتان الغريزتان أبدأ تتجادلان في الانسان، فإن غلبت الاولى وقع الانسان في الظلم والحسد والكبر وأمثالهما، وإن غلبت الثانية ربما أضرّ بنفسه وتنزل الى المذلة والصغار واستسلم للمفقر والاحقار، فان اعتدلا اعتدل الانسان وسار سيراً حسناً في حياته مع الناس أجمعين .

فالحاجة الى اجتماعه بأبناء جنسه حملته على مزايا شريفة كثيرة كالندم على ما يفرط منه لهم والحزن والكآبة عليهم وكمساعدتهم في السراء والضراء وما أشبه ذلك، فهذه المزايا مغروزة في نفوسنا ثابتة لا يزحزحها فلسفة ولا يبعدها زخرف من القول زور .

والعقل الانساني هو الذي يتصرف في هاتين الغريزتين ببصيرته حتى لا نطغى إحداهما على الاخرى، فلا يحبّ الانفراد يعمينا عن المساعدة الأخوية ولا المحبة الأخوية تصدنا عن حفظ أنفسنا والعمل لاسعادها .

قال : بلى ثم ماذا ؟

قلت : وأنت ترى أن هذا العقل المتصرف في هاتين الغريزتين ينظر فيما حوله ويتعرف عجائب هذه الدنيا فيدرس نظامها ويتخذ لنفسه من كل شيء أحسنه فإذا رأى النبات زرعه وجد في إنمائه ، أو الحيوان اجتهد في تذليله وتعلم من صناعاته ، فنسج كالعنكبوت وطار في الطيارات كالطيور وسبح في البحر كالسمك ، وصنع القناطر على البحار كما تصنع القروود من أنفسها تحت شجرة على شاطئ النهر ، ويأتي أحدها ويتعلق بالشجرة ويمسك به آخر ، وهكذا يمسك بعضها ببعض فيصير منها شبه جسر طويل متصل بعضه ببعض ، ثم يأتي أسفلها ويمد رأسه إلى جهة الشط الآخر ، وتتجه جميع القردة المتصلة بعضها ببعض إلى الشط الآخر ، فما أسرع أن يصل القرد الأسفل إلى الشجرة من الجهة الأخرى من النهر ، ويمسك بالشجرة ذلك القرد الذي كان أدنى . وهنا تمت القنطرة التي تصنعها القردة محدبة بوضع هندسي ، ثم تمر القردة الصغار على هذه القنطرة وهن يتغامزن ويضحكن ويجرين فوق القنطرة القردية ، فإذا انتهى المروءت القرد الذي في الشط الآخر في مكانه فوق الشجرة متمسكاً بها وأنزل يديه إلى القرد الذي تمسك بالشجرة الأولى في الشط الأول ، ومتى ترك الشجرة رأيت هذه القنطرة كلها أصبحت صفاً واحداً في الشط الثاني معلقاً في القرد الذي استمسك بالشجرة الثانية. وحينئذٍ ما أسهل أن يجري كل واحد في الأرض الفضاء آمناً مطمئناً ، وإذا رأى الرياح والنمل والحشرات تلهج الزرع ولاعلم لها به فليقيم هو بالالفاح ليزيد النماء والخير والبركات ، وإذا رأى الشمس والكوكب أضاءت له السبل فإنه يقلد الطبيعة ويأتي بالسراج التي توقد في منازلها ، وهكذا يتعلم الإنسان مما حوله كل ما استعدت له نفسه من السعادة ، أليس كذلك ؟

قال : بلى .

قلت : لننظر في الآية الآن أليست هذه الآية جاءت للمبحث في الفطرة

الانسانية الخاصة من كل شائبة ؟ أليس قتل قابيل لهاييل راجعاً للغريزة الاولى ؟
قال : بلى .

قلت : أليس استسلام هاييل لقابيل راجعاً للاستسلام للمعاطفة الثانية وإنكار الذات كل الانكار ؟

قال : بلى ، وإني معجب بهذا القول وأول مرة سمعت هذا في تفسير هذه الآية .

قلت : أليس هاييل لما استسلم للمعاطفة الثانية كان جزاؤه القتل من أخيه ؟
قال : بلى ، وهذا لا يرضاه ديننا وإن كان دين المسيح يرضاه ، ومع ذلك ترى المسيحيين تركوا هذا كله .

قلت : أأنت ترى أن الغريزة والفطرة قد أوجبت عليه أن يندم ويحزن وقد حار في أمره ؟

قال : بلى .

قلت : ولما لم يهتد الى مسألة الدفن جاء له الغراب فأراه الدفن ؟
قال : بلى .

قلت : أليس هذا هو فعل العقل وأنه يجب أن يسيطر إما بالتعليم وإما بما يحسنه الله للإنسان من الحوادث التي توقعه في النكبات فتنتفتح بصيرته المفهم والتعقل فيدرك الحقائق ؟ وإذا رأى قابيل غراباً يبحث في الأرض وقت حزنه فقلده ودفن أخاه فكم رأى من غراب وحية وأسد ونملة ونحاة وهو يطلع على عجائبها في كل يوم ولا يفكر ولا يعقل ما تفعل ، ولكن لما وقع في النوائب استعمل عقله فتعلم مما حوله وهو الغراب .

قال : هذا كلام حسن وجميل .

قلت له : فلذلك قال الله إن عاطفة الانفراد لما تغلبت على عاطفة الاجتماع وأصبح الناس يقتل بعضهم بعضاً وغلب الظلم عليهم قديماً وحديثاً حتى نسوا عقولهم

ولم يفكروا في أمرهم كتبنا فيما شرعنا في كل دين من الديانات أن القتل إثم عظيم وأن حياة الانسان شريفة .

قال : لم يقل الله ذلك فأوضح .

قلت : ألت تعلم مما ذكرناه في أول سورة النساء أن الناس على وجه الأرض كأنهم شخص واحد ، وأن بني آدم على ظهر الكرة الأرضية متضامنون وإن لم يعلموا متعاونون وإن لم يعرفوا ، أنه لا فرق بين النحل وتلقيحها الأشجار وهي تجهل ذلك أثناء شربها العسل من الزهرات وبين الانسان ، فإن كل أمة تخدم سائر الامم وهي غافلة عما تفعله ، بل تحارب كل أمة الاخرى وهم جميعاً غافلون نائمون ، لا يعلمون أنهم بهذا ينقصون الثمرات التي هي خير للجميع ! .

قال : أوضح .

قلت : إنك ترى أن القطن في بلادنا المصرية لو حصل في بلاد الصين أو اليابان نكبة وفقر ولم تأخذ من قطننا أفليس ذلك يكون نكبة علينا ؟

قال : بلى .

قلت : اذا لم نأخذ نحن معاصر المصريين الشاي الوارد من الصين أو البن الوارد من اليمن أو الثياب المصنوعة في اوربا أفليست كل تلك الامم تتأثر وتنقص ثمراتها بنسبة عدم شرائنا ؟

قال : بلى .

قلت : أفليست ترى هذا الانسان المسكين تحارب كل أمة منه الاخرى وتقتل رجالها وهم لا يحفلون بملك المساعدة الخفية ؟

قال : بلى .

قلت : فالفيلسوف في الصين والهند وفي اوربا والمخترع من هذه الامم يؤثر في أمته مباشرة وفي الامم الاخرى إما مباشرة وإما بالواسطة ؟

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : فالذي اخترع قطار السكة الحديدية والتلغراف والكهرباء وأمثالها أثر في أمته وفي الامم الاخرى فعلاً .

قال : نعم .

قلت : لكن العالم والمدرس والمهندس وأمثالهم يؤثرون في أمتهم فينفعونها وأمتهم عضو من سائر الامم تفيد في المجتمع .

قال : نعم .

قلت : إذا العامل الصغير والفلاح والمزارع كل له عمل في أمته ، وأمته لها فائدة في جميع الامم إجمالاً .

قال : هذا حق .

قلت : هذا معنى الآية ، يقول الله : لما تخلى الانسان من عقله وترك الكبيرياء والحسد يطغيان عليه تارة فيقتل سواء وتارة اخرى يقع في التهلكة ولا يستيقظ عقله للتفكر إلا بعدما يذوق الشدائد كما اتفق لقابيل أرسات رسلاً وعلمت الانسان بواسطتهم ، لأن غريزة الانسان قد يتركها لهواه وتنوم الشهوات عقله تنوياً مغناطيسياً فلا يستيقظ للفكر إلا بعد حلول النوائب ، ومما قلته في ذلك التعليم « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » ^(١) لأن الإنسانية متضامنة وهو عضو منها « ومن أحيّاها فكأنما أحيّا الناس جميعاً » ^(٢) .

ومثل هذا يظهر في النابغين والمخترعين الذين يظهر فضاهم لسائر الناس وينفعونهم جميعاً ولكن غير النابغين لا يتفطن لمنفعتهم الإنسانية إلا الأقلون ، فعلى ذلك يكون كل من قتل من الناس تعطّلت منفعته عن العموم ، وكل من بقي فمنفعته للعموم .

قال : هذا حسن ولكنه خفي على أكثر العقول .

قلت : فاذا قال في أول السورة إن من الصيد ما هو حلال ومنه ما هو حرام

وقال أحللت لكم صنف كذا من النساء فقد قال هنا: أيها الناس أنا لم أخلقكم لأجل اللذات ولم تحيوا للشهوات وإنما هذه مقدمات يراد بها الحياة، فإياكم أن تشغلكم شهوات الصيد عن عجائب الطبيعة وغرائبها البديعة كما ترون في غرائب الغراب من آيات الله والحكمة وكيف تعلمتم منه ومن غيره من الحيوان، فاحذروا أن يلهيكم أكل الحيوان وصيده عن الحكمة والعلم فيه، وكيف يلهيكم هذا فقد قلت لكم: إن ابن آدم دعا بالويل والثبور وقال: كيف جهلت علم الطيور ولم أعرف حفر القبور، فعلى عقولكم فلتبكموا وعلى ضياع عزائمكم فلتحزنوا. وكأنه يقول: إذا أحللت لكم النساء فليس معناه أن تغفلوا عن العدل كما غفل قابيل فقتل أخاه، ولكن اعدلوا في أعمالكم لتنظيم جماعاتكم وادرسوا علم الطير والأنعام لتنالوا سعادة الحياة والمهمات.

وإذا قال الله إن اليهود والنصارى أفرطوا وأسرفوا في عقائدهم وقلنا نحن أيضاً إن المسلمين قد لحقوهم فيما وقعوا فيه فذلوا فقد قال الله هناك: أيها الناس ارجعوا إلى العقل والتفكير وليرجع الناس لعقولهم ويفكروا.

وكما أن قابيل تنبه إلى فعل الغراب بعد الآلام والندم - هكذا من أصابهم العطب ونزل بهم الشقاء من الأمم - فليفزعوا لعقولهم وليفكروا فيما حوّلهم وليتأملوا فيما خلقته لهم.

إن المسيحيين لما مسهم الضرر بسبب عقائدهم العتيقة جاء الإسلام فحدث وفعل واستنارت عقولهم بسببه.

أما الإسلام فإن بعض أهله قد أصابهم الغرور وناموا نوماً عميقاً فنبههم الله بالمصائب والكوارث، وقد جاء دورهم فليتنبهوا.

هذا هو الذي انشرح له صدري بإمامة الإسلام.

أقول لكم وأنا ملزم أن أقول لكم: كيف يقول الله على لسان ابن آدم:

« يا ويلتنا أعجزت أن أكون مثل الغراب »^(١) كيف دعا ابن آدم بالويل والنبور لجهله وكيف يقال ذلك؟ ألمجرد حكايات؟ كلا ، هل يظن المسلمون أن القرآن يأتي لمجرد الفكاهة؟ كلا ثم كلا .

وانظر كيف يقول الله : « فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه »^(٢) الله هو الذي يقول بعثت غراباً يعلم ابن آدم ويريه كيف يواري سوءة أخيه .

أيها المسلمون إن الأمر عظيم ، تضعضع المسلمون وضعفوا ، وما نجاتهم إلا بهذه القصة وأمثالها ، هذه القصة تقول :

إن ابن آدم لما ندم على تفريطه عقل وفهم عن الطير ، وأنا أقول : الله يريد أن يعلمنا علم ما في الأرض والسماء ، وما الغراب إلا ضرب مثل وإن الحكاية إلا رمز حقاً وليس القصد منه لفظها ، وإذا كان شراح كتاب كليملة ودمنة والوزير الفارسي وكذلك ابن المقفع يقولون : إن الحكايات الخرافية التي فيها تكون تسلية للامة وعالماً وحكمة وسياسة وفلسفة للمخاضة أفلا يكون كتاب الله أولى بهذا؟ فإذا كانت الخرافة تجعل رمزاً للحكمة والفلسفة فما بالك بكتاب الله الذي قال إنه سيظهر على الدين كله .

إذا المسألة أكبر مما نظن وأعظم مما نفهم ، والمسلمون اليوم لهم حصن يلجأون إليه وملجأ وهو التفكير والتعقل والفهم وجميع العلوم أصبحت هي نفس الدين ، ولم اختار الله الغراب في التعبير؟ الغراب من الحيوانات الفواسق التي ورد الشرع بجواز قتلها كما تقدم .

فإذا كان ابن آدم إذا أخطأت فكرته يرجع الى الحيوان بل الى أقل الحيوان احتراماً في الدين الاسلامي فكيف يكون الفكر في باقي الحيوان وفي علوم الامم وصناعاتها؟

نحن أمرنا الله أن نعرف علم الحيوان بل أدنى الحيوان فما بالك بعلم الانسان! فالأقل أنا أيها الاستاذ لك ولتقل لي : يا ويلتنا أعجزنا أن نعرف ما تعرفه الامم التي حولنا فنواري سوءة اممنا الاسلامية فأصبحنا من النادمين ؟ أعجزنا ندرس جميع العلوم ونعرف كل ما خلق الله ليرينا الله كمال غرائز الحيوان؟ ولكن الانسان يخطأ ولذلك نرى الانسان يتعلم من الحيوان وتعلم ابن آدم من الغراب، فالحيوان غريزته كافية لحياته والانسان تدنس الشهوات غريزته، وبعد ذلك يتعلم من الطبيعة بتعليم الله .

هكذا يقول الله : « ليريه » فهو خلق لنا ليعلمنا ولم يخلقه ليصطاد منه فقط بل خلقه للتعليم ، وكان الله يقول هل ذكرت في هذه السورة أن ابن آدم قال : يا ويلتنا علمي ضياع صيد أضياع الشهوات بل دعا بالويل للمجهل بالامور الطبيعية؟ وهكذا يعلم الله بالقرآن ويرشد أمة الاسلام .

واذا كان الله يعلمنا بالغراب أفلا يعلمنا بما هو أقرب إلينا من الغراب وهم الامم التي حولنا ، هكذا يقول الله تعالى : لا تجهلوا ما حولكم مما علمته للامم وما خزنته في الطبيعة ، ورمز بذلك بتعليم الغراب .

قال صاحبي : ولكن الناس يقولون إن غرامك بالطبيعة وعلومها جعلك تلح في هذه الآيات وتأتي فيها بما هو بعيد عن الآية ، فهل هذا كله يترتب على قول الله : « ليريه كيف يواري سوءة أخيه » ؟

قلت : فاسمع غيرها ، قال الله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبثنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة * وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد »^(١) فانظر كيف ذكر أن هذه الأشياء تكون تبصرة وذكرى وتكون رزقاً للعباد ، وقد تقدم التبصرة والذكرى على كونها رزقاً للعباد ، وهذا يدل على عناية الحكمة الالهية في القرآن أن يتفكر الناس

في علوم الطبيعة والمخلوقات ؟

فقال : ولكن هذه الفكرة مفهومة من سبعمائة وخمسين آية كما قلت أنت

فما الداعي إذا لاستخراجها من قصة كهذه ؟

فقلت : المجاز أبلغ من الحقيقة ، وهذه القصة متى عرفها المسلمون على

الوجه الذي ذكرناه وبالمنهج الذي سلكناه نأروا في وجه الجهالة وقاموا للعلم قومة رجل واحد لأن الأمة ليست على بينة من هذا ، فهذا القصص دلالة أفصح ومنافعه أكمل وتأثيره أشد وفعله أوقع في النفوس وأذهب للبؤس وأجذب للفهم وأقرب للعلم وأدعى لرجوع الأمة الى كمالها ونهوضها الى شرفها العظيم ^(١) .

إن الأستاذ الطنطاوي يريد من كل مسلم من أي طبقة كان من المؤمنين أن يكون حقيقياً ولا يكون كاذباً في دعواه للإسلام ، يريد من المسلم أن يطبق جميع الأحكام التي أمر بها النبي ﷺ وأنزلها الله في القرآن ، ويريد من كل طبقة أن تقوم بالتكليف الذي كلفت به وأن تطبقه على الرقة ولا تتخلف عن شيء منه وإن كان دقيقاً قليلاً . يريد من العالم إذا قابل الأمير الظالم أو غير الظالم أن يقول له : احمل الناس على أداء الواجبات واجتناب المحرمات ، ويريد من الأمير أن يمثل قول العالم ويأمر الناس بإتيان الواجبات ، ويريد من سائر الناس أن يمثلوا أوامر الله فلا يخالفوها ولا يعصونه سبحانه ، ويريد من العلماء والامراء أن يحملوا الناس على تعلم العلوم اللازمة للبشر بحيث لا يحتاج المسلمون الى الهجرة الى بلاد الكافرين والتعلم منهم والالتجاء .

إن الأستاذ الطنطاوي يريد من المسلمين أن يقوموا بجميع ما ذكر ولا

يتركوها شيئاً منه .

إن كل مسلم عاقل مفكر يريد من سائر المسلمين ما أَرَادَهُ الله ورسوله منهم

بل ما جعله الله محققاً ومحتماً عليهم بل جعله الله كالمعلول الذي تحقق وجوده

بوجود علمته ، فتأملوا قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً »^(١).

تأملوا هذا التعبير الذي أنزله الله على نبيه ﷺ بصيغة الخبر لا بصيغة الأمر فكأن الرجل إذا صدق بالنبي محمد ﷺ واعتنق الدين الاسلامي أصبح في ذلك اليوم الذي أسلم فيه أخاً لكل مسلم وأصبح كل مسلم أخاً له من غير أن يعمل شيئاً آخر فلا تحتاج هذه الاخوة الى شيء آخر غير الاسلام .

فكل من أسلم ولم ير نفسه أخاً للمسلمين ولم ير المسلمين إخواناً له فليعلم أنه غير مسلم وأن إسلامه ليس ذلك الاسلام الذي يريد الله تعالى من العباد ، وقد تواترت الرواية عن النبي ﷺ : من أصبح لايهتم بامور المسلمين فليس منهم^(٢) فاذا عد نفسه أخاً لكل مسلم كان من الواجب عليه أن يهتم بالأمر الذي هو مشترك بين المسلمين في العمل وفي الفائدة ، فعليه أن يشتغل به معهم حتى يحصل على نصيبه من الفائدة .

فالعالم عليه أن يبين للأمير ما على الأمة من واجبات من تعلم العلم ومن العمل ، والأمير عليه أن يبحث الأمة على ما بلغه به العالم ، والأمة عليها أن تقوم بما عليها .

فاذا أخل أحد هؤلاء الأصناف الثلاثة بواجبه اختلت الامور كلها، ويلزم على الجميع أن يحملوا على من أخل ويرجعوه الى محل عمله ، فاذا أبى وامتنع أحد المسلمين عن القيام بعمله وأخل بأحد شروط الاسلام فمعنى ذلك أنه خرج عن زمرة المسلمين . فالمسلمون كلهم يد واحدة على من سواهم ، وهذا الذي يترك بعض شروط الاسلام أو كلها اذا ساعد العدو على المسلمين صار منهم ويلزم محاربتهم كما يحارب العدو . بل أن مساعدة العدو وحدها توجب الخروج عن الدين

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) بحار الانوار : ج ٧٤ ص ٣٣٩ ب ٢٠ ح ١٢٠ .

وإن صام وصلى وحج وزكى « ومن يتولهم منكم فإنه منهم »^(١).

إن الاستاذ الطنطاوي يقول: يلزم على الانسان العاقل أن يتعلم مما حوله من الحيوانات الامور الغريزية التي طبع الله عليها الحيوانات ولا ينبغي له أن يغفل عنها.

وأنا أقول: إن الله أكرم الانسان بمالم يكرم به أحداً من سائر المخلوقات لا من الحيوانات ولا من الملائكة، ألم تسمع قوله تعالى: « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم »^(٢).

فعلمنا من هذه الآية ومن أمثالها أن علم الانسان هو من الله ومن السماء فإذا تلقاه من مصدره الالهي وعمل به لا يحتاج حينئذ الى غيره.

أما هذا الذي يترك العلم السماوي الذي منحه الله وصار مخالفاً لأوامر الله وعاصياً له وغير منتفع بالعلوم التي منحها الله لابن آدم يكون في هذه الحالة محتاجاً لما عليه الحيوانات، ولذا نرى ابن آدم لما عصى الله وقتل أخاه بقي في حيرة وضلالة ولم يعرف كيف يصنع، فبعث الله الغراب ليعلمه كيفية الدفن.

فالأجدد بالانسان العاقل أن يزاد تحصيله من العلم يوماً بعد يوم حتى يتصاعد في الفضل والشرف، أما اذا تنازل في العلم والعمل فإنه يحتاج الى غرائز الحيوانات.

إن الله ينزل على كل نبي من العلوم ما يحتاج إليه لنفسه ولأمته، والنبي يودعها عند وصيه لينتفع بها هو والامة، فكل من أراد الارشاف من هذه العلوم السماوية يلزمه إطاعة النبي والقرب منه وطلب التزود من العلوم، أما نفس النبي

(١) المائدة : ٥١ .

(٢) البقرة : ٣١ - ٣٣ .

فيطلب المزيد من الله كما علمه الله « وقل رب زدني علماً »^(١) : أما الذي يعصى النبي ويخالفه في أفعاله وما يأتي به من الله فإن هذا المرء يبعد عن الله وعن علوم السماء، وكلما يبعد عن السماء يكون قريباً من التراب حتى يساوي التراب ثم يتسافل حتى يكون أهون من التراب ، وليس هذا مما يرضى به العقل ولا يرضى به ذو عقل .

إن هذه العلوم التي أنزلها الله على الأنبياء من لدن آدم حتى آخرهم وخاتمهم وهو محمد بن عبد الله ﷺ قد اجتمعت كلها عنده وأمره الله أن يطلب الزيادة فقال: « وقل رب زدني علماً » وتكررت منه هذه الدعوة مراراً فتجمع عنده من العلم ما لا يحصىه إلا الله .

وحيث إن العباد كلهم يحتاجون إلى العلم في كل وقت وزمان ولا يمكنهم تحصيل ذلك ممن يساويهم في الرتبة والمنزلة بحيث لم يكن له خصائص يميّزه في العلم أو القرب إلى الله فإن الله يختص برحمته من يشاء ويودع العلم عنده وهو يبين للناس في القضايا الخاصة ما يحتاجون إليه وما تقتضيه المصلحة ، وعلى هذا فإن النبي ﷺ لما علم بقرب ارتحاله من الدنيا أودع علمه عند علي عليه السلام ، وقد دلت الأخبار المتواترة على ذلك :

فمنها قول علي عليه السلام : علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب^(٢) .

ومنها ما دل على أن علياً عليه السلام عنده تفسير القرآن أجمع فيه المتشابه والمبين ، وقد قال هو علي المنبر : سلوني قبل أن تفقدوني^(٣) . ثم إنه أودع هذا العلم من بعده عند الأئمة من ولده فانظروا إلى ما يسنوه من العلوم .

(١) طه : ١١٤ .

(٢) تفسير نور الثقلين : ج ٤ ص ٤٤٤ ح ١٣ .

(٣) نهج البلاغة : ص ٢٨٠ الخطبة ١٨٩ ضبط صبحي الصالح .

فقد اتضح أن الأنبياء وأوصياءهم عندهم علم كل شيء ولا يحتاجون الى شيء من العلم ، وقد أمرهم الله أن يبينوا للناس ويعلموهم ما يحتاجون إليه ، فكل من صدق النبي وعمل بأمره يمكنه أن يبني أمور دنياه وآخرته على العلم الموجود عند النبي ﷺ ، أما الذي لا يصدق النبي ولا يقدر منزلة العلم فهو الجاهل الذي يسقط نفسه الى أسفل الدرجات فيساوي التراب ، وليس لهذا الشخص حق على الله أن يبعث له ما يرشده لأمور الدنيا كالغراب وأمثاله من الحيوانات إلا أن يكون أمراً يضر غير هذا العاصي ، فإن بقاء هابيل المقتول جثة هامة على وجه الأرض تضر غير القاتل ، ولذا أرسل الله له رسولا من البهائم إشارة الى أنك أيها الفاعل للمعصية أقل منزلة من البهيمة لأن الرسول ينبغي أن يكون أفضل من المرسل إليه ، فاذا كان الرسول غراباً ينبغي أن يكون المرسل إليه أقل منزلة منه ، وهي منزلة من يعصى الله وأنبياءه وأوصياءه.

لما انتهى بنا الكلام الى هذه المرحلة أقول - ووجه كلامي لمن يملك من أمور المسلمين شيئاً :- إن هذه الحالة التي نحن فيها في هذا العصر من تشتت أمر المسلمين واختلاف كلمتهم وتباين آرائهم وإحاطة أعدائهم بهم من كل جانب ومكان كل ذلك لأن أشرارهم يرتكبون المعاصي ويخالفون أوامر الله وأخبارهم لا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر ، وأن العبد كلما يكثر من المعاصي يبتعد عن الخالق حتى يصل الى مرتبة بحيث يكله الله الى نفسه ، فاذا وكله الى نفسه يكون قرين إبليس فيرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً فيرى كل شيء قبيحاً حسناً في نظره ، وفي هذا يكون المؤمن القوي هو المكلف برده مثل هذا العبد عن المعاصي ، يردعه بالقوة والفهم ، وأن في القرآن آيات كثيرة تأمر العباد بأشياء فالواجب عليه إطاعة الله وامتنال أوامره ، وفيه أيضاً آيات تنهي العباد عن أمور يلزم على العبد المطيع ترك الأمور المنهي عنها .

(فمن الآيات الآمرة) هي التي تأمر العباد بالإيمان بالله .

فمنها قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما انزل إلينا وما انزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »^(١).

ومنها قوله سبحانه : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اعتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم »^(٢).

ومنها قوله تبارك وتعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين »^(٣).
ومنها قوله جل اسمه : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »^(٤).

ومنها قوله عز وجل : « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »^(٥).

ومنها قوله جل وعلا : « قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »^(٦).

ومنها قوله سبحانه وتعالى : « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »^(٧).

(١) البقرة : ١٣٦ .

(٢) البقرة : ١٣٧ .

(٣) البقرة : ١٧٧ .

(٤) البقرة : ٢٥٦ .

(٥) البقرة : ٢٨٥ .

(٦) آل عمران : ٨٤ .

(٧) آل عمران : ١١٠ .

في ذكر بعض الآيات الآمرة بالإيمان بالله ٥١٧

ومنها قوله عز من قائل: « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله »^(١).

ومنها قوله تعالى: « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً »^(٢).

ومنها قوله سبحانه: « يا أيها الذين آمنوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل »^(٣).

ومنها قوله تبارك وتعالى: « فآمنُوا بالله ورسوله »^(٤).

ومنها قوله جل اسمه: « وإذ أوحينا إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا »^(٥).

ومنها قوله عز وجل: « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون »^(٦).

ومنها قوله جل وعلا: « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله »^(٧).

ومنها قوله سبحانه وتعالى: « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر »^(٨).

ومنها قوله عز من قائل: « لا يستمئذ بك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر

(١) النساء: ٣٩.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) النساء: ١٣٦.

(٤) النساء: ١٧١.

(٥) المائدة: ١١١.

(٦) الاعراف: ١٥٦.

(٧) التوبة: ١٨.

(٨) التوبة: ١٩.

أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم،^(١).

ومنها قوله تعالى : « والذين هم بآيات الله يؤمنون »،^(٢).

ومنها قوله سبحانه: «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه» ،^(٣).

ومنها قوله تبارك وتعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا »،^(٤).

ومنها قوله جلّ اسمه: « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله »،^(٥).

ومنها قوله عزّ وجلّ : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا »،^(٦).

ومنها قوله جلّ وعلا : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه »،^(٧).

ومنها قوله سبحانه وتعالى : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا

فستعلمون من هو في ضلال مبين »،^(٨).

(ومنها) ما تأمرنا بالايمان بالملائكة .

(ومنها) ما تأمرنا بالايمان بالكتب السماوية المنزلة على الأنبياء .

(ومنها) ما تأمرنا بالايمان بالأنبياء والرسل .

(ومنها) ما تأمرنا بالايمان باليوم الآخر ويوم البعث في الآخرة وكفر من

جحد .

فمنها قوله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك

وبالآخرة هم يوقنون »،^(٩).

(١) التوبة : ٤٤ .

(٢) المؤمنون : ٥٨ .

(٣) الفتح : ٩ .

(٤) الحديد : ٧ .

(٥) الصف : ١١ .

(٦) التغابن : ٨ .

(٧) التغابن : ١١ .

(٨) الملك : ٢٩ .

(٩) البقرة : ٤ .

في ذكر بعض الآيات الآمرة بالايمان باليوم الآخر ————— ٥١٩

ومنها قوله سبحانه : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وهم صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »^(١).

ومنها قوله تبارك وتعالى : « واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة ولا هم ينصرون »^(٢).

ومنها قوله جل اسمه : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبئين »^(٣).

ومنها قوله عز وجل « حاكياً عقيدة المؤمنين : « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد »^(٤).

ومنها قوله جل وعلا : « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار »^(٥).

ومنها قوله سبحانه وتعالى حاكياً قول الكافرين : « ذلك بأنهم قالوا لن نمسنا النار إلا أيتاماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون »^(٦).

ثم قال عز من قائل بعد ذلك : « فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »^(٧).

تنبيه

إن هذه القصة التي ذكرها الله إنما هي من فروع نقض الميثاق الذي سبب تلك الأمور الموجبة للهلاك والدمار ، فإن الله أمر نبيه ﷺ أن يقص قصة ابني

(١) البقرة : ٦٢ .

(٢) البقرة : ١٢٣ .

(٣) البقرة : ١٧٧ .

(٤) آل عمران : ٩ .

(٥) آل عمران : ١٠ .

(٦) و (٧) آل عمران : ٢٤ و ٢٥ .

آدم على اليهود ليعرفوا أن نقض الميثاق يوقع الانسان في بلاء أعظم وأشد مما ذكر فإنه قد يفعل شيئاً يكون مفسداً لدنياه ودنيا غيره ويوجب له أشد العذاب في الآخرة ، وذلك كإقدامه على قتل نفس مؤمنة بغير ذنب فإن إثمه عظيم وعذابه شديد كما ذكره الله تعالى بقوله :

من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيرأ منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون (٣٢) .

إن قتل النفس الواحدة التي هي جزء عامل من الناس تعمل لمصلحة الجميع فإذا قتل فقد أخل بالجميع ، حيث نقص المقدار الذي كان يعمل به فيكون هذا النقص مؤثراً في الجميع .

وحيث إن الإقدام على هذا العمل هو من جملة نقض الميثاق ينبغى أن يعرفه كل واحد ، ويلزم على كل مفكر عاقل أن يتحرج ويتحرز عن ارتكاب مثل هذه الجريمة العظيمة التي تذهب بدنياه وآخرته .

إن هذه الامور الفتاكة بالانسان الضعيف كلها تلحقه من نقض الميثاق الذي واثق الله به ، أما اذا واثق أحد المخلوقين فنقضه وخان أحد أبناء جنسه فذاك مما يزيد في عذابه اذا لم يكسب رضا الانسان الذي خانه في دار الدنيا ، فالعاقل الذي يراجع عقله ينبغى له أن لا يجوز على نفسه بنقض ميثاق الله أو ميثاق العبيد .

ماقاله الشيخ الطوسي :

قال في تفسير هذه الآية المباركة : ومعنى «من أجل» من جراء ذلك وجريته .

وقال الزجاج : معناه من جنابة ذلك ، يقال : أجلت الشيء أجلاً إذا أجنيت

قال الخواني :

وأهل خبء صالح ذات بينهم قد احتربوا في عاجل أنا آجله

أي جانبه . وقيل : جاره عليهم . قال عدي بن زيد :

أجل إن الله قد فضلكم فوق من أحكاً صلباً بازارا

وأصله الجر . ومنه : الأجل الوقت الذي يجر إليه العقد الأول . ومنه :

الآجل نقيض العاجل . ومنه : أجل بمعنى نعم لأنه انقياد الى ما يجر إليه . ومنه :

الآجال القطيع من البقر الوحشي لأن بعضها ينجر الى بعض .

المعنى : وذلك إشارة الى قتل أحد ابني آدم أخاه ظلماً . حكمنا الى بني

إسرائيل أنه من قتل منهم نفساً بغير نفس أو فساد كان منها في الأرض فاستحققت

بذلك قتلها وفسادها في الأرض إنما يكون بالحرب لله وارسوله وإخافة السبيل

— على ما سنبينه فيما بعد — وهو قول الضحاك وجميع المفسرين .

واختلفوا في تأويل قوله : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض

فكانما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » على ستة

أقوال :

أحدها : قال الزجاج : معناه أنه بمنزلة من قتل الناس جميعاً في أنهم خصومه

من قبل ذلك الانسان .

والثاني : قال أبو علي : إن عليه مثل مآثم كل قاتل من الناس لأنه سن

القتل وسهله لغيره ، فكان بمنزلة المشارك فيه . ومثله قوله عليه السلام : من سن سنة

حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان

له وزرها ووزر من عمل بها .

الثالث : قال الحسن وقتادة ومجاهد : إن معناه تعظيم الوزر والمآثم ،

وتقديره : يا ابن آدم إنك لو قتلت الناس جميعاً كان لك من مهلك ما تفوز به وتنجو

من النار؟ كذبتك نفسك والشيطان، فكذلك قتلك ظلماً الانسان أي كنت تستحق الخلود في النار كما كنت تستحقه بقتل الناس جميعاً.

الرابع: قال ابن عباس: معناه من شدّ على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيى الناس جميعاً، ومن قتل نبياً أو إماماً عدلاً فكأنما قتل الناس جميعاً.

الخامس: قال ابن مسعود وغيره من الصحابة: معناه «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً» عند المقتول «ومن أحيى» فكأنما أحيى الناس جميعاً» عند المستنقذ.

السادس: قال ابن زيد: معناه أنه عليه من القود والقتل مثل ما يجب عليه لو قتل الناس جميعاً. وقوله: «ومن أحيى» فكأنما أحيى الناس جميعاً: قال مجاهد: معناه من نجاها من الهلاك مثل الفرق والحرق.

وقال الحسن وابن زيد: معناه من عفا عن دمها وقد وجب القود عليها. وقال أبو علي: معناه من زجر عن قتلها بما فيه حياتها على وجه يقتدى به فيها بأن يعظم تحريم قتلها كما حرمه الله فلم يقدم عليه فقد أحيى الناس بسلامتهم منه وذلك إحياءه إياها. وهو اختيار الطبري والله تعالى هو المحيي للمخلوق لا يقدر على ذلك غيره تعالى. وإنما قال: «أحيى» على وجه المجاز بمعنى نجاها من الهلاك كما حكى عن نمرود إبراهيم «أنا حيي وأميت»^(١) فاستبقى واحداً وقتل الآخر^(٢) انتهى ما في التبيان.

إن الله قد أنزل في هذا الباب وهو الايمان بالقرآن والأمر بالعمل به وامتنال أحكامه أنزل آيات كثيرة أكثر مما أنزل في غيره من المواضع لأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي فيه الأحكام وفيه تفصيل الواجبات والمحرمات وفيه أخبار ما كان وما يكون وفيه أخبار الامم السالفة.

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) التبيان: ج ٣ ص ٥٠٠.

في ذكر بعض الآيات التي توجب علينا التذكير بالقرآن ————— ٥٢٣

أما الآيات التي توجب علينا التذكير بالقرآن :

فمنها قوله تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى

من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »^(١).

ثم يقول سبحانه : « إلا الذين تابوا وأصلحوا ويتنوا فأولئك أنوب عليهم

وأنا التواب الرحيم »^(٢).

ومنها قوله تبارك وتعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب

ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم

القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »^(٣).

ثم يقول جل اسمه : « أولئك اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما

أصبرهم على النار »^(٤).

ثم يقول عز وجل : « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين

اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد »^(٥).

وغیر هذه الآيات ٤٧ آية كلها توجب على المسلم التذكير بالقرآن وتذكير

تاركه وتوعده بالعذاب .

وأما الآيات التي تحكم بكفر من استهزا بالقرآن وجحده :

فمنها جل وعلا : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا

عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »^(٦).

ومنها قوله سبحانه وتعالى : « فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين

(١) البقرة : ١٥٩ .

(٢) البقرة : ١٦٠ .

(٣) البقرة : ١٧٤ .

(٤) البقرة : ١٧٥ .

(٥) البقرة : ١٧٦ .

(٦) البقرة : ١٧٠ .

يبدّلونه إن الله سميع عليم .

ومنها قوله عز من قائل : «ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم» ^(١) .

ومنها قوله تعالى : «ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب» ^(٢) .
ومنها قوله سبحانه : «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون» ^(٣) .

ومنها قوله تبارك وتعالى : «ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً» ^(٤) .
ومنها قوله جل اسمه : «إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً» ^(٥) .

ومنها قوله عز وجل : «فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون» ^(٦) .

ومنها قوله جل وعلا : «ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» ^(٧) .

ومنها قوله سبحانه وتعالى : «وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا

(١) البقرة : ٢٣١ .

(٢) آل عمران : ١٩ .

(٣) آل عمران : ٧٢ .

(٤) النساء : ٥١ .

(٥) النساء : ١٤٠ .

(٦) الانعام : ٥ .

(٧) الانعام : ٧ .

في ذكر بعض الآيات التي تحكم بكفر من استهزأ بالقرآن ————— ٥٢٥

جاؤوك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين،^(١) .

ومنهما قوله عز من قائل : «لكن الظالمين بآيات الله يجحدون»،^(٢) .

ومنهما قوله تعالى : «و كذب به قومك وهو الحق» قل لست عليكم بوكيل،^(٣) .

ومنهما قوله سبحانه : «واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره»،^(٤) .

ومنهما قوله تبارك وتعالى : «ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون»،^(٥) .

ومنهما قوله جل اسمه : «واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين»،^(٦) .

ومنهما قوله عز وجل : «ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزون»،^(٧) .

ومنهما قوله جل وعلا : «واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله»،^(٨) .

ومنهما قوله سبحانه وتعالى : «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون»،^(٩) .

ومنهما قوله عز من قائل : «تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق

(١) الانعام : ٢٥ .

(٢) الانعام : ٣٣ .

(٣) الانعام : ٦٦ .

(٤) الانعام : ٦٨ .

(٥) الاعراف : ٩ .

(٦) الانفال : ٣١ .

(٧) التوبة : ٦٥ .

(٨) يونس : ١٥ .

(٩) يونس : ١٧ .

ولكن "أكثر الناس لا يؤمنون" (١).

ومنها قوله تعالى: «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين» (٢).

ومنها قوله سبحانه: «إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولاهم عذاب أليم» (٣).

ومنها قوله تبارك وتعالى: «إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً» (٤).

ومنها قوله جلّ اسمه: «وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً إنما لمبعوثون خلقاً جديداً» (٥).

ومنها قوله عزّ وجلّ: «ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً» (٦).

ومنها قوله جلّ وعلا: «اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً * ذلك جزاءهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً» (٧).

ومنها قوله عزّ من قائل: «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً» (٨).

ومنها قوله تعالى: «أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولداً» (٩).

ومنها قوله سبحانه: «من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً *

(١) الرعد : ١ .

(٢) النحل : ٢٤ .

(٣) النحل : ١٠٤ .

(٤) الاسراء : ٤٧ .

(٥) الاسراء : ٤٩ .

(٦) الكهف : ٥٦ .

(٧) الكهف : ١٠٥ و ١٠٦ .

(٨) مريم : ٧٣ .

(٩) مريم : ٧٧ .

خالدين فيها وساء لهم يوم القيامة حملاً»^(١).

وغير هذه الآيات ٣٥ آية أخرى .

وأما الآيات التي تبشّر المؤمنين ونصفهم :

فمنها قوله تبارك وتعالى : « وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار »^(٢).

وفي القرآن من الآيات التي تبشّر المؤمنين ونصفهم ٢٧٠ آية موزعة على سور القرآن .

وأما الآيات التي ترغّب في الاسلام واتباعه حتى الموت فهي كثيرة :

فمنها قوله جلّ اسمه : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »^(٣).

فمن أسلم وجهه لله فليس عليه خوف في الآخرة وإن أخيف في الدنيا ومنعت حرّيته وحقوقه .

وفي القرآن من هذا القبيل ٢٣ آية .

وأما الآيات التي تحتّ على الاعتصام بالله والتوكّل عليه فإنّ في القرآن منها ٣٢ آية .

فمنها في سورة الفاتحة يقرأها المصلّي في كل يوم وليلة عشر مرات على الأقل وهي قوله عزّ وجلّ : « إيتاك نعبد وإيتاك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين »^(٤).

أما المسلم الذي لا يصلي فقد سمعها من المصلّين مراراً عديدة .

(١) طه : ١٠٠ و ١٠١ .

(٢) البقرة : ٢٥ .

(٣) البقرة : ١١٢ .

(٤) الفاتحة : ٥ - ٧ .

وأما الآيات التي تمدح الاتحاد وتذمّ الفرقة:

فمنها قوله جلّ وعلا: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» وإذا كروا
نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم
على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم
تهتدون» (١).

وفي القرآن آيات أخرى غير هذه الآية المباركة .



هذا ما وصل إلينا من قلمه الشريف

وقد ذكر بعض أصحابه الكرام كما جاء في المقدمة

بأنّ هذا الكتاب يحتوي على سبعة أجزاء ، طبع منها ثلاثة

أجزاء وسرق العفالة اللئام الأجزاء الأربعة الأخرى في هجومهم الهمجي على منزل

السيد الشهيد رضوان الله تعالى عليه ، ولا يخفى أنّ مؤسستنا قد

قامت بطبع الأجزاء الثلاثة المذكورة في جزئين ،

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً

فهرس الاحاديث

- أ -

- | | | |
|-----|---|---------------|
| ٤٤٠ | : الائمة من ولدي ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله | النبي |
| ٣٠٩ | : ابايحك على أن لا نشر كي بالله شيئاً | النبي |
| ٢٩٠ | : ابايحكم على الاسلام .. | النبي |
| ٣٠٧ | : ابايحكن على أن لا نشر كن بالله شيئاً | النبي |
| ٣٩٢ | : ابدأوا بما بدأ الله به | النبي |
| ٣٩٥ | : أتى رجل النبي ﷺ فسأله عن ثواب الوضوء والصلاة | الباقر |
| ٣٢١ | : الاثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر | النبي |
| ٣٢١ | : الاثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس | النبي |
| ٤٤١ | : اثنا عشر كعدة نقباء بني اسرائيل | النبي |
| ١١٢ | : احذروا ناراً قعرها بعيد وحرها شديد وعذابها جديد | أمير المؤمنين |
| ٤٢٩ | : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً يكونوا شهداء عليكم | النبي |
| ٣٦٤ | : آخر فريضة أنزلها الله الولاية ثم لم ينزل بعدها فريضة | الباقر |
| ٣٦٥ | : آخر فريضة أنزلها الله الولاية «اليوم أكملت لكم دينكم» | الباقر |

٣٥٨	: ادعوا لي سيد العرب	النبي
٣٤٤	: اذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة	الصادق
٢٦١	: اذا خلوت في بيتك نهائراً أو ليلاً أليس تصلي؟	الصادق
٣٤٤	: اذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة	النبي
٣٨٦	: اذا روي لكم عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله	النبي
١٠٥	: اذا سلم عليك اليهودي والنصراني والمشرک فقل عليك	الصادق
٤٢٨	: اذا كان الليل احضروا دار عبدالمطلب على العقبة	النبي
١٢	: اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله ...	الصادق
٢٦٢	: أربع علامات للنفاق : قساوة القلب وجود العين ...	الصادق
٢٦١	: أربع يفسدن القلب وينبتن النفاق في القلب	النبي
٣٩٧	: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى الى هذه المـاجـد	النبي
١١٤	: أشدّ الأشياء غضب الله عزّ وجلّ	عيسى
٣٨٨	: أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على ...	النبي
٨٩	: اشفعوا تؤجروا	النبي
٢٩٦	: أعدل الناس من رضى للناس ما يرضى لنفسه و...	النبي
٣٩٥	: اعلم أنك اذا ضربت يدك في الماء وقلت بسم الله ..	النبي
٤٣٨	: أعيش بعده ثلاثين سنة وتخضب هذه من هذا	أمير المؤمنين
٣٩٤	: افتحوا عيونكم عند الوضوء لعلها لا ترى نار جهنم	النبي
٤٣٢	: أفدني بنفسك	النبي
٩٦	: إفشاء السلام أن لا يبخل بالسلام على أحد من المسلمين	النبي
١٠٤	: أفشوا السلام	النبي
٣٦٧	: أفضل أعياد امتي وهو اليوم الذي أمرني الله ...	النبي
٢٠٣	: أفلا أكون عبداً شكوراً ولم بكيك يا جبرئيل ...	النبي

- النبي : اقتص مني ٢٠٠
- النبي : أفضاكم علي بعدي ١٣
- النبي : اكتب باسمك اللهم فإنه اسم من أسماء الله ٣٠٢
- النبي : ألا أخبركم بأبعدكم مني شيئاً ٢٩٤
- النبي : ألا أدلكم على شيء إن أنتم فعلتموه تحاببتم؟ ٩٥
- النبي : ألا أدلكم على شيء يكفر الله به الخطايا ويزيد في ... ٣٩٦
- النبي : الآن اخرجوا أنا كنت في بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار ٣٤
- النبي : ألا تجلسون فاحدثكم؟ ٤٢٧
- زين العابدين : ألا تدرون بين يدي من أقف؟ ٤٤٣
- أمير المؤمنين : الذين قرأهم الله بنفسه ونبيته ... ٢٢
- النبي : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ٢٨٨
- النبي : أستم أصحابي يوم أحد إذ تصعدون ولا ... ٣٠٢
- النبي : أستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم ... ٣٠٢
- النبي : ألت ولي المؤمنين؟ ٣٦٩
- النبي : الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ٣٦٤ و ٣٧٠ و ٣٧١
- أمير المؤمنين : الله ربي وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب ٣٥٨
- النبي : اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً ١٧٣
- أمير المؤمنين : اللهم أعطني كتابي بيمينتي والخلد في الجنان بيساري ٣٩٤
- النبي : اللهم إن لكل نبي أهلاً وثقلاً ، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي ٢٠
- زين العابدين : اللهم إني أعوذ بك من نار تغلظت ... ١١٣
- النبي : اللهم إني أعوذ بك وذريتها من الشيطان الرجيم ٤٥٩
- النبي : اللهم بارك لهما في نسلهما ٤٥٨
- أمير المؤمنين : اللهم بيض وجهي يوم تسود فيه الوجوه ... ٣٩٤

- أمير المؤمنين : اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزل فيه الأقدام ٣٩٤
- أمير المؤمنين : اللهم حصن فرجي وأعف عورتي و .. ٣٩٣
- الصادق : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ٤٤٧
- أمير المؤمنين : اللهم غشني برحمتك وبركانك وعفوك ٣٩٤
- أمير المؤمنين : اللهم لا تحرم علي ربح الجنة واجعلني من يشم ريحها ٣٩٣
- أمير المؤمنين : اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري ٣٩٤
- أمير المؤمنين : اللهم لقني حجتى يوم ألقاك وأطلق لسانى بكرك وشكرك ٣٩٣
- النبي : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ٣٧٠
- موسى بن عمران : إلهي ماجزاء من أتم الوضوء من خشيتك ؟ ٣٩٦
- النبي : أما تحزن أما تمرض أما يصيبك البلاء ؟ ١٥٩
- النبي : أما والذي نفسى بيده إنها لكما نزلت ١٥٦
- النبي : امح يا علي واكتب محمد بن عبد الله ٣٠٢
- الصادقين : أمر الله تعالى كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر .. ١١
- أمير المؤمنين : امرس على واحد منهما في إناء على حدة ٣٢٩
- أمير المؤمنين : أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والمذركين والقاسطين ٥٦
- إبراهيم : أما إليك فلا ، حسبى الله ونعم الوكيل ٧٤
- أمير المؤمنين : أما أول حجر وضع على وجه الأرض ... ٤٣٧
- أمير المؤمنين : أما أول شجرة نبتت على الأرض ... ٤٣٧
- أمير المؤمنين : أما أول عين نبتت على وجه الأرض ... ٤٣٧
- الكاظم : أما الخمسة فقابيل الذي قتل هابيل ... ١١٢
- النبي : أما فرسك فلا بد لك منه ، وأما بدنك فبعها ٤٥٨
- النبي : أما في الدنيا فالظهور على من عاداكم ، وأما في ... ٢٩١ و ٤١٧
- النبي : أما ما اشترط لربي فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ٤٢٩

- النبي : أَمَا مَالَهُ عَلَيْكُمْ فَأَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ٢٩٠ و ٤١٦ و ٤٢٨
- النبي : أَمَا مَالِي عَلَيْكُمْ فَتَنْصُرُونِي مِثْلَ نَسَائِكُمْ ... ٢٩٠ و ٤١٦ و ٤٢٨
- الصادق : أَمَا الْمَيِّتَةُ فَإِنَّهُ لَا يَدْنُو مِنْهَا أَحَدٌ وَلَا يَأْكُلُهَا إِلَّا ضَعْفُ بَدَنِهِ ٣٢٥
- النبي : أَمَتِي حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَمَتِي أَخْبَرْتَهُمْ بِهَذَا ... ٣٦٦
- النبي : أَمِنْ عَامِنَا هَذَا وَعِدَّتْكَ ؟ ٣٠١
- الكاظم : أَنَا إِمَامُ الْقُلُوبِ وَأَنْتَ إِمَامُ الْجَسُومِ ٤٥٠
- أمير المؤمنين : أَنَا أَوْلَى قَرِيشٍ بِالْخِلَافَةِ ١٦
- النبي : أَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ تَقْرُوا ٣٠٢
- النبي : أَنَا سَيِّدُ النَّبِيِّينَ وَعَلِيٌّ سَيِّدُ الْوَصِيِّينَ ٤٣٩
- النبي : أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَعَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَرَبِ ٣٥٨
- النبي : أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا ٢١ و ٢٩ و ٣٦٠
- النبي : أَنَا وَعَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَتِسْعَةُ مَنْ وَلَدَ الْحُسَيْنِ ٤٣٩
- النبي : أَنْتَ سَيِّدُ ابْنِ سَيِّدٍ أَخُو سَيِّدٍ ، وَأَنْتَ إِمَامُ ابْنِ إِمَامٍ ... ٤٣٩
- النبي : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ ١٦٧
- الرضا : أَنْ تَعْطِيَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَحِبُّ أَنْ يُعْطَوْكَ مِنْهُ ٧٣
- النبي : انْحَرُوا بِدَنِكُمْ وَاحْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ ٣٠٣
- النبي : انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا وَمَظْلُومًا ٣٢٢
- الرضا : انْظُرْ كَيْفَ أَنَا عِنْدَكَ ٧٣
- الرضا : أَنْ لَا تَخْفَ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ٧٢
- أمير المؤمنين : أَنْ لَا يَعْرِفَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ وَفَرْضِ وَلَايَتِهِ وَجَعَلَ حُجَّتَهُ ٢٢
- النبي : إِنْ لَمْ تَقْبَلُوا الصَّلَاحَ فَحَارِبُوهُمْ ٤٤٥
- زين العابدين : إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ إِذَا وَهَبْنَا شَيْئًا لَا نَسْتَعِيدُهُ ٣٠١
- الصادق : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَضِيفُ الضَّيْفَانَ وَيَطْعَمُ الْمَسَاكِينَ ... ١٦٨

الصادق	: إن إبراهيم هبط عليه الكباش من نير	٣٢٨
الصادق	: إن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم ...	٢٩٧
النبي	: إن أعجز الناس من عجز من الدماء وإن أبخل الناس ...	١٠١
النبي	: إن الله أمرني أن أزوجه فاطمة على أربع مائة مثقال	٤٥٨
الصادق	: إن الله تبارك وتعالى آلى على نفسه أن لا يسكن جنته ...	٤٧٤
الباقر	: إن الله تبارك وتعالى أهبط ظلاماً من الملائكة على آدم ...	٢٨٣
الصادق	: إن الله تبارك وتعالى لم يحرم ذلك على عباده ...	٣٢٥
النبي	: إن الله جل جلاله أوحى إلى الدنيا أن أتبعني من ...	١٩٧
النبي	: إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذيء قليل الحياء	٢٩٣
الرضا	: إن الله حرم لحم أولاد الحسنين على السباع	٤٥٢
النبي	: إن الله فتح هذا الدين بعلي وإذا قتل فسد الدين	٤٤٠
النبي	: إن الله قد وعدني ولن يخلفني	٣٠١
الباقر	: إننا نحن نتوارث الكمال والتمام اللذين أنزلهما الله	٣٥٧
أمير المؤمنين	: إن حجة المهاجرين على الأنصار أن الخلافة في ...	١٧
النبي	: إن داود عليه السلام قال فيما خاطب ربه ...	٣١٩
الصادق	: إن الرجل ليعبد الله أربعين سنة ما يعطيه في الوضوء ...	٣٨٩
الجواد	: إن رسول الله ﷺ عقدها عليهم لعلي بالخلافة	٣١٠
الصادق	: إن رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ...	١٩
أمير المؤمنين	: إن سليمان بن داود عليه السلام غضب على الهدد	٣٦١
النبي	: إن سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة	٤٢٣
الصادق	: إن الصراط أمير المؤمنين علي عليه السلام	٢٧٠
الصادق	: إن الصورة الانسانية هي الطريق المستقيم إلى كل خير	٢٧٠
الباقر	: إن الفريضة كانت تنزل ثم تنزل الفريضة الاخرى ...	٣٦٦
النبي	: إن في أممي المهدي يخرج ...	٤٦٠

- النبي : إن في الجنة غرماً يرى ظاهرها من باطنها ١٠٦ و ٩٦
- الصادق : إن في كتاب علي صلوات الله عليه: إنما مثل الدنيا... ١٩٦
- الكاظم : إن القرآن له ظاهر وباطن ، فجميع ما حرم الله تعالى... ٢٩٣
- النبي : إن قوماً دخلوا يريدون أمراً لا ينالونه فليقوموا... ٣٤
- النبي : إنك إلى خير ولكن هؤلاء أهلي وثقلي ٢٠
- زين العابدين : إنك كتبت للمحجاج سرّاً في حقنا ٤٤٤
- النبي : إنما أنا بشر مثلكم تختصمون إلي ٣٨
- النبي : إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلي ١٤٦ و ١٣٨
- الصادق : إن مدمن الخمر كعابد وثن ويورثه ارتعاشاً ٣٢٥
- زين العابدين : إن المنافق ينهي ولا ينتهي ، ويأمر بما لا يأتي ٢٦٢
- النبي : إن من شرّ عباد الله من تكره مجالسته لفحشه ٢٩٣
- أمير المؤمنين : إن النبي ﷺ سأل ربه سبحانه ليلة المعراج ... ٧٤
- أمير المؤمنين : إن هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاد للعلم ٣٧٤
- أمير المؤمنين : إنّه نوضاً ومسح على قدميه ونعليه ٣٨٩
- النبي : إنّه لا بدّ للعرس من وليمة ٤٥٧
- النبي : إنّه لم يكن نبيّ من الأنبياء ممن له قبلي ... ٣٦٧
- الصادق : إنّه مظلّم يسعى الناس عليه على قدر أنوارهم ٢٧٠
- الصادق : إنّه معرفة الامام ٢٧٠
- النبي : إنهم لن يخرجوكم من باب هدى ... ٢٠
- الصادق : إنّه يأتي على الرجل ستون وسبعون سنة ... ٣٨٩
- النبي : إنني تارك فيكم الثقابين : كتاب الله وعترتي ... ٦٧ و ٦٤ و ٥٢
- النبي : إنني تارك فيكم ما إن تمسكتم لن تضلّوا بعدي ... ٣٥٨
- النبي : إنني لا أخاف على امتي مؤمناً ولا مشركاً ... ٢٦٣

النبي	: إنني لم آت لحرب وإنما جئت لأقضي نسكي	٣٠٠
النبي	: إنني مخلف فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا... ١٧ و ١٨ و ٢٦٨	
الصادق	: أوحى الله الى موسى بن عمران: يا موسى قل...	١١٦
الصادق	: أوحى الله تعالى الى داود: ما اعتصم بي عبد...	٧٣
النبي	: اوصيكم بكتاب الله عز وجل وأهل بيتي	١٩
النبي	: أول ما يمسه الماء يتباعد الشيطان، وإذا تمضمض نور...	٣٩٥
الصادق	: أول من سبق من الرسل الى « بلى » محمد ﷺ	٢٨٣
الصادق	: أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله عز وجل أقبل الله...	٧٣
النبي	: أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فاتها نعمة...	١٩٩
النبي	: أيما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة	١٩٩
أمير المؤمنين	: أيها الناس إن رسول الله ﷺ أسر إلي ألف حديث... ٣٦٢	
النبي	: أيها الناس إنني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا... ٩٣	
النبي	: أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته	٨٠
النبي	: أيها الناس من لقي الله عز وجل يشهد أن لا إله إلا الله...	٤٠٨
النبي	: أيها الناس يوشك أن اقبض قبضاً سريعاً فينطلق...	٣٥٩

- ب -

النبي	: بارك الله لكما وبارك فيكما وأعز جدكما...	٤٥٨
أمير المؤمنين	: بمس الشيخ أنت	٣٢١
الصادق	: بالتسليم لله في كل ماورد عليه	٣٠٦
عيسى	: بأن لا تغضبوا	١١٤
النبي	: بايعوني على أن لا تشرخوا بالله شيئاً ولا تسرقوا	٣٠٩
النبي	: البر حسن الخلق والائتم ما حاك في نفسك	٣١٩

- الباقر : البر " وصدقة الشر " ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ١٤٨
- أمير المؤمنين : بسم الله الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجساً ٣٩٣
- أمير المؤمنين : بعد كتاب الله تسألني ، قال الله ... ٣٨٧
- النبي : بعدي اثنا عشر خليفة ٤٣٩
- النبي : بل آمنوا بالله ورسوله محمد و كتابه القرآن ٢٤٣
- النبي : بل الدم الدم والهدم الهدم احارب من حاربتم ٤٢٨ و ٢٩١
- الباقر : بل هي على الخفض ٣٨٩
- أمير المؤمنين : بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلو والتمسك والشبهة ٢٥٢
- الصادق : بينا أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم جالسا مع ابن الحنفية ... ٣٩٣

- ت -

- الباقر : تأخذ مال هذا فتعطيه هذا وتفرق بين المرء وزوجه! ١٣
- الرضا : تجديد الوضوء لصلاة العشاء يمحو ... ٣٩٤
- النبي : تخلقوا بأخلاق الله ١٧١
- النبي : تقابل الناكثين والقاسطين بالطرقات والنهرانات ... ٥٦
- النبي : تكفه عن الظلم ٣٢٢
- النبي : تكلم النار يوم القيامة ثلاثاً : أميراً وقارئاً وذا ثروة ... ١١٢
- النبي : تملكون العرب وتدين لكم المعجم في الدنيا ٤٣٣
- النبي : تمنعوني وتجيروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي ... ٤٢٩
- النبي : تمنعوني وتكونون لي جاراً حتى أتلو عليكم كتاب ربي ٤٢٩

- ث -

- النبي : ثلاث من كن فيه كان منافقاً وإن صام وصلى ٢٦٢

- ج -

المجتبى	: جاء نفر من اليهود الى رسول الله ﷺ فسأله أعلمهم...	٣٩٥
الباقر	: جمع مهر بن الخطاب أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم ...	٣٨٨
النبي	: جهاد النفس	٤٥

- ح -

النبي	: حربك يا علي حربي وسلمك سلمى	١٢٠
الرضا	: حرم الطحال لما فيه من الدم	٣٢٨
إبراهيم	: حسبي من سؤالي علمه بحالي	٧٤
أمير المؤمنين	: الحقب مائة سنة والسنة اثنا عشر شهراً والشهر ...	١٠٩
أمير المؤمنين	: حق على الامام أن يحكم بما أنزل الله وأن يؤدي الأمانة	١١

- ذ -

آدم	: ذراً كثيراً على شفير الوادي	٢٨٣
الصادقين	: ذكاة الجنين ذكاة أمه	٣١١

- ر -

الصادق	: رأس كل خطيئة حب الدنيا	١٩٣
النبي	: رجل من أصحابي أصاب رجلين معهما أمان مني ...	٤١٢
النبي	: رحم الله المحلفين الذين لم يسوقوا الهدى	٣٠٤
النبي	: رحم الله المقصرين	٣٠٤

- س -

أمير المؤمنين	: سبق الكتاب الخفين ، إنما نزلت المائدة قبل أن ...	٣٨٨
---------------	--	-----

- النبي : السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم ٢٩٦ و ٢٠٩
- أمير المؤمنين : سلوني عن أسرار الغيوب فإني وارث علوم الأنبياء والمرسلين ٣٦١
- أمير المؤمنين : سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت ... ٣٧٤
- أمير المؤمنين : سلوني قبل أن تفقدوني ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٥١٤
- النبي : سو بين الخصمين في لحظك ولفظك ١٣

- ش -

- النبي : شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده ٢٠٢
- النبي : شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان بأن محمد رسول الله ٢٢

- ص -

- أمير المؤمنين : صدق الله ورسوله ذلك ٣٠٣
- الصادق : الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ٢٧٠
- أمير المؤمنين : الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلو ... ٢٦٩

- ط -

- العسكري : طب نفساً بقضائه إن شاء الله تعالى ٤٥٥
- الصادق : الطحال لأنه دم ٣٢٨

- ع -

- النبي : عامل وجهاً واحداً يكفيك كل الوجوه ١٧٩
- الصادق : العدل بعد الجور ٢٩٦
- النبي : العدل حسن ولكن في الامراء أحسن ٢٩٦
- أمير المؤمنين : العدل يضع الأمور مواضعها ، والجور يخرجها عن وجهتها ٢٩٥
- أمير المؤمنين : علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم ٢٩ و ٤٨٧ و ٥١٤

الرضا	: علة الوضوء التي صار من أجلها غسل الوجه والذراعين...	٣٩٦
أمير المؤمنين	: العلماء باقون ما بقي الدهر	٣٧٤
أمير المؤمنين	: العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال	٣٧٤
النبي	: علي باب علمي ومبين لآمتي ما أرسلت به من بعدي	٣٦٣
النبي	: علي مني بمنزلة راسي من بدني	٣٥٩
النبي	: علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي	٣٥٩
النبي	: عمدت الى أهل بيت حسب ونسب رميتهم بالسرق !	١٢٤

- ف -

النبي	: الفاحش المتهفحش البذيء، البخيل المختال الحقود الحسود	٢٩٤
أمير المؤمنين	: فرفض الدنيا ، حب الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل ...	١٩٦
الصادق	: فإن هذا في أولياء أئمة الجور ادعوا أن الله أمرهم ...	٢٩٤
النبي	: فجمع الله شملهما وطيب نسلهما	٤٥٨
الباقر	: فرض الله عز وجل على العباد خمسا	٣٦٦
الباقر	: الفريضة تنزل بعد الفريضة الاخرى	٣٦٥
الباقر	: فقبلوا من رسول الله ﷺ كلما أمرهم الله من الفرائض	٣٧٢
الباقر	: فكيف تقضي بغير قضاء علي وقد بلغك هذا ؟	١٣
الصادق	: فما هذه الفاحشة التي يدعون أن الله أمرهم بها؟	٢٩٤
آدم	: فمن أطاعك منهم يارب فما جزاؤه ؟	٢٨٣
آدم	: فمن عصاك فما جزاءه ؟	٢٨٣
الصادق	: فهل رأيت أحدا زعم أن الله أمره بالزنا وشرب الخمر...؟	٢٩٤
أمير المؤمنين	: فهو خائض عشوات ركب شبهات خبطات جهالات	١٢٦
الصادق	: في ماناجي الله به موسى عليه السلام : يا موسى ...	١٩٦

النبي : في نزلت وفيهم نزلت ، ولهم عمت وإيتاهم خصت و... ٤٦١

- ق -

- أمير المؤمنين : قبل المائدة أو بعد المائدة ؟ ٣٨٨
- النبي : قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا ٢٨٨
- النبي : قد أبدلنا الله تعالى بخير من ذلك تحية أهل الجنة ٩٥
- النبي : قد اتخذ الله صاحبكم خالياً ١٦٨
- النبي : قسمت الحكمة عشرة أجزاء فاعطي علي تسعة أجزاء ٣٦١
- الصادق : القضاة أربعة ثلاثة في النار وواحد في الجنة ١٣
- النبي : قل ربي الله ثم استقم ٣٥٨
- النبي : قل ينزله الله تعالى ٣٧٠
- النبي : قم إليها فاقتلها ٥٩

- ك -

- الصادق : كان سبب نزول هذه السورة وهذا الفتح العظيم ... ٢٩٩
- أمير المؤمنين : كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً ٢٧٤
- الصادق : كان الميثاق مأخوذاً عليهم لله بالربوبية ولرسوله بالنبوة ٢٨٤
- الباقر : كانوا يذبحون لبيوت النيران وقريش كانوا يعبدون الشجر ٣٤٠
- عيسى : الكبر والتجبر ومحقرة الناس ١١٤
- أمير المؤمنين : كذبت بالكع آتني بتورين من ماء آتاك بخلاف ما بينهما ٣٢٩
- الصادق : كشف لها عن الغطاء ٣٠٦
- النبي : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقيت ٩٣
- الصادق : الكفر في كتاب الله على خمسة وجوه ٢٥٠
- النبي : كلهم من بني هاشم ٤٤٠
- النبي : كلهم يجتمع عليه الأمة ٤٤١

إبراهيم : كلوا على شرط أن تسموا الله في أولد وتحمده في آخره ١٧٢

- ل -

- الباقر : لا أنزل بعد هذه فريضة ، قد اكملت لكم الفرائض ٣٦٥
- النبي : لا تأكل الشريطة فإنها ذبيحة الشيطان ٢٣٩
- أمير المؤمنين : لا تأكلوا الطحال فإنه بيت الدم الفاسد ٣٢٨
- النبي : لا تبدأوا أهل الكتاب بالسلام فإن سلموا عليكم ... ١٠٤
- النبي : لا تدع الى طعامك أحداً حتى يسلم ١٠١
- النبي : لا تذهب الدنيا حتى يقوم بأمتي رجل من ولد الحسين ٤٣٩
- النبي : لا تذهب الدنيا ولا تنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي ٤٥٩
- النبي : لا تعجل حتى آتيك ٤٥٩
- النبي : لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم ٢٠
- الباقر : لا تقم الى الصلاة متكسلاً ولا متناعساً ولا متناقلاً ٢٦١
- النبي : لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الانس ٢٣٧
- النبي : لا طاعة في معصية الله ٢٤
- النبي : لا غفر الله لك ١٢١
- النبي : لا ، لم يأذن الله لي بذلك ٤٣٤
- الصادق : لأنه موضع الماء الدافق من كل ذكر وانثى وهو المنخ ٣٢٩
- الصادق : لأنه يفصل ما أمر الله بمسحه ٣٨٩
- النبي : لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً ٤٤١
- النبي : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ... ٤٣٩
- الصادق : لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً ١١٦
- مجهول : لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق ... ٢٤٩

- العسكري : لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض ١٩٣
- الصادق : لا يؤكل من الشاة عشرة أشياء : الفرث والدم ... ٣٢٨
- النبي : لزوال الدنيا أيسر على الله من قتل المؤمن ١١٦
- النبي : لعن الله المحلل والمحلل له ١١٥
- النبي : لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر ٣١٦
- النبي : لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها ٢٠٠
- إبراهيم : لك مالي كله ١٧٢
- لقمان : للمنافق ثلاث علامات: .. ٢٦١
- النبي : لم أؤمر بذلك ولم يأذن الله لي في محاربتهم ٤٣٠
- أمير المؤمنين : لم لا تقول أسألك عن سبع؟ ٤٣٦
- الباقر : لما انصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع نزل أرضاً... ٣٧٢
- النبي : لما أن وسوس الشيطان إلى آدم عليه السلام ودنا آدم إلى ... ٣٩٥
- النبي : لما صرت بين يدي ربي كلمني وناجاني ٣٦١
- العسكري : لما كلم الله عز وجل موسى عليه السلام قال : إلهي ما جزاء ... ٣٩٦
- الصادق : لما نزل رسول الله عرفات يوم الجمعة أتاه جبرئيل ٣٦٥
- أمير المؤمنين : لهذه الأمة بعد نبينا اثنا عشر إماماً ٤٣٧
- النبي : لو أن أهل السماوات السبع وأهل الأرضين ... ١١٧ و ١١٦
- الصادق : لو أن قوماً عبدوا الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ... ٣٦
- الصادق : لو أن قوماً عبدوا الله ووحّدوه ثم قالوا لشيء ... ٣٠٥
- الصادق : لو أن هذه الكلمة قالها أهل المشرق وأهل المغرب ... ٢٤٨
- الرضا : لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك ٤٥١
- أمير المؤمنين : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً ٣٦٠
- النبي : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك حتى ... ٤٥٩

- النبي : لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله فيه رجلاً من عترتي ٤٥٩
- النبي : ليس منا من خان بالآمانة ٤٧٤
- النبي : ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً ٣٥٩

- م -

- الصادق : ما أخلقك أن تمرض سنة ٣١٤
- أمير المؤمنين : ما أدري غير أنه قال لي مرحباً وأهلاً ٤٥٧
- النبي : المائدة من آخر القرآن تنزيلاً فأحلوا حلالها ... ٢٥٧
- النبي : ما أضجعتك هنا ؟ ٥٩
- أمير المؤمنين : ما أمحو اسمك من النبوة أبداً ٣٠٢
- الباقر : ما بعث الله نبياً من لدن آدم وهلمّ جراً إلا ... ٢٨٤
- أمير المؤمنين : مات خزان الأموال وهم أحياء ٣٧٤
- العسكري : ما نزل وأنت صغير لا ذنب لك ... ٤٥٦
- أمير المؤمنين : ما تقولون في المسح على الخفين ... ٣٨٨
- النبي : ما جئت لحرب وإنما جئت لأقضي نسكي ٣٠٠
- النبي : ما حاجة ابن أبي طالب ؟ ٤٥٧
- النبي : ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا ... ٤٤٧
- الجواد : ماذا تقول في رجل نظر الى امرأة أول النهار حرام ... ٤٥٤
- الباقر : « ما ظهر » هو الزنا « وما بطن » المخالعة ... ٢٩٢
- مجهول : ما من قلب إلا له اذنان ، على أحدهما ملك مرشد ٢٤٩
- النبي : ما من وال يلى شيئاً من امور الناس إلا أتى به يوم ... ٢٠١
- زين العابدين : ما يسرني بنصيب من الذل من النعم ٤٤٥
- النبي : مثل المنافق مثل جذع النخل أراد صاحبه أن ينتفع به ... ٢٦٢

- أمير المؤمنين : محبة العالم دين يدان تكسبه الطاعة في حياته ٣٧٤
- النبي : المرء مع من أحب ٤٩
- النبي : مرحباً بقوم قضاوا الجهاد الأصغر ... ٤٥
- النبي : المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ١٠٤
- النبي : معاشر الناس ألا وإني منذر وعلي هاد ٤٦٢
- النبي : معاشر الناس إن الله قد أمرني ونهائي ... ٤٦١
- النبي : معاشر الناس إني نبي وعلي وصي ٤٦٢
- النبي : معاشر الناس عدونا من ذمه الله ولعنه ٤٦٢
- النبي : من أحب أن يركب سفينة النجاة ... ٤٤٠
- النبي : من أحب دنياه أضرب بأخرته ١٩٧
- النبي : من أحب قوماً حشره الله معهم ٤٩
- الصادق : من أدر عن مؤمن درهماً أو حبس عنه شيئاً ... ٤٧٤
- النبي : من أسبغ وضوءه وأحسن صلاته وأدى زكاته ... ٣٩٧
- النبي : من أصبح لايهتم بامور المسلمين فليس منهم ٥١٢
- الصادق : من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه ... ١٩٣
- النبي : من أطاعك أطاعني ومن عصاك عصاني ٣
- النبي : من أعان ظالماً يبطل ليدحض به حقاً .. ٣١٩
- النبي : من أعلن على خصومة بغير حق كان في سخط الله ٣١٩
- النبي : من أولى منكم بأنفسكم ؟ ٣٧٢
- أمير المؤمنين : من أين أقبلت يا العين ؟ ٣٢١
- النبي : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا يجيبوه ١٠١
- الصادق : من تطهر ثم أوى الى فراشه بات وفراشه كمسجده ٣٩٧
- الصادق : من توضأ فذكر اسم الله طهر جميع جسده ٣٩٣

الكاذم	: من توضأ للمغرب كان وضوءه ذلك كفارة لما مضى	٣٩٤
النبي	: من جاءكم من رجالنا فلاحاجة لنا فيه	٣٠١
الصادق	: من جدد وضوءه لغير صلاة جدد الله توبته	٣٩٤
الصادق	: من خالف كتاب الله وسنة محمد ﷺ فقد كفر	١٢
النبي	: من خان أمانة في الدنيا ولم يردّها الى أهلها ...	٤٧٤
أمير المؤمنين	: من ذكر الله عز وجل في السر فقد ذكر الله كثيراً	٢٦٢
الصادق	: من ذكر الله على وضوءه فكأنما اغتسل	٣٩٣
النبي	: من زوج كريمته بفاسق نزل عليه كل يوم ألف لعنة	٣٤٥
النبي	: من سن سنة حسنة كان له أجرها	٥٢١
النبي	: من سن سنة سيئة كان له أجرها	٥٢١
الصادق	: من صلى خمس صلوات في اليوم والليلة في جماعة ...	٢٩٧
النبي	: من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم ...	٢٩٦ و ٢٠٩
الباقر	: من عظم الساق ، والكعب أسفل من ذلك	٣٨٤
النبي	: من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله حقن ماله ودمه وعرضه	١٢١
الباقر	: من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله عز وجل على قاتله ...	١١٦
الباقر	: من قرأ على أثر وضوءه آية الكرسي مرة ...	٣٩٨
الصادق	: من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشد إحسرته عند فراقها	١٩٣
النبي	: من كنت مولاه فعلي مولاه ...	١٩ و ٣٦٤ و ٣٦٧ و ٣٦٩ و ٣٧٢
النبي	: من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية	٢٢
النبي	: من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية	٢٦٩
النبي	: من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم ...	٣١٩
النبي	: يحل بآمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم	٤٦٠
النبي	: يمكث فيكم سبعاً أو ثمانياً فإن أكثر فتسماً	٤٦٠

- النبي : يملك فيكم سبع سنين ٤٦٠
 الصادق : المؤمن مؤمنان مؤمن وفي لله بشرطه التي اشترطها .. ٤٨
 النبي : المهدي منّا أهل البيت يصلحه الله في ليلة ٤٦٠
 النبي : المهدي منّا يختم الدين بنا كما فتح بنا ٤٦٠

- ن -

- أمير المؤمنين : الناس ثلاثة : عالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة و... ٣٧٤
 الصادق : نحن الصراط المستقيم ٢٢٠
 النبي : نزلت في علي بن أبي طالب أنه ينتقم من الناكثين و... ٥٧
 الصادق : نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام ١٩
 أمير المؤمنين : نزلت المائدة قبل أن يقبض النبي صلى الله عليه وآله بشهرين أو ثلاثة ٢٧٤
 الصادق : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ٢٥٠
 أمير المؤمنين : نسخ ذلك بهذه الآية ٣٩٢
 الباقر : نعم اذا بالغت فيهما ، والمثنتان تأنيان على ذلك كله ٣٨٤
 الصادق : نعم أرايت لو أن رجلاً أخذ لبننة فكسرها ثم ردّها ... ٦
 النبي : نعم حرصاً على الدنيا وجمعها من غير حلّها ورضي بها ... ٤٠٨
 النبي : نعم يلعن آباء الرجال وأمهاتهم فيلعنون أبويه ١١٥

- ه -

- أمير المؤمنين : هذا خلاف ما بينهما ، هذا لحم وهذا دم ٣٢٩
 العسكري : هذا عظم نبي ظفر به هذا الراهب من بعض القبور ٤٥٦
 النبي : هذا علي فأحبّوه بحبّي وأكرموا بكرامتي ٣٥٨
 النبي : هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان ٣٥٩
 الكاظم : هذا فتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على الناس ٤٤٩

الصادق	: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به	٣٩٢
النبي	: هم قوم هذا (يعني عجم الفرس)	١٨٩
الصادق	: هو التسليم في الامور	٣٠٥
الباقر	: هو الذي نزل به جبرئيل	٣٨٩
الجواد	: هي أمة نظرها أجنبي بشهوة وهي حرام ...	٤٥٤

- و -

النبي	: واد في جهنم ، أكثر أهليه معادوك والقاتلون ...	٢٩٥
الصادق	: واعلم أن كل فتنة بدؤها حب الدنيا و...	١٩٦
أمير المؤمنين	: واعلموا عباد الله أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر ...	١١٣
النبي	: والذي نفس محمد بيده لو أن قطرة من الزقوم قطرات ...	١١٢
النبي	: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه ...	٣٧
النبي	: والذي نفسي بيده لا يؤمنن عبد حتى أكون أحب ..	٥١
أمير المؤمنين	: والذي يسكن معه في الجنة هؤلاء الأئمة الاثنا عشر	٤٣٨
الصادق	: والله لو آمنوا بالله وحده وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ...	٣٠٥
الباقر	: والله ليست لي ولا لهما ...	٤٤٧
أمير المؤمنين	: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم انزلت ...	٣٥٩
الصادق	: وأما الخمر فإنه حرمها لفعلها وفسادها	٣٢٥
الصادق	: وأما الدم فإنه يورث الكلب وقسوة القلب	٣٢٥
الصادق	: وأما لحم الخنزير فإن الله مسح قوماً في صور شتى	٣٢٥
أمير المؤمنين	: وأن بولايتي أكمل الله لهذه الأمة دينهم وأتم عليهم ...	٣٦٨
إبراهيم	: وأي نصيب لك وهو قربان لربي وفداء لابني ؟	٣٢٨
الباقر	: الوجه الذي أمر الله بغسله ... مادارت الوسطى والابهام	٣٨٧

٥٤٩	فهرس الأحاديث
٣٦٦	البافر : وكانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الاخرى ...
٢٨٣	آدم : وكيف وسعهم ظهري؟
٤٠١	الصادق : وليكن من قولكم اذا التقيتم أن تقولوا ...
٣٠٨	النبي : ولا تأتين بيهتان
٣٠٨	النبي : ولا تزني
٣٠٨	النبي : ولا تسرقن
٣٠٨	النبي : ولا تقتلن أولادكن
٣٨٣	البافر : ولا يدخل أصابعه تحت الشراك
٣٠٨	النبي : ولا يعصينك في معروف
٧٢	النبي : وما التوكل على الله عز وجل؟
٣٦٤	الصادقين : وهو آخر فريضة أنزلها الله تعالى ثم لم ينزل بعدها فريضة
٢٩١	النبي : ووالديك فأطعهما وبرهما حين كانا أو ميتين
٣٠١	النبي : ويح قريش قد نهكتهم الحرب ، ألا خلّوا بيني وبين ...
٦	الصادق : ويحك هي هي وهي غيرها

- ي -

٥٩	النبي : ياأبا رافع سيكون بعدي قوم يقاتلون علياً ...
٤٧٤	الصادق : ياأبا هارون إن الله آلى على نفسه أن لا يجاوره خائن
١١١	الكاظم : ياإسحاق إن في النار لوادياً يقال له سقر
٤٥٣	الجواد : ياأمر المؤمنين إن الله تعالى خلق في بحر قدرته ..
٤٥٣	الجواد : ياأمر المؤمنين لم يكن بالطريق ضيق فأوسع لك ...
٩٦	النبي : ياأنس أسبغ الوضوء تمر على الصراط مر السحاب
٣٩٧	النبي : ياأنس أكثر من الطهور يزيد الله في عمرك

٩٦	: يا أنس سلم على من لقيت يزيد الله في حسناتك	النبي
١٠٠	: يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ...	النبي
٢٧٧	: يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً ...	النبي
٤٢٤	: يا أيها الناس كيف رغبتم ورضيتم في الدنيا ...	أمير المؤمنين
١٣	: يا بني انظر كيف تحكم فإن هذا حكم والله سائلك عنه	أمير المؤمنين
٧٤	: يا بني ثق بالله عز وجل ثم سل في الناس هل من أحد ...	لقمان
٢٦١	: يا بني لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد عليها	لقمان
٥١	: يا ثوبان ما غير لونك ؟	النبي
٤٤٦	: يا جابر يولد له مولود اسمه علي ، اذا كان يوم القيامة ...	النبي
٢٠٢	: يا جبرئيل صف لي النار	النبي
٣١٩	: يا رب إنك لتعلم أنني احبك واحب من يحبك	داود
٧٤	: يا رب أي الأعمال أفضل ؟	النبي
٢٨٣	: يا رب فما تريد منهم في الميثاق ؟	آدم
٢٨٣	: يا رب لقد عدلت فيهم وايعصينك أكثرهم	آدم
٤٠٨	: يا رسول الله بأبي أنت وأمي كيف يقولها مخلصاً	أمير المؤمنين
٢٩٥	: يا رسول الله وما ويل ؟	أمير المؤمنين
١٠٦	: يا رسول الله ومن يطيق هذا من أمته ؟	أمير المؤمنين
٣٨٤	: يا زارة قاله رسول الله ﷺ وقد نزل به الكتاب من الله	الباقر
٤٥٠	: يا شقيق لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة	الكاظم
٢٠٢	: يا عباس ويا صفية عتي النبي ، ويا فاطمة بنت محمد إني ...	النبي
٢٠٢	: يا عباس يا عم النبي نفسي تحييها خير من ...	النبي
٣٥٩	: يا علي إن الله أمرني أن ادنيك واعلمك لتعي	النبي
٢٩٥	: يا علي إن جبرئيل أخبرني أن أمي تغدر بك ...	النبي
٣٠٣	: يا علي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة ...	النبي

- النبي : يا علي حرم من الشاة سبعة أشياء : الدم والمذاكير ... ٣٢٨
- النبي : يا علي خذ السيف واستقبل قريشاً ٣٠١
- النبي : يا علي لا تحدث شيئاً حتى تلقاني ٤٥٨
- العسكري : يا قليل العقل ما للعب خلقنا ٤٥٥
- أمير المؤمنين : يا محمد ائتنني بإناء فيه ماء أتوضأ للصلاة ٣٩٣
- أمير المؤمنين : يا محمد أخبرهم أنني أكملت لهم دينهم ورضيت لهم ... ٣٦٨
- أمير المؤمنين : يا محمد من توضأ مثل وضوئي وقال مثل قولي خلق الله ... ٣٩٤
- النبي : يا معشر الأنصار ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به ... ٣٥٨
- النبي : يا معشر المسلمين هذا وليكم من بعدي ٣٦٧
- أمير المؤمنين : يا هذا إن الله تبارك وتعالى أمر عباده بالطهارة ... ٣٨٧
- الصادق : يجيء يوم القيامة رجل الى رجل حتى يلطخه بدم ... ١١٧
- الرضا : يحرم الطحال فإنه دم ٣٢٨
- الصادق : يعطيه من نفسه وروحه فإن بخل عليه بنفسه ... ٤٧٤
- النبي : يقتل رجل من المسلمين لا يدري من قتله ! ١١٦
- النبي : يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش ٤٣٨
- النبي : يكون بعدي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش ٤٦٠
- أمير المؤمنين : ينزل محمد ﷺ في جنة عدن وهي وسط الجنان ٤٣٧
- الباقر : يوضع في موضع من جهنم اليه ينتهي شدة عذاب أهلها ١١٥

فهرس المحتويات

بقية مافي سورة النساء

٣	الكلام حول آية ٥٥
٥	الكلام حول آية ٥٦
٧	الكلام حول آية ٥٧
٨	الكلام حول آية ٥٨
١٤	الكلام حول آية ٥٩
١٧	المحصل من الآية
٢٠	يتحقق الايمان بشروط ثلاثة
٢٣	ماقاله الفخر الرازي والزمخشري حول الآية
٢٤	ماقاله ابن كثير والمراغي حول الآية
٢٥	ماقاله سيد قطب حول الآية
٢٦	الشروط التي يلزم أن تتوفر باولي الأمر
٢٧	الكلام حول آية ٦٠
٣١	الكلام حول آية ٦١ و ٦٤

٣٢	مقاله ابن كثير والمرآغى حول آية ٦٤
٣٣	مقاله الطبري حول آية ٦٤
٣٤	مقاله الرازي حول آية ٦٤
٣٥	مقاله سيد قطب حول آية ٦٤
٣٦	الكلام حول آية ٦٥
٣٦	مقاله الشيخ الطبرسي حول الآية
٣٧	مقاله ابن كثير والمرآغى حول الآية
٣٨	مقاله الطبري حول الآية
٣٩	مقاله الشيخ الطوسي حول الآية
٤٠	مقاله سيد قطب حول الآية
٤٢	الكلام حول آية ٦٦
٤٣	الكلام حول آية ٦٧ و ٦٨
٤٤	الكلام حول آية ٦٩
٤٨	مقاله الحويزي وسيد قطب حول الآية
٤٩	مقاله المرآغى حول الآية
٥٠	مقاله الطبري حول الآية
٥٠	الكلام حول آية ٧٠
٥٠	مقاله المرآغى
٥٣	الكلام حول آية ٧٦
٥٣	مقاله الطبري حول الآية
٦٠	مقاله المرآغى حول الآية
٦١	مقاله الفخر الرازي حول الآية
٦٢	مقاله سيد قطب حول الآية

٥٥٥	فهرس المحتويات
٦٤	الكلام حول آية ٨٠
٦٧	ماقاله الفخر الرازي
٦٩	الكلام حول آية ٨١
٧٠	طريق الاحتراز عن كيد الأعداء
٧٥	الكلام حول آية ٨٢
٧٧	ماقاله الفخر الرازي حول الآية
٧٩	الكلام حول آية ٨٣
٨٤	الكلام حول آية ٨٤
٨٥	الكلام حول آية ٨٥
٨٧	ماقاله الطبرسي حول الآية
٨٨	ماقاله الفخر الرازي وابن كثير حول الآية
٨٩	ماقاله سيد قطب حول الآية
٩٠	ماقاله الطبري حول الآية
٩٤	الكلام حول آية ٨٦
٩٦	ماقاله الفخر الرازي حول التحية وفضلها
١٠٢	ماقاله الطبري حول التحية وأثرها
١٠٤	الأصناف التي منع الشرع السلام عليهم
١٠٦	الكلام حول آية ٩٢
١٠٨	الكلام حول آية ٩٣
١٠٨	ذكر بعض الآيات التي وصفت جهنم
١٠٩	ماقاله الفخر الرازي حول الأحقاب
١١٠	أبواب جهنم
١١١	ذكر بعض الأخبار التي وصفت جهنم

١١٨	الكلام حول آية ٩٤
١٢٠	مقاله الطبرسي حول الآية وسبب نزولها
١٢٢	الكلام حول آية ١٠٦
١٢٣	مقاله الشيخ الطوسي حول سبب نزول الآية
١٢٧	مقاله المراغي حول الآية
١٢٨	مقاله سيد قطب حول الآية
١٣٠	الكلام حول آية ١٠٧
١٣١	لمن يخون الخائن ؟
١٣٢	نداء المؤلف للمحامي
١٣٢	مقاله الفخر الرازي حول الآية
١٣٣	مقاله المراغي وسيد قطب حول الآية
١٣٥	الكلام حول آية ١٠٨
١٣٦	مقاله سيد قطب حول الآية
١٣٧	مقاله المراغي حول الآية
١٣٨	الكلام حول آية ١٠٩
١٣٩	الكلام حول آية ١١٠
١٤١	الكلام حول آية ١١١
١٤٢	الكلام حول آية ١١٢
١٤٣	الكلام حول آية ١١٣
١٤٤	مقاله المراغي والفخر الرازي حول الآية
١٤٧	الكلام حول آية ١١٤
١٤٩	الكلام حول آية ١١٥
١٥٠	مقاله الفخر الرازي حول الآية

٥٥٧	فهرس المحتويات
١٥٣	نداء المؤلف لعموم المسلمين
١٥٥	الكلام حول آية ١٢٣
١٥٥	مقاله الفخر الرازي حول الآية
١٥٦	مقاله الطبرسي حول الآية
١٥٧	مقاله المراغي حول الآية
١٥٩	مقاله سيد قطب حول الآية
١٦١	الكلام حول آية ١٢٤
١٦٢	مقاله الطبرسي والمراغي حول الآية
١٦٣	الكلام حول آية ١٢٥
١٦٥	مقاله المراغي حول الآية
١٦٦	مقاله الطبرسي حول الآية
١٦٨	مقاله الفخر الرازي حول الآية
١٧٣	الكلام حول آية ١٢٦
١٧٤	مقاله الطبرسي والفخر الرازي حول الآية
١٧٦	مقاله المراغي حول الآية
١٧٧	الكلام حول آية ١٣١
١٧٩	مقاله الطبرسي حول الآية
١٨٠	مقاله الفخر الرازي حول الآية
١٨٢	مقاله المراغي حول الآية
١٨٣	الكلام حول آية ١٣٢
١٨٤	شروط المحامي
١٨٦	مقاله الطبرسي حول الآية
١٨٧	مقاله الفخر الرازي والمراغي حول الآية

١٨٨	الكلام حول آية ١٣٣
١٨٨	مقاله الطبرسي حول الآية
١٨٩	مقاله الفخر الرازي حول الآية
١٩٠	مقاله المراغي حول الآية
١٩١	الكلام حول آية ١٣٤
١٩٣	ذكر بعض الروايات الدائمة للدنيا وطالبها
١٩٤	ذكر بعض الآيات الدائمة للدنيا
١٩٨	الكلام حول آية ١٣٥
١٩٩	نصيحة الأوزاعي للمنصور
٢٠٣	صفة الامام العادل
٢٠٥	نصيحة العابد للمنصور
٢١٣	مقاله الشيخ الطوسي حول الآية
٢١٦	مقاله الفخر الرازي حول الآية
٢٢٠	مقاله المراغي حول الآية
٢٢٢	مقاله الطبري حول الآية
٢٢٧	مقاله سيد قطب حول الآية
٢٢٨	مقاله العلامة الطباطبائي حول الآية
٢٣٠	مقاله الطنطاوي حول الآية
٢٣٩	الكلام حول آية ١٣٦
٢٤٠	مقاله الفخر الرازي حول الآية
٢٤١	مقاله سيد قطب حول الآية
٢٤٢	مقاله ابن كثير والمراغي حول الآية
٢٤٣	مقاله العلامة الطباطبائي حول الآية

٥٥٩	فهرس المحتويات
٢٤٨	وجوه الايمان
٢٥٠	وجوه الكفر
٢٥٢	بنى الكفر على أربع دعائم
٢٥٤	الكلام حول آية ١٤٤
٢٥٥	مقاله ابن كثير والطبري حول الآية
٢٥٦	الكلام حول آية ١٤٥
٢٥٧	مقاله الفخر الرازي والطبري حول الآية
٢٥٨	مقاله ابن كثير حول الآية
٢٥٩	مقاله السيوطي حول الآية
٢٦٠	ذكر بعض الآيات التي وصفت المنافق
٢٦١	ذكر بعض الروايات التي ذكرت علامات المنافق
٢٦٤	الكلام حول آية ١٤٦
٢٦٥	الكلام حول آية ١٧٤
٢٦٦	الكلام حول آية ١٧٥
٢٦٩	مقاله الفيض الكاشاني حول الصراط
٢٧١	مقاله الفخر الرازي حول الصراط

سورة المائدة

٢٧٤	في النزول وذكر بعض خصائص السورة
٢٧٦	تقسيم الطنطاوي لسورة المائدة
٢٨٠	الكلام حول آية ١
٢٨١	مقاله الشيخ الطوسي حول الآية
٢٨٣	إن الله أخذ العهد والميثاق من عباده في مقامين

- ٢٨٥ ذكر الشروط التي يلزم على الداخل في الاسلام أن يتصف بها
- ٢٩٩ ذكر شيء من غزوة الحديبية
- ٣٠١ ذكر شيء من صلح الحديبية
- ٣٠٦ ذكر الشروط التي أخذها النبي ﷺ على النساء في بيعتهن له
- ٣١٠ مقاله السيد شبر حول الآية
- ٣١٣ الكلام حول آية ٢
- ٣٢٣ مقاله المراغي حول الآية
- ٣٢٤ الكلام حول آية ٣
- ٣٢٦ مقاله الفخر الرازي والطنطاوي حول الآية
- ٣٣٠ مقاله المراغي وسيد قطب حول لحم الخنزير
- ٣٣١ مقاله ابن كثير حول الآية
- ٣٣٢ مقاله الفاضل البيرودي حول الجيفة والدم ولحم الخنزير
- ٣٣٣ مقاله الدكتور عبدالعزيز اسماعيل حول الآية
- ٣٤١ تعريف الفسق
- ٣٤٢ كيفية معاملة الفاسق
- ٣٤٩ ذكر بعض الآيات التي نهانا الله بها عن موالاة الكافرين
- ٣٥٢ ذكر شيء عن آية الاكمال
- ٣٥٨ ذكر بعض الأخبار الدالة على أن علم الكتاب عند علي عليه السلام
- ذكر بعض الأعلام الذين ذكروا أن نزول الآية بعد نصب النبي ﷺ
- ٣٦٣ علياً عليه السلام
- ٣٧٣ ذكر بعض أخبار المقام من طرق العامة
- ٣٧٥ الكلام حول آية ٦
- ٣٧٧ مقاله الفخر الرازي حول الوضوء

٣٧٩	حجة الامامية بوجوب المسح على لسان الرازي
٣٨٠	ماقاله الطبري حول وجوب المسح
٣٨٣	ما نقله العياشي عن الوضوء
٣٨٥	القائلون ببطالان الوضوء لمن مسح على الخف
٣٩٣	ثواب الوضوء وما يقال عنده
٣٩٨	ذكر شيء عن الغسل والتيمم
٣٩٩	الكلام حول آية ٧
٤٠١	ماقاله الشيخ الطوسي حول الآية
٤٠٢	ماقاله الطبرسي حول الآية
٤٠٣	ماقاله السيد شبر والمراغي حول الآية
٤٠٥	الكلام حول آية ٨
٤٠٧	الكلام حول آية ٩
٤١١	الكلام حول آية ١٠
٤١٢	الكلام حول آية ١١
٤١٢	ماقاله الطبرسي في سبب النزول
٤١٦	الكلام حول آية ١٢
٤٢٢	ذكر بعض الآيات التي وصفت الجنة
٤٢٣	ذكر بعض الأخبار التي وصفت الجنة
٤٢٧	كيفية اتخاذ النقباء
٤٣٤	ماقاله ابن كثير حول الآية
٤٣٦	يهودي يسأل أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل سبع
٤٣٨	ذكر بعض الأخبار الدالة على فضل الأئمة عليهم السلام
٤٤٢	الأئمة الاثني عشر في رأي ابن كثير

٤٤٣	مقاله ابن حجر في الأئمة الاثني عشر <small>عليهم السلام</small>
٤٥٧	مقاله ابن حجر في الامام المنتظر <small>عليه السلام</small>
٤٦١	نبذة من خطبة الغدير
٤٦٣	الكلام حول آية ١٣
٤٦٣	مقاله الشيخ الطوسي حول الآية
٤٦٦	مقاله ابن كثير حول الآية
٤٦٧	مقاله المراغي حول الآية
٤٦٩	مقاله الطبرسي حول الآية
٤٧٠	الكلام حول آية ١٤
٤٧٠	ذكر الامور التي أصابت اليهود والنصارى لمناقضوا الميثاق
٤٧٠	قصة البقرة وذبحها
٤٧٥	مقاله الشيخ الطوسي حول الآية
٤٧٨	مقاله الطبرسي حول الآية
٤٧٩	مقاله المراغي حول الآية
٤٨١	مقاله العلامة الطباطبائي حول الآية
٤٨٢	الكلام حول آية ١٥
٤٨٦	الكلام حول آية ١٦
٤٨٧	مقاله المراغي حول الآية
٤٨٨	مقاله الفخر الرازي حول الآية
٤٨٩	الكلام حول آية ١٧
٤٩٠	مقاله المراغي حول الآية
٤٩٢	الكلام حول آية ١٨
٤٩٢	مقاله المراغي حول الآية

٥٦٣	فهرس المحتويات
٤٩٤	الكلام حول آية ١٩
٤٩٤	مقاله المراغي حول الآية
٤٩٧	الكلام حول آية ٢٠ - ٢٦
٤٩٧	مقاله الطنطاوي حول الآيات
٥٠١	الكلام حول آية ٢٧
٥٠١	مناقشة بين الطنطاوي وزميله
٥١٦	ذكر بعض الآيات الآمرة بالايمن بالله
٥١٨	ذكر بعض الآيات الآمرة بالايمن باليوم الآخر وكفر من جحده
٥٢٠	الكلام حول آية ٣٢
٥٢٠	مقاله الشيخ الطوسي حول الآية
٥٢٣	ذكر بعض الآيات التي توجب علينا التذكير بالقرآن
٥٢٣	ذكر بعض الآيات التي تحكم بكفر من استهزأ بالقرآن وجحده
٥٢٧	ذكر بعض الآيات التي ترغّب في الاسلام واتباعه
٥٢٧	ذكر بعض الآيات التي تحث على الاعتصام بالله والتوكّل عليه
٥٢٨	ذكر بعض الآيات التي تمدح الاتحاد وتذمّ التفارقة
٥٢٩	فهرس الأحاديث
٥٥٣	فهرس المحتويات

تصحيح واعتذار

رغم الجهود التي بذلناها في التصحيح لكي يصدر الكتاب خالياً من الأخطاء المطبعية فانا لم نوفق لذلك ، لذا نرجو من القارئ الكريم أن يتفضل بتصحيح الأخطاء المذكورة أدناه قبل البدء بالمطالعة راجين منه السماح ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ص	س	الخطأ	الصواب
١٣	٦	سعيد بن	سعيد بن
١٥	١٩	يفحصوا	يفحصوا
٥٤	١٨	استقدنا	استقدنا
٥٦	١٦	قلدوه	قلدوه
٧٠	١	يبيوته	يبيوته
١١٩	١٢	فلاتأخذوا	فلاتأخذوا
١٢٣	١٩	لتبينن	لتبينن
١٢٨	١٥	سييل	سييل
١٩٧	رأس الصفحة	آية ٢٣٤	آية ١٣٤
٢١١	١٠	والدنيا	والدنيا
٢٢٦	٧	وضفهم	وضفهم
٢٣١	١١	تعدلوا	تعدلوا
٢٩٠	١٩	أما لله	أما لله
٣٠٢	آخر سطر	اصطحوا	اصطالحوا
٣٠٤	١٠	البيعة	البيعة
٣٢٠	١٠	عاديث	عاديث
٣٥٥	١٢	لكم لكم	الثانية زائدة
٣٦٠	١٥	الغزالي	الغزالي
٣٨٣	٩	عليه السلام	عليهم السلام
٤١٨	١٥	جنات	جنات تجري
٤١٩	٢	نمكن	نمكن
٤٢٧	٤	وأخذوا	وأخذوا
٤٣٥	٢٣	لمنذر	المنذر
٤٧٠	١	ينبثم	ينبثم